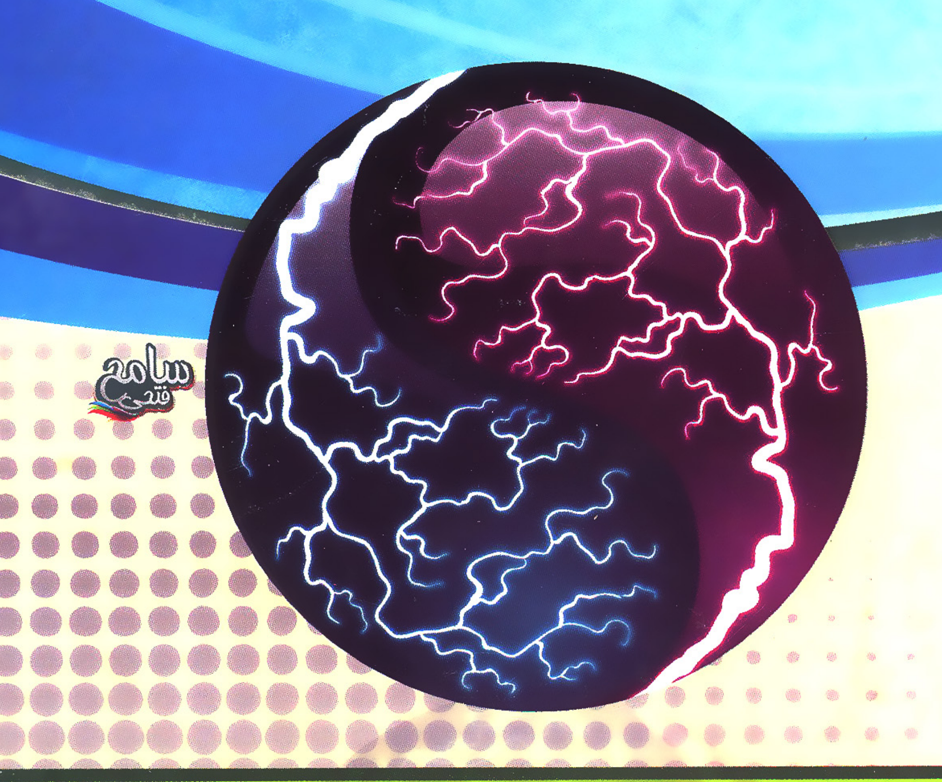


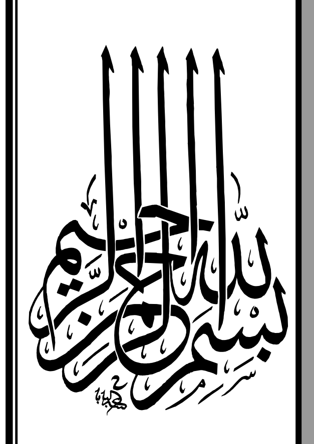
بين فتن الخارج وَالدَّاخِل



الشّيخ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ المُهَلْهِل اليَاسِين

أصحاب الحق
بين
فتن الخارج والداخل



الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : أصحاب الحق بين فتن الخارج والداخل

موضوع الكتاب : من وحي التجربة

اســم المؤلــف : د.جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الناشـــــــر : شركة السماحة للنشر والتوزيع

الكويت

الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

عدد الصفحـات : ٥٠٤

عـدد المــلازم : ٣١,٥ ملزمة

رقــم الإيـداع : ٢١٧٥٧ / ٢٠١١

شركة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

أصحاب الحق
بين
فتن الخارج والداخل

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب منشوراتنا

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة / شارع جيهان – أمام مستشفى الطوارئ

ت: ٢٢٥٢٨٦٠/ ٠٥٠

سلسلة (من وحي التجربة)

رقم السلسلة (٥٣) **الرقم الفني (١٢)**

الإِهْدَاءُ نَثْراً

إِلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى

بِالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى رَفِيقَةِ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الإهْدَاءُ شعْراً

أَمَّــاهُ كُنْــتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً عُلْيَـا وَصَــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْتِ مَدْرَسَـةً تُعِدُّ نُفُوسَنَـا لِـصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ
قَــدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّــاً بَــرَّةً وَالجَــارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَــانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقِ شَـهْدَاً سَلْسَلاً تَــدْنُو ثِمَــارُ قُطُـوفِهَــا لِلْجَـانِي
عَلَّمْتِنَــا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أَبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي بِرِعَـايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ
وَفَّـرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَـادَةِ وَالهَنَـا فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ وَأُسْــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا بالفَــضْـلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّــانِ
كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّــرورِ تَـدَلُّلِي بمَحَبَّــةٍ وَبرَأْفَــةٍ وَحَنَــانِ
أَحْبَبْتَنِــي قَـرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي بالعِــزِّ فِي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَـانِ

* * *

أَرَفيقَتِـي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا لَيْـلُ الحَيَـاةِ بمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ
قَـدْ كُنْـتِ خَـيْرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَـةٍ فِي الـبِرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ بتَعَـاقُبِ الأَفْــرَاحِ وَالأَحْــزَانِ

* * *

يَا حَبَّذَا أَفْلاذ أَكْبَادٍ بِهَا كَمُلَ الْمُرَادُ وَقَرَّتِ الْعَيْنَانِ
فَاحْفَظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ**
لاَ زَالَ **عَبْدُ الله** فِي حِفْظٍ وَلاَ زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ
وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ** بِهَا قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ
وَاحْفَظْ هَيَا **وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنعْمَةٍ وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ
صَلَّى الإِلهُ عَلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مقدمة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فإنني في هذا الكتاب أستعرض بعضاً من المعاناة في دعوة الأنبياء والرسل- عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- مع ذكر بعض الأمثلة من حياتهم؛ لا سيما أولي العزم منهم.

إن الدعوة إلى الله- تعالى- وتحمل الأذى، والصبر على المعاناة، لا سيما الداخلية منها، هي طريق الأنبياء- عليهم السلام- وأتباعهم من الدعاة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

ونحن إذا استعرضنا حياة الرسل جميعاً، كما قصها علينا القرآن الكريم، فسوف نرى أن الصبر على الفتن الداخلية والخارجية كان قوامها، وكان العنصر البارز فيها، وسنرى أن الابتلاء والصبر كانا مادتها وماءها. لكأنما كانت تلك هي الحياة المختارة منهم، بل إنها لكذلك؛ صفحات من الابتلاء والصبر على الفتن معروضة للبشرية؛ لتكون سجلا من القدوة، تُري الأجيال كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام، وكيف ترتفع فوق حاجات الطين؛ وكيف تستعلي على كل ما هو غال وثمين من موجودات الأرض؛ فتتجرد من

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) الأنعام: ٩٠.

الشهوات والمغريات؛ وتخلص لله، وتنجح في امتحانه، وتختاره على كل شيء سواه.

حتى إن الله قد أمر نبيه محمداً ﷺ أن يصبر على أنواع الفتن والمحن الداخلية والخارجية ولأواء الدعوة، كما صبر الرسل من ذوي العزم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(١)، فاستجاب ﷺ لأمر ربه؛ فاحتمل ما احتمل من شديد الأذى، وعانى من قومه ما عانى، فقد نشأ يتيماً، محروماً من الولي والحامي ومن كل أسباب الدفء الأسري: الأب والأم، ثم الجد والعم، وأخيراً الزوجة الوفية الحنون. وهو بذلك قد خلص لله ودعوته، خالياً من كل شاغل، وغير معتمد على أي سند أو ظهير أرضي، فقد لقي حتى من بعض أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين: (عمه أبو لهب).

وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد، فلم يجد نصرة من أي من هؤلاء، بل لاقى العنت والاستهزاء والعدوان، وخير مثال على ذلك ما حدث له في الطائف يوم ذهب يستنصر أهلها ويدعوهم إلى الإسلام.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٢).

﴿اصبر﴾.. إنها الإشارة إلى الطريق المطروق في حياة الرسل- عليهم صلوات الله، إنه طريق الصبر على الأذى والعدوان الذي سلكوه جميعاً، فكلهم عانى، وكلهم ابتلي، وكلهم صبر. وكان الصبر هو زادهم جميعاً وطابعهم جميعاً، كل حسب درجته في سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات؛ مفعمة بالآلام؛ وحتى السراء كانت ابتلاء، وكانت

(١) لقمان: ١٧.
(٢) ص: ١٧-٢٠.

محكاً للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء. وكلتاهما في حاجة إلى الصبر والاحتمال.

وقد صبر رسولنا الكريم ﷺ على كل أنواع الابتلاء، كما صبر الرسل من قبله- عليهم الصلاة والسلام، صبر ﷺ كما صبروا، وبلغ الرسالة كما بلغوا، لكنَّ صبره كان أبلغ، وبلاغه كان أوقع؛ إذ إنه أوذي أكثر، فكان بلاغه أشد أثرا- عليه وعليهم جميعاً الصلاة والسلام. لقد مكث ثلاثاً وعشرين سنة يبلغ رسالات الله، ويدعو إلى الدين الجديد، وينشر أحكامه، منها ثلاث عشرة سنة في أم القرى- مكة المكرمة- بدأها سراً، ثم جهراً، صادعاً بالحق، متحملاً أذى الصدع، صابراً على اللأواء، متجاوزاً حظ نفسه، مستعلياً على الإيذاء من القريب والبعيد، مع أنهم جميعاً يعرفون صدقه وأمانته، ويلمسون فضله، ويقرون بعلو نسبه ومكانته، ولكنه الهوى والحسد والعناد من الأكابر، والخوف على المكان والمكانة، والجهل والتقليد من العامة؛ فكان الجحود والاستكبار ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١)، وكان التقليد والتبعية والإساءة من العامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢)، ومع كل ذلك اجتمع على رسول ﷺ الصدّ والتآمر ومحاولات القتل والأذى الشديد، ومن ثم تعذيب أتباعه الذين آمنوا به من المستضعفين تعذيباً وصل ببعض الصحابة إلى الموت (سمية، ياسر..)، إلا أن رسول الله ﷺ قابل ذلك بالثبات الأشم الذي لا تزعزعه الراسيات من الإيذاء، ولا العاصفات من المعاناة والصدّ، وعندما جاء

(١) النمل: ١٤.

(٢) البقرة: ١٧٠.

بعض أصحابه يشكون له شدة الأذى والعدوان من المشركين عليهم، أجابهم بما يطمئنهم ويهدئ نفوسهم(١).

وخلاصة القول: إن الصبر على الأذى ومفاعيل الفتن داخلية كانت أم خارجية، هو السلاح الذي انتضاه الرسل جميعا- عليهم صلوات الله وسلامه، وفي مقدمهم رسولنا الكريم محمد ﷺ، ليكون عونهم الأكبر بعد عون الله وتوفيقه، في مجالدة المعاناة والأذى، ومواجهة الفتن كلها. وفي ظننا أن تركيز القرآن على معنى الصبر بكل أشكاله عدة وسلاحاً للمرسلين، كان يحمل من ضمن ما يحمل من معانٍ لفتاً لأنظار الدعاة على مر الزمان إلى هذا السلاح الفعال في مواجهة الفتن والصد والأذى والعدوان والمعاناة؛ وليكون ذلك كله زاداً لهم ما دام الزمان زماناً، وما دامت الدنيا قائمة ممتدة.. وصدق الله العظيم القائل في كتابه العزيز مخاطباً رسولنا الكريم محمداً ﷺ بندائه الخالد: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢)، وهو القائل أيضاً: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٣)، والقائل جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

وقد علمنا الحبيب محمد ﷺ الحرص على الصبر إذ قال: «.. **ومن يستغن**

---

(١) عن أبي عبدالله خبّاب بن الأرتّ- رضي الله عنه- قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظلّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**». رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) النحل: ١٢٧، ١٢٨.

(٣) الشورى: ٤٣.

(٤) الزمر: ١٠.

يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»(١).

ولما رأيت شدة حاجة الدعاة اليوم لخلق الصبر، وقد احتدمت من حولهم الخطوب، واجتمعت عليهم الفتن من كل اتجاه، توجهت طالباً العون من الله لتسطير شيء يعين سالك الدعوة على جواز صحراء اللأواء ومواجهة المعاناة، والصبر على ما يلاقيه، **مبيناً في سطور كتابي هذا:**

الفصل الأول وفيه: ما عاناه أنبياء الله من عنت ومن عقبات وصعوبات، مركزاً على أولي العزم منهم وصبرهم، وأخص بالتركيز رسولنا الكريم محمدا ﷺ؛ فهو قدوتنا ومنقذنا وحبيبنا، وجعلت لكل نبي مبحثاً في هذا الفصل.

الفصل الثاني وفيه: ما عاناه الخلفاء الراشدون الأربعة (أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي) رضي الله عنهم جميعاً، وصبرهم على تلك المعاناة، وتجاوز حظوظ نفوسهم.. وهم قدوتنا بعد رسول الله ﷺ، وجعلت الفصل أربعة مباحث.

الفصل الثالث وفيه : ما عاناه الأئمة الأربعة (أبو حنيفة النعمان – مالك ابن أنس- محمد بن إدريس الشافعي- أحمد بن حنبل)، وهم أقرب الناس إلى عهد الصحابة- رضي الله عنهم أجمعين.

الفصل الرابع وفيه: ما عاناه العلماء العاملون أتباع الأئمة الربعة- رحمهم الله- وصبرهم وجرأتهم في الحق، وذودهم عن الدين ونشره.

وقد توخيت في هذا الفصل أن أختار من كل قرن بعد القرن الثالث- أي بدءًا من القرن الرابع الهجري- عالماً أو أكثر، أستعرض في مبحثه من ذلك

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

الفصل، نبذة تعريفية عنه وعن علمه، وشيئًا عن جو الأوضاع في عهده، ثم ما تعرض له من عنت ومعاناة، وصبره على كل ذلك مشكلاً قدوة ورمزاً؛ وذلك من مثل ابن تيمية والنووي والعز بن عبدالسلام والسيوطي وغيرهم- رحمهم الله جميعاً. وفيه مباحث كثيرة (..).

الفصل الخامس وفيه: عرّجت على دعاة وعلماء عصرنا الحديث، فاخترت منهم كبارهم، ومن كان أكثر أثراً وأبعاداً دعوية وعلمية واجتماعية وحركية من غيره؛ وذلك بدءًا من محمد بن عبدالوهاب وحتى محفوظ نحناح، وما بينهما جمال الدين الأفغاني، ومحمد رشيد رضا، والإمام حسن البنا، والشهيد سيد قطب، والدكتور مصطفى السباعي، والشيخ عبدالفتاح أبوغدة.. وجعلت لكل واحد من الشخصيات مبحثاً خاصاً به ضمن بابه، كما فعلت أيضاً من قبل في الفصول الثلاثة السابقة ومباحثها.

راجياً من المولى- عز وجل- أن يكتب لي ذلك في صحائف أعمالي، فإن أصبت فمن الله وبتوفيقه.. وإن أخطأت فمن نفسي. راجياً منه- تعالى- الصفح والمغفرة والأجر؛ إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

معاناة بعض الأنبياء وصبرهم

١ – نوح عليه السلام

٢ – إبراهيم عليه السلام

٣ ـ موسى عليه السلام

٤ – عيسى عليه السلام

٥ – يوسف عليه السلام

٦ – محمد ﷺ

مقدمة

إن الذي يطلع على سيرة المعاناة الرسالية، التي استعرضها كتاب الله العظيم (القرآن)، أثناء قيام الأنبياء بمهمة التبليغ وهداية الناس.. سوف يجد أن كتاب الله الكريم كثف الحديث عن تلك المعاناة، وأبرزها بأشكالها وألوانها بحيث قلبها على وجوهها المتعددة..لا تكراراً، وإنما تنويعاً يفيد في أنه لا يترك شكلاً من أشكال المعاناة، إلا وأظهره على حقيقته، كي لا يبقى لداعية في قابل الزمان والمكان يتعرض لمحنة أو فتنة أو معاناة حجة في أن يقول إنه الأول في ذلك.. بل إنه سيجد أن القرآن قد حدثه ووصف له شبيه ما يحدث له.. وكيف أن مخزوناً هائلاً من الصبر والتحمل رافق وواجه تلك المحن.. وتحلى بهما الأنبياء والرسل من قبله، حتى تجاوزوا الحال، وفتح لهم الله جزاء الصبر والتحمل أبواباً واسعة من الفرج.

وإن القرآن قدم ذلك كله بين يدي الدعاة على مرّ الزمان ليكون من ضمن ما يكون عزاءً وقدوة وأمثلة، يُتكأ عليها في بناء مواقفهم، وتأسيس سلوكهم، وتنوير مساراتهم قاصداً - والله أعلم.

١ - ألا يفوت ذكر أية معاناة قد تحدث للدعاة، وليكون الدعاة على بينة من أمرهم، من أن الابتلاء هو طريقهم.

٢ - لتكون أمام الدعاة لائحة بينة تقول: إن من هم أفضل منهم وأقرب إلى الله قد شيكوا وأصيبوا وابتلوا.. فهل هم (الدعاة) بعيدون عما جرى للأنبياء؟

٣ - وليعلم كل داعية.. على مرّ الزمان، واختلاف المكان.. أنه ليس بالراحة.. يتم الوصول.. وقد (حفت الجنة بالمكاره).

٤ - كما ليعلموا أن هذا الذي يحصل إنما هو تطهير وتزكية وتمحيص.. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [(١)].

٥ - ثم ليكون في علم الجميع أن طريق هداية الناس، والسير بهم على الصراط المستقيم هي مهمة الأنبياء والرسل وأتباعهم، وهي أعلى وأشرف المهمات على الإطلاق، وأن الانخراط فيها منة من الله وفضل منه.. وهي تنفيذ لقول الإنسان: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [(٢)].. فالتنفيذ هنا هو الانطلاق بأمر الله فوراً.. وهو قول رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه في غزوة خيبر بعد أن كلفه: «**انفذ على رسلك..**» [(٣)].

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد- رضي الله عنه.

المبحث الأول
معاناة نبي الله نوح عليه السلام

أول رسل الله- جل وعلا- نوح عليه السلام، وهو أطولهم عمراً، وأكثرهم مدة في تبليغ الدعوة، وتنويع أساليبها وطرقها، ومن أوائلهم في البذل والعطاء؛ فقد صبر عليهم، وحضهم على الإيمان، ورغبهم بالتوحيد ألف عام إلا خمسين.

وقد دعا قومه في السر والجهر والليل والنهار في الصبح والمساء والصيف والشتاء، قال جل وعلا مخبراً عن قول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[(١)] إلى آخر الآيات..

هكذا سلك نوح عليه السلام، وحاول أن يصل إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم، بدعوته إلى التوحيد، موظفاً في ذلك شتى الأساليب، وأنواع الوسائل، في دأب طويل، وصبر جميل، وجهد نبيل، إنها ألف سنة إلا خمسين. عاد بعدها إلى ربه الذي أرسله إليهم، يقدم حسابه، ويبث شكواه، في هذا البيان المفصل، وفي هذه اللهجة المؤثرة.

هذا البيان الدقيق لنطّلع نحن دعاة التوحيد اليوم على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة، ولتكون سيرته تلك قدوة ونبراساً، تحتفظ بها قلوبنا وعقولنا حادياً لنا في عتمة حضارة اليوم.

---

(١) نوح: ٥- ١١.

وهي حلقة واحدة من سلسلة الرسالات السماوية لهذه البشرية المعاندة العصية؛ إذ لم يكن بعد كل هذا البيان وتلك القرون من المعاناة والدأب والصبر؟ إلا الكفر والتكذيب؟!

أبرز وجوه معاناته ﷺ:

أولا: المعاناة من الداخل:

١ - الألم من كفر الولد:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾[1].

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة ينظر نوح ﷺ، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة، ويروح يهتف بالولد الشارد: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2].

فهو لم يكن يعلم أن [ابنه كان كافرا[3]] فيجيب الابن غير مدرك للعذاب الشامل: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾[4].

ونوح ﷺ المدرك لحقيقة الهول وحقيقة العذاب المحدق يرسل النداء الأخير: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾[5].

وما أصعبها من لحظة وما أشقها من نظرة أن يرى الأب ابنه وهو يغرق مع

(١) هود: ٤٠ - ٤٢.
(٢) هود: ٤٢.
(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (٢/ ٣٧٥).
(٤) هود: ٤٣.
(٥) هود: ٤٣.

الكافرين.!، وهو الذي قد أفنى عمره الطويل المديد يدعو إلى الله- تعالى- لينجي الناس من العذاب، يرى فلذة كبده يبتلعه الموج، وتغمره المياه، ويغيب عن عينيه وهو على الكفر ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾(١).

وهنا يتوجه نوح عليه السلام إلى الله- تعالى- بقلب جريح، قلب أبٍ يريد الخلاص لابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾(٢).

قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء.

وجاءه الرد بالحقيقة التي غفل عنها. فالأهل عند الله وفي دينه وميزانه ليسوا قرابة الدم وحسب، إنما هم قرابة العقيدة قبل الدم وبعده ومعه. وهذا الولد لم يكن مؤمناً، وبهذا فهو ليس من أهله، وهو النبي المؤمن الذي يجب أن يعي هذه الحقيقة، كما يجب أن تكون في حسبان الدعاة على مرّ الزمان ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٣).

ثم بين له لماذا لم يكن ابنه من أهله بقوله جل من قائل: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾.. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

(١) هود: ٤٣.
(٢) هود: ٤٥.
(٣) هود: ٤٦.

وهذا هو الـمَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظـرة هـذا الـدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الآخرين. إنـه درس بليـغ في المعانـاة وفي فهم الوشائج في ديـن الإسـلام مـن لـدن آدم وحتـى اليـوم وإلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها، وبذلك ومنه نعلم أن القرآن لم يقـصص علينـا القـصص للتسلية وإنما هي للعبرة والعظة والدرس الذي يجب أن يفهمه ويتعلمه ويعمل به كل داعية، ونخص بالذكر من حملـوا هـذه الأمانـة في هـذا العـصر، الـذي حشرت فيه كل فواحش الأعصر السابقة..

٢- الألم من كفر الزوجة:

إن من أهم دعامات نصرة الداعي ومؤازرته الزوجة الصالحة التي تخفـف عنه هم الدعوة وتعينه لإيصال رسالته وتشاركه معاناته.

أما أن تكون الزوجة أول كافر ومستهزئ به ومحرض عليه فهذا هو الـبلاء بعينه. وهذه معاناة داخلية حقيقية لنوح ؛ فهو بـين نـارين: نـار الزوجـة الخائنة في البيت، ونار المستهزئين في الخارج.

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال: ما زنتا أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون وأما امـرأة لـوط فكانـت تدل على الضيف فـذلك خيـانتهما[1].. وهـذه المعانـاة والـصبر عليهـا تعطـي السائرين على طريق الدعوة في كل عصر ومصر درساً يقول: إن اختيار الزوجة أمر من أهم الأمور التي تؤمن للداعية بيتاً سـليماً، تحـدب عليـه وعـلى تنـشئة أولاده ذات دين وخلق، قادمة من تربة صالحة.. وقد يلتزم المرء بعـد سـنوات من زواج لم ينشأ على اختيار ذات الدين وهنا يجـب عليـه أن يحـسن في توجيـه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

ورعاية زوجته وأن يشغله أمر دعوتها حتى يهديها الله كما هداه، ويقصر في حق دعوتها بدعوى أنه أمر يصعب إصلاحه، فهل يستكمل كل داعية وعي هذه الموعظة..؟ فيحرص على أمن عشه.

ثانيا: الألم والمعاناة من الخارج:

١ – **معاناته ﷺ من إصرار قومه وعنادهم على الكفر وتمسكهم بالشرك ورفض التوحيد**، جيلا بعد جيل، سنين عديدة ودهوراً طويلة: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1].

عن عطاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت[2].

٢ – **معاناته من إصرارهم واستكبارهم**: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[3].

٣ – **وعانى من وصفهم له بالبشرية**: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[4].

٤ – **وعانى من جدالهم**: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[5].

---

(١) نوح: ٢٣.
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).
(٣) نوح: ٧.
(٤) هود: ٢٧.
(٥) هود: ٣٢.

٥- **وعانى من مكرهم:** ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكۡرًا كُبَّارًا﴾[١].

٦- **وعانى من تهديدهم:** ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾[٢].

٧- **وعانى من اتهامهم له بطلب الرياسة والصدارة:** ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾[٣].

٨- **وعانى من اتهامهم له بالضلال والجهل والجنون:** ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٤]، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبۡدَنَا وَقَالُوا۟ مَجۡنُونٌ وَٱزۡدُجِرَ﴾[٥].

٩- **وعانى من اتهامهم له بالتأثير على الضعفاء والفقراء، وتحقيرهم لهؤلاء الأتباع:** ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأۡىِ﴾[٦].

١٠- **وعانى من اتهامهم له بطلب الدنيا والطمع فيما عندهم:** ﴿وَيَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا ۖ إِنۡ أَجۡرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[٧].

١١- **وعانى في دفاعه عن الدعوة والرسالة:** ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى﴾[٨].

١٢- **وعانى من استعجالهم العذاب:** ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) نوح: ٢٢.
(٢) الشعراء: ١١٦.
(٣) المؤمنون: ٢٤.
(٤) الأعراف: ٦٠.
(٥) القمر: ٩.
(٦) هود: ٢٧.
(٧) هود: ٢٩.
(٨) الأعراف: ٦١، ٦٢.

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[١].

١٣- وعانى من سخريتهم واستهزائهم به وبما يصنع استجابة لأمر ربه، قال- تعالى- واصفاً حاله مع قومه وهم يسخرون منه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾[٢].

والتعبير بالمضارع.. فعل الحاضر.. هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته. فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير. يصنع الفلك. ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون. يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.. إنهم يسخرون، لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير. فأما نوح فهو واثق عارف، وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية: ﴿ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾.

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾[٣]. أنحن أم أنتم: يوم ينكشف المستور، عن المحذور!

فلما كان منه بعد تلك القرون من الدعوة والصبر والمصابرة على تكذيبهم

(١) هود: ٣٢.
(٢) هود: ٣٨، ٣٩.
(٣) هود: ٣٩.

وإصرارهم على الكفر إلا أن توجه إلى الله- سبحانه وتعالى- بالدعاء قائلا:

﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[1].

رب إنهم عصوني ! بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء. وبعد كل هذا التوجيه. وبعد كل هذا التنوير. وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء.. بعد هذا كله كان العصيان. وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة، التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد، ومظاهر الجاه والسلطان. ممن ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران.

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال، فكان من الرسول ذلك الدعاء ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

دعاء منبعث من قلب جاهد طويلاً، وعانى كثيراً، وانتهى بعد بذل كل وسيلة إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية؛ إذ علم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة[2]، ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾[3].

وبذلك فقد توافق رأي الرسول الصابر المصابر المجاهد مع حكم الله على قومه وحقيقة عنادهم واستقرار موقفهم على الكفر، فكانت النهاية الأليمة

(١) نوح: ٢١-٢٤.
(٢) للاستزادة في قصة نوح عليه السلام ارجع إلى قصص الأنبياء (١/ ٦٠- ٨٧) .
(٣) هود: ٣٦.

التي قررها رب العزة بحقهم؛ إذ أغرقهم عن آخرهم، باستثناء الذين آمنوا وحملهم نوح في سفينته.

فما هي- والأمر كذلك- الدروس المستفادة من سيرة هذا الرسول الكريم ؏..؟ إن استخلاص هذه الدروس ضروري كي نضع فهمنا هذا على محك الميدان الدعوي اليوم. وفيما يلي بعض ما نعتقد أنه مستفاد من سيرة معاناة هذا النبي الكريم من أولي العزم:

١ - إن طريق الدعاة لم يكن يوماً محفوفاً بالورود والراحة والجاه، بل إنه طريق محفوف بالمكاره كما وصفه رسول الله ﷺ.

٢ - وأن هذا الطريق لا تكون نهايته دائماً مزينة بالنصر والاستجابة وائتلاف الناس من حول الرسل.. بل إنه طريق محفوف بالجحود في الغالب الأعم، وليس على الدعاة- والحال كذلك- إلا المضي في الطريق صابرين على لأوائها وعلى إعراض الناس، مستذكرين أن الرسل هم صفوة الله من خلقه وأنهم أنبل وأشرف البشر، وهم الأكثر تقديراً وقبولاً عند الله، ورغم ذلك فقد شملهم رب العزة بالابتلاء والمعاناة.

٣ - إن بقاء نوح ؏ وثباته على دعوته ألف سنة إلا خمسين، يعطي للدعاة في كل زمان ومكان درساً في الإقامة على الأمانة، مهما امتد الزمن، ومهما اشتدت المعاناة، فلا يقيل الداعية نفسه، ولا يملّ ولا يكل، إلا أن يشاء الله له أمراً: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

٤ - وإن من جملة الدروس المستفادة من سيرة الرسول نوح ؏، درس

(١) التكوير: ٢٩.

بليغ فيه من الابتلاء ما يبلغ الذروة في التأثير العاطفي والنفسي. حيث يصاب الرسول بأقرب الناس إليه، عندما يجحده ابنه وتجحده زوجته.. أي أن الخلل يكون داخل حماه وبين أضلعه، ليكون الصبر في مثل هذه الحالة من الابتلاء في أعلى وأغلى الأولويات عنده، إذ عليه الآن أن يكبح جماح قلبه، وحساسيات عواطفه، وشديد المعاناة من مفارقات الموقف وعظيم اختراقه لقلب العلاقات الإنسانية الحميمة.

٥ - وهنا لا بد من القول: إن ربنا- جل وعلا- غني عن العالمين، وإن قدرته لا يعجزها شيء، وإن إرادته غالبة؛ إذ كان من الممكن أن يوفر على نوح تعب كل تلك القرون من التبليغ الشاق والابتلاء الشديد، فيحول القوم باتجاه الإيمان منذ البدايات، غير أن مشيئة الله مضت في سننها، التي قضت بأن جهد البشر في الدعوة إلى الله لن يحقق المراد دون امتحان ومعاناة وتمحيص واتخاذ الشهداء، ليقوم البناء بعد ذلك على أسس متينة وقواعد ثابتة متجذرة صلبة، لا تهزها الأنواء، ولا تقف في طريقها المصاعب والحواجز.. (ألم تحضرنا في هذه المناسبة صلابة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في مواجهة الردة ؟).

٦ - ولم تقف تجربة نوح وابتلاؤه عند تلك الدروس التي ذكرناها، بل إن الابتلاء والألم والمعاناة لاحقته، من خلال ما راح قومه يتهمونه بشخصه وأخلاقه، والاستهزاء بعمله وعقله وتفكيره وأمانته المالية وغير المالية، وبتحقير أتباعه، فهل فتّ ذلك في عضده، أو جعله يتخلى لحظة عن الأمانة؟ أبداً، فقد كان نوح عليه السلام مثالاً للصبر على الألم والمعاناة من كل ما ذكرنا، رغم طول الزمن الذي جوبه فيه بتلك الممارسات من بني قومه، وحتى من أقرب المقربين منه، وليكون ذلك الصبر منه علامة فارقة على طريق الدعوة والدعاة،

تدلهم بعلاماتها المضيئة على أنه ليس من سبيل للداعية إلا الصبر على اللأواء وتفويض الأمر إلى الله، وأن صبره ذلك لن يذهب سدًى، فهو في مهمة غالية في هذه الدنيا، يمثل القيام بها سبب وجوده الحقيقي، وسبباً في وجود واستمرار هذه الحياة. فالدعوة إلى الله هي العبادة الشاملة الكاملة التي تميز وجود الإنسان عن غيره من المخلوقات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

(١) الذاريات: ٥٦.

المبحث الثاني
معاناة نبي الله إبراهيم عليه السلام

المحنة في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

لم تكن المحنة التي تعرض لها خليل الرحمن عليه السلام إلا إحدى حلقات الصراع الممتدة عبر القرون الضاربة في أعماق التاريخ، لتؤكد مع الزمن غلبة الحق وهزيمة الباطل.

نشأ إبراهيم عليه السلام في مجتمع جاهلي كافر بكل القيم، متطاول على نواميس الله، لكن فطرته السليمة أبت مجاراة التيار والانسياق مع الرأي العام والرضا والتسليم بالأمر الواقع.

وتبدأ المحنة في حياة هذا النبي الأعزل من كل سلاح، منذ امتطى صهوة الحق وحيدا، يعلن على الملأ إيمانه بالله وكفره بما يعبدون من دونه ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فانظر إلى عظمة الإيمان الذي اعتز به قلب إبراهيم؛ إنه وحيد، ليس وراءه جماعة ولا أنصار، وأعزل لا يملك قوة ولا سلاحا، ومنبوذ حتى من ذوي القرابة والوالدين، ولكن أنى للحق أن ينحني للباطل أو يتراجع أمام التهديد والوعيد.

وتشتد المحنة على إبراهيم ويلقى في النار، ويرضى بقضاء الله، ويفرح بلقائه، ومن الأفق العلي كان النبي المحتسب والرسول الممتحن يصغي إلى نداء

(١) الشعراء: ٧٥- ٧٧.

الله، وهو يقذف في حمأة اللهب المستعر، يناديه ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١).

وتمضي قصة المحنة التي تعرض لها أبو الأنبياء ترسم لأهل الحق صوراً شتى من صور الرجولة والبطولة، حتى ختم الله له بأن جعله من رسله المصطفين ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٢)(٣).

لقد عانى إبراهيم عليه السلام وصبر في حياته الدعوية على الابتلاء في أحوال مختلفة وظروف متباينة وآلام متنوعة، منها ما كان من داخل أسرته، ومنها ما كان من خارجها.

وكان من أبرز وجوه معاناته عليه السلام:

أولاً: معاناته من الداخل:

١- **معاناته من جفاء الأبوة:** كان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، فهو يعلم من الله أن أباه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (٤).

فذكر- تعالى- ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة، وبيـّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا

---

(١) الأنبياء: ٦٩- ٧١.
(٢) البقرة: ١٣٠.
(٣) مشكلات الدعوة والداعية ص٢٠.
(٤) مريم: ٤١، ٤٢.

تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئاً، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟

ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى، والعلم النافع، وإن كان أصغر سناً من أبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾[1]. أي: مستقيماً، واضحاً، سهلاً، حنيفاً، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك.

فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده. ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾[2]. أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾[3]. أي: لا يصلك مني مكروه، ولا ينالك مني أذىً، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده من البر بأن وعده أن يستغفر له ربه الذي هداه لعبادته والإخلاص له. ولهذا قال: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾[4].

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾[5].

ب- عقم زوجته سارة ثم اختباره عليه السلام بأن أمره ربه بإبعاد زوجه وابنه

---

(١) مريم: ٤٣.
(٢) مريم: ٤٦.
(٣) مريم: ٤٧.
(٤) مريم: ٤٨.
(٥) التوبة: ١١٤.

وفلذة كبده، ثم أمره بعد ذلك بذبحه، فبعدما مَنَّ الله على إبراهيم عليه السلام بهذا الطفل بعد ما شاب شعره، وانحنى ظهره، وطال انتظاره، اختبره الله اختباراً صعباً، فأمره الله- تعالى- أن يرحل بهاجر وولدها إلى أرض لا زرع فيها ولا ماء، ولا جليساً أو أنيساً، ويتركهما في ذلك المكان ويرحل، فلم يتردد إبراهيم عليه السلام في تنفيذ أمر الله، ليفترق عن زوجه ووحيده الرضيع، الذي كان يرجوه من الله وكله ثقة أن الله حافظهما، خاصةً أنه قد تعود على ألا يراجع الله في أمر قط، بل كان يرضى بقضاء الله حيث كان ومهما كان، وهذا الإيمان القوي هو الذي جعله يتجه إلى الله في ضراعة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

وتسأله هاجر: «آلله أمرك بذلك»، فيقول: «نعم». عند ذلك يطمئن قلبها ويثلج صدرها وتقول: «إذن لن يضيعنا..».

ما أعظم هذا الإيمان! وما أروع هذا اليقين الذي ملأ قلبي الأبوين الكريمين!

محنة وأي منحة!

مرت السنون بعد رحيل هاجر ووليدها إلى هذه الصحراء، وحفظ الله إسماعيل وأمه، وفجر لهما الماء، وأخرج لهما الزرع، وأرسل إليهما مَن يجاورهما ويؤنسهما، وشبَّ إسماعيل، وأصبح فتىً يافعًا تقر به عيون أبويه.

ويأتي اختبار جديد لهذه الأسرة المؤمنة - كيف لا وأشد الناس بلاءً

(١) إبراهيم: ٣٧.

الأنبياء- يختبرهم الله اختبارًا أشد وأقسى من سابقه.

رأى إبراهيم في منامه أنه مأمور بذبح ابنه إسماعيل قربانًا إلى الله، فقام خائفًا مفزوعًا، ولا عجبَ في ذلك فهو بشر، وقد جبل الله البشر على حب الأبناء والتعلق بهم.

وقيل: إنه رأى تلك الرؤيا ثلاث ليالٍ متتابعات، ففي الليلة الثانية تروى وتريث، وفي الثالثة علم أنها أمر ربه، فاستجاب لأمر ربه، ولبى النداء طائعًا مختارًا، وذهب إلى إسماعيل وقص عليه الرؤيا، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ فلم يتردد إسماعيل أو يؤخر ويسوف، ولكن قال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] وتلك غاية السرعة في الامتثال لأمر الله بكل رضا وتسليم.

وكما صدقا الله في إيمانهما صدقهما المولى- جل وعلا- برحمته.. فقد أبتْ السكين أن تذبح، فتعجب إبراهيم ونظر إلى السماء، وهنا كانت البشرى التي لم تخطر له على بال، لقد فدى الله ولدك يا إبراهيم، فنزل جبريل الأمين ومعه كبش عظيم فداءً لإسماعيل ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[2] ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[3] لقد نجى الله إبراهيم وإسماعيل من هذه المحنة القاسية، وكانت نجاتهما بتلك العزيمة الصادقة، والإيمان العميق، والصدق العظيم.. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

---

(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) الصافات: ١٠٧.

(٣) الرحمن: ٦٠.

ﵟٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖﵞ(1)(2).

ثانيا: المعاناة من الخارج:

أ- المعاناة من عدوان العشيرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾(3).

يخبر الله- تعالى- عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان، وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: معتكفون عندها وخاضعون لها. ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾(4).

ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد وقال لهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾(5).

سلموا له أنها لا تسمع داعياً، ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هم مثلهم في الضلال من الآباء الجهال.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(6). لقد كانت إجابة إبراهيم لهم قاطعة مانعة، إذ قال لهم: ليست هذه الأصنام بآلهة، بل إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء، فاطر السموات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا

---

(١) الصافات: ١٢٠- ١٠٧.

(٢) للاستزادة في حادثة إيداع سيدنا إبراهيم ﷺ سيدنا إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام انظر: صحيح البخاري (٣١٨٤)، والبداية والنهاية (١/ ١٧٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧).

(٣) الأنبياء: ٥١، ٥٢.

(٤) الأنبياء: ٥٣.

(٥) الشعراء: ٧٢- ٧٤.

(٦) الأنبياء: ٥٦.

شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

حاجَّه قومه: وبعد أن سمع قوم إبراهيم مقالته، وما توصل إليه من الحق، أخذوا يجادلونه فيما قاله، قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [(١)].

الفتنة بالنار: لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما أفحمهم إبراهيم بالبينات فغلبوا، ولم تثبت لهم حجة ولا شبهة، نقول عدلوا إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفه وطغيان، إذ قرروا تعذيب إبراهيم وإحراقه بالنار. قال- تعالى- حكاية على لسانهم: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [(٢)].

لقد جمعوا الحطب الكثير من كل الأماكن، حيث مكثوا مدة طويلة يجمعونه بجد ونشاط، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحرق إبراهيم، ثم عمدوا إلى (جوبة) عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأشعلوا فيه النار، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم يروا مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام مقيدًا مكتوفًا في كفة منجنيق، صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له (هزن)، وكان أول من صنع المجانيق، فعاقبه الله بأن خسف به

(١) الأنعام: ٨٠- ٨٣.
(٢) الأنبياء: ٦٨- ٧٠.

الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وكان إبراهيم وهم يكتفونه يـردد: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك، فلما وضـع عليه السلام في كفة المنجنيق، وقذف به في النار، أخذ يردد: حسبنا الله ونعم الوكيل[١].

عن نافع: أن امرأة دخلت على عائشة، فإذا رمح منصوب، فقالت: ما هـذا الرمح ؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الـوزغ، فإنـه جعـل ينفخهـا عليه[٢].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان آخر كلام إبراهيم حين ألقـي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل، وقال نبيكم ﷺ مثلهـا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٣][٤].

ب- معاناته من طغيان النمرود وتجبره وادعائه الألوهية قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[٥]، معناه هل انتهى إليك يا محمـد خـبر الـذي حـاج إبراهيم، أي خاصم وجادل، إنه نمرود أول من وضع التاج على رأسه، وتجـبر في الأرض وادعى الربوبية؟ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي أنـه طغـى، لمـا آتـاه الله الملك، فكانت مناظرته لإبراهيم من بطر المُلك وطغيانـه. قـال مجاهـد: ملـك الأرض أربعة مؤمنـان وكـافران فأمـا المؤمنـان فـسليمان وذو القـرنين، وأمـا

(١) البداية والنهاية (١/ ١٤٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢١٧) (٢٥٨٦٩) وصححه الأرناؤوط، وأخرجه البخـاري (٣٣٠٧)، ومسلم (٢٢٣٧)، وأبو داود (٥٢٦٢-٥٢٦٤).

(٣) آل عمران: ١٧٣.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٥) البقرة: ٢٥٨.

الكافران فنمرود وبختنصر[١].

واختلفوا في وقت هذه المناظرة قال مقاتل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود، ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت.

وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه في النار، وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمرود، وكانوا يمتارون من عنده الطعام، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأله من ربك؟ فإن قال: أنت. باع منه الطعام، فأتاه إبراهيم فيمن أتاه فقال له نمرود: من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت. فاشتغل بالمحاجة، ولم يعطه شيئا، فرجع إبراهيم، فمرّ على كثيب من رمل أعفر، فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله إذا دخل عليهم، فلما أتى أهله ووضع متاعه نام، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود طعام، ما رآه أحد فأخذته فصنعت له منه، فقربته إليه فقال: من أين هذا ؟ قالت من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه فحمد الله[٢].

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له: من ربك؟ فقال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾. قال نمرود: (أنا أحيي وأميت).

قال أكثر المفسرين: دعا نمرود برجلين، فقتل أحدهما واستحيا الآخر، فجعل ترك القتل إحياءً له، فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا عجزًا، فإن حجته كانت لازمة، لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت، فكان له أن يقول: فأحي

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٤٨).
(٢) الكشف والبيان (٢/ ٢٣٩).

من أمتّ إن كنت صادقا فانتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى. ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ أي تحير ودهش وانقطعت حجته. فإن قيل: كيف بهت وكان يمكنه أن يعارض إبراهيم فيقول له: سل أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب قيل: إنما لم يقله لأنه خاف أن لو سأل ذلك دعا إبراهيم ربه فكان زيادة في فضيحته وانقطاعه. والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهارًا للحجة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]. وبذلك ألجمه الله الحجة، وأوضح له السبيل القويم للمحاجة.

جـ- المعاناة من هجران الأرض والفرار بدينه من أرض إلى أخرى: فقد خرج من (كوثى) من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، ومعه لوط وسارة، كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾[2]، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين، وهي برية الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، وأقرب، فبعثه الله نبيا فذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[3][4].

وهذا هو المشهور، إذ خرج إبراهيم من أرض بابل مهاجرًا بدينه، مصطحبًا

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٣١٦) بتصرف.
(٢) العنكبوت: ٢٦.
(٣) الأنبياء: ٧١.
(٤) تفسير البغوي (٥/ ٣٣٠) للاستزادة في قصة إبراهيم، انظر: البداية والنهاية (١/ ١٧٠).

ابن أخيه لوط وزوجته سارة ابنة عمه هاران ومرّوا بحرّان فمكثوا فيها مليًا، ثم انطلقوا إلى أرض بيت المقدس. وعلى رأي أهل الكتاب أنه ضرب قبته شرقي بيت المقدس، ثم انطلق مرتحلا إلى التيمن أي إلى برية الشام، وكان جوع وقحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر[١].

عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتان منهن في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٢] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[٣] وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة فقال: يا سارة.. ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده فأُخِذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر فأتته (أي إبراهيم) وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: يهيم (أي ما الخبر)، فقالت: ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[٤].

وقد ذكر أهل التواريخ أن هذا الجبار كان فرعون مصر، وذكر ابن كثير: ثم إن الخليل عليه السلام، رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة

(١) من كتاب قصص الأنبياء لابن كثير ص١٤٤، طبعة دار الفكر – دمشق.
(٢) الصافات: ٨٩.
(٣) الأنبياء: ٦٣.
(٤) انظر: البخاري (٣٣٥٨).

التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية[(١)].

ثم إن لوطًا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور (المعروف بغور زغر) فنزل بمدينة سدوم[(٢)]، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا.. قالوا ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطًا عليه السلام، واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيرًا، وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق، وعسكر بظاهرها عند (برزة)، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل.. والله أعلم. ثم رجع مؤيدًا منصورًا إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

دروس وعبر:

وبعد أن استعرضنا خلاصة عن معاناة الخليل إبراهيم عليه السلام، التي تمثلت بصد وجحود قومه وأقرب الناس إليه (والده)، ثم استهزاؤهم به، والأشد من ذلك محاولتهم قتله بحرقه في النار، ثم إخراجه من بلده ووطنه ومن بين أهله، وهجرته وما لاقى فيها من عنت السفر والتنقل والصد من جديد، ثم امتحانه وابتلاؤه بعقم زوجته سارة، وتعرض الفرعون الجبار لها، محاولاً الاعتداء على شرفها، إذ أنجاها الله منه، بفضل إيمانها ودعائها ودعاء إبراهيم

(١) قصص الأنبياء (١٤٨– ١٤٩).

(٢) مدينة قديمة في فلسطين على شاطئ البحر الميت، وهي قرية قوم لوط.

ربه لها.. والأكبر من ذلك كله.. صدعه بأمر ربه دون تردد ،عندما أمره بـذبح ولده إسماعيل الذي وهبه الله إياه على كبر سنه وعقم زوجته سارة؛ وإذن فـإن إبراهيم أتم العمل بالكلمات (الابتلاءات) فنال الجائزة بجدارة وذلـك قولـه تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. ﴾[1].

أقول بعد ذلك الاستعراض الموجز ألا يجدر بنا في نهاية الفصل، أن نستخلص من تلك السيرة الرسالية بعضًا من الدروس، التي أعطت لأجيال الدعاة أمثلة حية على الصبر والثبات وتحمل الآلام، وعلى فهم موقف الداعية إلى دين الله من ذلك الصبر والتحمل..؟.

بلى.. إن تلك القصص التي وردت في كتابنا الكريم (القرآن)، لم تقلب آياتها الأحداث على وجوهها العديدة عبثًا حاشا لله أن يكون في كتاب الله الكريم حرف واحد أتى عبثًا.. بل إنها الدروس والعظات والاتباع والتأسي..

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن وجوه المعاناة التي تعرض لها الأنبياء في سيرهم إلى الله وإن كانت مختلفة من بعض الوجوه الشكلية، إلا أنها في العموم متشابهة في جوهرها وخطوطها الرئيسية، لـذلك فإن ما ذكرناه من دروس مستقاة من سيرة نوح عليه السلام ينطبق على ما يستقى من سيرة إبراهيم عليه السلام، وإن اختلفت الأزمان والأمكنة وشكليات المعاناة؛ فالصبر على الصد والأذى، ومواجهة العدو، حيث لا يتحقق النصر دائمًا (مع شرف الأنبياء وقربهم إلى الله، ونبلهم وعظيم أخلاقهم)، ثم إن الدرس الدائم من سيرتهم هو الثبات، مهما امتد بهم الزمن وعظم الابتلاء سواء كان ذلك من داخل حماهم أو من خارج الحمى.. كيف وإن واحدًا من الابتلاءات التي تعرضت لإبراهيم عليه السلام.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

تنهدُّ منها الجبال الراسيات، وذلك حين استجاب لأمر ربه بذبح ابنه الوحيد بيده، وهو الذي رُزِقَه على كبر وعقم من زوجه سارة.. لقد كانت صورة صارخة للصبر على الابتلاء والاستجابة غير المترددة والفورية لأمر الله، مع عظم الواقعة وألمها وحميميتها الداخلة على غير مثال سابق وعند شحٍ في الذرية، وإنها لأشد ابتلاء وأغلى استجابة من الولد والوالد.. ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1].

وهنا كانت الجائزة الكبرى، إذ جاء الفرج من الله بفداء إسماعيل.. وذلك من أجل أن يظل الأمل قائمًا في نفوس السائرين على الدرب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

(١) الصافات: ١٠٢.

المبحث الثالث
معاناة نبي الله موسى ﷺ

المحنة في حياة موسى:

إن حياة موسى ﷺ لم تكن غير سلسلة من المآسي والآلام. بل إن المحنة رافقت موسى رضيعاً، تتقاذفه الأمواج ويلفه الظلام، وشبت معه فتى يانعاً هارباً من بطش فرعون. وزاد حياته محنة تعرضه لنقمة فرعون من جهة ولإيذاء قومه وسفههم من جهة أخرى.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

فكان على موسى أن يرد ضربات فرعون بيد، ويتقي مكائد قومه باليد الأخرى. وهذا لعمري أشد صنوف المحن وأفظع ألوان البلاء.

فالدعوات قد تتمكن من مجابهة أخطر المحن الخارجية إذا كان صفها الداخلي قويا متربصا.. فكيف إذا كان متصدعا منهاراً؟ وموسى ﷺ كان هذا الإنسان الذي تولى قيادة شعب أعطي المقاد على خضوع بما ترادف عليه من جور الفراعنة وما تتابع عليه من ظلم الطغاة.. حتى هان عليه الهوان المعجون بالهوى وقد قال الشاعر:

نون الهوان من الهوى مأخوذة ... وصريع كل هوى صريع هوان

فقد ألف شعبه الذل والاستسلام.. وكان تكليف الرسول بدعوة فرعون إلى عبادة الله، وفرعون يومها في أوج سطوته وقمة طغيانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١].

ويمضي موسى في طريقه حاملا كل التبعات.. معتمدًا على الله وحده.. واثقًا من نصره وتأييده.. وفي فترة من فترات الضعف البشرى يحس موسى بالوجل والخوف يختلجان في صدره وهو في قلب المعركة يجابه فرعون وسحرته وزبانيته.. ولكن الله سرعان ما تداركه بالمدد، فقذف في قلبه الطمأنينة: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[٢].

لكم تدافعت الخطوب وتتابعت، لتسد على موسى الطريق، وتغلق دونه المنافذ والدروب.. ولكن سرعان ما كانت تنكشف أمام العزيمة والإيمان، ويمضي الزحف المقدس يشق طريقه عبر الحياة بثقة وتصميم..

أولا: المعاناة الداخلية:

أ- **المعاناة قبل مولده:** قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[٣]، إن فرعون تجبر وعتا وطغى وآثر الحياة الدنيا، وجعل أهلها شيعا أي قسم رعيته إلى أقسام وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة يعقوب ابن إسحاق وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف، ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ

---

(١) القصص: ٤.
(٢) طه: ٦٧- ٦٩.
(٣) القصص: ٤- ٦.

أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم ﷺ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، ووصلت إلى فرعون، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام. إذن عانى قوم موسى قبيل مولده بشدة طغيان فرعون بقتل الذكور، واستحياء النساء إضافة إلى ظل الاستعباد والقهر.

ب – معاناة مولده: لما شكا القبط إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفانى الكبار فيصيرون هم الذين يلون الأعمال الدنيئة التي يقوم بها بنو إسرائيل، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً، وذكر أن هارون ولد عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى ولد في عام قتلهم، فضاقت به أمه ذرعاً، واحترزت من أول ما حملت. ولم يكن يظهر عليه ميخائيل الحبل، فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل فإذا ذهب استرجعته، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] ثم التقطه آل فرعون، واتخذوه ولداً، وحرم عليه المراضع ثم رد إلى أمه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

---

(١) القصص: ٧– ٩.

حَقٌّ ﴾[١] وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[٢] .

جـ- معاناته بعد قتل القبطي: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٣] .

د- معاناته بعد الخروج من مصر: قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤]، يقول الشهيد سيد قطب: ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية.. التوفز والتلفت، ونلمح معها التوجه المباشر بالطلب إلى الله، والتطلع لحمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة وترقب الأمن عنده والنجاة.. ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ثم يتبعه السياق خارجاً إلى المدينة خائفاً يترقب وحيداً فريداً غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه والتوجه إليه طالباً عونه وهداه: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ونلمح

(١) القصص: ١٣.
(٢) طه: ٣٧- ٣٩.
(٣) القصص: ١٤-٢٠.
(٤) القصص: ٢١.

شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقب، وخرج منزعجاً بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث، ولم يتزود ولم يتخذ دليلاً. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداه: ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

ومرة أخرى نجد موسى عليه السلام في قلب المخافة، بعد فترة من الأمن. بل من الرفاهية والطراءة والنعمة. ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً، يطارده فرعون وجنده، ويبحثون عنه في كل مكان، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً. ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا، ولا تسلمه لأعدائه أبداً. فها هو ذا يقطع الطريق الطويل، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء .

هـ - عمله أجيراً في مدين: قال صاحب مدين: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾(١) .

و - معاناته في طلب العلم: مع الخضر .

ز - معاناته من افتتان قومه بالمال الذي أوتيه قارون:

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عمّ موسى، وكذا قال إبراهيم النخعي، وعبدالله بن

(١) القصص: ٢٧، ٢٨.

الحارث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جريج، وزاد فقال: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث قال ابن جرير: وهذا قول أكثر أهل العلم، قال قتادة: وكان يسمى (المنور) لحسن صوته بالتوراة، لكن عدو الله نافق كما نافق السامري. فأهلكه البغي[١][٢]. لقد أبطرته النعمة التي أنعمها الله عليه، فبعد أن كان مؤمنًا تاليًا للتوراة معاضدًا لابن عمه الرسول موسى عليه السلام، انقلب عليه صافًا في حزب الطاغية فرعون، متعاليًا على قومه، واشيًا بهم، حتى قال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرًا طولاً ترفعًا على قومه[٣].

ولكم حاول قارون أن يفتن الناس بماله ويصرفهم عن موسى عليه السلام ودعوته.. ولكم حاول شراء الضمائر ورمى موسى بشتى التهم والأراجيف.. ولكن الله كان يكشف ما يضمر قارون، ويخرج موسى من هذه التجارب أصلب عودًا وأشد صعودًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

---

(١) مشكلات الدعوة والداعية ص٢٢ بتصرف.
(٢) من كتاب قصص الأنبياء ص٤١٢.
(٣) المصدر السابق ص ٤١٢.

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ح - الآلام والمتاعب في محاولة تغيير سلوكيات بني إسرائيل:

إن سلوكيات قارون ونفاقه وفساده تشكل صورة جلية عما وصلت إليه حال بني إسرائيل في مصر من الفساد والذل والنفاق، بعد أن كانوا أتباع يعقوب ويوسف يحملون رسالتيهما، إلا أن طول البقاء على رؤية فساد الفراعنة وطغيانهم وإخضاعهم لبني إسرائيل وإذلالهم أفسد أخلاقهم وجعل سلوكياتهم متقلبة غير متيقنة وغير ثابتة. لذا فقد تعب موسى عليه السلام معهم، خصوصا وأنه أرسل عليه السلام لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من الأساس. فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة. وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير.

فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير؛ حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير. لأن الفراعنة قد أنزلوا الخسف بهم، وساموهم سوء العذاب، وأتعبوهم في العمل، وأطفؤوا أمامهم سرج الأمل، فكانوا تحت أيديهم من سقط المتاع.

فقد عاش فرعون وأعوانه في بلاد النيل، يحكمون القبط وبني إسرائيل، ويفسدون في الأرض ظلما واستكبارا، ويتخذون من نفوسهم أربابا، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة، يفرضون على السوقة عبادتها من دون الله.

إذن فلتفض رحمة الله، ولتتفجر ينابيع عدله وكرمه، وليكن أرحم بهؤلاء

---

(١) القصص: ٧٦-٨٢.

القساة الجفاة من أنفسهم، فيهيئ لهم مدارج النور، ويفسح أمامهم طريق الهداية، وينير مفاوز الظلمات.

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية. وما يعتريه من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل.

وسنرى متاعب موسى عليه السلام في المحاولة الضخمة التي حاولها؛ وفي ثقل الجبلات التي أخلدت إلى الأرض طويلاً، حتى أنها لا تريد أن تنهض من الوحل الذي تمرغت فيه طويلاً، وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس من أمر غيره !

كانوا يتسخطون على موسى عليه السلام، وهو يحاول إنقاذهم من فرعون، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾[1] كأنهم لا يرون في رسالته خيراً، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير !.

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون ﴿ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[2]، حتى ارتدّ عدد كبير منهم.

لقد خرجوا للتو واللحظة من مصر ووثنيتها؛ ولكنهم ما إن جاوزوا البحر حتى وقعت أبصارهم على قوم وثنيين، عاكفين على أصنام لهم، مستغرقين في طقوسهم الوثنية؛ حتى راحوا يطلبون من موسى - رسول رب العالمين - الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد، أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه

(١) الأعراف: ١٢٩.
(٢) الأعراف: ١٣٨ .

من جديد!

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾(١).

وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾(٢).

وها هم بعد أن فجر لهم موسى الينابيع من الصخر (بقدرة الله)، وبعد أن أنزل الله عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً، إذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر أرض الذل بالنسبة لهم، فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها. فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾(٣).

وسنرى من خلال متاعب موسى ﷺ متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأمد، وهي تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت - وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد، فبهتت صورتها، وعادت شكلاً لا روح فيه؟

إن جهد صاحب الدعوة - في مثل هذه الحال - لهو جهد مضاعف. ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك.. لأنه يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية

---

(١) الأعراف: ١٣٨.
(٢) طه: ٨٨.
(٣) البقرة: ٦١.

عند أول بادرة !

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة، في هذه الصورة المفصلة المكررة. لترى فيها هذه التجربة بكل تجلياتها. كما قلنا من قبل. ولعل فيها عبرة وعظة ودرسًا لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل.

ط- معاناته من إيذاء بني إسرائيل له وخذلانهم:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[١].

وعن عبد الله ﷺ قال: قسم النبي ﷺ قسما فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «**يرحم الله موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[٢].

ويذكر القرآن من قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء. إذ إنهم كانوا ينتهكون محارم الله؛ فقد حرم الله عليهم أن يصطادوا يوم السبت تعظيمًا لحرمته، فانتهكوها، وأخذوا يحتالون لاصطياد الحيتان في هذا اليوم، قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٥) عن عبد الله رضي الله عنه. ومن صور الخذلان التي واجهها موسى عليه السلام من قومه، ما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالاً، على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا، فيقال: إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها: من دلك على ذلك، وما حملك عليه؟ فذكرت: إن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خرّ موسى لله ساجدًا، ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه: إني أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك. أرأيت إلى خذلان الأقربين لموسى وفتحهم عليه أبوابًا من الأذى، حاولوا هدم أساسات رسالته؟!

فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾(١).

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾(٢)، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾(٣)، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾(٤)، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٥). وقد طلبوا يوم عطلة مقدساً، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها، وقفوا متخاذلين يصعّرون خدودهم في الوقت ذاته لموسى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾(٦) فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٧). هذا فضلاً عن إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد، والاتهام الشخصي بالباطل، كما جاء في بعض الأحاديث.

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾(٨): وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هي لهجة العتاب

(١) الأعراف: ١٦٣.
(٢) البقرة: ٦٨.
(٣) البقرة: ٦٩.
(٤) البقرة: ٧٠.
(٥) البقرة: ٧١.
(٦) المائدة: ٢٢.
(٧) المائدة: ٢٤.
(٨) الصف: ٥.

والتذكير.

إن قصتهم مع موسى عليه السلام قصة عناد ومكابرة وفساد طبع وجبلة شاذة. ولا أدلّ على ذلك من قصتهم مع البقرة التي أمرهم موسى بذبحها، ومماراتهم بأوصافها، لكأنهم لا يريدون إطاعة الأمر، بل هم يذهبون إلى إيذاء نبيهم وإكثار السؤال والمماطلة والعناد.. وحتى لما استقر أمر أوصاف البقرة، ولم يترك لهم الله حجة، بعد أن أجابهم إلى مواصفاتها: لم يبادروا إلى الطاعة بل ترددوا وتلكؤوا في تنفيذ الأمر الرباني، وهو ما دلنا عليه قول الله جلت قدرته في القرآن العظيم: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(١).

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغاً، وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى. وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(٢).

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال(٣).

ثانيا: المعاناة الخارجية:

في هذه الأيام التي نعيشها، ونحن في القرن الحادي والعشرين، نجد الفتن والمثبطات تحيط بأهل الحراك الإسلامي من كل حدب وصوب، من الاحتلال المباشر للأرض من قبل أعداء الأمة إلى الاعتقال والتعذيب والقتل والإقصاء والحصار من قبل المستبدين الظالمين، مرورًا بشتى الشتائم واختراع التهم وتزوير الوقائع، وإنشاء المحاكمات الزائفة الصورية، التي تعدّ أحكامها مسبقًا،

---

(١) البقرة: ٧١.
(٢) الصف: ٥.
(٣) في ظلال القرآن (٧/ ١٩٤).

ثم تجييش الجيوش من المنافقين، الذين يدعون الثقافة والليبرالية والعلمانية وهم في حقيقتهم، لا يتعدون أن يكونوا أبواقًا رديئة للديكتاتور المستبد المتألـه (بشيزوفرينيا عجيبة).

وأقول.. إننا في هذه الأيام التي هذه صورتها، بحاجة ماسة إلى استعادة سير الرسل والأنبياء، لما فيها من عبر وعظات ودروس، تعالج بالاقتداء بها وبالصبر والتحمل والثبات التي تميزوا بها وبالحكمة والعزم اللذين تحلوا بهما، حيث أناروا الطريق لمن بعدهم من الدعاة، في رسم سبل النصر، إذ قالوا من خلال سيرهم: إن النصر متحقق في كل الأحوال للثابتين على أمر الله.. فهو نصر دنيوي ونصر أخروي: وذلك ما بينه لنا رب العزة في محكم كتابه العزيز إذ قال جل شأنه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[1].

كما بينت لنا سيرة رسولنا العظيمة أن نصر الله لا ينزل بكثرة العدد، إنما يحققه للدعاة قوة الإيمان وعلو الهمة والصبر والثبات على الحق، والحكمة في إدارة دفة السفينة، والإعداد المستطاع للوسائل والآليات..

ولقد لاقى الرسل من قبل رسولنا الكثير من العنت أيضًا، وكان موسى من بين أولي العزم من الرسل، الذين لاقوا ما لاقوا من الآلام والمعاناة، فواجهوا كل ذلك بما يكافئه ويزيد من الإيمان والهمة والصبر والثبات والحكمة.. فتحقق لهم عزّ الدنيا وفوز الآخرة.

وبعد أن استعرضنا معاناة موسى عليه السلام من الداخل، فمن الحق أن نستعرض معاناته التي كانت من الخارج.

فقد كانت معاناة موسى عليه السلام الخارجية متعددة الأشكال، وكثيرة الأنواع

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

ونحن نذكر منها ما هو على سبيل المثال لا الحصر، ونستطيع أن نجملها في الأمور التالية:

١- ادعاء فرعون الألوهية والتكبر عن سماع الحق:

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

ولقد آذى موسى عليه السلام أذى شديدًا ادعاء فرعون الألوهية، وأن الأمر كله يعود إليه؛ إذ إن أشد ما يؤذي المؤمن أن يستعرض جحود الألوهية بين يديه هكذا مكشوفًا بلا مجاملة، ودليل ذلك قول الله- تعالى- على لسان موسى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾(٣).
وأنت ترى لهجة الأسى والتأذي في كلام موسى عليه السلام.. من جحود فرعون وملئه بادعاء الألوهية.

٢- الخوف من التكذيب:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾(٤). وهذا الخوف من التكذيب ناتج عن الخوف من الطغيان والإفراط فيه، وهو ما بينه ربنا في القرآن العظيم على لسان موسى وهارون- عليهما

(١) النازعات: ١٥- ٢٦.
(٢) النمل: ١٤.
(٣) طه: ٦١.
(٤) الشعراء: ١٢، ١٣.

السلام: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾(١).

٣- اضطهاد بني إسرائيل والإبادة العنصرية:

ولما كان بنو إسرائيل هم أتباع موسى، وهم قومه الذين نالهم من طغيان فرعون ما نالهم، وما أدى ذلك إلى إذلالهم وإفسادهم، فقد كان كل ذلك إيذاءً شديدًا لموسى وهارون، إذ يباد أهلهما إبادة تنم عن عنصرية مغرقة في الظلم، لم تفقها في ظلمتها، إلا عنصرية من يدّعون اليوم أنهم ورثة بني إسرائيل من الذين اغتصبوا أرض شعب فلسطين، وعاثوا في بلادهم قتلاً وإبادةً وفسادًا وتهجيرًا وسجنًا وتعذيبًا..

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(٢).

٤- المنة على موسى عليه السلام في قصوره وهو صغير:

قال- تعالى- على لسان فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٣). وليس من أذًى أشد على نفس الرسول أن تذكره بقصور وهفوات حدثت معه، قبل أن يرسل إليه.. ولذلك فقد آذاه فرعون أشد الأذى عندما ذكره بتلك الوقائع، وهو في ذروة دعوته إلى التوحيد. وقد بينته الآية الكريمة الآنفة.

٥- اتهامات فرعون الباطلة:

وكما مرّ مع إبراهيم ونوح- عليهما السلام- من اتهام الأعداء لهما بصفات يراد منها إسقاط دعوة النبي، جاء فرعون ليتهم موسى عليه السلام بالجنون: ﴿ قَالَ إِنَّ

---

(١) طه: ٤٥.

(٢) القصص: ٤، ٥.

(٣) الشعراء: ١٨، ١٩.

﴿ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[(١)].. إنه يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة في ذاتها فيهدمها بهدم شخصية حاملها، فيبعد بذلك القلوب عن تصديقها بهذا التهكم، لأنه لا يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها. واتهام موسى عليه السلام بالجنون، هدفه هدم أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين.

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فهو يمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين[(٢)].

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[(٣)].

وهذه إجابة محكمة حكيمة على سؤال فرعون: من رب العالمين ؟ وهي إجابة فيها من حسن التأتي، والخروج من خوف البطش، مع الصدع بالحق، وهي استجابة لقول ربنا لموسى وهارون وطلبه منهما أن يكونا حكيمين في دعوتهما لذلك الطاغية، قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[(٤)] [(٥)].

٦- التهديد بالتعذيب والسجن:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[(٦)].

٧- التهكم والسخرية أمام الملأ:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[(٧)].

---

(١) الشعراء: ٢٧.
(٢) للاستزادة في قصة موسى عليه السلام انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص٣٤١-٣٧٧. طبعة بيروت.
(٣) الشعراء: ٢٨.
(٤) طه: ٤٤.
(٥) في ظلال القرآن (٥/ ٣٤٣).
(٦) الشعراء: ٢٩.
(٧) القصص: ٣٨.

٨- قتل من آمن من السحرة:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

٩- الهرب من بطش فرعون وظلمه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[2].

١٠- تهديد فرعون له بالقتل واتهامه بإظهار الفساد:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[3].

ثالثًا: الدروس المستقاة من سيرة هذا النبي:

١ - تتشابه الدروس المستقاة من سير الأنبياء ومعاناتهم الداخلية والخارجية، فهم داخليًا يعانون مما يلاقونه من العناد والصدّ اللذين يبديانهما الأقوام المدعوة، كما يعانون من الخذلان والإيذاء المعنوي والمادي من هذه الأقوام، إلا أن صبر الأنبياء والثبات على الدعوة تجاه أقوامهم كانا دائمًا حاضرين بصورتيهما العليا المثلى، وكانا حافزًا ونبراسًا وقدوة لكل من شرفه الله من بعدهم بحمل أمانة الدعوة والبلاغ.

٢ - لم تخرج سيرة موسى وهارون- عليهما السلام- عن ذلك الدرس المتمثل بالصبر والثبات بأعلى صورهما، فموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وسيرته

(١) طه: ٧١- ٧٣.

(٢) طه: ٧٧- ٧٩.

(٣) غافر: ٢٦.

كما هي سيرة رسولنا الكريم محمد ﷺ كانت معلمًا بارزًا للسائرين على الدرب الدعوي في عصرنا الحاضر، يستلهمون منها الثبات والدأب والقوة في حمل الأمانة، رغم كل المخاطر والأذى والتهديد والإقصاء والتصفية.

ولقد استجاب لهذا الدرس ثلة من سحرة فرعون بعد أن رأوا الحق عيانًا لا لبس فيه، فآمنوا بما جاء به موسى، وهنا كان التهديد من فرعون، الذي قال لهم: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[1] . فهل فعل هذا التهديد الذي أطلقه الطاغية فعلاً سلبيًا أو ترددًا أو خوفًا في نفوس الثلة التي آمنت للتو، لا.. أبدًا، ودليل ذلك جوابهم على تهديد الظالم الذي كان قمة في الثبات والصبر والإيمان الذي لا يتزعزع: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[2] .

أرأيت كيف يتحول الإيمان في قلوب الرجال إلى ثبات كالجبال الراسيات أمام طغيان فاق كل تصور في وحشيته وهمجيته؟ حيث نفذ فيهم فرعون وعيده، دون أن ينال ذلك التهديد ثم القتل من صبرهم وثباتهم أي بادرة من وهن، وهذا هو ما يحتاجه آل الدعوة في عصرنا الطاغي الباغي الذي نعيشه.. دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وثبات وصبر عليها وعلى الملمات التي تلحق بالداعين، وخطاب مقنع فعّال، كما كان خطاب سيدنا رسول الله ﷺ وخطاب الأنبياء من قبله عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

---

(١) طه: ٧١.
(٢) طه: ٧٢، ٧٣.

٣ – بقي أن نبين: بماذا تميزت سيرة موسى عليه السلام عن سيرة من قبله من الرسل؟ وكيف تعامل موسى عليه السلام مع هذه الميزة؟ وما هو الدرس الذي يمكن أن يتعلمه الدعاة من تلك السيرة؟ ولبيان ذلك نقول: إن ما يميز سيرة موسى أنه كان قائدًا لشعب بني إسرائيل المضطهد المذل والذي يحاول فرعون إبادته، وهو شعب قُلّبٌ، متغير السلوك والمواقف، مقلقل اليقين، منافق الضمير والعمل.. ومع ذلك فقد كُلّف موسى بإنقاذه من ظلم فرعون، لكونه الشعب الوحيد في ذلك الزمان المتبقي فيه بعض صلة بالله وبالكتاب، رغم أنها صلة مشوشة غامضة، فيها الكثير من الفساد والانحراف والتقلب، تلك الخصال التي لازمت هذا الشعب منذ وجد وحتى اليوم. ولا أدل على ذلك من قصتهم مع موسى، وقد أنجاهم الله من فرعون للتو، فأغرق الطاغية، وأنزلهم منزلاً حسنًا: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾[1]. ولما غاب عنهم موسى بعض الوقت للقاء ربه، عمل فيهم حبهم للمال والذهب عمله، فأضلهم السامري.. فلما عاد موسى إليهم، ووجدهم قد عكفوا على عجل الذهب الذي صنعه لهم السامري، ذكرهم بفضل الله عليهم، وكيف أنقذهم من الطاغية بمعجزة عيانية، وكيف أنزلهم منزلاً حسنًا، ورزقهم من الطيبات: ﴿.. أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ ..﴾[2]، مع أنه لم يكن مضى على غياب موسى إلا أيام: ﴿..أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾[3].

(١) طه: ٨٠، ٨١.
(٢) طه: ٨٦.
(٣) طه: ٨٦.

سيرة طويلة عانى فيها موسى ما عانى من عوج جبلة هؤلاء القوم، الـذين وكل بهم وبإنقاذهم من فرعون ومـن الانحـراف الـشديد الـذي دب فـيهم.. وهي مهمة شاقة شاقة، بل ومضنية، يعاني منها الرسول المكلف، بدءًا بالهروب بهم، ليفتح لهم الطرق المغلقة، ويبعد الخطر الذي كان يلاحقهم، ثـم ليـضمن ثباتهم على العهد والمواعيد، وهم فعلاً لا يكادون يستقرون عـلى قـرارٍ ليلـةً أو نهارًا، ترى ماذا كان موقف موسى تجاه كل ذلك العناد ﵇..؟ لقد كان طودًا من الصبر والتحمل والثبات والاستمرار بلا كلل ولا ملـل، ولـذلك فـإن في سيرته العزاء كله للسائرين سرى حَمَلة هذا التوحيد منذ آدم ﵇ وحتى السيرة الفذة لرسـولنا الحبيب محمد ﷺ.

المبحث الرابع
معاناة نبي الله عيسى عليه السلام

المحنة في حياة عيسى عليه السلام:

مما لا ريب فيه أن عيسى عليه السلام كان يتمتع بطاقة ضخمة من الصبر والاحتمال؛ فالظروف القاسية، والمكائد العديدة، والمحن المتتابعة التي قاساها، كانت كلها تشير إلى عظمة الشخصية التي تحلى بها عيسى ابن مريم عليه السلام. وما زاد في قسوة الظروف التي أحاطت به وبنشأته أنه واجه آلاما وفتنا داخلية وخارجية من ألوان الشكوك والإيذاء بسبب ولادته من أم بلا أب.

وتبتدئ معاناته الداخلية والخارجية من وقت حمل أمه مريم- عليها السلام- به عليه السلام.

أولا: المعاناة الداخلية:

١ - المعاناة في حمله عليه السلام:

لم تقتصر المعاناة الداخلية لنبي الله عيسى عليه السلام عليه وحده بل شملت أمه ومن يكفلها من آل زكريا عليه السلام. وتبتدئ هذه المحن من تبشيرها- عليها السلام- باصطفاء الله لها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورة لا بد منها، من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و﴿انتبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها

(١) آل عمران: ٤٢.

الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾(١).

الرهبة من الملك: فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾(٢) والتقي: هو ذو نهية.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾(٣) أي خاطبها الملك قائلاً: لست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك لأهب لك ولداً زكيا.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾(٤) أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾(٥) أي ولست ذات زوج، وما أنا ممن يفعلن الفاحشة ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾(٦) فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها قائلاً: إنه وعد الله؛ إذ قضى بأنه سيخلق منك غلاماً، ولست بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي أن هذا أسهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير. وقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى. فاستكانت لذلك وأنابت، وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس سوف يتكلمون فيها بسببه؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر

(١) مريم: ١٧.
(٢) مريم: ١٨.
(٣) مريم: ١٩.
(٤) مريم ٢٠.
(٥) مريم: ٢٠.
(٦) مريم: ٢١.

الحال من غير تدبر ولا تعقل.

التواري عن الأنظار: قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾[(١)]؛ وذلك لأن مريم- عليها السلام- لما حملت ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت من همٍّ ما دخل على آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، وانتبذت مكاناً قصياً[(٢)].

٢ - **ولادة عيسى** عليه السلام:

وحين أحست بالطلق تمنت الموت، لأنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم - فيما يظنون - بغيا: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[(٣)]. ولكن الأمان جاءها من ربها بالنداء من تحتها، وقد اختُلِفَ في من كان المنادي هل هو جبريل أم أنه عيسى [(٤)]. وكان مضمون هذا النداء ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى .. ﴾[(٥)]. قال السعدي: (فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل).

---

(١) مريم : ٢٢.
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٧٨).
(٣) مريم : ٢٣.
(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/ ١١٨).
(٥) مريم ٢٤- ٢٦.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: سكوتاً ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[(١)]. أي: لا تخاطبيهم بكلام، لتستريحي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة.

وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم في نفي ذلك عن نفسها، لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها[(٢)].

٣ - مواجهة المشككين والتأنيب من غير ذنب:

وبعد ذلك كله جاءت مواجهتها لقومها التي أخبر الله- سبحانه وتعالى- عنها بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[(٣)].

جاءت مريم إلى قومها وهي تعلم براءة نفسها ونزاهتها، وهي واثقة من تبرئة الله- سبحانه وتعالى- لها. فعندما قال لها قومها تلك المقولة، وعجبوا من ذلك، وهي من أهل بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والزهادة والعبادة. لم تتول هي الإجابة لنفي التهمة عنها، ولكنها أشارت إلى وليدها، وهي تعلم أنه ليس من أهل الكلام حتى يتولى الرد عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[(٤)]. ولكن إيمانها بربها وثقتها به جعلها تطيع ربها فتجيب بتلك الإشارة، وحينئذٍ أنطق الله صاحب المهد ببراءتها ونزاهتها.

---

(١) مريم: ٢٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/ ١٠٠، ١٠١).
(٣) مريم: ٢٧، ٢٨.
(٤) مريم: ٢٩.

فنطق عيسى عليه السلام بعد هذه الإشارة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1]. ومن الملاحظ أن عيسى عليه السلام لم يرد مباشرة على التهمة الموجهة لأمه، بل إن مضمون كلامه فيه رد قوي عليهم بما زعموا، فإن الله- سبحانه وتعالى- لا يعطي الكتاب والنبوة لولد من زنى، إضافة إلى ما وهبه الله من الأوصاف الجميلة التي توحي ببركته ونزاهة أمه وطهارتها[2].

٤ - كلام عيسى عليه السلام في المهد:

فلما ضاق الحال بمريم ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ..﴾[3]، أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه. فعند ذلك ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[4].

أي كيف تحيلين في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ؟! وهو رضيع في مهده ولا يميز، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء.

فعندها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[5] هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، إذ

(١) مريم: ٣٠- ٣٣.
(٢) انظر: منيرة الحبيب، رسالة ماجستير، عيسى ابن مريم في ضوء الكتاب والسنة، كلية الآداب للبنات، عام ١٤٠٧هـ، ص ٢٥-٥٤.
(٣، ٤) مريم: ٢٩.
(٥) مريم: ٣٠- ٣٣.

قال رب العزة على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [(١)] فاعترف لله- تعالى- بالعبودية، وأن الله ربه، وبذلك نزّه جناب الله عن قول الظالمين وزعمهم أنه ابن الله، بل أفهمهم أنه عبده ورسوله وابن أمته.

ثم برّأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [(٢)] وذلك أنه كان قد دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزّه جنابه عن النقص والعيب في اتخاذ الولد والصاحبة- تعالى ربنا وتقدس.

﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [(٣)] ، وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحتاجين على اختلاف الأصناف، وقرى الأضياف، والنفقات على الزوجات والأهل والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات[(٤)].

ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [(٥)] أي وجعلني براً بوالدتي وبذلك تأكد حقها عليه، إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبراها وأعطى كل نفس هداها.

ثانيا: المعاناة الخارجية:

١ - ألم هجران الأرض:

لقد ولد عليه السلام ببيت لحم قريباً من بيت المقدس.

(١) مريم : ٣٠.
(٢) مريم : ٣٠، ٣١.
(٣) مريم : ٣١.
(٤) قصص الأنبياء (٢/ ٣٩٦)، وتفسير البغوي (٢/ ٣٠٦)، وتفسير البيضاوي (١/ ٢٧٦).
(٥) مريم: ٣٢.

ذكر وهب بن منبه أنه لما خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى، فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض.

فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان[١] هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها[٢] عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك.

فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره[٣].

وقال إسحق بن بشر، عن جويبر، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاما من الله، ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى، فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر[٤].

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه، قال: إن

---

(١) المر: يجبر به الجرح والكسر . واللبان: ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره.

(٢) في الطبري: أن رسل ملك فارس صاروا إلى هيرودس غلطا، وكان الرياسة على بيت المقدس لقيصر والملك من قبل قيصر عليها هيرودس الكبير.

(٣) البداية والنهاية (ج ٢ / ص ٨٩).

(٤) قال ابن الأثير في الكامل والطبري في تاريخه: كان سبب قدومها مصر خوفها من ملك بني إسرائيل.

عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا [قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملها على حمار، حتى جاء بها إلى إيليا] وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره[١].

٢ - إيذاؤه باتهام اليهود لأمه بالزنا:

قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾[٢] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الحيض، لعنهم الله وكانوا يسمونه ابن البغية[٣]، فبرأها الله من ذلك، وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً من أولي العزم الخمسة الكبار.

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده، عن كعب الأحبار ووهب ابن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي، دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: لما بعث عيسى ابن مريم، وجاءهم بالبينات، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به، فيقولون: ما أكل فلان البارحة، وما ادخر في منزله؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا[٤].

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٤١٩).
(٢) النساء: ١٥٦.
(٣) قصص الأنبياء (٢/ ٤١٤).
(٤) قصص الأنبياء (٢/ ٤٢٦).

٣ - معاناته من الجحود والإنكار والاتهام بالسحر بعد المعجزات الباهرات:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وبعد أن عاين اليهود من عيسى عليه السلام تلك المعجزات ازدادوا عليه غضباً. ومنه غيظا، وما كان جواب كثير منهم إلا أن قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ويعود عناد اليهود وجحودهم كما كانوا في عهد الأنبياء من قبله، ومن جملة الأسباب التي صدتهم عن اتباعه مع ما جاء به من الآيات البينات ما يلي:

أ - ادعاء أحبار اليهود وكهنتهم أنهم الصلة بين الله وبين الناس، وبدونهم لا تتم صلة العبد بربه، ولا المخلوق بخالقه، فجعلوا يصدرون للناس أحكاماً ويشرعون لها شرائع، ويزعمون أنها من عند الله، كل ذلك من أجل مصالحهم الشخصية، وهذا الصنف قد أخبر الله عنه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]. فجاء عيسى عليه السلام يبطل هذه الدعوى.

ب - شغف اليهود بالمال وولعهم بجمعه، حتى صاروا عبيداً له، فماتت قلوبهم، وفسدت عقيدتهم، وانحطت معنوياتهم وأخلاقهم، ودب الفساد في كل جانب من جوانب حياتهم، فجاء عيسى عليه السلام ينكر عليهم ذلك، ويحثهم على الزهادة في الدنيا.

(١) المائدة: ١١٠.
(٢) البقرة: ٧٩.

جـ - أنكر طائفة منهم القيامة، واستبعدوا يوم الحشر[١].

ولم يكتف اليهود بتكذيب الآيات، بل حاصروا الدعوة وحاربوها، لمخالفتها ما هم عليه من الفساد، فهي دعوة إلى الفضيلة وهم أهل رذيلة، وهي دعوة توحيد وهم أهل شرك، وهي دعوة للإيمان بعالم الغيب والروح وهم أناس ماديون لا مكان للإيمان بعالم الغيب والروح عندهم إلا أن يكون إيمانًا محرفًا ماديًا[٢].

فأرادوا القضاء عليه ولكن الله حفظه من كيدهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٣] أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم، ورفعتك إليَّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعًا يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمدًا ﷺ[٤].

وفي اتهامهم لعيسى بالسحر عليه السلام قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٥].

(١) انظر: سعد صادق محمد، الأنبياء في القرآن ص٢٣٧-٢٤١. و د. أحمد شلبي، المسيحية، ص ٤٦.
(٢) انظر: مسعود الغامدي، رسالة ماجستير، ميلاد عيسى عليه السلام عند اليهود والنصارى والمسلمين، ٧٠.
(٣) المائدة: ١١٠.
(٤) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٧٢٩)، قصص الأنبياء (٢/ ٤٢٨)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٤).
(٥) الصف: ٦.

٤ - السياحة في الأرض:

السياحة في الأرض هي الانتقال من مكان إلى مكان، وكذلك كان عيسى عليه السلام، فإنه لم يستقر في مكان واحد، بل كان ينتقل من مكان إلى مكان يدعو الناس، ولذا قال بعض السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾[1]. أي: لكثرة سياحته، وقيل لمسحه الأرض؛ أي سياحته فيها فراراً بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود وافترائهم عليه وعلى أمه[2]. وعند القرطبي، قيل: لأنه مسح الأرض، أي ذهب فيها فلم يستكن بكنٍّ[3].

والدعوة إلى الله تحتاج من الداعية إلى الالتقاء بالمدعوين، وقد يتطلب الأمر من الداعية أن يذهب إليهم في بلدانهم وأماكنهم ليبلغهم دعوة الله- سبحانه وتعالى، وبخاصة عندما تكون الدعوة جديدة على القوم لا يعرفون عنها شيئاً، ولذا فإن رسول الله ﷺ لما أيس من أهل مكة ذهب يدعو أهل الطائف، كما كان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج، ليجد من يقبل دعوة الله وينصرها حتى ينتقل إليه، وكان ذلك من نصيب أهل المدينة، عندما استجابت وفودهم لهذه الدعوة الجديدة، التي كان من نتيجتها أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأكمل دعوته هناك، إضافة إلى ما كان يبعث به رسول الله ﷺ من الرسائل والرسل إلى أقوام آخرين[4].

وكان عيسى عليه السلام كذلك يبعث بالرسل، وهم الحواريون، ليبلغوا الدعوة في أماكن مختلفة، وقد اشتهر عند أهل الكتاب تسمية هؤلاء الحواريين بالرسل.

---

(١) آل عمران : ٤٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٤. وقصص الأنبياء، ٦٦٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٥٧).
(٤) انظر نصوص بعض رسائل النبي ﷺ إلى الملوك وغيرهم عند ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٦٨٨ وما بعدها.

٥ - طلب نزول المائدة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾[1].

ويكشف لنا هذا الحوار عما عاناه عليه السلام من الخلص ممن آمن به وصدقه، وعن طبيعة أصحابه المستخلصين منهم وهم الحواريون. إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم.. ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة، تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم، ويشهدون بها على صدق نبوته ورسالته لمن وراءهم.

وإن قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، ثم انظر إلى ما طلبوه منه، وأي شي سألوه، إنهم لم يسألوه إلا الطعام، فحذرهم عليه السلام مغبة سؤالهم وتشكيكهم، بعد كل تلك المعجزات الباهرات، مبينًا لهم أن المؤمنين الصادقين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين.. فكان ردهم أسوأ من سؤالهم، إذ قالوا: نريد أن نأكل منها، وبذلك أكدوا ماديتهم، وعجزوا عن تجاوز مطالب الجسد وحظ النفس، وعدّوا الاستجابة لمطلبهم المادي هذا طريقًا لاطمئنان قلوبهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾[2]. إذن فأين التصديق وأين الأيمان؟! ثم قالوا: ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾، فهي الشكوك تجول في خواطرهم، وهو الريب الذي ظل مصاحباً لهم، وهم الذين أشهدوا الله

---

(١) المائدة: ١١١- ١١٣.

(٢) المائدة: ١١٣.

على إيمانهم من قبل، إذ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾(١).

وكان الذي يجب أن يعللوا به سؤالهم قبل أي تعليل آخر وهو الشهادة على المعجزة، جعلوه آخر سؤالهم واهتمامهم فقالوا: ﴿ وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٢).

وقصة المائدة – كما أوردها القرآن الكريم – لم ترد في كتب النصارى. ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخرة بعد عيسى عليه السلام بفترة طويلة، فهي بذلك لا تُؤمّن على إظهار الحقيقة التي تنزلت من عند الله، فهي ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى عليه السلام وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه.

ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فورد في إنجيل متى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: «وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال له تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء والأولاد».. وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل.

وبعض التابعين– رضوان الله عليهم– كمجاهد والحسن يريان أن المائدة لم تنزل؛ لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه: ﴿مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ

(١) المائدة : ١١١.
(٢) المائدة : ١١٣.

مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١] خافوا وكفوا عن طلب نزولها[٢].

٦ – من المحن الداخلية والخارجية معا رفعه إلى السماء:

هل هذه محنة أم تكريم وإنقاذ ؟

لما تآمر أعداء الله من اليهود على قتل عيسى ﷺ والخلاص منه ومن دعوته، نجاه الله– سبحانه وتعالى– منهم، ورد كيدهم في نحورهم، فرفعه إليه حياً ببدنه وروحه، ويدل على ذلك قوله– سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[٣][٤].

وما دبَّره اليهود من القتل والصلب وقع على شبيه له، كما في قوله– سبحانه

---

(١) المائدة : ١١٥.

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٤٥٧).

(٣) آل عمران : ٥٥.

(٤) وقد اختلف العلماء في المقصود بـ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ في هذه الآية، فذكر ابن جرير (ت٣١٠هـ) عدة أقوال في هذه المسألة على النحو التالي:

قال بعضهم: هي وفاة نوم، وكان معنى الكلام على مذهبهم: إني منيمك ورافعك في نومك.

وقال آخرون: معنى ذلك: إني قابضك من الأرض، فرافعك إليَّ. قالوا: ومعنى الوفاة: القبض، لما يقال: توفيت من فلان ما لي عليه، بمعنى: قبضته واستوفيته. قالوا: فمعنى قوله: إني متوفيك ورافعك، أي قابضك من الأرض حياً إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك.

وقال آخرون: معنى ذلك: إني متوفيك وفاة موت.

وقال آخرون: معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى، إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وقال: هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

ثم قال بعد أن ساق هذه الأقوال وأدلتها: وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال**» ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت، فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه. انظر: جامع البيان ٣/ ٢٨٩-٢٩١. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٦٤، ٦٥. وابن تيمية، مجموع الفتاوى ٤/ ٣٢٢، ٣٢٣.

وتعـالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١). ذكر ابن جرير فيمن ألقي عليه الشبه قولين، الأول: أن الشبه ألقي على جميع أصحابه. الثاني: أن الشبه ألقي على رجل من أصحابه حين سألهم ذلك.

وقيل على من خان من أصحابه واختار ابن جرير الأول (٢).

وأضاف ابن الجوزي قولاً ثالثاً، وهو أن الذي ألقي عليه الشبه بعـض مـن أراد قتله من اليهود(٣).

ويحدثنا ابن كثير عن قوم عيسى بعد رفعه قائلاً:

وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شـيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبدالله ورسوله وابن أمته، ومـنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هـو ثالـث ثلاثة. وقد حكى الله مقالتهم في القرآن، وردَّ على كـل فريـق. فاسـتمروا عـلى ذلك قريباً من ثلاث مائة سنة، ثم نبغ لهم ملك مـن ملـوك اليونـان يقـال لـه: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية قيل: حيلـة ليفـسده، فإنـه كـان فيلـسوفاً وقيل: جهلاً منه. إلا أنه بدل لهم دين المـسيح وحرفـه وزاد فيـه ونقـص منـه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى(٤) التي هي الخيانـة الحقـيرة، وأحـل في زمانـه لحـم الخنزيـر، وصـلوا إلى المـشرق، وصـوروا لـه الكنـائس والمعابـد

(١) النساء: ١٥٧، ١٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان ٦/ ١٢-١٤

(٣) انظر: زاد المسير ٢/ ٢٤٤.

(٤) الأمانة جملة من الكلام اخترعوه، يجمع أصول عقيدتهم، ولا تتم لأحد منهم نـصرانية إلا بـه، وقـد صرحوا فيه بأن المسيح رب، وأنه ابن الله وأنه بكره، وأنه ليس له ولد غيره، وأنه ليس بعبـد مخلـوق، وأنه مساو لأبيه في الجوهر، إلى غير ذلك من المعتقـد الباطـل. (انظـر: ابـن حـزم، الفـصل في الملـل والأهواء والنحل ١/ ١١٨. وابن القيم، هداية الحيارى ٤٨٨، ٤٨٩).

والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين(١).

وفي موقف أهل الكتاب من عيسى عليه السلام ورد في مسند أبي يعلى، عن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فيك مثل من عيسى ابن مريم؛ أبغضته يهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليست به**»، قال: ثم قال علي: يهلك فيَّ رجلان، محب مطرٍ يفرط لي بما ليس فيَّ، ومبغض مفترٍ يحمله شنآني على أن يبهتني(٢).

٧ - نزوله في آخر الزمان:

لقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى هذا النزول حسب أقوال المفسرين، ففي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٣).

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة(٤).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(٥). قال ابن جرير: (يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام)(٦).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٧.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٠)، وأبو يعلى (٥٣٤) واللفظ له، وضعفه الأرناؤوط.
(٣) الزخرف: ٦١.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٧٠). وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٣،١٣٤).
(٥) النساء: ١٥٩.
(٦) جامع البيان (٦/ ١٨، ٢١). وقد ذكر ابن جرير أقوالاً أخرى، وهذا القول هو اختياره.

وأما في السنة فقد تواترت الأحاديث على نزول عيسى في آخر الزمان[١] كما دلت على ذلك السنة، لما في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم، حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»[٢].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**»[٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»[٤].

وما يكون في هذا النزول من كسر الصليب، وقتل الخنزير، ووضع الجزية، وقتل الدجال سيأتي الحديث عنه في المبحث الرابع- إن شاء الله تعالى.

الحكمة من نزوله:

إن مما اختص به عيسى ابن مريم عليه السلام دون سائر الأنبياء نزوله إلى الدنيا في آخر الزمان، ومباشرته مهام الدعوة مرة ثانية، ولكن ترى ما الحكمة من هذا النزول؟ لقد حاول بعض العلماء معرفة ذلك، ومما قالوه في هذا الشأن ما يلي:

---

(١) انظر أقوال أهل العلم في تواتر الأحاديث في هذه المسألة عند الكمشميري، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق ومراجعة وتعليق: عبدالفتاح أبو غدة، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) حديث (٢٢٢٢).

(٣) حديث (١٥٦).

(٤) حديث (٢٤٧٦).

١ – الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين – تعالى – كذبهم، وأنه هو الذي يقتلهم.

٢ – نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.

٣ – أنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله.

٤ – تكذيبه لكل من ادعى إلاهيته أو بنوته لله تعالى.

٥ – إبطال الغلو الذي تمادى فيه أهل الكتاب، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ (١).

وبعد أن ذكر ابن حجر الأقوال الثلاثة الأولى، قال:«والأول أوجه» (٢).

مدة بقائه في الأرض بعد نزوله:

وأما ما يتعلق في مدة بقائه في الأرض بعد النزول فقد روى مسلم من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – في مدة بقاء عيسى في الأرض بعد نزوله، أنها سبع سنين(٣). وروى نعيم بن حماد (ت ٢٢٨ هـ) في كتاب الفتن من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أن عيسى عليه السلام إذ ذاك يتزوج في الأرض، ويقيم بها تسع عشرة سنة. وبإسناد فيه (مبهم) عن أبي هريرة رضي الله عنه يقيم بها

(١) النساء: ١٧١.

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٩٣. وانظر: يوسف الوابل، أشراط الساعة ٣٥٥، ٣٥٧، ود. محمود الديك، المسيح يعود إلى الأرض ثانية، ١٧١، ١٧٣.

(٣) ورد ذلك في حديث طويل في كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث (٢٩٤٠).

أربعين سنة [(١)].

ثالثا: ما يستخلص من فوائد وعظات من سيرة عيسى عليه السلام:

١ - لقد جعل ربنا- سبحانه وتعالى- معاناة الأنبياء والرسل- صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا- متنوعة، تشمل كل ما يمكن أن يتعرض له الداعية إلى الله من محن وصعوبات، وذلك كي تكون في جعبة هذا الداعية مجموعة من تجارب الأبرار السابقين وما لاقوه من عنت ومن مشاق، وما تعرضوا له من مخاطر جمة، لم تترك نوعًا من الألم والمواجهة إلا وقد عرضت صوراً واضحة بليغة منها، حتى إذا جاء الدعاة من بعد الأنبياء، يحملون ميراثهم من الأمانة، التي تعهدوا بحملها، كانت لهم وأمامهم عزاءات من الصبر والثبات والرضا والقوة بحمل الأمانة، في مواجهة الباطل، سطرتها سير من هم خير البشر وأنبلهم وأعلاهم مكانة وقدرًا عند الله.

٢ - وها هو نبي الله ورسوله عيسى عليه السلام، يدخل إلى ساحة الامتحان والابتلاء، فتداهمه المحن منذ الساعة التي خرج بها إلى الحياة، عانى من داخل المجموعة التي آمنت به، وعانى من خارجها، فكان الصبر وقوة التحمل والإصرار والثبات كلها رفيقة له لا تفارقه، فهو في حومة الدعوة إلى الله ومواجهة العناد الجاحد ومواجهة المفتريات والتشكيك والرمي بشتى أنواع الكذب صامد كالجبال الرواسي، بلا تردد وبلا كلل ولا وجل، حتى بعد أن هُدّدت حياته، وبوشر بتدبير قتله- عليه وعلى رسولنا وحبيبنا محمد سيد الصابرين أفضل الصلوات وأتم التسليم، فإن ذلك لم ينل من عزيمته، ولا من إصراره على المضي فيما كلفه الله به من القيام بحق أمانة التبليغ وهداية الناس

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٤٩٣).

إلى توحيد الله.

٣ - وحتى لا نعيد ونكرر ما سقناه سابقًا من صور المعاناة والصبر على المحن الذي واجه به الأنبياء السابقون كل ما لاقوه، نكتفي هنا بإيراد محنة متميزة واجهها عيسى عليه السلام، وهي محنة التشكيك في شرف أمه وأنه ابن زنى، وأن ذلك لا يجعله صالحًا للنبوة والدعوة إلى الله، وهو في مواجهة هذه الفرية، التي انطلقت من أفواه الجاحدين من قومه (بني إسرائيل). لم يهرب، ولم يوارب أو يغمغم، بل منذ اللحظة الأولى وهو طفل في المهد، كانت مواجهته صريحة بليغة مفحمة لكل من أراد الحقيقة، ولم يكن معاديًا معاندًا جاحدًا مهما كانت الحقيقة.. ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1].

وقد صدَّق ربنا على قول عيسى هذا إذ قال جلّ شانه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[2]. لقد كانت المواجهة هنا عسيرة وشديدة الوقع على مريم، ومن الصعب على قومها تصديقها بما ستقوله عن كيفية مجيء هذا الطفل الفذ، لقد واجهت أول ما واجهت أهل بيتها الذين كفلوها (زكريا وأهله). وهم الذين يعرفونها الشابة الطاهرة البتول المنذورة للمعبد، فكيف بهم وقد عاينوها، وهي تحمل طفلاً، لا يدرون كيف وجد ومن أين أتت به: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[3].

(١) مريم: ٣٠- ٣٣.
(٢) مريم: ٣٤.
(٣) مريم: ٢٧، ٢٨.

لقد وُجِّهت التهمة مباشرة، فما كان منها إلا أن أشارت إليه كما أمرها ربها، لأن الله العالم بمن خلق، يعلم أن البشر لا يصدقون كلام المتهمة في هذه الحالة، فأمرها أن تدع الإجابة لهذا الوليد العتيد المبهر.. وكانت المحنة، وكان التشكيك من الجاحدين البعيدين عن أهل بيت مريم، وفي أي شيء كان التشكيك.. إنه في أصل هذا المولود، وفي شرفه وشرف أمه وفي قضية لا يتسامح بها في تلك المجتمعات.

ونحن هنا لسنا بصدد سرد القصة، بل لبيان جوانب المعاناة التي واجهت عيسى ﵇ من بين كثير من الآلام الأخرى.. وكانت هذه المحنة واحدة كبيرة، وقد صبر النبي واحتسب، وواجه القوم ببلاغة وقوة. وكانت بلاغته وهو في المهد جديرة بإفحام كل من كان ساعيًا لمعرفة الحقيقة، وقد حدث ذلك فعلاً وآمن له الكثيرون، عندما رأوا المعجزة الربانية التي أنطقت الطفل بالحقيقة، فعلموا أن هذه المعجزة مثل معجزة الحمل والولادة من دون أم.. غير أن الجاحدين المنكرين ذوي النوايا السيئة، وهؤلاء كثر في كل زمان ومكان، فقد فسد حليبهم، وتشوهت فطرهم، وفقدوا بوصلة سبب وجودهم على الأرض، وذهبوا في ذلك مذاهب، كلها مادية أرضية طينية. ولذلك فقد ظلوا معاندين للرسول، وهو يقارعهم الحجة، إلى أن قرروا قتله وخططوا لذلك، وبدؤوا بالتنفيذ، إلا أن مكرهم ذهب هباء، إذ رفع الله عيسى إليه مقربًا، وقاموا هم بقتل من ألقى عليه الله سمة الشبه بعيسى ﵇ كما ذكرنا آنفًا... وظلت صورة جهاد النبي الكريم عيسى ﵇ وصبره وثقته بربه حتى اللحظات الأخيرة صورة ماثلة للدعاة إلى الله، تقول لهم: أن طريق الدعوة محفوف بالمكاره وبالمخاطر، وإن من هم أعلى وأغلى عند الله لم تفتهم التجربة،

ولكن كل ما لاقوه لم يفت في عضد واحد منهم شيئًا، فعليكم بسيرة أولئك الأبرار، عضوا عليها بالنواجذ، ولتكن زاد ثباتكم اليوم وكل يوم، فلا تغادروها أبدًا.. وقد ضرب الكثيرون من بينكم الأمثال في عظيم الصبر والثبات؛ فهذا الإمام الشهيد حسن البنا والشهيد سيد قطب، وأفواج ممن صبروا وثبتوا وقدموا أرواحهم في سبيل الله.. في كثير من بلدان المسلمين يعطون الأجيال أمثلة عالية غالية تقول: إن العاقبة للمتقين الصابرين على البأساء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. وإن الخسران في الدنيا والآخرة إنما هو رفيق المعاندين الجاحدين، الذين كرسوا حياتهم لمعاداة الحق والهدى والبقاء عند حدود الفساد والإفساد، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم وإن كثر عددهم وتضخمت عدتهم، فإنهم الذين يصلون بعملهم ومواقفهم إلى دار البوار، وجر بعض الناس خلفهم بالإغراء والتزيين إلى حفرة ذلك البوار.

المبحث الخامس
معاناة نبي الله يوسف عليه السلام

لئن كان الحديث قد مضى عن طائفة من أنبياء الله ورسله، وما فيها من دروس وعبر، يعقلها العالمون، وينساها الجاهلون، فإن يوسف عليه السلام نموذج للابتلاء، ومثال للصبر، ومؤشر لعاقبة المتقين، وفصول قصته تؤذن بأن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن الله لا يؤيد كيد الخائنين، وأن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.. إلى غير ذلك من معان وقيم تبدو للعيان حين يكون الصبر واليقين، وتبرز للناظرين حين يكون الصدق ومجاهدة النفس، والانتصار على الشيطان في معركة الإغواء والإغراء.

إن المسافة هائلة بين غيابة الجب وبين علو الشأن في ملك مصر، والفرق كبير في عرف الناس بين يوسف عليه السلام وهو في غياهب السجن، وبين كونه من خلصاء ومستشاري عزيز مصر، وليس أقل منه الفرق بين يوسف عليه السلام وهو بمثابة السلعة تباع وتشترى بأزهد الأثمان، وينتقل في الرق من سيد إلى سيد، وهو لا يملك من أمره شيئاً وبين يوسف عليه السلام وهو على خزائن الأرض، يتبوأ منها حيث يشاء، يملك الكيل لفئة ويمنعه أخرى، ويمنع الميرة والطعام عن وفد ويهبه لآخرين، وكل ذلك منه بميزان العدل والحق وإظهار الدين.

ولكن هذه المسافة الهائلة وتلك الفروق الكبيرة لم تكن في حياة الصديق عليه السلام لولا الصدق، والإحسان، والصبر، ومراقبة الرحمن، والشكر لله، والرضاء بما قسم، والتسليم بالعسر واليسر، والدعوة لدين الله الخالص

وتوحيده في كل حال، حتى وهو يعيش في ظلمات السجن ووحشته ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾(١).

وهذه العاقبة الحميدة، وذلك التمكين العظيم في الأرض، لم يتسن ليوسف عليه السلام إلا بعد أن امتحنه ربه وابتلاه، وبعد أن عانى صنوفاً من المحن والابتلاءات، قص القرآن علينا منها بالتفصيل: محنة كيد الإخوة- وما أشقه على النفس!

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند

يوسف عليه السلام بين المعاناة الداخلية والخارجية:

أولا: معاناته الداخلية:

١ - محنة حسد إخوته وكيدهم له:

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٨) ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾(٢).

وإذن فهو الحسد، وهو تفضيل ولد على ولد من قبل الآباء، ودليل حب يعقوب عليه السلام له وتفضيله على إخوته مع العدل الذي تحلى به في المعاملة قوله- تعالى- على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ ﴾(٣). وقال صاحب قصص الأنبياء: (يا بَنِيّ، إنه ليشق عليّ أن أفارقه ساعة من نهار). فالحسد هو الحالقة التي تحلق الدين، كما بين لنا رسولنا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم فليكن الداعية على علم وانتباه وحذر من هذا الخلق، وليكن على شعور بالمسؤولية عند تربية الأولاد، فلا يقع في مغبة

(١) يوسف : ٣٩.
(٢) يوسف : ٨- ١٠.
(٣) يوسف : ١٣.

الانحياز إلى ولد تجاه ولد آخر أو أولاد.. وإذا كان الإنسان لا يملك ميله القلبي.. فلا أقل من العدل في المعاملة وهو ما فعله نبي الله يعقوب- عليه السلام.. ولا أقل من كبح جماح العواطف.. وهو ما يقتدر عليه من يتصدى لهداية الناس.. فليكن الداعية حذرًا من العواطف الجياشة المنطلقة بلا زمام.. ليس مع أولاده وحسب، بل مع المدعوين أيضًا.. فهل من وعي لهذا الدرس؟!

٢- محنة الجب والخوف والترويع فيه وما صاحبها من أذى وشدة:

إذ ربطوه بحبل، وقبل أن يدلوه في البئر، جعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره حتى صعد إلى صخرة في وسطه، ولم يتخل الله عنه في هذه اللحظة، بل أنزل الله عليه اليسر في حال العسر، وطمأنه بما أوحى إليه أن له مخرجاً مما هو فيه، بل وسينصره الله على إخوته ويرفع درجته، وسيخبرهم بصنيعهم وهم لا يشعرون ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١].

قال ابن عباس- رضي الله عنهما: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك[٢].

٣- محنة الرق:

وهو ينتقل كالسلعة من يد إخوته إلى يد السيارة ثم إلى عزيز مصر الذي أعطاه لامرأته، وكل ذلك على غير إرادة منه، ودون تقدير له أو معرفة به من قبل من استرقه، ولذا باعه من باعه بأزهد الأثمان ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ

(١) يوسف: ١٥.
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٢).

مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[(١)]. وقد اختلف في من هم الذين شروه؛ فقد قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾[(٢)]عائد على إخوة يوسف، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة، قال ابن كثير: والأول أقوى لأن قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾، إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه[(٣)]. هذا والله أعلم؛ ونحن نعلم كم من المعاناة لحقت هذه النفس الأبية الكريمة جراء هذا التجاهل له وهو الكريم النبي ابن النبي ابن النبي ابن خليل الله، أو كما قال رسول الله ﷺ عندما سئل عنه: أي الناس أكرم[(٤)].

ثانيا: معاناته من الخارج:

١ – محنة كيد امرأة العزيز:

قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ

---

(١) يوسف : ٢٠.

(٢) ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ فيه قولان: المراد من الشراء هو البيع، وعلى هذا التقدير ففي ذلك البائع قولان:
القول الأول: قال ابن عباس- رضي الله عنهما: إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم، فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا، فقالوا لهم: فبيعوه منا فباعوه منهم. والمراد من قوله: ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ أي باعوه يقال: شريت الشيء إذا بعته، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع؛ لأن الضمير في قوله: ﴿ وَشَرَوۡهُ﴾ وفي قوله: ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ عائد إلى شيء واحد لكن الضمير في قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ عائد إلى الإخوة فكذا في قوله: ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ يجب أن يكون عائداً إلى الإخوة، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع.
والقول الثاني: أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر (تفسير الرازي (٩/ ١٣) وتفسير السعدي (١/ ٣٩٥)). وقال السمعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ أكثر أهل التفسير على أن الذين باعوه إخوته، وهو قول ابن عباس وعامة المتقدمين. وقوله: ﴿ وَشَرَوۡهُ﴾ هو بمعنى: باعوه. (تفسير السمعاني ٣/ ١٧). وقال العز بن عبد السلام: ﴿ وَشَرَوۡهُ﴾: باعه إخوته من السيارة (تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٤٩٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٧٦) وقصص الأنبياء ص ٢٠٨.

(٤) قصص الأنبياء ص ٢٢٨، طبعة دار الفكر.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[١].

يذكر- تعالى- ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له، وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. (هناك خلاف في اسم ذلك الملك فالله أعلم بصحة الرواية).

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام كان شابًا بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربُّه عن الفحشاء. وحماه مكر النساء. فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء. المذكورين في (الصحيحين) عن خاتم الأنبياء. في قوله صلى الله عليه وسلم: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**»[٢].

(١) يوسف : ٢٣- ٢٩.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص، فقال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾. يعني زوجها صاحب المنزل سيدي، ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي أحسن إليَّ وأكرم مقامي عنده، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[(١)]. وقد تكلمنا على قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[(٢)]. بما فيه كفاية ومقنع في التفسير[(٣)].

وأكثر أقوال المفسرين ها هنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا. والذي يجب أن يعتقد أن الله- تعالى- عصمه وبرّأه ونزّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها. ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(٤)(٥)].

٢- محنة كيد النساء:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٦)].

يذكر- تعالى- ما كان من قبل نساء المدينة؛ نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز، وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها وحبها

(١) يوسف : ٢٣.
(٢) يوسف : ٢٤.
(٣) قصص الأنبياء، ص ٢٣٤،٢٣٥.
(٤) يوسف : ٢٤ .
(٥) قصص الأنبياء ص٢٠٨.
(٦) يوسف : ٣٠- ٣٤.

الشديد له، وهو - برأيهن - لا يساوي هذا، لأنه مولى من الموالي، وليس مثله أهلاً لهذا.

ولهذا قلن: ﴿لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في وضعها الشيء في غير محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بتشنيعهن عليها والتنقص من قدرها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذمًا، وهي معذورة برأي نفسها، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، ويتبيّن أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، واعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين، كالأترجّ ونحوه، وأتت كل واحدة منهن سكّيناً، وكانت قد هيّأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب، وهو في غاية طراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظمنه وأجللنه، وهِبْنَه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه، حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين، ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

٣- محنة السجن:

لم تقف محن يوسف عند هذا الحد، فثمة محنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز مع ما في السجن من غربة وعزلة ووحدة، فآلام السجين تشتد حين يكون السجن ظلماً وعدوانا، ومحنة السجين تتضاعف حين يكون الطهر والعفاف جريمة وتهمة، يؤاخذ بها الصالحون المخلصون.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٦) وقصص الأنبياء (٢٠٨).

وتزداد الحيرة والغرابة حين نعلم أن الذين سجنوا يوسف ﷺ قد تبين لهم من الآيات والبراهين القاطعة ما يبرئ ساحته ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(١). فقدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز أيدي النساء، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف ﷺ كلها أدلة للبراءة.

ومع ذلك يسجن يوسف ﷺ، حتى لا تنشر فضيحة امرأة العزيز بمراودتها يوسف عن نفسه عند عامة الناس، وهكذا حين يغيب العدل بين الناس يستهان بحق الأبرياء في سبيل الحفاظ على سمعة الكبراء، ويبقى بعد ذلك أن الذي يدخل السجن متهماً مظلوماً يخرج منه بعد حين عزيزاً مكرماً بريئاً ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢).

٤ – محنة اختياره الحبس حتى تظهر البراءة:

فإنه لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف ﷺ وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرَّسول بذلك أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً، وأنه بريء السَّاحة مما نسبوه إليه بهتاناً ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ ﴾ يعني الملك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾(٣). قيل: معناه أن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إليّ، فاطلب من الملك أن يسألهن: كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي، وحثهن لي على الأمر غير الرشيد ولا السديد؟

فلما سُئِلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر، وما كان من يوسف من

(١) يوسف: ٣٥.
(٢) يوسف: ٣٣.
(٣) يوسف: ٥٠.

موقف حميد سديد و﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾[(١)] [(٢)].

٥- محنة الرخاء والسلطان المطلق:

ولما تبين لفرعون طهارة يوسف وعلمه وفهمه، قدمه عنده، وجعله العزيز، الذي يقضي في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يديه لقمة العيش التي تقوتهم، وليست محنة السراء بأقل من محنة الضراء، فثمة دواعٍ تدعو إلى الكبر والخيلاء، والشح والبخل، والظلم والعدوان، والغفلة عن ذكر الله والدار الآخرة، وكلها أدواء تصاحب الغنى واليسر إلا من رحم الله، ويوسف عليه السلام كما كان نموذجاً للصبر والرضا والتسليم بما قدر الله في زمن الشدة والضراء، فقد كان نموذجاً آخر للعدل والأمانة والشكر والذكر لله في زمن الفرج والسراء ومقاليد أمور مصر بيديه، وخزائن الأرض تحت تصرفه.. أجل لقد ضرب الصديق عليه السلام نموذجاً للعفة وحسن السياسة في الرعية، وعرفت الأرض والناس به نموذجاً للحكام الصالحين، الذين تكثر نفقاتهم في خير الناس دون منٍّ أو أذى، وتكثر الخيرات من حولهم، وبهم تصلح الحياة الدنيا، وبسيرتهم يتذكر الناس الدار الآخرة، فلا جوع أو تسفيه، ولا فتنة ولا تخمة. وتأملوا كيف ترتبط الحياة الدنيا بالآخرة في أذهان العارفين ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٣)].

ومع كل هذه المحن نجده خلف القضبان وراء السدود والأسوار، لا ينطوي على نفسه، ولا يندب حظه، لكنه يوجه المساجين ويعلمهم عقيدة

---

(١) يوسف: ٥١.
(٢) قصص الأنبياء ص ٢٠٨.
(٣) يوسف: ١٠١.

التوحيد الصحيحة، واليقين بالآخرة، كما يوضح لهم العقائد الفاسدة: ﴿.. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(١). ثم يعلن رأيه فيما عليه الناس ويكشف في شجاعة وقوة فينادي من معه، ويهز وجدانهم: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

إن في قصة يوسف عليه السلام مزيدا من الدروس والعبر لمن تأملها وتدبرها، ففيها تسلية لكل مظلوم، وفيها تسرية لكل مغموم؛ إذ يتذكر مقام الصالحين، فيستيقن أن الابتلاء على قدر الإيمان واليقين «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»(٣).

وسورة يوسف كما يقول أهل التفسير: نزلت أول ما نزلت تسرية للنبي ﷺ والمسلمين معه في وقت كانوا في أشد الحاجة إلى مثلها، فالسورة مكية، ويقال: إنها نزلت بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة- رضي الله عنها- سندي رسول الله ﷺ، وبين العقبة الأولى ثم الثانية، اللتين جعل الله فيهما للإسلام والمسلمين فرجاً ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة.

---

(١) يوسف: ٣٧، ٣٨.

(٢) يوسف: ٣٩، ٤٠.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والدارمي (٢٧٨٣)، والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٧/ ١٦١، رقم ٢٩٠١)، والحاكم (١/ ١٠٠).

وكما أُخرج يوسف عليه السلام من حضن أبيه، وغُرِّب عن ديار أهله، ليواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين، كذلك أخرج النبي ﷺ، وضيق على المسلمين، حتى هاجروا من مكة إلى المدينة مكرهين، وكان النصر والتمكين.

وهي باقية كذلك تسرية لكل مسلم تنزل به فتنة أو تمر به ظروف وحالات تشابه حالة الصديق عليه السلام.

وما أحوج الدعاة للوقوف ملياً عند أحداث القصة يستلهمون منها العبر، فتشد عزائمهم حين الكلل، وترشدهم إلى أن العاقبة للمتقين، وأن النصر والتمكين في النهاية لعباد الله الصالحين، ولكن لا بد من الصبر والرضى واليقين، واحتساب الأجر عند رب العالمين.

وما أحوج الساسة والأمراء والمسؤولين لسياق القصة تبصرهم بقصر الحياة من جانب، وفداحة الظلم من جانب آخر، وتهديهم إلى أحسن أساليب الحكم والعدل في الرعية من جانب ثالث.

وقصة يوسف عليه السلام موقظة للرقابة من الله حين يكون إغراء الشهوة، وحين تتوافر للمرء أسباب الفاحشة والفتنة.

وهي تذكر بالاستغفار والتوبة حين تضعف النفس وتقع في الخطيئة، وتعترف بالضعف وتلتمس المخرج ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) يوسف: ٩١، ٩٢.

﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

ثالثا: عبر ودروس من سيرة النبي يوسف عليه السلام:

١ - من غير تجاهل لكل العقبات والمعاناة والمحن التي عاناها الصديق يوسف عليه السلام، فإن معاناة جديدة في صورتها تبدت في طريق يوسف، ولتكون سببًا في محنة أخرى شديدة الوقع على هذا النبي الكريم الصابر.. إنها قضية تعرض سيدته له في القصر (زليخا امرأة العزيز)، الشابة ذات الجمال والمال والجاه، وهو الشاب بهي الطلعة، الخاضع لأوامر القصر.. إنه الإغراء في أغوى صورة، لكن يوسف أكرم الناس ابن الكرماء، سليل خليل الله، تصرف تجاه تلك الغواية، بما يليق بتلك المكانة، وقد حصّنه ربه، فأبعد عنه كيد النساء وتهافتهن على جمال الطينة وحسن الشكل، وهنّ اللائي يغريهن ذلك منذ أول الوجود، إلا من رحم ربي من أولئك المؤمنات القانتات، اللاتي ينظرن إلى كل شيء في هذا الوجود بمنظار التقوى والعين على الآخرة، والتطلع إلى الرضا الرباني، والفوز بجنة فيها النعيم المقيم، وقد كان منه الصبر وتحمل البلاء بجلد لا يبارى إلا من مثل من يحمل القدرة اليوسفية الإيمانية نفسها: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]. وكانت نتيجة ممانعته وصبره على البلاء والابتعاد عن الوقوع في الفاحشة رغم شدة الإغراء، أن قيد إلى السجن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ..﴾[٣] وقد استجاب له ربه دعاءه بصرف الكيد عنه إذ قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فاستجاب له

(١) يوسف: ٩٧، ٩٨.
(٢) يوسف: ٢٣.
(٣) يوسف: ٣٣.

ربه فصرف عنه كيدهن: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١).
وكان السجن بوابة الفرج الرباني.. إذ جعله رب العزة رغم شدته على نفس يوسف، فسحة لدعوته داخل ذلك السجن، إذ لم يفت في عضده كل ما جرى داخله من أحداث، وذلك إرهاصًا لخروجه منتصرًا شامخًا بدينه ودعوته لا بجماله ومكانته، فهل ينتبه الدعاة في كل زمان ومكان إلى هذه المفارقة، وكيف يقود الثبات والصبر والتقوى واختيار التقدم بالإسلام في كل حال إلى الفرج، فينتقل الصديق من السجن إلى الشخصية الأولى في مصر، لينتصر دينه ومنهجه، وتكون له الكلمة الأولى.

٢ - وإنه لدرس فيه كبير العزاء الحامل للأمل لكل داعية يعاني: (يسجن، يعذب، يهان، يبعد، يقصى وقد يصفى الكثير من ربعه)، وليقول له عاود قراءة قصة يوسف في القرآن وتدبرها.. إنها ليست للثقافة وحسب، بل هي للاتعاظ في الصبر على لأواء الطريق.. فلتكن لك كذلك أيها الداعية أينما كنت، فأنت لست بمكانة ذلك النبي عند الله، ومع ذلك فقد تركه ربه يتعرض لما تعرض له، لتتخلص نفسه لله بشكل كامل، ثم قاده إلى ما قاده إليه من نصر ورفعة ونشر دعوته.. والله غالب على أمره.. وقد قال عطاء: (لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح)(٢).

وقال الصابوني:

٣ - هذا هو جو السورة (سورة يوسف وقصته). وهذه إيحاءاتها ورموزها.. تبشر بقرب النصر، لمن تمسك بالصبر، وسار على طريق الله

---

(١) يوسف: ٣٤.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين نقلا من صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني (٥) القسم السادس.

والمرسلين والدعاة المخلصين، فهي سلوة للقلب، وبلسم للجروح[١].

وأضاف الصابوني: (على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار العظة والاعتبار، ووجه الاعتبار بهذه القصة، أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد ﷺ، وإعلاء شأنه، وإظهار دينه..)[٢].

وأضيف هنا قولاً على القول السابق: إن الله قادر على أن يعز دينه اليوم، على يد الدعاة، ويظهره على كل الدعاوى الظالمات الضالات هذه الأيام، إن صبر الدعاة وثبتوا، وأيدوا دعوتهم بالفعال والأقوال السديدة الرشيدة، التي لا إفراط فيها ولا تفريط، ونحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدًا فهو حسيب الجميع، العليم بالعهد والوفاء..

وصدق الله العظيم القائل في كتابه العزيز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]. وكانت سورة يوسف قد نزلت على رسولنا الكريم محمد ﷺ: في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد ﷺ نصيريه زوجته الطاهرة الحنون (خديجة رضي الله عنها) وعمه أبا طالب الذي كان له خير نصير، وخير معين.. حتى عرف ذلك العام بعام

(١) المصدر السابق ٦.
(٢) المصدر السابق ٣٧.
(٣) يوسف: ١١٠، ١١١.

الحزن.. فكأن الله- سبحانه- أنزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية، وتخفيفًا لآلامه بذكر قصص المرسلين، وكأن الله- تعالى- يقول لنبيه ﷺ: لا تحزن يا محمد، ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجًا، وإن بعد الضيق مخرجًا[1].

(١) من تفسير صفوة التفاسير للصابوني ٥.

المبحث السادس
معاناة نبينا وحبيبنا محمد ﷺ

أولاً: مقدمة:

يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أن أكون حيًا إذ يخرجك قومك! فقال ﷺ: «**أومخرجيّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[(١)].

هل ترون..؟ إنه الابتلاء والبلاء، فهما من سمات طريق الدعوة والدعاة: (**لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي**) نعم.. وأوذي في الله، وفي نفسه وبدنه وأهله وأتباعه ووطنه ومكانه ومكانته، وبطول الفتنة، وإبطاء النصر. ولا ننسى مصارعة الهوى والشهوات ومعالجة الجاه وكل ذلك العناء. ولا نكن غافلين عن معاناة الإبعاد والإقصاء والتصفية الجسدية. وهل نتجاوز هنا فتنة ميل النفس الإنسانية إلى الدعة والراحة والرفاهية، تلك التي تواجه كل داعية في طريقه إلى الله. فهي أيضًا ابتلاء عظيم، يمتحن بها المؤمن.. وإذن فإن ذلك كله وغيره من صور الابتلاء والتعرض للفتن، التي يمحص الله بها الصف المؤمن ليس تعذيبًا لأحبائه المقربين منه- وفي رأس القائمة منهم الأنبياء والرسل عليهم السلام- إنما هي عمليات تنقية للنفوس لتخلص له، مهما كانت المتعرضات من الفتن للمؤمن، وذلك ليكون حمله للأمانة بقوة وصبر وشدة احتمال وعظيم إصرار؛ فإن التعرض للشدائد، والنجاح في تجاوزها، ينفيان الخبث، ويصلّبان العود، ويهيئان القوى والإمكانيات ليكون

(١) أخرجه البخاري (٣).

الدعاة على أهبة الاستعداد واليقظة لمواجهة أي تحد، بعد أن مرت بهم من قبل أنواع الفتن وآلامها والتضحيات الجسام التي وقفوا لها وقوف الأبطال؛ وهو يعلم أن موقفه هذا هو إكرام من الله له، ومنة منه، أن اختاره ليكون على ثغرة خطرة من ثغور الإسلام؛ فقد روى ابن حبان في صحيحه عن سعد قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة**»[(١)].

وهكذا فإننا نعلم من كل ذلك أن البلاء والابتلاء هو الطريق الأكيد للدعوات والدعاة وأن الصبر والتحمل والثبات، هي المواصفات اللازمة للداعية في سُراه إلى الخير العميم الذي أعدَّه الله له في الدنيا والآخرة. ويجب أن يكون معلومًا أن الابتلاء بالفتن، سواء الفتن المؤلمة، أو الفتن الآتية من حب الدنيا والشهوات والهوى، إنما تكون قادمة إما من الداخل (نفس الداعية ومن حوله)، وإما من الخارج (من المشركين والكفار والمعاندين من أهل الكتاب فيما مضى، ومن الشيوعية والرأسمالية المتوحشة والعلمانية والليبرالية وأهل تلك الأفكار، ومشاريعهم التخريبية والإفسادية في عصرنا الحاضر).

ولقد مثل رسول الله محمد ﷺ في مسيرة الصبر على الابتلاء والثبات على الدعوة قمة الموقف وأعظمه في كثرة وشدة الابتلاءات.. وفي التفصيل التالي بيان بالوقائع لذلك..

إن ثباته ﷺ عند المحن والشدائد الداخلية منها خاصة والخارجية عموما، وإن تحمله أنواع الأذى من الكفار والمشركين والمنافقين ليس لشيء إلا أن

(١) سبق تخريجه.

يقول ربي الله ودعا لعبادته وحده، فأوذي ﷺ من القريب قبل البعيد باللسان والسنان في شخصه وعرضه ونفسه وبدنه وهو صابر محتسب، كيف لا وقد أنعم الله عليه بقلب ثابت وإيمان راسخ.. قلب حفظ القرآن ووعاه، ولو أنزل على جبل لتهدم وتصدع. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(١).

فمهما يكن.. فهو ﷺ بشر من لحم ودم ولديه أحاسيس ومشاعر؛ يفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويألم ويعاني من الشدائد والمصائب والبلايا، ولكن حسن توكله وعظيم إيمانه وجميل صبره وصدق يقينه.. يجعله ﷺ في مرتبة لا يسمو إليها أحد؛ إذ لم يبتل أحد، ولم يصب أو يصبر كالنبي ﷺ، فعن أبي هريرة، وأخت حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ سئل أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»(٢).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذيت في الله- عز وجل- وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثة من بين يوم وليلة وما لي ولعيالي طعام يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال**»(٣).

وعلى الرغم من ذلك لم تفت في عضده الأزمات، ولم تكدر حياته الملمات، فقد أصابه ما لا يصيب كل من يعيش في هذه الحياة الدنيا؛ إذ ماتت زوجته الحبيبة خديجة – رضي الله عنها – في حياته، ولاقى ما لاقى من الكفار والمشركين والمنافقين، واستشهد عمه حمزة ﷺ في أُحد ومُثِّل به، وعُذِّب أصحابه في مكة، ومنهم من هُجِّر وشُرِّد، ومات أولاده كلهم في حياته، واتهم

(١) الحشر : ٢١.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) ، وصححه الألباني .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١) وصححه الألباني .

في عرضه الشريف، وأصيب في غزواته، وغير ذلك من المصائب والمحن، وأخص منها الفتن الداخلية.

كل ذلك لم يشغله عن النظر إلى الوجه المشرق للأزمات، ولم يحجب عنه تفاؤله الدائم الذي كان سمة بارزة فيه، فكان يبتسم ويحفظ توازنه في الشدة والرخاء، وإذن فلنقتد بالحبيب ﷺ ؛ لأن الانكفاء مع الحزن والألم لم يكن يوماً ما صانعاً للمجد، أو بانياً لمستقبل مشرق .

بل إنه ﷺ لما أنزل إليه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾[1]، قام وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله وحسب. فقد قام وظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به - عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض- عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها.. حتى إذا خلص هذا الضمير في كثير من صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر.. بل معارك متلاحقة.. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة وفروعها في الفضاء، وتظلل مساحات أخرى.. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية.

---

(١) المدثر: ١، ٢.

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى معركة الضمير قد انتهت. فهي معركة خالدة، الشيطان مضرمها؛ وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني.. ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك. وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة. في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه. وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة الإيمانية. وفي نصب دائم لا ينقطع.. وفي صبر جميل على هذا كله[1].

ثانياً: وجوب الدعوة ومستلزمات الطريق (إلزامية التبليغ):

١ – تمهيد:

لم يوفر المشركون وأعداء الدعوة وسيلة يستطيعون من خلالها أن يسببوا المعاناة والألم للنبي ﷺ واشتغاله عن الدعوة إلى الله أو صد دعوته والوقوف أمام انتشار الإسلام إلا وقد فعلوها؛ فمن الاتهام بالكذب والسحر والشعر والكهانة وغير ذلك من الأباطيل، إلى الإيذاء المبتكر من طرق جديدة للسخرية والاستهزاء واللعب بالأعصاب.

فلما لم يروا لكل ذلك أثرا، انتقلوا إلى الإيذاء بالضرب، حتى وصل بهم الأمر إلى التصفية الجسدية ومحاولة قتله ﷺ مرارًا وتكرارًا وفي كل فرصة سنحت لهم ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

وفيما يلي– إن شاء الله– نفصل ما أجملناه، ونسوق بعض معاناته ﷺ في تبليغ الدعوة. فلم تكن الطريق ممهدة، ولا كانت المهمة سهلة، بل قد جاهد ﷺ فيها جهادًا كبيرًا، تعرض فيه كما تقدم للشتم والضرب والطرد من الديار ومحاولة قتله، فلم يثنه ذلك عن أداء الرسالة وتبليغ الأمانة. بل استمر يدعو إلى الله– تعالى–

---

(١) في ظلال القرآن (٧ / ٣٧٦) .

ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم وفي المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك شرع سواء[١].

إن تتبّع الرسول ﷺ للناس في منازلهم وأسواقهم ثلاث عشرة سنةً يكشف لنا مدى الجهد والتعب الذي بذله الرسول ﷺ في دعوته ومدى صبره ومواصلته للعمل وعدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم.

عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول: «**ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي؟**»[٢].

٢ - وجوب الدعوة:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾[٣].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٤].
- ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾[٥].
- ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٦].
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[٧].

(١) البداية والنهاية (٣/ ٤٠)، سيرة ابن كثير (١/ ٤٥٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١) وصححه الألباني.
(٣) المدثر: ١، ٢.
(٤) المائدة: ٦٧.
(٥) النحل: ١٢٥.
(٦) الحجر: ٩٤.
(٧) الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

- ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] .

- ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

- **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[3] .

- ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[4] .

- اتفق العلماء على وجوب الدعوة والقيام بالتبليغ.. واختلفوا في نوعية الوجوب، هل هو وجوب عيني أم وجوب كفاية؟ وبغض النظر عن هذا الاختلاف في نوعية الوجوب.. فإن النتيجة العملية في هذا الاختلاف هو الاتفاق، لأن ما اشترطه كل منهما في رأيه، يقرب الرأيين ويجعلهما عمليًا في بابٍ واحدٍ[5] .

والناظر في الآيات التي أوردناها والحديث الذي رواه مسلم، يجد نفسه بعد التدبر أن حمل هذه الدعوة وتبليغها واجب كامل لا يكمل دين المرء إلا بالقيام بهذه الوجوبية، سواء كانت وجوب كفاية أم وجوبًا عينيًا .

٣ – مستلزمات السير في طريق الدعوة:

إن المستلزمات التي يجب أن يصطحبها صاحب الدعوة في طريقه إلى الله

---

(١) يوسف : ١٠٨.
(٢) آل عمران : ١٠٤.
(٣) أخرجه مسلم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ .
(٤) العصر : ١– ٣.
(٥) كما أشار إلى ذلك الدكتور أبو الفتح البيانوني في كتابه القيم (المدخل إلى علم الدعوة) (٣٢، ٣٣) .

كي يستحق تأييد الله له وتوفيقه، بيّنة واضحة، وأهمها:

١ – الإيمان الوثيق بالدعوة.

٢ – الهدف الواضح المتصل بالنبع الأول للإسلام ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[١].

٣ – أن يكون حال الداعية مطابقًا تمامًا لما يدعو له، فلا يكون سلوكه حجة عليه، فيكون من المدعوين عدم الاستجابة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢].

٤ – العلم الواثق ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

٥ – السير البصير إلى الهدف ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[٤].

٦ – الفهم العميق، والوعي الدقيق للمحيط وما يناسبه من خطاب ووسائل وآليات وحكمة.

٧ – العمل على أساس من رؤية واضحة (خطة مناسبة) ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٥]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٦].

٨ – القيام بواجب التبليغ ودعوة الناس إلى الإسلام بقوة وصبر ونصح

---

(١) فصلت: ٣٣.
(٢) الصف: ٢، ٣.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) يوسف: ١٠٨.
(٥) النحل: ١٢٥.
(٦) المائدة: ٤٨.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[(١)]، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[(٢)].

وفي الحديث الشريف: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(٣)] وفيه أيضًا: «**ليبلغ الشاهد الغائب؛ فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه**»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[(٥)].

٩ – الخطاب العملي السلوكي (التعامل والأخلاق): فإن الداعية بحاجة إلى التعامل مع المدعوين بسلوك عالٍ مع الاختلاط بهم، فهم ينظرون إلى سلوكه معهم، لذا يجب عليه الانتباه والحذر من أن ينزلق في تعامله بعيدًا عن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[(٦)].

١٠ – تحاشي الوقوع في بعض الآليات المنفرة الطاردة للاستجابة والقبول: وقد أجمل رسول الله ﷺ هذه الآليات ببلاغته الفذة، إذ قال: «**إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام..**»[(٧)].

---

(١) مريم: ١٢.
(٢) العصر: ١– ٣.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري (٦٧).
(٥) آل عمران: ١٢٠.
(٦) آل عمران: ١٥٩.
(٧) أخرجه أبو داود (٤٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) وضعفه الألباني.

إن المستلزمات كثيرة، وفروعها مستفيضة، ونكتفي بما ذكرناه من رؤوسها وأساساتها لأن ملاحقة فروعها يقود إلى كتاب كامل.. والله أعلم .

ثالثاً: المعاناة من خارج المجتمع المسلم (إيذاؤه في نفسه):

١ - طبيعة الصراع مع الكفار:

- ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[١] .
- ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[٢] .
- ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[٣] .
- ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٤] .
- ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٥] .

لقد بعث الله الأنبياء جميعًا بالإسلام، وجعل من تبليغ تعاليم دينه كاملاً مهمة لكل داعية، وهي مهمة نظرية[٦] وقد جعل الله هذا الإسلام الحق الذي ليس بعده إلا الضلال ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٧] . كما جعل مطالبة الناس بتحقيق هذا الإسلام في حياتهم وتنفيذه والعمل به بعد البلاغ الجزء العملي من مهمة الدعاة[٨] .

وإن الآيات المتصدرة لهذا المدخل ثم ما تبعها من توضيح لهو الذي حدد

(١) الإسراء : ٨١.
(٢) الأنبياء : ١٨.
(٣) سبأ : ٤٨.
(٤) آل عمران : ١٩.
(٥) آل عمران : ٨٥.
(٦) رسائل الإمام البنا ص ٨٣ ، طبعة المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر .
(٧) آل عمران : ١٨.
(٨) رسائل الإمام البنا، ص ٨٤ .

لصاحب الدعوة معالم الصراع مع كل دعوات الكفر والضلال والتيه، التي واجهت الأنبياء والدعاة منذ آدم عليه السلام وحتى يوم الناس هذا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. وقد تمثلت تلك المعركة بين الحق (الإسلام) والباطل (كل دعوة خارج الإسلام) أكثر ما تمثلت في سيرة رسولنا الكريم الحبيب محمد ﷺ؛ حيث برز الباطل أمامه على أشده، متمثلاً بالملأ من قومه ومن كل القبائل؛ خافوا على معبودهم من الأوثان ورتابة الكفر واستقراره في أحوالهم وديارهم، كما خافوا على جاههم وتجارتهم وتحكمهم في الناس، فاستلوا في وجهه أعتى أسلحتهم من الكيد ومحاولات القتل، وتشويه السمعة والاتهام والتعذيب والإيذاء الشديد وحتى الحصار والمقاطعة.. وتلك الوسائل مع غيرها ومع تطويرها هي أسلحة الباطل في كل زمان ومكان.. تحاول ثني الأنبياء وأتباعهم عن التبليغ والتنفيذ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، إلا أن سلاح الصبر والثبات والتحمل والتوكل على الله والأمل بنصره كانت هي التي تزهق باطل المبطلين، كما قال ربنا في الآيات التي ثبتناها آنفًا .

وإن هي إلا جولة أو جولات حتى ترى الباطل زاهقًا فما يبدئ ولا يعيد، منكبًا على رأسه، خسر متبعوه الدنيا والآخرة، فالصبر الصبر، والأمل الأمل والرجاء الرجاء والعمل العمل، تلك هي عدة الدعاة المؤمنين في كل حين وآن.. ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1] .

وفيما يلي نلقي نظرة فاحصة على سيرة رسولنا الكريم محمد ﷺ مع دعوته الخاتمة، وما لاقاه من عنت ومن معاناة، وما واجه به تلك المعاناة من صبر ومن إصرار وتحمل ومثابرة، دون كلل أو تعب، إلى أن منَّ الله عليه بنصره المؤزر.

(١) آل عمران : ١٩٦، ١٩٧.

٢ - المعاناة والألم من الإيذاء في النفس:

وتتمثل في الاتهام بما يلي:

أ- الاتهام بالتقول والكذب:

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾(٢) وقال سبحانه: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾(٤).

يقولون هذا في مناسبات كثيرة، ومواقف متعددة، وهم في مناسبة أخرى وفي موقف آخر يعلمون ويعترفون بأن رسول الله ﷺ ليس بكذاب.

فيسمونه الصادق الأمين، فإذا كان الأمر يتعلق بأمر الدعوة قالوا: كاذب، وإن تعلق الأمر بمنافعهم الشخصية وحظوظ أنفسهم وحفظ أموالهم قالوا: الصادق الأمين، فالمسألة إذن اتباع هوى وافتراء بباطل.

ب- الاتهام بقول الشعر:

قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾(٥) وقال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾(٦) وقال الله عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾(٧).

إنهم ينتظرون نهايته، وينتظرون موته؛ حتى تدفن دعوته في مهدها، ولا تقوم لها قائمة، ولكن الله- سبحانه وتعالى- تولى الرد عليهم، وتثبيت نبيه ﷺ

(١) الطور: ٣٣.
(٢) ص: ٤.
(٣) الفرقان: ٤.
(٤) الشورى: ٢٤.
(٥) الأنبياء: ٥.
(٦) الصافات: ٣٦.
(٧) الطور: ٣٠.

فقال سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾(١) وقال عز وجل: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾(٢).

وكل عارف باللغة العربية؛ بنثرها وشعرها يعرف أن هذا القرآن ليس على وزن الشعر، وليس شعراً كالذي يقوله الشعراء.

جـ- الاتهام بالسحر:

قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾(٥)، ولكن الله رد عليهم فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾(٦).

لماذا يريد الجاهليون أن يصموا شخصية رسول الله ﷺ بالسحر؟ لأنهم رأوا أن لهذا القرآن الذي يتلوه ﷺ أثراً عظيماً على نفوس الناس؛ إنه يجذب الأنظار، ويأخذ بمجامع القلوب (إن عليه لطلاوة، وإن له لحلاوة) فهم يريدون أن يصرفوا أذهان الناس عن سبب هذا التأثير؛ وسبب هذا التأثير أن القرآن كلام الله، هو الذي أنزله من عنده، وهو الذي خلق النفس، ويعلم ما يؤثر بهذه النفس، وما تتأثر به هذه النفس، ولأنهم غارقون في الضلال، أرادوا أن يصرفوا سبب التأثير إلى السحر، الذي يؤثر - كذلك - في الناس؛ إنها والله

---

(١) الحاقة: ٣٨- ٤١.
(٢) يسن: ٦٩.
(٣) يونس: ٢.
(٤) ص: ٤.
(٥) الفرقان: ٨.
(٦) الذاريات: ٥٢.

دعاية إعلامية تضليلية يريدون أن يلبسوا بها الحق على الناس، الذين يتأثرون بكلام رسول الله ﷺ .

ويقف الدعاة إلى الله- عز وجل- اليوم أمام أولئك الشاتمين، الذين يريدون أن يلبسوا الحق بالباطل، ويريدون أن يصرفوا الناس عن تأثير القرآن والسنة، فهم يستخدمون وسائل شتى من التهويس والتهويل، وصرف أنظار الناس عن القرآن، وعن الوحي، وعن اتباع الشريعة، فيستخدمون لذلك وسائل شتى.

إن على دعاة الإسلام أن يجابهوا هذه المواقف، بأن يُجلُّوا للناس أثر القرآن والسنة، وأن يُروا الناس بأبصار قلوبهم قبل أبصار عيونهم أن هذا القرآن وهذه السنة ذات أثر عظيم طيب على حياتهم وآخرتهم، وأن تكون وسيلتهم لذلك مخاطبة الناس بهما، وربطهم بهما مباشرة، لأن فيهما يكمن منهج المسلم ودستوره إلى نهاية ناجية فائزة ودنيا نظيفة صافية نقية.

د- الاتهام بالكهانة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[(١)].

ويُسرِّي القرآن عن نفس رسول الله ﷺ، ويزيل عنه ما أهمه وأحزنه ويثبت قلبه فيقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[(٢)].

و- الاتهام بالجنون:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[(٣)] وقال سبحانه:

(١) الحاقة: ٤١- ٤٣.
(٢) الأنعام: ٣٤.
(٣) الحجر: ٦.

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

ليس أصعب على صاحب الإيمان، والعقل الراجح، والرأي السديد، والفكر الصائب، من أن يتهم في عقله، وأن يوصف بالجنون .

وتولى الله الرد على هذه الفرية مثبتاً رسوله ﷺ فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[3] وقال عز وجل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[4]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[5] .

٣ - ومن المعاناة الخارجية في الفترة المكية الألم من السخرية والاستهزاء:

أ- لقد تفنن أهل الجاهلية في حرب الرسول ﷺ، وابتكروا كل جديد لضرب الإسلام، وحشدوا كل قواهم لعرقلة المسيرة القرآنية، فعمدوا أولاً إلى أسلوب نفسي خسيس، يستهدف تدمير أعصاب الرسول ﷺ والقضاء على روحه المعنوية العالية، وشنوا لذلك حملات عنيفة من السخرية والاستهزاء، عرض لها القرآن الكريم في أكثر من موضع، يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[6] أن يهزأ المبطل بالمحق، وأن يسخر السفيه بالعاقل، تلك والله أذية كبيرة تقع كالصخر على صدر الذي يتعرض لهذا النوع من الأذى، قال

(١) الصافات : ٣٦.
(٢) الدخان : ١٤.
(٣) سبأ : ٤٦.
(٤) التكوير : ٢٢.
(٥) القلم : ١، ٢.
(٦) الأنبياء : ٣٦.

تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[١] يستهزئون بشخصيته ﷺ، ولكنه صبر على هذا الأذى ومضى في دعوته غير آبه بما يفترون. وها هم يسخرون بوعده بالجنة فيطلبون منه أمورًا تعجيزية- في نظرهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[٢] ولكن الله- تعالى- يسرّي عن قلبه ﷺ فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[٤].

ب - السخرية منه والاستهزاء به عندما أبطأ الوحي عليه ﷺ. فعن الأسود ابن قيس، أنه سمع جندبا يقول: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[٥].

وفي رواية اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءته امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، قال فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا

(١) الفرقان: ٤١.
(٢) الإسراء: ٩٠-٩٣.
(٣) الأنعام: ١٠.
(٤) الحجر: ٩٥.
(٥) الضحى: ١- ٣.

سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[١][٢].

جـ - ومن ذلك ما قاله أبوجهل مستهزئا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[٣].

ولكن الرسول ﷺ - على مشاقّ الدعوة وعوائقها وتبعاتها- لا يضعفه موقف سخرية، ولا يحبط همّته استهزاء مستهزئ .

٤ - المعاناة والحزن على فقد القريب والحبيب والمناصر (المعاناة الطبيعية):

أ - بعد فك الحصار توفي عمه أبو طالب الذي كان يذبّ عنه ويحوطه ويحميه، ثم توفّيت زوجته خديجة- رضي الله عنها، التي كانت تُسرِّي عنه همومه، وتهون عليه أتعابه، فسُمِّيَ ذلك العام عام الحزن؛ لفقده ﷺ النصير، في وقت كان بأمس الحاجة إلى من يقف فيه لجانبه، يؤازره ويواسيه إذا كذب، وينصره إذا خذل .

وخلصت قريش وسفهاؤها إلى أنواع من أذى للنبي ﷺ لم تكن تصنعه في حياة عمّه .

ب - مقتل عمه حمزة رضي الله عنه أسد الله وأسد رسوله في معركة أحد، ثم التمثيل في جثته بعد المعركة، وما كان لكل هذا من أثر قوي على نفسه ﷺ.

جـ - ألمه ﷺ وحزنه على فقد أولاده وبناته الواحد تلو الآخر في حياته إلا

(١) الضحى : ١- ٣.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩٧).
(٣) الأنفال : ٣٣، ٣٤.

فاطمة- رضي الله عنها، وما كان لذلك من الأثر في نفسه ﷺ .

ومع الألم الذي لاقاه من ذلك كله لم يتوان رسول الله ﷺ لحظة عن متابعة الدعوة، والصبر على كل ذلك الأذى، ولم يهن في ابتغاء القوم ودعوتهم، بل إن الأمل والرجاء بنصر الله كانا رفيقيه كل ساعة من نهار أو ليل، وكان يبث ذلك الأمل والرجاء في الذين آمنوا معه وهم قلة في مكة .

٥ - الألم والمعاناة من خذلان الأهل والأقارب:

فأول من ردَّ دعوته وكذبه هم أقرب الناس إليه، وهم قومه وعشيرته الأقارب قبل الأباعد، فمن بين عشرة أعمام له لا نجد من آمن به ﷺ إلا عمّان، بل كان عمه أبو لهب يتبعه في مجامع الناس وأسواقهم، ويكذّبه، بينما كانت امرأته أم جميل تجمع الحطب والشوك وتلقيه في طريقه، فأنزل الله- تعالى- سورة المسد في ذلك ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾[١] .

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن ربيعة بن عباد الديلي- وكان جاهليًا فأسلم- فقال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا وهو لا يسكت، يقول: أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. فقلت: من هذا ؟ قالوا: محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت: من هذا الذي يكذبه ؟ قالوا: عمه أبو لهب. قلت: إنك كنت يومئذ صغيرًا، قال: لا والله إني يومئذ لأعقل[٢] .

(١) المسد : ١ .
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢) وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره.

إن استخدام قريش- في الصد عن رسول الله ﷺ - عمه أبا لهب كان أخطر وسيلة إعلامية آنذاك، في زمن كان للقبيلة وزنها في الدفاع عن أصحابها على حد القائل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وفي زمن تقوم الحرب الطاحنة بسبب إهانة جمل امرأة من القبيلة، فكيف برجل من القبيلة بمنزلة الرسول ﷺ من قريش ذروة سنام العرب، وهو من هو المعروف بين قومه صدقًا وأمانةً ووفاءً، وقد كان كذلك عندهم إلى أن بلغ الأربعين من عمره .

فما أشقّ ذلك على نفس الرسول ﷺ المكلّف بالتبليغ عن ربّه، داعيًا الناس بالكلمة الطيبة، وهو وحيد غريب، فينبري أقرب الناس إليه يطارده أمام المدعوين الناظرين إليه، وهو يحذر وينذر الناس.

٦ - الألم والمعاناة من الإيذاء في البدن (من خارج المجتمع المسلم):

لم يكتف طغاة مكة بما تناولته ألسنتهم من كذب وافتراء على الرسول ﷺ، بل لقد تجرؤوا مرارًا على إيذائه جسديًا، والاعتداء عليه بالضرب، فقد يئسوا من الحرب النفسية، وحرب الأعصاب، وحرب الشائعات، فلجؤوا إلى الحرب الحسية ينالون بها من صاحب الرسالة محمد ﷺ .

ومن المواقف التي يتجلّى فيها صبره ﷺ ، ما تعرض له من أذى جسدي من قومه وأهله وعشيرته، وهو بمكة يبلغ رسالة ربه:

أ - ما رواه عروة بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تُظهر من عداوته قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله

ﷺ فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا. قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفأه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم انصرف راشدًا فوالله ما كنت جهولا. قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال وقام أبو بكر الصديق- رضي الله تعالى عنه- دونه يقول وهو يبكي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾(١) ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط(٢).

(١) غافر: ٢٨.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

ب - وضع سلا الجزور عليه وهو ساجد:

عن ابن مسعود ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه، فيضل في كتفي محمد إذا سجد ؟

فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته ثم قال: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة**[1] **وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط**» وذكر السابع ولم أحفظه. فوالذي بعث محمدا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر .

قال أبو إسحاق: الوليد بن عقبة غلط في هذا الحديث .

(جزور) أي ناقة، (سلا) هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان وهي من الآدمية المشيمة[2] .

جـ - كسر رباعيته ﷺ:

عن سهل ﷺ: أنه سئل عن جرح النبي ﷺ يوم أحد، فقال: جرح وجه

(١) في مسلم (١٧٩٤): «عقبة» وهو خطأ .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩٤) .

النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وكانت فاطمة- عليها السلام- تغسل الدم وعلي يمسك، فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيرًا فأحرقته، حتى صار رمادًا، ثم ألزقته فاستمسك الدم(١).

فشق ذلك على أصحابه، فقالوا له: لو دعوت الله عليهم، فقال: «**إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة**»، ثم قال: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»(٢).

وفي رواية قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**»(٣).

فانظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقصر على السكوت عنهم، حتى عفى، ثم أشفق عليهم، ورحمهم، ودعا، وشفع لهم، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: (قومي)، ثم اعتذر عنهم لجهلهم، فقال: (فإنهم لا يعلمون).

د - تحريش الصبيان والمجانين لرميه بالحجارة في الطائف:

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلما هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَنَالُ مِنْهُ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى الطّائِفِ، يَلْتَمِسُ النّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، وَالْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِن اللهّ- عَزّ وَجَلّ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ وَحْدَهُ.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَحَدّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ، قَالَ: لما انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إلَى الطّائِفِ، عَمَدَ إلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَةُ

(١) أخرجه البخاري (٢٩١١).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٧٥)، وأخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (٤/ ٧٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُمْ وَهُمْ إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ: عَبْدُ يَالَيْل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عُقْدَةَ بْنِ غِيرَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَدَعَاهُمْ إِلَى الله وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إنْ كَانَ الله أَرْسَلَك. وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ الله أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك. وَقَالَ الثّالِثُ: وَ الله لَا أُكَلّمُك أَبَدًا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ الله كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى الله مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك. فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ فِيمَا ذُكِرَ لِي: إذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي، وَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ فَيُذْئِرَهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُبّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ، حَتّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النّاسُ، وَأَلْجَؤوهُ إلَى حَائِطٍ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَهُمَا فِيهِ وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتْبَعُهُ، فَعَمَدَ إلَى ظِلّ حَبَلَةٍ مِنْ عِنَبٍ فَجَلَسَ فِيهِ. وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إلَيْهِ، وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنْ سُفَهَاءِ أَهْلِ الطّائِفِ[1].

٧ - محاولات اغتياله وقتله مرارًا وتكرارًا:

إنها الطريقة الأسهل والأفضل لأعداء الفضيلة ومحاربي الدعوة إذا لم تستطع رد الداعي عن دعوته فالحل إذن التصفية الجسدية وهذا ما حاول فعله المشركون بالنبي ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩).

١ - ففي ليلة الهجرة أرادوا قتله، ولكن الله حفظ نبيـه، وكشـف أمـرهم، ورد كيدهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾[(١)] .

لقد اجتمعوا في حجر إسماعيل بجانب الكعبة في مكة، يدبرون ويخططـون لأحد ثلاثة أمور: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ﴾، ومعنى يثبتـوك: يقيـدونك ويحبسونك حتى لا تقوم بالدعوة، ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ ويضيع دمـك بـين القبائـل، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ويطردونك حتى لا تكون بينهم .

عن ابن عباس: أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجـر، فتعاقـدوا بـاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدًا، لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكـي حتـى دخلـت على النبي ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك: لـو قـد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك قال: «**يا بنيـة ايتيني بوضوء**»، فتوضأ، ثم دخل المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، ها هو ذا، فخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، فلم يرفعوا إليه بصرًا، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب، وقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم حصبهم، فما أصاب رجلا مـنهم مـن ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر[(٢)] .

في هذا الخبر بلغ الملأ من قريش القمة في التحجر الفكري، حيث ضـاعفوا من تهديدهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسـلام بـالقوة ، وذلـك بالقضـاء على داعيها الأول ﷺ .

---

(١) الأنفال : ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٦٨) ، وصححه الأرناؤوط .

ولكننا نجد من رسول الله ﷺ في مقابل ذلك إصرارًا أكيدًا على تبليغ دعوته مهما تكن الحواجز والعوائق؛ بل وشجاعة في ذلك لا تبارى .

٢ - وفي أعقاب الهجرة وانتصار الإسلام على الجاهلية في بدر استأجر صفوان بن أمية عمير بن وهب ليقتل النبي ﷺ .

فعن محمد بن جعفر بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير و كان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عنتًا إذ هم بمكة و كان ابنه وهب ابن عمير في أسارى أصحاب بدر قال: فذكروا أصحاب القليب بمصائبهم فقال صفوان: قبح العيش بعد قتلى بدر، قال عمير بن وهب: صدقت والله، ولولا ديْن عليَّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة، ابني عندهم أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان فقال: عليَّ دَيْنك وعيالك مع عيالي أسوتهم ما بقوا، لا يسعهم شيء نعجز عنهم. قال عمير: اكتم علي شأني وشأنك، قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسم ثم انطلق إلى المدينة، فبينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم، إذ نظر إلى عمير بن وهب قد أناخ بباب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله، ما جاء إلا لشر، هذا الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر.

فقام عمر فدخل على رسول الله ﷺ، فقال: هذا عمير بن وهب قد دخل المسجد معه السلاح، وهو الفاجر الغادر يا رسول الله لا تأمنه قال: «**أدخله عليَّ**».

فدخل عمر وعمير وأمر أصحابه أن يدخلوا على رسول الله ﷺ، ثم

يحترسوا من عمير إذا دخل عليهم، فأقبل عمر بن الخطاب وعمير بـن وهـب، فدخلا على رسول الله ﷺ ومع عمر سيفه، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**تـأخر عنه**» فلما دنا منه حياه عمير أنعم صباحًا، وهي تحية أهل الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله- عز وجل- عن تحيتك، وجعـل تحيتنـا السـلام، وهـي تحية أهل الجنة، فقال عمير: إن عهدك بها لحـديث، قـال رسـول الله ﷺ: «**قـد بدلنا الله خيرًا منها فما أقـدمك يـا عمـير؟**» قـال: قـدمت في أسـيري عنـدكم، فقاربوني في أسيري، فإنكم العشيرة والأهل، فقـال رسـول الله ﷺ: «**فـما بـال السيف في رقبتك؟**» فقال عمير: قبحها الله من سـيوف فهـل أغنـت عنـا مـن شيء، أنا نسيت وهو في رقبتي حين نزلت، ولعمري إن لي غيره، فقـال رسـول الله ﷺ: «**أصدقني ما أقدمك؟**» قال: ما قدمت إلا في أسيري، فقال رسول الله ﷺ: «**فما شرطت لصفوان بن أمية الجمحي في الحجر؟**» ففـزع عمـير، وقـال: ماذا اشترطت له؟ قال: «**تحملت له بقتلي على أن يعول بنيـك ويقضــي ديْنـك والله حائل بينك وبين ذلك**» فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أنـه لا إله إلا الله، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي وبما يأتيك مـن السـماء، وأن هـذا الحديث الذي كان بيني وبين صـفوان في الحجـر، لم يطلـع عليـه أحـد غـيري وغيره، ثم أخبرك الله به، فآمنت بالله ورسوله، والحمد لله الـذي سـاقني هـذا المقام، ففرح المسلمون حين هداه الله، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: لخنزير كـان أحب إليَّ منه حين اطلع، ولهو اليوم أحب إليَّ من بعض بني. فقـال رسـول الله ﷺ: «**اجلس نواسك**» وقال: «**علموا أخاكم القرآن**»، وأطلق له أسيره، وقال: يا رسول الله قد كنت جاهدًا ما استطعت على إطفاء نور الله، فالحمد لله الـذي ساقني هذا المساق، فلتأذن لي فألحق بقريش، فأدعوهـم إلى الإسـلام، لعـل الله يهديهم ويستنقذهم من التهلكة. فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكـة، وجعـل

صفوان يقول لقريش في مجالسهم: أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل راكب قدم من المدينة هل كان بها من حدث؟ وكان يرجو ما قال عمير بن وهب، حتى قدم عليه رجل من أهل المدينة، فسأل صفوان عنه، فقال: قد أسلم، فلقيه المشركون فقالوا: قد صبأ، وقال صفوان: إن علي أن لا أنفعه بنفع أبدا، ولا أكلمه من رأس كلمة أبدا، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام و يؤذي من يخالفه أذى شديدا فأسلم على يديه ناس كثير[١].

٨ - الضيق والكرب من الحيلولة بينه ﷺ وبين تبليغ الدعوة باختلاق الشائعات والأكاذيب:

ومن تلك الشائعات والأكاذيب:

- حديث المقتسمين، الذين بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا طرق مكة وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدّعي النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر، قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر، وربما قالوا: شاعر، وربما قالوا: كاهن[٢].. ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾[٣].

- عدم السماح له ﷺ بمقابلة الوفود وعرض دعوته عليهم. وقد وصف ﷺ معاناته هذه، إذ سألته السيدة عائشة- رضي الله عنها- قائلةً: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد**

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٤٥٣)، والسيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٣٥٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٥٨).
(٣) الحجر: ٩٠.

ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل»، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**»[1].

- ومن ذلك ما كان يفعله أبو جهل من حثي التراب على النبي ﷺ وينفر الناس منه ﷺ. فعن أشعث قال: حدثني شيخ من بنى مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قال وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، قال: قلنا انعت لنا رسول الله ﷺ، قال: بين بردين أحمرين، مربوع كثير اللحم، حسن الوجه، شديد سواد الشعر، أبيض شديد البياض سابغ الشعر[2].

- وقد بين القرآن الكريم ما يصيب النبي ﷺ من ضيق وكرب وقلق شديد على رد الكفار وجحود المشركين فيقول سبحانه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[3] فبين- سبحانه- أنهم لا يكذبون رسول الله ﷺ، بل يعلمون صدقه وأمانته في الباطن، وكانوا يسمونه: الأمين

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٣)، وصححه الأرناؤوط.
(٣) الأنعام: ٣٣.

قبل أن يوحى إليه ﷺ ولكنهم جحدوا الحق حسدًا وبغيًا عليه ﷺ لكنه ﷺ لم يبال بذلك ولم يكترث به، بل صبر واحتسب وسار في الطريق، ولم يزل داعيًا إلى الله- جل وعلا، وصابرًا على الأذى، مجاهدًا بالدعوة، كافًا عن الأذى، متحملاً له، صافحًا عما يصدر منهم حسب الإمكان، حتى اشتد الأمر، وعزموا على قتله ﷺ ، فعند ذلك أذن الله له بالخروج إلى المدينة، فهاجر إليها ﷺ.

- وأمره الله بالثبات على عبادته فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

وما شك رسول الله ﷺ فيما أوحي إليه، ولا امترى وهو على بينة من ربه، ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشي- بما كان يخالج نفس رسول الله ﷺ من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت. كذلك فإنه يشي بما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب، يحتاج إلى برد اليقين، يتنزل عليهم من ربهم الرحيم[٢].

٩ - الإيذاء والتعيير بالأولاد والنسل:

من أنواع الإيذاء والمضايقة للرسول ﷺ التعيير بالنسل أي أن الرسول ﷺ لا ينجب الذكور، فاتخذوا ذلك سبة ووسيلة لإيذاء النبي ﷺ فعن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة- وكان كعب بن الأشرف يهودياً - قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم - وكان هذا قبل الهجرة - قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور[٣] يقصدون رسول الله ﷺ .

---

(١) هود : ١٧.
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤) .

فاستخدام الألفاظ المشينة؛ ألفاظ السب، وانتقائها من قاموس السباب والشتائم لإلصاقها بالدعاة إلى الله قضية قديمة؛ ليست حديثةً ولا وليدة هذا العصر.

والصنبور في لغة العرب: هو الرجل الفرد الضعيف الذليل الذي لا أهل له ولا عقب، ولا ناصر ينصره.

قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية، قال: أنتم خير منه. فأنزل الله ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1]. أي: إن شانئك وسابك يا محمد هو الأبتر الذي لا عقب له.

١٠ - الإيذاء في الأهل والزوجات:

إن إيجاد حالة من عدم الاستقرار الأسري للرموز الدعوية مأرب من مآرب أعداء الدعوة، وذلك لعلم العدو أن هذا الدين يقوم على المثال والنموذج والقدوة، فإذا أفلح في إسقاط هذا النموذج وتشويه تلك القدوة، فقد تحقّق لهم ما أرادوا، ومن هنا فقد وجد المنافقون في زواجه ﷺ من مطلقة متبناه (زيد) مدخلاً للطعن فيه. وكذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن يتم التشهير والقذف بحق أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها ؛ فحديث الإفك الذي رميت به أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ما هو إلا حلقة من حلقات التآمر على الدعوة ومحاولة تشويه رموزها والنيل من شخص الرسول ﷺ، **فالعائلة تشكل ضغطاً هائلاً على الداعية قد يكون سلبياً وقد يكون إيجابياً؛ فعائلات الدعاة قد تكون نصيراً لما يقوم به الداعي في دعوته أو قد تكون عائقاً**

(١) الكوثر: ١- ٣.

في دعوته إذا شوهت صورتها ومواقفها .

ولقد كانت زوجات الرسول ﷺ من أكبر الدعامات في سبيل إنجاح دعوته؛ إذ كانت أم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها- من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد والعزيمة، وتواسيه بنفسها ومالها. يقول رسول الله ﷺ: «**قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله- عز وجل- ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[(١)].

ولذا فقد استحقت مدح وثواب ربها- سبحانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[(٢)].

وفيما يلي نبين بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من أذى في أهل بيته وأزواجه على وجه الخصوص:

حادثة زواجه ﷺ بزينب بنت جحش- رضي الله عنها، وأثر ذلك في نفس الرسول ﷺ، ونزول القرآن الكريم ليصف حاله ﷺ وما حلَّ به من الشدَّة والكرب. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: لو كان النبي ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾[(٣)] الآية[(٤)].

(١) أخرجه أحمد (٦ / ١١٧) وصححه الأرناؤوط .
(٢) أخرجه البخاري (٨٢٠) ، ومسلم (٢٤٣٢)
(٣) الأحزاب : ٣٧.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٠٨) وصححه الألباني .

ومجمل الحادثة أن رسول الله ﷺ زوج زيد بن حارثة- الذي كان متبناه، وكان يدعى زيد ابن محمد ثم دعي إلى أبيه- من زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ، ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة، ويحقق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)، ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملي واقعي.

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤنة إزالة آثار نظام التبني؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، ويواجه المجتمع بهذا العمل، الذي لا يستطيع أحد غيره أن يواجه المجتمع به، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية، وصعوبة الخروج عليها، على الرغم من إبطال عادة التبني في ذاتها. فيقع الابتلاء على رسول الله ﷺ، ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع، بعد تقريرها في أعماق الضمير، لكن يبدو أن هذا الزواج لم يمر بسهولة ويسر؛ فلقد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب، وغير المتثبتين الذين لم يتضح في نفوسهم التصور الإسلامي الناصع البسيط، انطلقت تغمز وتلمز، وتؤوّل وتعترض، وتهمس وتوسوس. وتقول قولاً عظيما! ويتخذون من هذه الحادثة، مادة للشقاق والجدال، فقد قالوا: تزوج محمد حليلة ابنه زيد بعد أن طلقها، واتخذوا من هذه القضية مدخلاً للطعن في نبي الله ﷺ(٢). يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٨٧) بتصرف.

أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [١].

- **حادثة الإفك:**

وإنما اخترت التوسع في حادثة الإفك دون سواها للأسباب التالية:

- **نزول القرآن الكريم بها ولغضب الله- تعالى- لنبيه ﷺ**: يقول الزمخشري في تفسيره الكشاف: ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تـر الله- تعالى- قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة- رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلاّ هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾[٢] فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر.

- وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك. ولقد برَّأ الله- تعالى- أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد

(١) الأحزاب: ٣٧.
(٢) النور: ٢٥.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾(١). وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه(٢). وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله(٣). وبرَّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر(٤)، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر، كم بينها وبين تبرئة من

(١) يوسف : ٢٦.

(٢) خلاصة القول في هذه القصة يرويها حديث البخاري(٣٤٠٤): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة (انتفاخ الخصية)، وإما آفة. وإن الله- عز وجل- أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ، أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا، أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا . فذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ [الأحزاب : ٦٩].

(٣) لقد برأ الله مريم من ظنّ قومها بها، وذلك حين قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] فلما أشارت إليه بيدها، وكانت قد نذرت للرحمن صومًا عن الكلام: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] حينئذٍ أنطق الله عيسى عليه السلام، وهو بعد طفل رضيع في المهد فقال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٢] وهكذا كانت المعجزة وبرأ الطفل الوليد والدته الطهور البتول العذراء مما ذهب إليه قومها من سوء الظن بها وبولدها. وقد أكد رسولنا الحبيب محمد ﷺ براءة مريم وعلو مكانتها في أحاديث نذكر منها اثنين، الأول: خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد. البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠). راجع قصص الأنبياء (٥٥٤) وما قبلها وما بعدها .

والثاني: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، وللمستزيد أن يرجع إلى كتاب قصص الأنبياء لابن كثير (٥٧١) وما قبلها وما بعدها .

(٤) أما براءة عائشة الطاهرة المطهرة ابنة الحبيب الأريب أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعنه .. فقد نزل بها القرآن العظيم وكفى بذلك صدقًا وتصديقًا إذ قال رب العزة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١١-١٢]، الكشاف (٤/ ٣٩٤).

سبقها من الأنبياء والأولياء؟ وما ذاك إلاّ لإظهار علوّ منزلـة رسـول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محلّ سيد ولد آدم، وخيرة الأوّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين. ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدّم قدمه، وإحـرازه لقصـب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمّل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه. فإن قلت: إن كانـت عائشـة هي المرادة فكيـف قيـل المحصـنات؟ قلـت: فيـه وجهـان، **أحـدهما**: أن يـراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ، وأن يخصصن بأن من قذفهنّ فهذا الوعيـد لاحق به، وإذا أردن عائشة كبراهنّ منزلة وقربـة عنـد رسـول الله ﷺ، كانـت المرادة أوّلاً، **والثاني**: أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نسـاء الأمّـة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان .

- **المدة الزمنية التي مرت بها الأزمة**: لا شك أن عامل الوقـت في أي أزمـة تواجه الإنسان له دور فعال في سـهولة الخـروج منهـا، والآثـار السـلبية لهـذه الأزمة؛ فكلما طالت المدة كلما زاد تعقيد المشكلة واتسعت دائرة الأزمة، ونظراً لما مثَّله عامل الوقت في حادثة الإفك؛ فقد ظل الرسول ﷺ ما يزيد عـن شـهر كامل يسمع الأذى في أهله كما تقول عائشة – رضي الله عنها: «وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء».

وتبعا لطول مدة الأزمة فقد توسعت دائرة الفتنة لتعم المسلمين، حتى كـاد أن يقتتل الأنصار فيما بينهم (الأوس والخزرج) بهذا الخصوص، مما زاد في ثقل هذه القضية على النبي ﷺ.

- **النيل من القيادات الدعوية**: لا شك فيما تمثله القيادة من أهميـة في وسـط أي مجتمع؛ فهي تعتبر الواجهة الفعلية له، وفي حالة المجتمع الإسـلامي تعتـبر القيادة الدعوية هي صمام الأمان لهذا المجتمع أمام الظروف غير المناسبة سـواء

كانت هذه الظروف داخلية أو خارجية، ولذلك نجد مدى الأثر الكبير على الأمة الذي يولده النيل من هذه القيادة، ولنا في التاريخ الإسلامي خير عبر وشواهد؛ فما مر على الرسول ﷺ في هذه الحادثة التي هي محط الدراسة، وكذلك ما حدث إثر غزوة أحد، وما حدث للجيش الإسلامي، وما تعرض فيها الرسول ﷺ من الأذى، يمثل ذلك كله دروسًا وعظات ومعالم يجب على كل داعية تمثلها وتدبرها ومعرفة دلالاتها وكيفية المعالجة .

- **إثارة البلبلة في الصف الإسلامي وإيجاد حالة من الانهزامية النفسية لدى المسلمين**: من خلال الانسياق في بحر الأزمات مما يولد حالة من عدم الثقة بين المسلمين؛ فهذا يرمي بالتهمة، والآخر يصدق ويكون صراع داخلي، هذا الصراع يزيد من الفرقة بين الأمة، وفي وسط هذه الحالة من الفرقة بين أبناء الصف الإسلامي يسهل تسلط الأعداء والابتعاد عن القيادة الدعوية، مما يولد حالة من الإحباط النفسي بين الصفوف، والضعف والاستكانة أمام العدو.

- **صرف اهتمامات القيادة الدعوية عن أمور الدعوة إلى الفتن والأزمات الداخلية**: إذ عندما تشتعل الأزمة في أي مجتمع تتعطل حركة التنمية ومسيرة العطاء مدة من الزمن، تطول أو تقصر بحسب حجم هذه الأزمة وآثارها، ما لم يتم العمل بالأسلوب الأمثل لعلاج هذه الأزمة. والمجتمع الإسلامي حاله حال أي مجتمع في ذلك؛ فالأزمات تعطل عجلة العطاء، وتهدر الكثير من الطاقات والوقت، ويفقد الصف الإسلامي بسببها الكثير من الإنجازات التي تم تحقيقها؛ فبعد انتصارات عظيمة حققها المجتمع الإسلامي بقيادة الرسول ﷺ على الجبهات العسكرية، أو على جبهة بناء المجتمع المسلم، أو على الصعيد الدعوي، نجد الصف النفاقي يحدث مثل هذه الفتنة، لكي يصرف اهتمامات

القيادة الدعوية من الانشغال بإرساء دعائم المجتمع المسلم إلى إشغاله بمعالجة آثار هذه الفتن، والعمل على إخماد نارها. كل هذه العوامل ساهمت بشكل كبير في اختيار هذه الحادثة بالذات، لتكون معلمًا بارزًا لكل من يسلك طريق الدعوة في كل زمان ومكان خصوصًا ونحن نلحظ ذلك التقارب العجيب بين أسلوب حرب الأعداء في ذلك العصر وأسلوب المحاربة الداخلية في الصف المسلم في الوقت الحاضر .

- **أسباب الحادثة**: لـمَّا فشل المنافقون في محاولاتهم التخذيلية، وخابت آمالهم في هزيمة المسلمين عبر صراعهم مع الوثنيين واليهود، وحقق النبي ﷺ انتصارات عديدة على كلتا الجبهتين، تحولوا إلى حلقة جديدة من سلسلة الإيذاءات والمحن التي عانى منها المسلمون، وذلك من خلال أسلوب التخريب الداخلي المتمثل بنشر الإشاعات المغرضة الهدامة، التي من شأنها أن تزلزل بنيان المجتمع الإسلامي وتشل حركته؛ ففي أثناء عودة المسلمين إلى المدينة بعد غزوة بنى المصطلق، نزلت عائشة أم المؤمنين لتقضي حاجتها، فلما عادت إلى هودجها فقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه حتى وجدته، وفي هذه الأثناء تحرك الجيش، وحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه ـ إذ كانت صغيرة خفيفة ـ وكان الحمالون جماعة لم ينتبهوا لخفة الهودج، ومضى المسلمون إلى المدينة وقد تركوها في البيداء، فمكثت في مكانها وقد علمت أنهم سيفقدونها ويرجعون إليها، ثم غلبتها عيناها فنامت، فمر بها صفوان بن المعطل- رجل من خيار الصحابة ﷺ- قد نزل أخريات الجيش ونام هو الآخر. فلما مرّ بها استرجع ولم يكلمها، وإنما أناخ لها بعيره لتركب، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فوجد المنافقون

الفرصة سانحة لإطلاق سهام الشائعات، فنشروا الريب، وأذاعوا الكذب، وجعل عدو الله زعيم المنافقين (عبدالله بن أبي ابن سلول) يغري الناس بإثارة الشائعات، حتى انزلق في فتنته بعض المؤمنين، فما وصلوا إلا وقد أفاض أهل الإفك في إفكهم، وضاق النبي ﷺ ذرعاً بدعايات المنافقين، لكنه بشر من البشر، ليس له اطلاع على غيب مكنون، ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب.

وكان من حكمة الله- عز وجل (وهنا نحن لا نتألى على الله بل نتدبر ونتأمل) في تربية الصف المسلم وتمحيصه أن يتأخر ظهور الحق شهراً، حتى بلغت القلوب الحناجر وبلغت الحيرة والظنون في الصف مداهما، والنبي ﷺ في كرب عظيم، ماذا يفعل أمام تلك الشائعات ؟ ولو كان الوحي شعوراً نفسيًّا ينبع من كيان النبي ﷺ أو يخضع لإرادته، كما يقول الفلاسفة ومن نحا نحوهم من الجهلة والمارقين، فما الذي منعه أن يسارع فيحمي عرضه، ويذب عن نفسه بكلمات ينسبها إلى وحي السماء، ولكنه ما كان ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾(١).

وقد أخذ رسول الله ﷺ بدافع بشريته يقلب الرأي على وجوهه، ويستعين بمشورة المقربين إليه من أصحابه، فما سمع منهم إلا خيراً في أهله، فما كان منه إلا أن شكا أهل الإفك لأصحابه في المسجد فقال: «**يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً!**».

(١) الحاقة: ٤٤- ٤٧.

كل هذا وعائشة- رضي الله عنها- لا تدري شيئا عما حدث حولها، لأنها لما رجعت المدينة مرضت فلم تشعر بما يتناقله الناس، إلا أنها كانت تستشكل غياب وده وتلطفه الذي كان يزيد في حال مرضها، فلم تر ذلك منه في مرضها هذا، ثم إنها علمت بما يخوض فيه الناس من شأنها، فازداد مرضها، واستأذنت رسول الله ﷺ أن تأتي أبويها، فأذن لها، وهناك أكدت لها أمها خوض الناس في شأنها، فقالت: سبحان الله! أوقد تحدث الناس بهذا، فبكت تلك الليلة لا يرفأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وهي تنتظر أن يُعْلم الله نبيه ببراءتها برؤيا صادقة؛ ولا شك أن النبي ﷺ نفسه كان في أشد الحاجة إلى وحي يطمئن نفسه ويذب عن عرضه، ثم إن رسول الله ﷺ أتاها في بيت أبيها، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه**»، فشق ذلك عليها جداً، وطلبت من أبويها أن يجيبا رسول الله ﷺ فقال كل منهما: لا أدري ما أقول لرسول الله، ولما أيست عائشة من ثبات براءتها تمثلت بقول يعقوب عليه السلام: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1]، فما قام رسول الله ﷺ من مجلسه حتى أنزل الله عليه آيات البراءة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾[2].. إلى آخر الآيات فقال النبي ﷺ: «**أبشرى يا عائشة: قد أنزل الله براءتك**» وهكذا تولى الله- تعالى- بنفسه الدفاع عن عرض رسول الله ﷺ، وأنزل قرآنا يتلى إلى يوم الدين يشهد ببراءة الصدّيقة بنت الصدّيق مما أشيع في حقها، ويظهر منزلة رسول الله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه.

---

(١) يوسف: ١٨.
(٢) النور: ١١.

ولا أجد أفضل صياغة ولا أعظم شعورًا من شعور الشهيد سيد قطب وهو يفسر الآيات ويشرح الأحاسيس والمشاعر التي كانت تجول في قلب وضمير كل من كان له صلة بتلك الحادثة الأليمة والبهتان المفترى. إن حادثة الإفك لم تكن حدثا خاصا برسول الهدى ﷺ بل قد عمّت مجتمع المسلمين وكان حدث الإفك من أشد ما مر به المسلمون من الفتنة، والأزمة، وشيوع الشائعات، وكثرة القالات.

إن هذا المصاب الذي لم يقف عند شخص النبي ﷺ، بل تجاوزه إلى الجماعة المسلمة جميعها، وكان كفيلا أن يئد الدعوة الإسلامية، لولا أن الله- تعالى- أراد أن يجعل من تلك الحادثة درسًا، بل دروسًا إيمانية وعملية إلى يوم القيامة لجماعة كتب الله لها البقاء ولو كره المشركو .

يقول سيد قطب- رحمه الله- في تفسير ظلال القرآن:

وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته. وعاش أبو بكر ؓ وأهل بيته. وعاش صفوان بن المعطل. وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

وإن الإنسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجه المقربة. وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة. تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة. ها هي ذي في براءتها ووضاءة

ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي ترمى في أعز ما تعتز به. ترمى في شرفها. وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع. وترمى في أمانتها. وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم. وترمى في وفائها. وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير.. ثم ترمى في إيمانها. وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة. وهي زوج رسول الله ﷺ.

ها هي ذي ترمى، وهي بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئاً؛ فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا، تبرئها مما رميت به. ولكن الوحي يتلبث، لحكمة يريدها الله، شهراً كاملاً؛ وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح. وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى؛ وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟ فتجيب أمها: نعم! فتقول: ورسول الله ﷺ؟ فتجيبها أمها كذلك: نعم!

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه، يقول لها: «**أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله- تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله- تعالى- وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه**»[١]، فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها. وربه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها؛ فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

الكبير الذي أحبها، وأحلها في سويدائه!

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه يلدغـه الألم، وهو يرمى في عرضه. في ابنته زوج محمد صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلاً مـن خارجـه.. وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القـوي عـلى الألم، فيقـول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية. أفنرضى به في الإسلام؟ وهـي كلمـة تحمـل مـن المرارة ما تحمل. حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: أجب عنـي رسـول الله ﷺ قال في مرارة هامدة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!

وأم رومان زوج الصـديق- رضي الله عـنهما- وهـي تتماسـك أمـام ابنتهـا المفجوعة في كل شيء. المريضة التي تبكي حتى تظـن أن البكـاء فـالق كبـدها. فتقول لها: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قـط وضـيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليهـا .. ولكـن هـذا التماسـك يتزايـل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ فتقول كما قال زوجها مـن قبـل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صـفوان بـن المعطـل. وهو يرمى بخيانة نبيه في زوجـه. فيرمـى بـذلك في إسـلامه، وفي أمانتـه، وفي شرفه، وفي حميته. وفي كل ما يعتز به صحابيّ، وهو من ذلك كلـه بـريء. وهـو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه بريء مـن تصـوره، فيقـول: سـبحان الله! والله مـا كشفت كتف أنثى قط. ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنـه، فـلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به. ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهي عنه، إن الألم قد تجاوز طاقتـه، فلـم يملـك

زمام نفسه الجريح!

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم.. ها هو ذا يرمى في بيته، وفي من؟ في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة الحبيبة. وها هو ذا يرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة. وها هو ذا يرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته. وها هو ذا يرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

ها هو ذا ﷺ يرمى في كل شيء، حين يرمى في عائشة- رضي الله عنها- يرمى في فراشه وعرضه، وقلبه ورسالته. يرمى في كل ما يعتز به عربيّ، وكل ما يعتز به نبيّ.. ها هو ذا يرمى في هذا كله؛ ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً. والله يريد- لحكمة يراها- أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً لا يبين فيه بياناً. ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم، يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب؛ ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق.. والشك يعمل في قلبه، مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك؛ فلا يملك أن يطرد الشك؛ لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر، وزوج لا يطيق أن يمس فراشه، ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد، حبه القريب

إلى قلبه.. ويبعث إلى علي بن أبي طالب. ابن عمه وسنده. يستشيرهما في خاصة أمره. فأما علي فهو من عصب محمد، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب، ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد، ابن عمه وكافله، فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ﷺ ويستقر على قرار. وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء .. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور وهم في مسجد رسول الله ﷺ وفي حضرة رسول الله ﷺ ويدل هذا على الجو الذي يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، وقد خدشت قداسة القيادة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس؛ ويطلب منها هي البيان الشافي المريح! وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة؛ وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذي تنزل: (وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله- تعالى- مبرئي ببراءتي. ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله- تعالى- في شأني وحياً يتلى.

ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله- تعالى- منها).

ولكن الأمر كما يبدو من ذلك الاستعراض لم يكن أمر عائشة- رضي الله عنها- ولا قاصراً على شخصها. فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها. بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها. وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها.. من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام؛ ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله؛ وما يعلمها إلا الله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً؛ إنما هم ﴿عُصْبَةٌ﴾ متجمعة ذات هدف واحد. ولم يكن عبدالله بن أبي ابن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك. إنما هو الذي تولى معظمه. وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة. ثم خدع فيها المسلمون، فخاض منهم من خاض في حديث الإفك، كحمنة بنت جحش؛ وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة. أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة. ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد. إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا

(١) النور: ١١.

يشهدون عليه. وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف المدينة شهراً كاملاً، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها!

وقد بدأ السياق بيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث، وعمق جذوره، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ خير. فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته. وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد. إنما تمضي صعداً إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته، والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة، وضريبة الابتلاء، الواجبة الأداء !

أما الذين خاضوا في الإفك، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾.. ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله. وبئس ما اكتسبوه، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم والذي تولى كبره، وقاد حملته، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، كان هو عبدالله بن أبي

ابن سلول. رأس المنافقين، وحامل لواء الكيد. ولقد عرف كيف يختار مقتلاً، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً، وكان لدينه حافظاً، ولرسوله عاصماً، وللجماعة راعياً .

ولقد روي أنه لما مرَّ صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة- رضي الله عنها.. فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت؛ ثم جاء يقودها!

وهي قولة خبيثة راح يذيعها عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية. بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تصدق، والتي تكذبها القرائن كلها. وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين. وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهراً كاملاً. وهي الفرية الجديرة بأن تنفى وتستبعد للوهلة الأولى .

وإن الإنسان ليدهش حتى اليوم كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة حينذاك. وأن تحدث هذه الآثار الضخمة في جسم الجماعة، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق .

لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك. وخاضها الإسلام. معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ، وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره. فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله. والآلام كانت من أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه.

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه؛ ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه .

والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[(١)].

نعم كان هذا هو الأولى.. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة.. وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظن الخير بهما أولى. فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيراً.. كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته- رضي الله عنهما- كما روى الإمام محمد بن إسحاق: أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة- رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.. ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره (الكشاف): أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة- رضي الله عنها- ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك.

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة، وما نسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف

(١) النور : ١٢.

للمناقشة!

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور. خطوة الدليل الباطني الوجداني. فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾[(١)] .. وهذه الفرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات، وأطهر الأعراض، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة؛ وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة؛ وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ ﴾! وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن. كاذبون عند الله الذي لا يبدل القول لديه، والذي لا يتغير حكمه، ولا يتبدل قراره. فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها، ولا نجاة لهم من عقباها.

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير. وخطوة التثبيت بالبينة والدليل .. غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك؛ وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم. فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[(٢)].

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درساً قاسياً. فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه. فهي فعلة تستحق العذاب العظيم.

---

(١) النور: ١٣.
(٢) النور: ١٤.

والعذاب الـذي يتناسـب مـع العـذاب الـذي سـببوه للرسـول ﷺ وزوجـه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عنه إلا خيراً. والعـذاب الـذي يتناسـب مـع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع، ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنـافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسـهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقـين! ولكـن فضـل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم .

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمـام؛ واختلـت فيهـا المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضـاعت فيهـا الأصـول: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[1] .

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحـرج، وتنـاول أعظـم الأمـور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾.. لسان يتلقى عن لسـان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إمعان نظر، حتـى لكـأن القـول لا يمـر عـلى الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.. بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم. إنما هي كلـمات تقـذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المـدارك، وقبـل أن تتلقاهـا العقـول.. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله، وأن تدعوا الألم يعصر قلبـه وقلـب زوجـه وأهله؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية؛ وأن تتهموا صـحابياً مجاهداً في سبيل الله. وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعايـة الله لـه.. ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾.. ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ومـا يعظـم عنـد الله إلا الجليـل

(١) النور: ١٥.

الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء .

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث؛ وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزاً؛ وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت.. عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] .

﴿ يَعِظُكُمُ ﴾.. في أسلوب التربية المؤثر. في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار. مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾.. ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.. فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾.. على مثال ما بين في حديث الإفك، وكشف عما وراءه من كيد؛ وما وقع فيه من خطايا وأخطاء: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف؛ ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس. وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها.

ثم يمضي في التعقيب على حديث الإفك؛ وما تخلف عنه من آثار؛ مكرراً التحذير من مثله، مذكراً بفضل الله ورحمته، متوعداً من يرمون المحصنات

---

(١) النور : ١٦ .

(٢) النور : ١٧ .

الغافلات المؤمنات بعذاب الله في الآخرة. ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة؛ وإطلاقها من ملابسات الأرض، وإعادة الصفاء إليها والإشراق ..

كما تتمثل في موقف أبي بكر ﷺ من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض في حديث الإفك مع من خاض: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .. والذين يرمون المحصنات وبخاصة أولئك الذين تجرؤوا على رمي بيت النبوة الكريم إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة؛ وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها.. بذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع .

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

وذلك جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية. يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها.. ومن ثم يعقب بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.. ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2][3] .

---

(١) النور : ١٩.
(٢) النور : ٢٠.
(٣) في ظلال القرآن (٥ / ٢٦١) .

لقد كان حادث الإفك خيراً في الآجل والعاجل من حيث فوائده العظيمة ونتائجه العميمة، وصدق الله: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[(١)].

فمن الفوائد افتضاح أمر المنافقين، فقد كشف الله بعد هذه الحادثة أمر المنافقين، وفضح نواياهم وجلاّهم للمؤمنين .

ومن الدروس المستفادة من حادثة الإفك:

أ - **الدرس الأول**: معالجة النبي ﷺ للمشكلة التي استغلها عبد الله بن أبي ابن سلول بالشكل الذي رأيناه، على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم. لقد كان ما سمعه ﷺ من كلام ابن سلول مسوغاً كافياً لأن يأمر بقتله بحسب الظاهرة؛ ولكنه ﷺ استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك، وسمع عن اللغط الذي جرى، والتناوش الذي وقع، والجيش فيه عدد كبير من المنافقين، الذين يبحثون عن شيء مثل هذا ليقوموا ويقعدوا به، فلم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة، وإنما ترك الحكمة وحدها هي التي تدبر، فكان أن أمر القوم بالمسير في وقت لم يكونوا يعتادونه، حتى يشغلهم السير عن الاجتماع على المحادثة والكلام. ظل يسير بهم بقية اليوم والليل كله وصدراً من اليوم الثاني، لا يدع لهم مجالاً يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدون من باطل، فلما انحطوا بعد ذلك على الأرض لم يدع لهم التعب فرصة الحديث عن شيء، وذهب الجميع في سبات عميق. وانتظر الناس أن يجدوا من الرسول ﷺ، إذا وصل إلى المدينة، شدة على المنافقين، لا ريب أنها تتجلى في قتل عبد الله بن أبي ابن سلول، فلذلك جاء إليه ابنه عبد الله رضي الله عنه يعرض على الرسول ﷺ أن يتولى هو قتل أبيه إذا كان يريد أن

(١) النور : ١١.

يحكم بذلك، ولكنه فوجئ من رسول الله ﷺ بما لم يكن متوقعاً حينما قال: «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[١]. وانظر إلى تعليل ذلك فيما قاله لعمر رضي الله عنه: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟**». ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن عبد الله بن أبي قومه، فكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئاً، والكل يعلم: أن المنافق يعتبر في الأحكام القضائية الدنيوية مسلماً مع وجوب الحيطة والحذر منه.

ب - الدرس الثاني: أن الله أراد أن يضرب بوقوعه المثل للمؤمنين بأن التعرض للاتهام الكاذب من الأعداء لم يبرأ من أذاه سيد البشر، وأفضل الناس ﷺ، وفي ذلك درس عظيم للناس كي لا يتسرع المؤمنون في مواجهة مثل هذه الحوادث بمواقف غير ناضجة، بل يجب على من ابتلي بشيء من ذلك أن يتجمل بالصبر، ويتصرف بحكمة وروية .

ومن فوائد وقوع هذه الحادثة: بيان خطورة الإشاعة، وما يترتب عليها من العذاب العظيم في الدنيا والآخرة، فقد جُلِد النفر الذين خاضوا في الإفك جزاء تصديقهم لهذه الإشاعة وإشاعتها .

جـ - الدرس الثالث: أنها بينت اختلاف مواقف الناس على حسب إيمانهم وتقواهم، فقد ضرب كثير ممن سمع الإفك أروع الأمثلة على التقوى والورع والقيام بحقوق الأخوة وحسن الظن بالمسلمين، فمن ذلك أن أم أيوب قالت لزوجها أبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟! فقال أبو أيوب: بلى!

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١١٠).

وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك.

ومن أروع مواقف إحسان الظن بالمسلمين موقف زينب بنت جحش، وكانت هي التي تسامي عائشة من زوجات النبي ﷺ، والضرائر مجبولات على الغيرة، ولا شك أن هبوط سهم عائشة يرفع من قدر ضرتها، لكن ورعها- رضي الله عنها- وإيمانها أبيا لها حين سألها النبي ﷺ عن عائشة إلا أن تقول: أحمي سمعي وبصري ! ما علمت إلا خيراً، وقريب من هذا قول أسامة بن زيد لما استشاره النبي ﷺ في شأن عائشة، قال: يا رسول الله أهلك، وما نعلم إلا خيراً.

لأن أولى الموالى من تواليه عند السرور كما ولاك في الحزن

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

د - **الدرس الرابع**: التنبيه على خطورة شيوع المنكرات في المجتمع، وأن المشارك في ذلك ولو بالرضا به فيما لو وقع من غيره له عذاب أليم، فكيف بمن يفعله ويباشره ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فمجرد محبة انتشار الفاحشة متوعد عليه بالعذاب، فكيف بمن يعمل على نشرها ويباشر إشاعتها في المجتمع؟ والفاحشة كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال مما يشيع في مجتمعات المسلمين الآن من تبرج واختلاط، وانحلال وتشبه بالكافرين، وغناء ماجن، وفن هابط، واتباع للشهوات، وغير ذلك مما أصبحنا نقرؤه ونشاهده صباح مساء. لا شك أن كل ذلك من الفحش الذي يغضب الله لوقوعه، ولا شك أن الرضا بذلك يستوجب العذاب، فكيف بمن يعمل على إشاعته في بلاد المسلمين.

(١) النور: ١٩.

ترى: كم من العذاب والهوان ينتظران أصحاب تلك الفضائيات التي تعرض الفاحشة، وتحرض عليها كل ساعة من ليل أو نهار، تحت مسمى الفن والإبداع والزينة والفكر وحرية الرأي، وحرية التصرف والسلوك؟

هـ- الدرس الخامس: أن أكثر أوقات الأزمة شدة هو ما يسبق الفرج، كما أن أشد ساعات الليل ظلمة هو ما يسبق الفجر. ورحم الله القائل:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاقت لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ... ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث ... يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ المسْتَجِيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها الفرج القريب

ونحن اليوم فيها؛ فالخطوب محيطة بالإسلام ودعاته، والحصار يلفهم، والتضييق عليهم يعمُّ، وتشويه سمعتهم وسمعة دينهم دائرٌ. بل والتصفية الجسدية لهم تحدث في العديد من البلاد، حتى لا يكاد يمرّ يوم إلا ونسمع عن حادثة من تلك الحوادث العمياء تستهدفهم وتستهدف رموزهم وتطبيقات دينهم، وذلك بذرائع شتى كلها زائفة منافقة، لا تصمد أمام عقل متوازن أو فهم متدبر.

وهذا - والله أعلم - يمثل حلكة الليل الأخيرة - إن شاء الله.. حيث نصر الله قريب قادم، وإرهاصاته بادية للعيان .. فإن الحرب على أمة تديرها كل الجهات، لا بد نابعة من شعور ذلك المحارب بخطر الأمة وقرب انتصارها وحلول هزيمة ساحقة بالمعادين لهذا الدين وأهله. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

رابعاً: الآلام الداخلية من المجتمع المسلم (من الأتباع الصادقين):

١ – في عهد النبوة:

أ – الألم الذي تسبب به بعض الصحابة – رضي الله عنهم – من غير قصد منهم: وهذا لا يعني انتقاصاً منهم لا سمح الله – تعالى – ولا طعناً بهم، وإنما هم بشر ليسوا معصومين من الزلل أو الخطأ، ولا تثبيتاً لخطأ أو زلة لهم، إنما كان ذلك منهم بعض حالات من الدهشة والعجب والمشاعر النفسية، التي أحاطت بهم عند منعهم من دخول مكة، حين ذهبوا معتمرين فقد جعلتهم المشاعر يتلكؤون في تنفيذ أمره ﷺ في الحلق والذبح، وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالاً له. كالذي حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفي .

ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول، وثابوا إلى الطاعة. فهم في تلكؤهم كانوا كالذي وقع في دهشة المأخوذ!

لقد خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة بنية العمرة، لا ينوون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً. ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان رضي الله عنه، وبما كان من إرسالها النفر الذين رموا عسكر المسلمين بالنبل والحجارة .

فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم. ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة بالموقف الذي جاء على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له. وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات

وتأثرات، وكأنهم لم يعوا ما يجري من حولهم، ولكن سرعان[1] ما استجابوا لأمره ﷺ؛ ومن هذا النوع ما قام به عمر رضي الله عنه في صلح الحديبية من سؤال للنبي ﷺ قائلاً: ألست نبي الله حقا؟ قال: «**بلى**». قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**». قال: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**». قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**». قال: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق؟ قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل غما[2].

---

(١) قيل كأنهم توقفوا لاحتمال أن يكون الأمر بذلك للندب، أو لرجاء نزول الوحي بإبطال الصلح المذكور، أو تخصيصه بالإذن بدخولهم مكة ذلك العام لإتمام نسكهم، وسوغ لهم ذلك لأنه كان زمان وقوع النسخ. (موسوعة الدفاع عن الرسول ﷺ ٣ / ١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

ب - **الأذى والهم الذي كان يخلفه المنافقون:** فهم عدو خفي، قد تلحفوا بعباءة الإسلام، مضمرين الكفر والجحود، وهم العدو الحقيقي في كل مجتمع وفي كل زمان. فهم يعيشون بيننا ويتسمون بأسمائنا ويصلون صلاتنا.. إلا أنهم أول معول شارك في هدم حصن الإسلام.

فهم يثيرون الفتن، ويغشون الفساد، ويطلبون الدنيا ولو بدماء الآخرين.

هم من أتى بالإفك، وهم من أججوا نار العداوة والبغضاء، وهم المشككون في صدق الرسالة.

ومن صور إيذائهم للرسول ﷺ:

١ - ما رواه عروة أن أسامة بن زيد أخبره: أن النبي ﷺ ركب على حمار على إكاف على قطيفة فدكية، وأردف أسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر، فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، قال: لا تغبروا علينا، فسلم النبي ﷺ ووقف ونزل، فدعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. قال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، فركب النبي ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له: «**أي سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب**». يريد عبد الله بن أبي، قال سعد: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فلقد أعطاك

الله ما أعطاك، ولقد اجتمع أهل هذه البحرة أن يتوجوه فيعصبوه، فلما رد ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رأيت[(١)].

٢ - ومن ذلك الطعن في أمانة النبي ﷺ:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا النبي ﷺ يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال ﷺ: «**ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل**». قال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، قال ﷺ: «**دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه- أو قال: ثدييه- مثل ثدي المرأة- أو قال: مثل البضعة- تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس**».

قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال: فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[(٢)(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٢) التوبة: ٥٨.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣٣).

قذذه: الريشة المسواة توضع على السهم، كناية عن أنه لا سهم عنده (المعجم الوسيط).

نصل: القطعة الحادة من السهم (والجملة تعني أيضاً أنه لا سهم له ولا عون).

رصافه: الصف المرصوص (كناية عن أن لا أحد يعضده).

النضي: ما بين ريش السهم والنصل.

البضعة: قطعة اللحم.

تَدردَرُ: تضطرب وتترجرج.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قلت: أما لأقولن للنبي صلى الله عليه وسلم، فأتيته وهو في أصحابه فساررته، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، وتغير وجهه، وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته، ثم قال «**قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر**»[١].

وعن عبد الله قال: قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ! قال: فقال عبدالله فقلت: يا عدو الله، أنا لأخبرن رسول الله بما قلت قال: فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال: فاحمر وجهه وقال: «**رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» [٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «**ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟**» فلما قام قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «**سيكون هذا وأشباهه في أمتي يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم** » قال ذلك ثلاثاً[٣].

قال سيد قطب- رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية:

وعلى أية حال فالنص القرآني يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٠) .

(٢) أخرجه أبو يعلى (٥٢٠٦) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤ / ٧٤).

(٤) هذه الأحاديث النبوية لا تتحدث عن المنافقين.. بل هي تتحدث عن جذور الخوارج الذي حكموا أفهامهم القاصرة وعقولهم في تفسير الأحكام والأحداث والعقائد . (لذا وجب التنويه إلى هذا عند قول الشهيد سيد قطب بنسبة ذلك للمنافقين) .

يقولونها لا غيرة على الدين، ولكن غضباً على حظ أنفسهم، وغيظاً أن لم يكن لهم نصيب.

وهي آية نفاقهم الصريحة. فما يشك في خلق الرسول ﷺ مؤمن بهذا الدين، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين، والعدل فرع من أمانات الله التي ناطها بالمؤمنين فضلاً على نبي المؤمنين. وواضح أن هذه النصوص تحكي وقائع وظواهر وقعت من قبل، ولكنها تتحدث عنها في ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفي ثناياها[١].

جـ - إيذاء النبي ﷺ من قبل غير المسلمين داخل المجتمع المسلم:

١ - **غدر يهود وخيانتهم:** فهم جيران وأهل كتاب وأصحاب قوة وأهل ثروة إلا أن طبعهم لا ينفك عن الخيانة والغدر والدسائس الخبيثة، والأساليب الملتوية ونقض العهود والمواثيق وتأجيج نار الفتنة والعداوة بين العرب بعضهم ببعض.

وقد سكن اليهود المدينة، وكانوا بانتظار رسول، يجدون صفته وصفة بلده ومكان مبعثه في التوراة، وكانت اليهود تذكر ذلك كثيراً للأوس والخزرج سكّان المدينة وتستفتح به عليهم، وتقول: إن نبياً سيبعث الآن وقد أظلّنا زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

جاء في سيرة ابن هشام:

لما لَقِيَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ لَهُمْ: «**مَنْ أَنْتُمْ؟**» قَالُوا: نَفَرٌ مِنْ الْخَزْرَجِ، قَالَ «**أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلّمُكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى.

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٤٠).

فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله- عَزّ وَجَلّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِم الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ. قَالَ: وَكَانَ مِمّا صَنَعَ الله بِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ أَنّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا هُمْ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ بِبِلَادِهِمْ، فَكَانُوا إذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ: إنّ أَظَلّ زَمَانُهُ نَتّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ. فَلَمّا كَلّمَ رَسُولُ الله ﷺ أُولَئِكَ النّفَرَ وَدَعَاهُمْ إلَى الله، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمِ تَعْلَمُوا وَاَللهّ إنّهُ لَلنّبِيّ الّذِي تَوَعّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا تَسْبِقُنّكُمْ إلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ بِأَنْ صَدّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا: إنّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالشّرّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ الله بِك، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إلَى أَمْرِك، وَتَعْرِضُ عَلَيْهِمْ الّذِي أَجَبْنَاك إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمْ الله عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزّ مِنْك. ثُمّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ رَاجِعِينَ إلَى بِلَادِهِمْ وَقَدْ آمَنُوا وَصَدّقُوا[(١)].

ولكن اليهود حسدوا العرب أن بعث فيهم رسول الله ﷺ فكذّبوه وعادوه، مع معرفتهم التامّة بصدقه، ووضوح علامات النبوّة التي يجدونها في التوراة عليه. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[(٣)].

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٤٢٨).
(٢) البقرة: ٨٩.
(٣) الأعراف: ١٥٧.

وقد ناصبوا الرسول ﷺ العداء من حين وصوله للمدينة.

ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر قال: حدثت عن صفية ابنة حيي أنها قالت: كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه، ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال فما نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[(١)].

وقد كانوا ثلاث قبائل في المدينة المنورة عند هجرة النبي ﷺ إليها، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة، قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام. وفيما يلي أهم بنود هذه المعاهدة:

١ - إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم؛ مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بني عوف من اليهود .

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم .

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

٤- وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .

٦- وإن النصر للمظلوم .

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨- وإن يثرب حرام، جوفها لأهل هذه الصحيفة .

---

(١) عيون الأثر (١ / ٢٧٧)، وسيرة ابن هشام (١/ ٥١٧).

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله- عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها.

١١- وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[1].

وعلى الرغم من هذه المعاهدة ووضوح بنودها، وتحقيقها حياةً آمنةً مطمئنّةً لليهود في المدينة، إلا أن اليهود ما انفكّوا عن الكيد للإسلام وأهله، ومحاولة طرح الشبه للتشكيك في نبوّة الرسول ﷺ، فيستغلون بعض الحوادث للتلبيس على الناس، كما قاموا بتدبير المؤامرات والكيد للمسلمين في كل فرصة ينتهزونها، فمرّةً يثيرون العداوة بين المسلمين، ويذكرونهم بثاراتهم الماضية، حتى كاد الأوس والخزرج أن يقتتلوا، وتارةً يهددون رسول الله ﷺ لما جمعهم في سوق بني قينقاع، ورأى ما بهم من الشرّ والنوايا الفاسدة في نقض المعاهدة - بعد ما شرقوا بانتصار المسلمين في بدر - فوعظهم، وذكرهم، فقالوا له: (يَا مُحَمَّدُ، لا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا، لا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا)[2].

ودعوا على النبي ﷺ بالموت كلّما لقوه في وجهه. تقول عَائِشَةَ: (اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي**

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٥٠٣) والنص من الرحيق المختوم (١ / ١٤٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٨٩).

الأَمْرِ كُلِّهِ» قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ**»(١). و يأبى طبعهم اللئيم وسجيتهم السافلة إلا أن ينقضوا ويغدروا، فكان من طلائع غدرهم:

أ – سحرهم للنبي ﷺ: سحره رجل من اليهود، ومع ذلك صبر النبي ﷺ حتى أنه ليُخيل إليه أنه يأتي الأمر وهو لم يأته. عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سحر رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان**». فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: «**يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين**». قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟، قال: «**قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا**». فأمر بها فدفنت(٢).

ب – نقض بني قينقاع العهود والمواثيق: وذلك بتعرضهم لامرأة مسلمة كانت تمر بالسوق (سوق بني قينقاع)، وقد جلست إلى صائغ تبتاع، فعمد إلى ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. وتجمع اليهود على المسلم فقتلوه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٣).

وكانت الشرارة التي حملت الرسول ﷺ على محاصرتهم خمس عشرة ليلة. وحين استسلموا وقدموا للقتل، شفع فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول.

واكتفى الرسول ﷺ بإجلائهم عن المدينة، تاركين بيوتهم وأموالهم [(١)].

جـ - غدر بني النضير وخيانتهم: فقد خانوا العهد ونقضوا المواثيق بمحاولتهم اغتيال الرسول ﷺ ليتخلصوا منه، وذلك أنه عندما ذهب الرسول ﷺ مع نفر من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر وعلي، إلى بني النضير، ليتفاهم معهم في دية القتيلين من المشركين من بني عامر، اللذين قتلهما أحد المسلمين، فقال رؤساء بني النضير من اليهود: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. وذهبوا ليفكروا فيما يدفعون من المال مساهمة في دية القتيلين، وخلا بعضهم ببعض، ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم، مع النفر من الصحابة، فقال اليهود في خلوتهم: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحد يهود بنى النضير، فقال: أنا لذلك، فنهاهم عنه أحد أحبارهم وهو سلام بن مشكم، وقال لهم: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، وصعد ذلك اليهودي عمرو بن جحاش ليلقي الصخرة على رأسه، ليغتاله بها، فنزل على رسول الله ﷺ الوحي من السماء بما أراد القوم، وأن اليهود قد ائتمروا به ليقتلوه، وطلب منه الانسحاب في صمت، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة دون أن يخبر أصحابه بالأمر، وظنوا أنه قد ذهب لبعض حاجة، وهو عائد إليهم، فلما طال انتظار أصحاب الرسول ﷺ قاموا في طلبه، فالتقوا رجلاً مقبلاً من

(١) السيرة النبوية لابن كثير نقلاً عن سيرة ابن هشام .

المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب الرسول ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر، وبما كانت اليهود أرادت من الغدر به. وشاع في المدينة خبر المكيدة التي دبرها اليهود لقتل رسول الله ﷺ غدراً، وضج المسلمون بالتذمر، وأخذ اليهود يلوم بعضهم بعضاً، على هذه الجريمة الشنعاء، ولم ينكروا مكيدة الغدر بالرسول ﷺ، ولم يصدر بيان بنفي هذا الخبر، كما هو شأن الإعلام في وقتنا الحاضر وأنزل الله على نبيه قوله- تعالى- في سورة المائدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[1].

وعقب مكيدة الغدر هذه، رأى المسلمون خطر بقاء اليهود بين ظهرانيهم، عندئذ أمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحرب بنى النضير، والسير إليهم بعد الذي كان منهم، واستعمل ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم، فتحصنوا من المسلمين في حصونهم، وحاصرهم رسول الله ﷺ، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فسألوا الرسول ﷺ أن يجليهم كما أجلى بني قينقاع، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فوافق الرسول ﷺ على ذلك فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته، ويأخذ ما يستطيع حمله، ويضعه على ظهر بعيره، وينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى

(١) المائدة:١١.

ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(١)(٢).

د – خيانة بني قريظة وغدرهم: بعد إجلاء بني قينقاع وبني النضير حزب اليهود الأحزاب على رسول الله، وقاموا بنفير عام وتجميع لجميع قوّات القبائل لغزو المدينة في السنة الخامسة، ولما حوصرت المدينة، كان الواجب طبقاً للمعاهدة أن ينضمّ يهود بني قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة، ولكنّ الذي حدث هو العكس، فقد غدروا بالمسلمين وحاولوا ضرب جيشهم من الخلف في يوم عصيب وكرب شديد عندما تداعت على المسلمين جموع الكفار، في جيش يزيد عدده على سكان المدينة خانوا في أحرج الظروف، وفي تلك الساعات الرهيبة الحاسمة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في خطر في جميع التقديرات العسكرية، فأصبح المسلمون بين فكي كماشة .

وأعلن اليهود مؤازرتهم للغزاة المعتدين بقصد إبادة المسلمين جميعاً ووأد الإسلام. ومع ذلك فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ وفداً يفاوضهم ويذكّرهم بالعهد والعقد، فناكروهم وأغلظوا لهم القول.

وقد قام يهود بني قريظة بهذه الخيانة العظمى. بالرغم من أنهم باعتراف زعيمهم كعب بن أسد لم يروا من النبي ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء، قاموا بتلك الخيانة وهم في حالة ارتباط مع المسلمين بموجب عهد وميثاق بأن يقاتلوا كل من حارب المدينة.

فيهود بني قريظة بالإضافة إلى ارتكابهم جريمة الخيانة العظمى يعتبرون غزاةً مُحَارِبِينَ حيث أصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من الجيش الغازي.

---

(١) الحشر: ١-٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (١٤٦-١٤٧) بتصرف.

ولما رد الله الأحزاب بكيدهم حاصر النبي ﷺ بني قريظة، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقتل رجالهم وقسم أموالهم وسبي نسائهم وذرياتهم، فقتل رجالهم وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة[(١)]. وهكذا كان هذا لون من ألوان غدرهم ومعاناته ﷺ منهم.

هـ - **فتح خيبر**: كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب؛ فلقد تجمّعت فلول اليهود عند إخوانهم يهود خيبر، وهم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل: سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطؤوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم ـ وهي قريش ـ كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب[(٢)].

ومن أنواع غدر هؤلاء وخيانتهم:

* محاولة قتل النبي ﷺ بدس السم له في الطعام، وقد دفعوا لتنفيذ هذه الجريمة الشنعاء امرأة يهودية منهم اسمها زينب بنت الحارث، وهي زوج سلام بن يشكم أحد أحبارهم. وذلك بعد أن انتهى رسول الله ﷺ من أمر

(١) السيرة النبوية لابن كثير ص ٢٤٣-٢٤٤ بتصرف.
(٢) الرحيق المختوم (١/ ٣٢٦) بتصرف.

خيبر واطمأن به الحال. قدمت له هذه المرأة شاة مشوية كانت قد دست فيها سماً كثيراً، وكانت قد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى محمد؟ فقيل لها: الذراع، فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها، ثم قال: «**إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم**»، ثم دعا بالمرأة اليهودية فاعترفت. فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخْبَرُ، تعني أن الوحي سيخبره بذلك. فتجاوز الرسول ﷺ عنها ومات بشر من أكلته التي أكل. ولكنه ﷺ كان يقول في مرض الموت: «**ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر، وهذا أوان انقطاع أبهري**»[1].

* ومن جرائم اليهود الدالة على خبثهم وقسوتهم أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها. فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف. فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين الحجرين، كما فعل بالجارية جزاءً وفاقاً[2].

٢ – معاناته ﷺ من مشركي جزيرة العرب ومن الملوك والحكام في ذلك العصر:

ونكتفي ببعض الأمثلة على ذلك لنبين أن الغزوات والمعارك بين النبي ﷺ والصف المسلم من جهة وبين المشركين والملوك والحكام من جهة أخرى

---

(١) أخرجه البخاري تعليقا (٤٤٢٨)، وقال ابن حجر: قد وصله البزار، والحاكم، والإسماعيلي.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٣).

كانت لأنهم وقفوا في طريق الدعوة وحاولوا القضاء عليها، فما كان من حيلة بالتفاهم والحلول السلمية أمضاها الرسول بذلك، فالله- تعالى- يقول: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١] فلم يكن المسلمون في يوم من الأيام متعطشين للدماء ولا محبين للقتل، والذي يتصفح غزوات الرسول ﷺ يرى بوضوح أن السبب في كل معركة لم يكن ابتداء من الرسول ﷺ، وإنما من الكفار والمشركين، الذين لا يكلون ولا يملون من محاولة القضاء على الدعوة الإسلامية أو الوقوف في طريق تبليغها.

أ - أول هذه الأمثلة قتلهم القراء: فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، فأمدهم النبي ﷺ بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار، ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم، فقنت شهراً يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان.

قال قتادة: وحدثنا أنس: أنهم قرؤوا بهم قرآنا: ألا بلغوا عنا قومنا بأنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا. ثم رفع ذلك بعد[٢].

فتصور مدى حزن النبي ﷺ على القراء، إذ ظل شهراً كاملاً يقنت على من غدر بالقراء وقتلوهم، وتصور عظم المأساة وهول الفاجعة، إذ قد قتلوا خيانة وغدرا، وهم سبعون من خيرة الصحابة وحفاظهم يقتلون في يوم واحد، ممن أراد النبي ﷺ عونهم ومساعدتهم، فما كان منهم إلا الغدر والخيانة، وتخيل ما كان لهذه الحادثة من أثر في نفس ووجدان النبي ﷺ. إننا لنحزن عند فقد

(١) الأنفال: ٦١.
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٩).

الصاحب والصديق إذا مات موتا طبيعيا، ونقبل فيه العزاء، فكيف بسبعين من الأصحاب قتلوا ظلما وعدوانا، من غير جرم فعلوه أو ذنب ارتكبوه.

ب – قتل بعض رسله ﷺ: مثل الحارث بن عمير على يد شرحبيل الغساني: إذ بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرَي. فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ـ فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل ولا يزال من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب وهو سبب معركة مؤتة.

جـ – تمزيق بعض كتبه ﷺ: ككتابه إلى كسرى. فعن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره: أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[1]. فكم لهذا الفعل المتعالي عن الحق وغير المبالي بالأخلاق الحميدة والأعراف الرشيدة من أثر في النفوس؟! فهو لم يحترم الكتاب كما هو معتاد ومعروف من القادة والملوك، بل مزقه، وقيل: أحرقه، أفلا يترك هذا الفعل المشين أثراً سيئاً في نفس الإنسان العادي؟ فكيف برسول الله ﷺ، وهو يدعوه لله وللهدى والفلاح، ولا يتجاوز على أي حق من حقوقه؟!

(١) أخرجه البخاري (٦٤).

الفصل الثاني

معاناة أئمة الهدى الراشدين

١ – أبو بكر الصديق

٢ – عمر بن الخطاب

٣ – عثمان بن عفان

٤ – علي بن أبي طالب

(رضي الله عنهم أجمعين)

المبحث الأول
معاناة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أولاً: أبو بكر رضي الله عنه في سطور:

هو عبد الله بن أبي قحافة التيمي القرشي، ولد في مكة بعد ولادة النبي ﷺ بسنتين وعدة أشهر، وكني بأبي بكر، ولقب بالصديق، لأنه بادر بتصديق الرسول ﷺ في رسالته وصدقه في خبر الإسراء والمعراج.

أحب صاحب الدعوة، فقاسمه الخوف والعناء والمشقة، وشاطره الهم والمعاناة واللوعة والصبر.

هو الأول في الإسلام بين الرجال، وهو رفيق الهجرة؛ بالجهاد في سبيل الله كان سباقاً، وبشرعه نطق وعمل، وفي القول صدق والتزم.

عتيق في الجاهلية، صديق في الإسلام، حاضر في المغارم، غائب في المغانم.

أعتق سبعة كلهم كان يُعذّب في الله، وهم: بلال بن أبي رباح، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنهدية وابنتها، وجارية بني المؤمل، وأم عُبيس.

لا يكفيه أن يدعى للجنة من باب، بل من الأبواب الثمانية.

لما التحق صاحبه ﷺ بالرفيق الأعلى سال دمعه سريعاً ساخناً صادقاً، فلما ارتد بعضهم عن الإسلام، جف دمعه، وصدق الموقف مع الله، فاشتد ساعده، ولعلع سيفه، وزمجر صوته، فرد من شرد، وأقام من قعد.

ثانياً: خلافته رضي الله عنه:

لقد بويع أبو بكر رضي الله عنه بخلافة رسول الله ﷺ على المسلمين، فخاف ألا يقوم

بحقها حق القيام، فليست الخلافة في نظر الصديق ﷺ كما يظن البعض فرصة لجمع الأموال، ولا لبناء الدور والقصور، ولا هي فرصة للرفاهية المفرطة في اللهو وفي الفرح والمرح، بل كانت الخلافة في نظره ﷺ أمانة عظيمة وتركة ثقيلة ومسؤولية شاقة.

ولهذا دفعها، ولم يُرِدها إلا بإلحاح من الصحابة- رضي الله عنهم جميعا؛ فقد قام ﷺ عند توليته للخلافة، فخطب الناس واعتذر إليهم وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها الله- عز وجل- في سر وعلانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلدت أمراً عظيماً، ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله- عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم، فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به، فقال علي ﷺ والزبير: ما غضبنا إلا لأنا قد أُخِرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ، إنه لصاحب الغار وثاني اثنين، وإنا لنعلم بشرفه وكبره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي[(١)].

فلما كان الغد من بيعة أبي بكر، جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة، ثم تكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق- إن شاء الله تعالى، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٤٢٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.ووافقه الذهبي. والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٥٢)، وفضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣٢٠).

قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله[(١)].

من هذه الأخبار تستشف مدى المعاناة التي صاحبت الصديق ﵁ إبان مبايعته بالخلافة، فهذه المناسبة التي يعدها الحكام اليوم أسعد الأوقات وأعز المناسبات، كانت بالنسبة لأبي بكر ﵁ معاناة حقيقية ومسؤولية عظيمة، فها هو يغلق الباب على نفسه ثلاثة أيام حتى يقيله المسلمون، فهو بحسه الإيماني العميق يعلم أنها أمانة ثقيلة.. وكما قال الصادق المصدوق ﷺ: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة حسرة وندامة، إلا من أخذها بحقها**»[(٢)].

فعن أبي الجحاف، قال: أغلق أبو بكر بابه بعد البيعة ثلاثة أيام، كل ذلك يقول: قد أقلتكم بيعتكم، فيقوم علي بن أبي طالب فيقول: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله ﷺ فمن يؤخرك؟[(٣)].

وعن معمر عن موسى بن إبراهيم – رجل من آل أبي ربيعة – أنه بلغه أن أبا بكر حين استخلف قعد في بيته حزينا، فدخل عليه عمر فأقبل على عمر يلومه، وقال: أنت كلفتني هذا، وشكا إليه الحكم بين الناس، فقال له عمر: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الوالي إذا اجتهد فأصاب الحكم فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**» قال فكأنه سهل على أبي بكر حديث عمر[(٤)].

ثالثاً: معاناته ﵁ في إنفاذ جيش أسامة:

فقد كان أول أمر أصدره ﵁ بعد أن تمت له البيعة هو إنفاذ جيش أسامة الذي جهزه رسول الله ﷺ قبيل وفاته لغزو الروم، والذي كان يضم كبار

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٦٦١)، ومصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٣٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥).
(٣) فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣١٦).
(٤) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٢٨).

الصحابة والمهاجرين والأنصار .

وقد كان رسول الله ﷺ استعمل أسامة بن زيد، وأمره بالتوجه إلى حدود الشام، للأخذ بثأر من قتل في غزوة مؤتة. وقد كان رسول الله ﷺ قد ضرب البعث على أهل المدينة ومن حولها، وفيهم عمر بن الخطاب. وعسكر جيش أسامة بالجرف فاشتكى رسول الله ﷺ، ثم وجد من نفسه راحة فخرج رسول الله عاصبا ﷺ رأسه فقال: «**أيها الناس أنفذوا جيش أسامة**» ثلاث مرات.

وقال: «**إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إنه كان خليقا للإمارة، وايم الله إنه لمن أحب الناس إليّ من بعده**»[1].

وذلك لأن الناس طعنوا في إمارة أسامة، لأنه كان شابا لم يتم العشرين من عمره .

توفي رسول الله ﷺ ولم يسر الجيش، وارتد كثير من العرب، ونجم النفاق، واشرأبت أعناق اليهود والنصارى، وبقي المسلمون لا يدرون ماذا يصنعون لوفاة نبيهم وقلة عددهم وكثرة عدوهم . فقال الناس لأبي بكر: إن جيش أسامة جند المسلمين، والعرب قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فماذا يصنع أبو بكر؟ إنهم يعترضون على إمارة أسامة لصغر سنه، ويعترضون على إرسال جيش المسلمين لارتداد العرب وقلة عدد المسلمين وخوفهم على مركزهم في المدينة. غير أن رسول الله ﷺ كان يشدد في

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦)، وفيه: لما سمع رسول الله ﷺ اعتراض بعض الصحابة على تأمير أسامة رغم صغر سنه، قال- بعد حمد الله والثناء عليه: « **أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة . والله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله، إن كان للإمارة خليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإنه لمن أحب الناس إلي. وإنهما لمخيلان لكل خير** (خليقان به)، **واستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم**».

إرسال جيش أسامة، وقد أخذ أبو بكر عهدا على نفسه بألا يعصي الله ورسوله. فهل يخالف أمر رسول الله؟ كلا فإن ذلك ليس من طبيعته ولا من خلقه، وإنما خلقه الثبات إلى آخر لحظة، وتنفيذ أوامر رسول الله بكل دقة في كل كبيرة وصغيرة، مهما كلفه ذلك من معاناة وعنت، ويعود ذلك لقوة إيمانه وثبات يقينه ووفاءً للرباط والعهد بينه وبين رسول الله ﷺ. لهذا كانت إجابته للمعترضين في غاية القوة حيث قال: (والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته).

وقال لعمر لما أرسله أسامة يستأذنه في الرجوع وطلب إليه الأنصار إن أبى أن يولي عليه من هو أقدم سنا من أسامة: (لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ).

فقال عمر: إن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة . فوثب أبو بكر - وكان جالسا - يأخذ بلحية عمر فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه.

فخرج عمر إلى الناس بعد أن سمع ورأى من أبي بكر ما رأى، فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله، وقد خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتى الجيش، وأشخصهم، وشيعهم، وهو ماش، وأسامة راكب، وعبدالرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: (والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة. فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة

تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة).

وحينما حان الوداع خطب أبو بكر في رجاله قائلاً: (أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون[(١)].

حتى إذا انتهى قال إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ومعنى ذلك أنه يستأذن أسامة- قائد الجيش- أن يترك له عمر لأنه كان في الجيش فأذن. ولم يخيب أسامة رجاء الخليفة فيه، فقد استطاع أن يحرز النصر على الروم، واقتحم تخومهم، وتوغل في ديارهم ثم عاد بجيشه إلى المدينة، وقد حقق الغاية التي خرج من أجلها وهي تأمين حدود الدولة الإسلامية، وإلقاء الرهبة والهيبة في قلوب الروم، فلا يحاولون التحرش بالمسلمين، كما أدت إلى كف عرب الشمال عن محاولات التعرض للمدينة والهجوم عليها وقالوا: لولا أن أبا بكر يملك من القوة ومن الجيوش في المدينة ما يستطيع أن يدفع بها الشر عن المدينة ما أرسل بعث أسامة[(٢)].

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٦) وجامع الأحاديث (٢٤/ ٤٢١).
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٦).

رابعاً: معاناته ﵁ في حرب المرتدين والتصدي للمتنبئين:

انتهزت بعض القبائل التي لم يتأصل الإسلام في نفوسها انشغال المسلمين بوفاة النبي ﷺ واختيار خليفة له، فارتدت عن الإسلام، وحاولت الرجوع إلى ما كانت عليه في الجاهلية، وسعت إلى الانشقاق عن دولة الإسلام والمسلمين سياسيا ودينيا، واتخذ هؤلاء من الزكاة ذريعة للاستقلال عن سلطة المدينة، فامتنعوا عن إرسال الزكاة وأخذتهم العصبية القبلية، وسيطرت عليهم النعرة الجاهلية.

كما استفحل أمر عدد من أدعياء النبوة الذين وجدوا من يناصرونهم ويلتفون حولهم، فظهر (الأسود العنسي) في اليمن.

واستشرى أمر (مسيلمة) في اليمامة.

و(سجاح بنت الحارث) في بني تميم.

و(طلحة بن خويلد) في بني أسد.

و(لقيط بن مالك) في عُمان.

وكان هؤلاء المدعون قد ظهروا على عهد النبي ﷺ ولكن لم يستفحل أمرهم ويعظم خطرهم إلا بعد وفاته.

وقد تصدى أبوبكر لهؤلاء المرتدين بشجاعة وجرأة وإيمان، وحاربهم بالرغم من معارضة بعض الصحابة له، وكان بعضهم يدعوه إلى الرفق بهم والصبر عليهم، فيجيب في عزم قاطع: (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرَّق بين الزكاة والصلاة).

وأرسل أبوبكر الجيوش لقتالهم حتى قضى على فتنتهم، وأعاد تلك القبائل

إلى حظيرة الإسلام، وقد اتسم أبوبكر ببعد النظر والحكمة، وذلك بإصراره على التصدي لهؤلاء المرتدين، ورفض المساومة على فرض من فروض الدين، فقد قطع بذلك عليهم الطريق إلى المزيد من المساومات، كما كان ذلك إعلانا واضحا أنه لا تهاون ولا تنازل في أمر يخص الدين أو يتعلق بالعقيدة، أمام كل من تسول له نفسه من القبائل أن يحذو حذو هؤلاء .

خامساً: معاناته في جمع القرآن الكريم:

وذلك عندما استشهد عدد كبير من كبار الصحابة ممن يحفظون القرآن الكريم في حروب الردة التي استغرقت أكثر عهد الصديق، وقد زاد من جزع المسلمين لاستشهاد هؤلاء الأعلام من الصحابة ما يمثله فقد هؤلاء من خطر حقيقي على القرآن الكريم والسنة المشرفة، وكان عمر بن الخطاب من أوائل الذين تنبّهوا إلى ذلك الخطر، وبعد تفكير عميق هداه الله إلى فكرة جمع القرآن الكريم، فلما عرض ذلك على أبي بكر تردد في أول الأمر، وقال: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟

ولكن عمر ظل يراجعه ويجادله حتى شرح الله صدره لهذا الأمر، واقتنع برأي عمر فدعا زيد بن ثابت وكلفه بتنفيذ تلك المهمة الجليلة، فانطلق زيد يجمع القرآن الكريم من الرقاع والعظام وجريد النخل والحجارة الرقيقة، ثم أخذ يرتبه في آيات وسور، واتبع في ذلك طريقة عملية دقيقة مُحكّمة، فكان لا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى ثبوتها بشهادة العدول من الصحابة الحفاظ، ولا يمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن حتى أتم تسجيله وتدوينه، كما نزل على النبي ﷺ .

فكان ذلك العمل من أعظم أعمال الصديق رضي الله عنه على الإطلاق على كثرة أعماله وعظمة إنجازاته، فقد ساهم في حفظ كتاب الله من الضياع، وصانه من

الوهم والخطأ واللحن[١].

سادساً: الفتوحات في عهد أبي بكر ﷺ:

ولّما فرغ أبو بكر ﷺ من قتال المرتدين جهز ﷺ الجيوش، وعقد الألوية لتحطيم قوى الفتنة التي تصد عن سبيل الله، فأرسل جيشاً إلى فارس بقيادة سيف الله المسلول (خالد بن الوليد). وذلك بعد أن انتهى من قتال المرتدين، واستولى على الحيرة وجعلها مركزاً لقيادته.

وكان لا يعتمد في حروب الفتوحات على أحد ممن ارتدَّ من العرب، فلم يدخل في الفتوح إلا من كان ثابتا على الإسلام.

كما أرسل الصديق جيشاً بقيادة أمين الأمة (أبي عبيدة بن الجراح)، وجيشاً بقيادة (عمرو بن العاص)، وجيشاً ثالثاً بقيادة (يزيد بن أبي سفيان)، وجيشاً رابعاً بقيادة (شرحبيل بن حسنة). وقد أدت هذه الجيوش دورها الفعَّال في مقاتلة الروم وانتصروا في مواقع كثيرة، وكان الروم في جميعها أكثر عدداً وعدة، ومن أهمها:

معركة اليرموك:

بعد أن اجتمع القواد الأربعة: أمين الأمة، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو ابن العاص، وشرحبيل بن حسنة، بأمر من القائد الأعلى، وقد أمدهم بالقائد الظافر خالد بن الوليد ومعه الذخيرة الكافية من الإرشادات الحكيمة، وسجل

---

(١) ومما لاقاه أبو بكر ﷺ من معاناة مخالفة العديد من الصحابة لقضية جمع القرآن والقول فيها أقوالاً كانت تؤلم الخليفة الصديق، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من قول أبي بكر رضي الله عنه، مبيناً معاناته: (.. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به (أي عمر) من جمع القرآن قلت: (أي زيد بن ثابت راوي الحديث) كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ..) (١٤١) من كتاب الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى (٩١١هـ). (٧٦) طبعة دار المعرفة –بيروت/ لبنان ج١.

المسلمون في تلك الموقعة انتصاراً حاسماً مدوٍ به ضياء الإسلام وعدله، وأخرجوا به أهل الشام من طغيان الروم .

وفي عهده وقعت وقعة ذي القَصّة، وعزم على المسير بنفسه حتى أخذ عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه بزمام راحلته

فعن عائشة قالت: خرج أبى شاهرا سيفه راكبا على راحلته إلى ذي القصة فجاء على بن أبى طالب فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا فرجع وأمضى الجيش[(١)].

سابعاً: معاناته في انتقاء الخليفة:

لم تكن مهمة سهلة أن يختار خليفة من بعده، يلي أمر المسلمين، وهو يعلم أنه مسؤول عن هذه الأمانة أمام الله- تعالى، فلا مكان هنا لحظوظ النفس أو المحسوبية.

فكان لا بد من أن يبحث عن شخص يستطيع حمل هذه الأمانة ويتم المسيرة؛ شخص له نظر ثاقب، وشخصية قيادية، وورع عن المحارم، وتطبيق لأحكام الله، وزهد في الدنيا، ورغبة في الآخرة، وحب للمسلمين، وغيرة على الدين، عن راع مشفق، وناصح أمين، ورائد لا يكذب أهله، فوقع اختياره على عمر- رضي الله عنه، وزيادة في تأكيد الأمر فقد أمر رضي الله عنه بكتابة عهده لعمر.

فقال لعثمان- رضي الله عنه-اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة، عند آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وأول عهده

---

(١) جامع الأحاديث (٢٥/ ٢٥).

بالآخرة داخلا فيها، حين يصدق الكاذب، ويؤدي الخائن، ويؤمن الكافر، أني أستخلف بعدي عمر بن الخطاب، فإن عدل فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن بدل وجار فلا أعلم الغيب، ولكل امرئ ما اكتسب: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]. ولم يكتف ﷺ بما كان يعلم من كفاءة عمر لما سيوكل إليه من هذه المهمة الصعبة، بل استشار أعيان الصحابة من المهاجرين والأنصار وهو في فراش الموت؛ فقد دعا عبد الرحمن بن عوف، وقال: أخبرني عن عمر ابن الخطاب؛ فقال عبد الرحمن: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه. ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر؟ فقال: أنت أخبرنا به، فقال: على ذلك يا أبا عبدالله، فقال عثمان: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته لما عدوتك.

وشاور معهما سعيد بن يزيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، الذي يُسرُّ خيرٌ من الذي يعلن، ولم يلِ هذا الأمر أحدٌ أقوى عليه منه[2].

فكانت هذه الشهادات الصادقة المخلصة المترفعة قد عقدت عزم أبي بكر على المضي لما رآه من الاختيار لأمة محمد ﷺ، فرغم ثقل مرضه وشدته، لم يكن له هم إلا في حال الأمة وحسن الاختيار لها .

وقد اعترض بعض الصحابة- رضي الله عنهم- على استخلاف عمر، لا لعدم الكفاءة، كلا وحاشا، ولكن لما رأوا من رحمة أبي بكر، خشوا من شدة

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٩)، والآية من سورة الشعراء: ٢٢٧.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٩٩)، جامع الأحاديث (٢٤/ ٣٧٠) رقم (٢٧٣٢٥).

عمر ﷺ. فعن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط القرشي، قال: لما حضر أبا بكر الموت، ذكر أن يستخلف عمر على الناس، فأتاه ناس من الناس، فقالوا له: يا أبا بكر ما تقول لربك غدا إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر، وقد عرفت شدته وغلظته وفظاظته، فقال: أبالله تخوفوني؟ أقول: يا رب، استخلفت عليهم خير أهلك، قال: ثم دعا عمر، فقال له: اتق الله يا عمر، إن وليت على الناس غدا، فاعلم أن لله- عز وجل- عملا بالنهار لا يقبله بالليل وعملا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُقٌّ لميزانٍ يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقّ لميزانٍ يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا، وأن الله- تعالى- ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئهم، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله- تعالى- ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمته، فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه»(١).

ثامناً: وفاته ﷺ:

وتُوفي أبو بكر الصديق يوم الجمعة (٢١ من جمادى الآخرة ١٣ هـ = ٢٢

(١) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (١/ ١٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٩) وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٣٤).

من آب أغسطس ٦٣٤م)، ودفن مع النبي ﷺ في بيت عائشة- رضي الله عنها.

مات أبو بكر ﷺ وما ترك درهما ولا دينارا؛ عن الحسن بن علي ﷺ قال: لما احتضر أبو بكر ﷺ قال: يا عائشة انظري اللقحة التي كنا نشرب من لبنها والجفنة التي كنا نصطبح فيها والقطيفة التي كنا نلبسها، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا في أمر المسلمين، فإذا مت فارددیه إلى عمر، فلما مات أبو بكر ﷺ أرسلت به إلى عمر ﷺ فقال عمر ﷺ: رضي الله عنك يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك(١).

ولـمَّا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، سَجَوْهُ بِثَوْبٍ، فَارْتَجَّتِ المدِينَةُ بِالْبُكَاءِ، وَدُهِشَ النَّاسُ كَيَوْمِ قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ، وَجَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُسْرِعًا مُسْتَرْجِعًا، وَهُوَ يَقُولُ: الْيَوْمَ انْقَطَعَتْ خِلافَةُ النُّبُوَّةِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: رَحِمَكَ الله أَبَا بَكْرٍ، كُنْتَ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلامًا، وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَانًا، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا، وَأَخْوَفَهُمْ لله، وَأَعْظَمَهُمْ غِنَاءً، وَأَحْوَطَهُمْ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَحْدَبَهُمْ عَلَى الإِسْلامِ، وَآمَنَهُمْ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَأَحْسَنَهُمْ صُحْبَةً، وَأَفْضَلَهُمْ مَنَاقِبَ، وَأَكْثَرَهُمْ سَوَابِقَ، وَأَرْفَعَهُمْ دَرَجَةً، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْ رَسُولِهِ، وَأَشْبَهَهُمْ بِهِ هَدْيًا، وَخُلُقًا وَسَمْتًا، وَأَوْثَقَهُمْ عِنْدَهُ، وَأَشْرَفَهُمْ مَنْزِلَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ، فَجَزَاكَ الله عَنِ الإِسْلامِ وَعَنْ رَسُولِهِ وَعَنِ الْـمُسْلِمِينَ خَيْرًا، صَدَّقْتَ رَسُولَ الله حِينَ كَذَّبَهُ النَّاسُ فَسَمَّاكَ فِي كِتَابِهِ صَدِيقًا، فَقَالَ: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ مُحَمَّدٌ، وَصَدَّقَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَآسَيْتَهُ حِينَ بَخِلُوا، وَقُمْتَ مَعَهُ حِينَ عَنْهُ قَعَدُوا، وَصَحِبْتَهُ فِي الشِّدَّةِ أَكْرَمَ الصُّحْبَةِ، وَالْـمُنَزَّلُ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ رَفِيقُهُ فِي الْهِجْرَةِ وَمَوَاطِنِ الْكُرْبَةِ،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٦٠) (٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٨٠): رجاله ثقات.

خَلَفْتَهُ فِي أُمَّتِهِ بِأَحْسَنِ الْخِلافَةِ، حِينَ ارْتَدَّ النَّاسُ، وَقُمْتَ بِدِينِ الله قِيَامًا لَمْ يَقُمْهُ خَلِيفَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، قَوَيْتَ حِينَ ضَعُفَ أَصْحَابُكَ، وَنَهَضْتَ حِينَ وَهَنُوا، وَلَزِمْتَ مَنَاهِجَ رَسُولِهِ بِرَغْمِ الْـمُنَافِقِينَ وَغَيْظِ الْكَافِرِينَ، وَقُمْتَ بِالأَمْرِ حِينَ فَشَلُوا بِنُورِ الله، إِذْ وَقَفُوا كُنْتَ أَعْلاهُمْ فَوْقًا وَأَقَلَّهُمْ كَلامًا، وَأَصْوَبَهُمْ مَنْطِقًا، وَأَطْوَلَهُمْ صَمْتًا، وَأَبْلَغَهُمْ قَوْلا، وَكُنْتَ أَكْبَرَهُمْ رَأْيًا، وَأَشْجَعَهُمْ قَلْبًا، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا، وَأَحْسَنَهُمْ عَمَلا، وَأَعْرَفَهُمْ بِالأُمُورِ. كُنْتَ لِلدِّينِ يَعْسُوبًا، وَكُنْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَبًا رَحِيمًا إِذَا صَارُوا عَلَيْكَ عِيَالا، فَحَمَلْتَ أَثْقَالَ مَا عَنْهُ ضَعُفُوا، وَحَفِظْتَ مَا أَضَاعُوا، وَرَعَيْتَ مَا أَهْمَلُوا، وَصَبَرْتَ إِذْ جَزَعُوا، فَأَدْرَكْتَ آثَارَ مَا طَلَبُوا، ونَالُوا بِكَ مَا لَمْ يَحْتَسِبُوا، كُنْتَ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا صَبًّا، وَلِلْمُسْلِمِينَ غَيْثًا وَخصْبًا، فُطِرْتَ بِغِنَاهَا، وَقِرْتَ بِحِبَاهَا، وَذَهَبْتَ بِفَضَائِلِهَا، وَأَحْرَزْتَ سَوَابِقَهَا، لَمْ تَقْلُلْ حُجَّتُكَ، وَلَمْ يَزِغْ قَلْبُكَ، وَلَمْ تَضْعُفْ بَصِيرَتُكَ، وَلَمْ تَجْبُنْ نَفْسُكَ، كُنْتَ كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْعَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمِنَ النَّاسُ عَلَيْهِ فِي صُحْبَتِكَ وَذَاتِ يَدِكَ، وَكَمَا قَالَ: ضَعِيفًا فِي بَدَنِكَ، قَوِيًّا فِي أَمْرِ الله، مُتَوَاضِعًا عَظِيمًا عِنْدَ الْـمُسْلِمِينَ، جَلِيلا فِي الأَرْضِ لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيكَ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيكَ مَغْمَزٌ، وَلاَ فِيكَ مَطْمَعٌ، وَلاَ عِنْدَكَ هَوَادَةٌ لأَحَدٍ، الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ حَتَّى تَأْخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ، الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ عِنْدَكَ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ حَتَّى يُؤْخَذَ مِنْهُ الْحَقُّ، وَالْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ، شَأْنُكَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ وَالرِّفْقُ قَوْلُكَ فَأَقْلَعْتَ وَقَدْ نُهِجَ السَّبِيلُ وَاعْتَدَلَ بِكَ الدِّينُ، وَقَوِيَ الإِيمَانُ وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، فَسَبَقْتَ وَالله سَبْقًا بَعِيدًا، وَأَتْعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ إِتْعَابًا شَدِيدًا، وَفُزْتَ بِالْجَنَّةِ، وَعَظُمَتْ رَزِيَّتُكَ فِي السَّمَاءِ، وَهَزَّتْ مُصِيبَتُكَ الأَنَامَ فَإِنَّا لله، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، رَضِينَا عَنِ الله

قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا لله أَمْرَهُ، فَلَنْ يُصَابَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ بِمِثْلِكَ أَبَدًا، كُنْتَ لِلدِّينِ عُدَّةً وَكَهْفًا، وَلِلْمُسْلِمِينَ حِصْنًا وَفِئَةً وَأُنْسًا، وَعَلَى المنَافِقِينَ غِلْظَةً وَغَيْظًا، فَأَلْحَقَكَ الله بِنَبِيِّكَ، وَلا حَرَمَنَا الله أَجْرَكَ، وَلاَ أَضَلَّنَا بَعْدَكَ، قَالَ: وَسَكَتَ النَّاسُ حَتَّى قَضَى كَلامَهُ ثُمَّ بَكَى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا: صَدَقْتَ يَابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ[1].

(١) أخرجه البزار في المسند (٣/ ١٣٨) (١٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ٢٤).

المبحث الثاني
معاناة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ

لقد كان عمل عمر ﷺ وأرضاه لصالح الإسلام والمسلمين، وكان همه الوحيد هو الإسلام، غاضاً الطرف عن مصالحه الشخصية، خائفاً من المسؤولية العظيمة التي أوكلت إليه، واختير هو بالذات لحمل هذه الأمانة دون غيره من الصحابة. لم تكن فرصة أو غنيمة اكتسبها، ولم يكن شرفاً كان يسعى إليه، ولم يكن أمراً من الفخر كان يتطلع إليه، بل كانت مسؤولية عظيمة وأمانة كبيرة أثقلت كاهله، وشغلت ليله ونهاره.

أولا: معاناته من نفسه وشدة حرصه على أن يكون خادماً للإسلام والمسلمين:

وهو أمام تحديات وصعوبات جمة ومعطيات جديدة من كثرة الفتوحات وتعدد الولاة واتساع رقعة الإسلام ودخول غير العرب في الدين، فضلا عن الجيش الإسلامي الذي يقاتل فارس والروم وفيه خيرة الصحابة من الأنصار والمهاجرين. فكان يعد نفسه مسؤولاً أمام الله- تعالى- عن كل صغير وكبير من أمر المسلمين، ولذلك بدأ ﷺ يرسم ملامح المسؤولية، وأولها: المباشرة والمشاركة، فلم يتخذ عمر حراساً، ولم يتخذ حجاباً، ولم يجعل بينه وبين الناس باباً؛ فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان عمر ﷺ إذا صلى صلاة جلس فمن كانت له حاجة كلمه وإلا قام[(١)].

ولذلك كان يكرر قوله وبعبارات متعددة: لو مات جمل ضياعا على شط

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٨٨) وسنن البيهقي (٢/ ١٥٤) ومجمع الزوائد (١٠/ ٤٢١) (١٣٤١٩).

الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه.

وكان إذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال: اللهم أعني عليهما فإن كل واحد منهما يريدني على ديني [١].

وكان يتابع أمر الرعية بنفسه ولا يكل ذلك لأحد سواه ما استطاع لذلك سبيلا فكان يطعم ويسقي، ويسأل ويفصل، ويقضي ويحكم، ويعس ويقضي، ويغسل إبل الصدقة بنفسه؛ فعن الفضل بن عميرة:أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب في وفد من العراق، قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو متحجز بعباءة يهنأ بعيرا من إبل الصدقة فقال: يا أحنف ضع ثيابك، وهلم وأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفيك هذا . فقال عمر: يا ابن فلانة! وأيُّ عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس هذا، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة[٢].

ويقضي حوائج الناس بنفسه، وربما قام الليل بحراسة المسلمين، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قدمت رفقة من التجار، فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبدالرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها: مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه، فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٢٨٩) وكنز العمال (١٤٤٢٤).
(٢) أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث (٢٦/ ٣٢٥) رقم (٢٩٢٠٤)، والمتقي الهندي في كنز العمال (١٤٣٠٧).

ويحك، إني لأراك أم سوء، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبدالله قد أبرمتني منذ الليلة، إني أريغه عن الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرا، قال: ويحك لا تعجليه، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ! ثم أمر مناديا فنادى: ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام. وكتب بذلك إلى الآفاق: إنا نفرض لكل مولود في الإسلام[1].

وخرج عمر مرة في سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع ؟[2].

ثم إنه لم يخلد إلى الراحة، ولم يسكن إلى الاستراحة، شاغلا نفسه بأمر المسلمين، فهذا معاوية بن خديج يأتي من مصر في زمن عمر، يبشره بالفتح ودخول الإسكندرية، فوافى المدينة في وقت الظهيرة، فأتى إلى بيت عمر ناحية مسجد رسول الله ﷺ، فلم يجده فيه، فدخل إلى المسجد، فلما قدم عمر قالوا: رجل من مصر يسأل عنك، فذهب إلى المسجد فدعاه إلى بيته، ثم قال له: (ما قلت يا معاوية! إذ لم تجدني؟) يعني: أي ظن دار في خاطرك؟ فقال معاوية: (قلت: إن أمير المؤمنين قائل)، أي: نائم في وقت القيلولة، فقال عمر وقد ضرب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٠١) والسيوطي في جامع الأحاديث (٢٨/ ١٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٤٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٨١٠).

على صدره: (بئس ما ظننت؛ والله لئن نمت النهار لأضيعن رعيتي، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي!)[(١)]. قالوا: وكان عمر لا ينام إلا غراراً من ليل أو نهار.

أي: خفقات يخفقها، لا يطمئن فيها قلبه، ولا يغمض جفنه؛ لأنه يرى أنه تحمل مسؤولية الصغير والكبير، وشرق الأرض وغربها، والجنود والرعية كلها، فكان لا يرى هذه الراحة ولا يأنس بها؛ لأن في قلبه هماً عظيماً يشارك فيه الأمة في كل مأساة من مآسيها، وفي كل مصيبة من مصائبها، وفي كل حاجة من حاجاتها.

ثانيا : معاناته من تدبير وتنظيم شؤون الدولة:

لقد بدأ عمر بن الخطاب ﷺ بتنظيم الدولة الإسلامية بعزيمة قوية لا تلين، وذلك ليستطيع مواجهة المشكلات الجديدة بوضع قوانين تناسب كل جديد، وهذا ما كان يشكل لديه هاجسا قويا من أن يقدم على أمر لم يسبقه إليه صاحباه من قبله النبي ﷺ وأبوبكر الصديق ﷺ، فهما مثله الأعلى وقدوته الأولى، وهذا ما أعلنه على الملأ في أول خطبة ألقاها بعد تسلمه الخلافة؛ فقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد .. فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، وخلفت فيكم بعد صاحبيّ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسنا، ومن يسئ نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم[(٢)].

وفي رواية كان أول كلام تكلم به عمر حين صعد المنبر أن قال: اللهم إني شديد فليني وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخني[(٣)].

(١) السيوطي في جامع الأحاديث (٢٧ / ٢٥)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٨٠٤).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٩٠٤).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٧٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٤١٨٥).

وقد كان دائم المشورة للصحابة- رضي الله عنهم- في كل حادثة، وهذه هي المعاناة الحقيقية لقائد أراد أن يلقى الله- تعالى- وقد أحسن في حمل وأداء الأمانة.

عن زيد بن أسلم قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأله عن ركوب البحر قال فكتب عمرو إليه يقول: دود على عود فإن انكسر العود هلك الدود . قال فكره عمر أن يحملهم في البحر[(١)] .

وفي رواية: قال عمر: لا يسألني الله عن ركوب المسلمين البحر أبداً[(٢)] .

وكان يطبق ما يأمر به الناس أولاً، وينتهي عما نهى الناس عنه قبلهم؛ فعن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحدا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة[(٣)] .

لقد قاد المسلمين بعقل سليم، ورأي سديد، وعزيمة قوية، وتصرفات مرضية، حتى وصل بهم إلى قمة السعادة والنصر، فلم يبق منهم مظلوما إلا نصر، ولا ظالما إلا أوقفه عند حده، ولا محتاجا إلا ساعده، وكان حريصا على أموال المسلمين، يقول أنا فيها كالوصي في مال اليتيم، إن استغنى عف، وإن افتقر أكل بالمعروف. رآه علي بن أبي طالب ﷺ يعدوا إلى ظاهر المدينة فقال: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال: قد ند بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه. فقال: قد أتعبت الخلفاء من بعدك .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٨٥) والمتقي الهندي في كنز العمال (٩٨٩٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٨٤).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٨٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦ / ١٩٩) (٣٠٦٤٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٤٣) .

أهم أعماله ﷺ ومعاناته في ترتيب شؤون الدولة:

١ - دَوَّنَ الدَّواوين؛ فأسس ديوان الجند، الذي يشبه في أيامنا وزارة الدفاع، وديوان الخراج الذي يشبه وزارة المالية.

٢- أنشأ بيت مال المسلمين، وعين القضاة والكتّاب، وجعل التاريخ الهجري أساس تقويم الدولة الإسلامية، كما نظَّم البريد.

٣- اهتمامه بالرعية فمن ذلك تفقده أحوال المسلمين وعسّه بالليل.

٤- أبقى الأراضي المفتوحة بأيدي أهلها الأصليين بدلا من تقسيمها بين المحاربين على أن يدفعوا عنها الخراج .

٥- قسَّم البلاد المفتوحة إلى ولايات، وعَيّن على كل ولاية عاملا له راتب محدد، يأخذه من بيت مال المسلمين، وكان يختار الولاة ممن يُعرفون بالتقوى، وحسن الإدارة دون النظر إلى أحسابهم وأنسابهم .

٦- أمر بإنشاء عدة مدن في البلاد المفتوحة، مثل البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر وغيرها، لتكون مركزاً للدولة الإسلامية في تلك البلاد .

فهو على ذلك:

١ - أول من كتب التاريخ الهجري في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة، فكتبه من هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.

٢ - أول من جمع القرآن الكريم في المصحف.

٣ - أول من جمع الناس لصلاة التراويح وجعل للمدينة قارئين قارئا يصلي بالرجال وقارئا يصلي بالنساء.

٤ - أول من عس في عمله بالمدينة وأول من فتح الفتوح .

٥ - أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وكان الناس يأتون الشجرة التي بايعوا الرسول تحتها، فيصلون عندها، فبلغ عمر ذلك فأمر بقطعها مخافة أن تعبد .

٦ - أول من مصر الأمصار (الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر) والموصل أنزلها العرب، وخط الكوفة والبصرة.

٧ - أول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من دون الدواوين، وأول من حمل الطعام في السفن .

٨ - أول من ألقى الحصا في مسجد رسول الله ﷺ، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من المسجد نفضوا أيديهم، فأمر عمر بالحصا فجيء بها من العقيق، لأنه وادٍ مبارك، وهدم عمر مسجد رسول الله، ﷺ، وزاد فيه وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيما زاد، ووسعه وبناه لما كثر الناس بالمدينة.

٩ - أول من اتخذ دار الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع به والضيف ينزل بعمر .

١٠- أول من وضع في الطريق ما بين مكة والمدينة سبل المياه .

١١- أول من ضرب في الخمر ثمانين، واشتد على أهل الريب والتهم، وأحرق بيت رويشد الثقفي وكان حانوتا .

١٢- أول من وضع الخراج على الأرض والجزية على جماجم أهل الذمة.

١٣- أول من عاقب على الهجاء.

١٤- أول من أخرج اليهود من الحجاز، وأجلاهم من جزيرة العرب إلى الشام، وأخرج أهل نجران، وأنزلهم ناحية الكوفة، وحضر فتح بيت

المقدس[١].

ثالثا: معاناته من همّ الفتوحات في عهده:

كان من اهتمامات الفاروق ﷺ مواصلة الجهاد ونشر الإسلام والاستمرار في الفتح الذي بدأ في عهد أبي بكر ﷺ لبلاد الفرس والروم، فكان أول عمل عمله ﷺ أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس؛ وفي ذلك من المعاناة والهمّ ما فيه؛ من التنظيم وتجميع الجيوش وتسييرها ومتابعة المعارك ونتائجها فهي همّ ومعاناة لا يتحملها إلا من وضع نفسه وكرسها لخدمة الإسلام والحرص على مصالح المسلمين.. ومن غير عمر لتلك المهمة؟

لقد فتح عمر العراق وإيران، وأكثر مناطق أرمينية، وبلاد الشام ومصر وليبيا والنوبة . وخاضت جيوش المسلمين في أيامه أربع معارك فاصلة:

١- معركة القادسية: التي فتحت للمسلمين أبواب العراق والأهواز .

٢- معركة بابليون: التي فتحت لهم أبواب مصر وليبيا والنوبة .

٣- معركة نهاوند: التي فتحت لهم أبواب إيران كلها .

٤- فتح بيت المقدس دون قتال وحضر الفتح بنفسه .

وجميع هذه الفتوحات العظيمة أنجزت خلال عشر سنوات.

ففي العام الرابع عشر فتحت بعلبك وحمص، وفي العام الخامس عشر فتحت المدائن، وكانت في هذه السنة وبعدها اليرموك والقادسية وفتوح الشام وفتوح العراق، وفي العام السادس عشر فتحت حلب وأنطاكية، وفي السابع العاشر كانت معركة جلولاء وفتحها، وكان فيها من الفيء ثمانية عشر ألف

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٨١).

ألف في هذه الوقعة وحدها، وفي السابع عشر فتحت الأهواز، وفي الثامن عشر فتحت حران والموصل وتستر ونصيبين، وفي التاسع عشر فتحت تكريت وقيسارية، وفي التاسع عشر والعام العشرين أيضاً: فتح عمرو بن العاص أرض مصر، وفي العام التاسع عشر فتحت الجزيرة وإرمينيا، ومن بعدها في عام اثنين وعشرين فتحت أذربيجان وجرجان. وقد كان فتح جرجان ونهاوند على يد المغيرة ﷺ، والدينور وهمدان على يد حذيفة ﷺ، ومن بعد ذلك أتم عمرو بن العاص فتح طرابلس في الغرب.

وقد بلغ من أهمية فتح العراق وفارس في نظر الخليفة أنه رَغِب في أن يقود الجيش بنفسه ولكن المسلمون أشاروا عليه بالبقاء وأن يَندُب لذلك رجلاً من كبار الصحابة فوافق عمر ﷺ على ذلك واستقر الرأي على سعد بن أبي وقاص ﷺ.

موقعة القادسية سنة ١٥هـ :

قصد سعد بن أبي وقاص ﷺ العراق وهي حينئذ جزء من دولة الفرس الكبرى وكان خير مثال للقيادة السديدة والسياسة الرشيدة المؤمنة.. ولما أحس الفرس بالخطر القادم عليهم جمع مَلِكَهم (يزدجرد) جيشاً كثيراً قَدَّرَه المؤرخون بثمانين ألفا من الجنود المدربين في أحسن عُدَّة وعَتَاد.. وكان قائدهم عسكرياً مجرباً هو (رستم) وكان مع الجيش ثلاثة وثلاثون فيلاً .

ولـمّا تقابل الجيشان طلب رستم من سعد ﷺ أن يبعث إليه برجل عاقل عالم يسأله، لأنه كان متعجباً من هؤلاء العرب ما الذي غيّرهم وقد كانوا خاضعين للفرس وكانت ترضيهم كميات من الطعام حين يجوعون ويهاجمون؟ فبعث إليه سعد ﷺ رجالا من الصحابة- رضي اللهّ عنهم- كان

من بينهم ربعي بن عامر ﷺ فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق المذهبة ومفارش الحرير وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاج يبهر الأبصار وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعي ﷺ بثياب رثة وسيف وترس وفرس قصيرة فلما رأى زينتهم وانتفاخهم أراد أن يظهر استخفافه بمظاهرهم الكاذبة فدخل بفرسه راكبا عليها حتى داس بها طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض وسائدهم الثمينة، وأقبل عليهم رافع الرأس ثابت الخطى وعليه سلاحه ودرعه وخوذته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك، فقال بعزة: إني لم آتكم وإنما دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق أكثرها. فقال: رستم ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعد الله.

قال: وما موعد الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي، فطلب رستم الإمهال، فأبوا أن يمهلوه أكثر من ثلاثة أيام، وبعد ذلك التقى الجيشان، واقتتلوا قتالًا شديداً طَوَال يومهم وأكثر ليلهم، واستمروا ثلاثة أيام، عانى فيها المسلمون كثيراً من هذه الأفيال، التي كانت تُفْزِع خيولهم العربية التي لم تتعود رؤيتها، ولكن الأبطال المؤمنين صبروا وقاتلوا حتى تم النصر لهم بتوفيق الله وعنايته بعباده المؤمنين .

وفي اليوم الرابع بعث الله ريحاً شديدة فدمرت معسكر المجوس وهربوا في كل مكان وقتل قائدهم، وقتل منهم عشرة آلاف واستشهد من المسلمين

حوالي ألفان وخمسمائة شهيد تقريباً .

وبهذه المعركة الفاصلة أيّد الله سبحانه دينه ورفع كلمته، وهابت العرب والعجم المسلمين، وانتشر هدي الإسلام وعدله .

رابعا : معاناته في اختياره للولاة ﷺ :

ما كان يهم أمير المؤمنين هو مصلحة المسلمين، فكان يبحث، بل ويجتهد في **البحث والمشورة في انتقاء ولاته**، فلم تكن الولاية في عهد عمر ولا في نظره باب تكسب أو نفعية أو محسوبية، وهو يعلم أن استقامة الرعية من استقامة أئمتهم.

فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال عمر ﷺ عند موته: إن الناس لم يزالوا بخير ما استقامت لهم ولاتهم وهداتهم[(١)].

وعن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا[(٢)].

ولم يكن يتهاون مع أحد من ولاته في تقصير أو جور، ويقيد المظلوم من الرعية من الوالي المقصر كائنا من كان .

فعن عطاء قال: كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم، فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس، إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم . فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن

---

(١) شعب الإيمان (٦/ ٤٢) والطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٢٩٢) والبيهقي (٨/ ١٦٢، ١٦٤٢٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧ / ٩٤) (٣٤٤٤٩) والطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٢٩٢) وسنن البيهقي (٢ / ٨٠).

عاملك فلانا ضربني مائة سوط. قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو ابن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك، ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد، وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه، قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه . فافتدى منه بمائتي دينار، كل سوط بدينارين(١).

وكان دائم النصح لولاته، دائم التذكير لهم بتقوى الله في الرعية وتخويفهم من التفريط أو التقصير. كتب مرة إلى أبي موسى الأشعري، وكان عامله على البصرة: أما بعد: فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، إياك أن ترتع فترتع عمالك، فيكون مثلك عند ذلك مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها، تبتغي السمن، وإنما حتفها في سمنها.

وعن أبي عثمان قال: كتب إلينا عمر ونحن بأذربيجان: يا عتبة بن فرقد إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبس الحرير، فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير، قال: «إلا هكذا» ورفع لنا رسول الله ﷺ إصبعيه الوسطى والسبابة وضمهما. قال زهير: قال عاصم: هذا في الكتاب. قال: ورفع زهير إصبعيه(٢).

ومن وصاياه في الحرب لقادة جنده ﷺ :

ما وصَّى به سعد بن أبي وقاص: أما بعد.. فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٩٣) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٠٠٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦٩).

وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلا ننصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا .

خامسا : معاناته من محاسبته لنفسه:

من تواضعه:

عن عمير الحارث بن عمير عن رجل: أن عمر بن الخطاب رقي المنبر، وجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني وما لي من أكال يأكله الناس، إلا أن لي خالات من بني مخزوم، فكنت أستعذب لهن الماء، فيقبضن لي القبضات من الزبيب. قال: ثم نزل عن المنبر فقيل له: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال: إني وجدت في نفسي شيئا، فأردت أن أطأطئ منها[(١)] .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ بَخٍ وَالله لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ[(٢)] .

كان راتب عمر من بيت مال المسلمين مقابل أن يتولى الخلافة درهمين كل يوم له ولعياله. وربما احتاج أحياناً لمزيد، فيأتي صاحب بيت المال فيستقرضه، وربما أعسر، فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيأتيه به عمر وربما أخرج عطاءه فقضاه.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٢٩٣)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٩٨٨).
(٢) موطأ مالك (٥/ ١٤٤٣).

معاناته في مراعاة خشيته من الله ـ تعالى:

جاء في صفة عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- أنه كان في خديه خطان أسودان؛ من أثر البكاء خشيةً لله وخوفاً منه[(١)].

وكان يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أياماً يُعاد يحسبونه مريضاً، كما ذكر ذلك الإمام أحمد في كتابه الزهد.

ويحكى أنه كان يوماً من الأيام يقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[(٢)] حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾[(٣)] فخر مغشياً عليه- رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

سادسا : معاناته في عام الرمادة :

وسمي ذلك العام بعام الرمادة، لانحباس المطر حتى أصبحت الأرض مثل الرماد، وهو عام المجاعة الذي أصاب المدينة وبعض بلاد نجد، وبلغ الأمر بالعباد مبلغاً.

ولما جاء عام الرمادة كان عمر أول المشاركين في تحمل هذه المعاناة، وأول المبالغين في الشدة على نفسه ﷺ، وكان من شأنه كما ذكر كُتَّاب السيرة.

عن أسلم: أن عمر حرم على نفسه اللحم عام الرمادة حتى يأكله الناس[(٤)].

وعنه ﷺ أنه قال: كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين[(٥)] أي: أنهم كانوا يخشون عليه الموت من شدة همه وغمه لحال الأمة في ذلك الوقت.

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٤٩٣) والبداية والنهاية (٧/ ١٣٥) وحلية الأولياء (١/ ٥١).
(٢) التكوير: ١.
(٣) التكوير: ١٠.
(٤) ابن سعد (٣/ ٣١٣) وكنز العمال (٣٥٨٩٤).
(٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١٥) وفي كنز العمال (٣٥٨٩٥).

وعن أنس بن مالك قال: تقرقر بطن عمر بن الخطاب وكان يأكل الزيت عام الرمادة وكان حرم عليه السمن فنقر بطنه بإصبعه وقال: تقرقر تقرقرك، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس(١) .

وعن صفية بنت أبي عبيد قالت: حدثني بعض نساء عمر قالت: ما قرب عمر امرأة زمن الرمادة حتى أحيا الناس هما (٢) . أي: من شدة همه وتحمل مسؤوليته، حيث إنه كان يتذكر حديث النبي ﷺ في الإمارة: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة**»(٣)، فكان عمر يحمل الأمانة كما ينبغي أن تحمل، وكان يخشى الخزي والندامة خشية لا يتصورها كثير من الناس، وهكذا كان عمر في مباشرته المسؤولية وفي مشاركته لرعيته في أعلى صورة من صور المسؤولية .

وعن عيسى بن معمر قال: نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: بخ بخ يا بن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد ﷺ هزلي؟! فخرج الصبي هاربا وبكى، فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكف من نوى(٤) .

وعن السائب بن يزيد قال: ركب عمر بن الخطاب عام الرمادة دابة، فراثت شعيراً، فرآها عمر، فقال: المسلمون يموتون هزلا وهذه الدابة تأكل الشعير، لا والله لا أركبها حتى يحيى الناس(٥) .

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٨)، وابن عساكر (٤٤/ ٣٤٧) وفي كنز العمال (٣٥٨٩٣).
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١٥)، وابن عساكر (٤٤/ ٣٤٩)، وفي كنز العمال (٣٥٨٩٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٥).
(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١٥)، وكنز العمال (٣٥٨٩٨).
(٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣١٢)، والبيهقي (٩/ ٤٢) (١٧٦٨)، وابن عساكر (٤٤/ ٣٤٦) وكنز العمال (٣٥٨٩٢).

رأى أبوهريرة عمر عام الرمادة يحمل على ظهره جرابين، وعكة زيت، وأنه ليعتقب هو وأسلم، قال: فلما رأيته أخذت أعقبه، فحملنا حتى انتهينا إلى صرار، فإذا صرم نحو عشرين بيتاً من محارب، فقال عمر: ما أقدمكم ؟ قالوا: الجهد .. فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل إلى المدينة، وجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة، ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم(١).

سادسا : معاناته في استشهاده ﷺ:

عن سعيد بن المسيب أن عمر لما أفاض من منى، أناخ بالأبطع فكوم كومة من بطحاء، وطرح عليها طرف ثوبه، ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط. فلما قدم المدينة، خطب الناس فقال: أيها الناس قد فرضت لكم الفرائض، وسننت لكم السنن، وتركتم على الواضحة، ثم صفق يمينه على شماله، إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً، ثم إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم، وأن يقول قائل لا نجد حدين في كتاب الله، فقد رأيت رسول الله، ﷺ، رجم ورجمنا بعده، فوالله لولا أن يقول الناس أحدث عمر في كتاب الله لكتبتها في المصحف، فقد قرأناها، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن(٢).

وكان طموحه ﷺ أن يعم الأمن والخير حتى يصيب كل الأمة، فكان يقول ﷺ: والله لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ٣١٤) وتاريخ الطبري (٢ / ٥٧١) وتاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤١٢).

(٢) الموطأ - رواية محمد بن الحسن (٣/ ٥٨) والطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٣٤).

بعدي أبدا. قال: فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب[١].

سابعا : معاناته في اختيار الخليفة من بعده :

إن الهم الذي كان يشغل باله ﷺ وأرضاه، هو هم الخلافة، لقد طعن ﷺ، فقال المسلمون جميعاً له: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبدالرحمن، وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أُمّر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة[٢].

وعن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر قال: إني رأيت كأن ديكا نقرني ثلاث نقرات، وإني لا أراه إلا حضور أجلي، وإن أقواما يأمرونني أن أستخلف، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ولا الذي بعث به نبيه ﷺ، فإن عجل بي أمرٌ فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وإني قد علمت أن أقواما يطعنون في هذا الأمر، أنا ضربتهم بيدي هذه على الإسلام، فإن فعلوا ذلك فأولئك أعداء الله الكفرة الضلال[٣].

ثامنا : همه وغيرته على المسلمين حتى بعد وفاته:

قال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا، الذين تبوؤوا الدار والإيمان من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).
(٣) أخرجه مسلم (٥٦٧).

قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم . وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام؛ أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله- تعالى- وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم[1] .

فأوصى بجميع الطوائف التي كانت تقع تحت سلطته ﷺ، ثم قضى ولفظ أنفاسه الأخيرة، بعد حياةٍ مليئةٍ بالبطولة والجهاد.

قضى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه شهيداً من شهداء الإسلام، وقد سطر بدمه، وزكى ما سطره خلال حياته، من جهاد في سبيل الله- عز وجل، وحسن صحبةٍ لرسول الله ﷺ، وعلمٍ، وعملٍ، ودعوةٍ، وجهاد.

مناقبه من رثاء علي رضي الله عنه له :

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: وُضع عمر بن الخطاب على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع، وأنا فيهم قال: فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحداً أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبوبكر وعمر، ودخلت أنا وأبوبكر وعمر، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر، فإن كنتُ لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما[2] .

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٢، ٣٧٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩).

رحمك الله يا عمر.. أعز الله بك الإسلام، وأذل بك الشرك وأهله، لقد ضربت في خلافتك أروع الأمثلة للعدل والزهد والأمانة والشجاعة والبطولة النادرة، وفارقت المسلمين وهم أعزة أغنياء وأقوياء، وفارقتهم بعد أن قمت بواجبك خير قيام، وأقمت شعائر الدين الحنيف، وكونت دولة كاملة، وأمة قوية عظيمة، تعتز بدينها وبنفسها، وتفتخر بوحدتها واستقامتها ودستورها .

رحمك الله يا عمر، لقد كنت للإسلام حصناً، وللمسلمين حجاباً من النار .

عن سعد الجاري مولى عمر بن الخطاب، أن عمر بن الخطاب دعا أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكانت تحته، فوجدها تبكي فقال: ما يبكيك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين هذا اليهودي، تعني كعب الأحبار، يقول: إنك على باب من أبواب جهنم، فقال عمر: ما شاء الله، والله إني لأرجو أن يكون ربي خلقني سعيدا. ثم أرسل إلى كعب فدعاه، فلما جاءه كعب قال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليَّ، والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة . فقال عمر: أي شيء هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟ فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها، فإذا مِتَّ لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة[1] .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٣٢) وكنز العمال (٣٥٧٨٧) وفتح الباري (١٣/ ٥٠).

المبحث الثالث
معاناة عثمان بن عفان ﷺ

أولاً: أمير المؤمنين عثمان في سطور:

هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، ويجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف. أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس[1]. وفيما يلي بعض من أخباره وهمّه:

١ ـ مولده ونشأته ﷺ:

ولد في السنة السادسة من عام الفيل بالطائف، ونشأ بمكة، واشتغل بالتجارة، فأدار الله عليه بالخير العميم. وقد شب ﷺ على كرم الشيم وحسن السيرة، حيياً عفيفاً في قومه، مأموناً عندهم، يوصون إليه، ويحترمونه[2].

٢ ـ إسلامه ﷺ:

كان ﷺ من السابقين الأولين في الإسلام، وقد دخل في هذا الدين الحنيف بدعوة من أبي بكر الصديق ﷺ[3].

٣ ـ لقبه:

كان يلقب ﷺ بذي النورين، وذلك أنه لما أسلم ﷺ أحبه النبي ﷺ، وقربه منه، وزوجه ابنته رقية، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر، ثم زوجه النبي ﷺ أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده سنة تسعة من الهجرة. وقال له ﷺ: «**لو كانت**

(١، ٢) من كتاب النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة لعلاء الدين المدرس (١٧٧-١٧٨) نقلاً عن الطبقات لابن سعد، والإصابة لابن حجر.

(٣) سيرة ابن كثير (١/ ٤٣٧) طبعة دار المعرفة – بيوت – لبنان.

لنا ثالثة لزوجناك»[١]. ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولذلك سمي: بذي النورين.

٤ـ بلاؤه في الإسلام:

لقد كان لثروته الطائلة وممتلكاته الواسعة الأثر الكبير في عزة الإسلام وانتصاره، فقد أعد نفسه وماله لنصرة الدين وإعزاز الحق، ولم يحتج المسلمون إلى مدد مالي إلا وكان أول المجيبين، وأكثر الباذلين؛ فقد تبرع لتجهيز جيش العسرة الذي أمر النبي ﷺ لغزوة تبوك، بثلاثمائة بعير، وخمسين فرساً، وحمل ألف دينار في كمه ووضعها في حجر النبي ﷺ[٢]. وحينما شكا المهاجرون تغير الماء في المدينة، اشترى ﷺ بئر رومة العذب من صاحبه اليهودي، الذي كان يبيع ماءه بثمن غال، وجعلها للمسلمين[٣].

٥ـ خلافته ﷺ:

بويع بالخلافة بعد دفن عمر ﷺ بثلاث ليال، بعد أن أجمعت الأمة على خلافته، وذلك في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

٦ـ مراقبة ولاته وحثهم على العدل والتقوى:

فقد كان أول عمل قام به ﷺ حث الولاة على مواصلة العمل، والتزود بتقوى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) أسد الغابة (٢/ ٢٤٩).

(٢) حدث به الإمام أحمد في ذكر أن عثمان ﷺ دفع في حجر رسول الله بألف دينار، حيث قال رسول الله وهو يقلبها بيده: «**ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم**» ورواه الترمذي وقال: حسن غريب. وفي المسند من رواية عبدالله ابن الامام أحمد عن عبدالرحمن بن خباب السلمي: أن عثمان تبرع بمائتي بعير بأحلاسها وأقتابها. وروى البيهقي من طريق عمرو بن مرزوق عن سكن بن المغيرة به وقال: إنه (عثمان) التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها. من كتاب السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٦) طبعة دار المعرفة- بيروت لبنان..

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٩٩) وصححه الألباني.

فعن بدر بن عثمان، عن عمّه، قال: لما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدّهم كآبة، فأتى منبر رسول ﷺ، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، وقال: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه؛ فلقد أتيتم، صبَّحتم أو مسَّيتم؛ ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا، ولا يغرنَّكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى، ثم جدُّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها، ومتعوا بها طويلاً؛ ألم تلفظهم! أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة؛ فإنّ الله قد ضرب لها مثلاً؛ وللّذي هو خير، فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَلًا ﴾[1]، وأقبل الناس يبايعونه[2].

ثم إنه كتب إلى ولاة الأقاليم، وأمراء الحرب، والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال، كتب إلى كل الموظفين في الحقل العسكري والمالي والإداري يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحثُّهم على طاعة الله، وطاعة رسوله، ويحضُّهم على اتباع السنَّة، وترك الإحداث والابتداع، وكان بيت المال عامراً ممتلئاً، فزاد في عطاء الناس، واتخذ من المسجد سماطاً، يقدِّم عليه بصورةٍ دائمةٍ الطعام الطيِّب للمعتكفين والمتعبِّدين وأبناء السبيل .

٧ـ أول كتاب كتبه عثمان ﷺ إلى عماله:

أما بعد: فإن الله- عز وجل- أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم في أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة،

(١) المنتظم في التاريخ (١٧/ ٢٩٧)، وتاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٢٨)، والبداية والنهاية (٧/ ١٤٨)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٨٩).
(٢) الكهف:٤٥، ٤٦ .

وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك أنقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور الناس وفيما عليهم، فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء .

٨ـ وأول كتاب كتبه إلى أمراء الجنود:

أما بعد: فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر- رحمه الله- ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، فلا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه .

٩ – وكتب ـ رحمه الله ـ إلى عمال الخراج:

أما بعد فإن الله- تعالى- خلق الخلق بالحق، ولا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من سلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله ورسوله خصم لمن ظلمهم .

١٠ـ وكان كتابه إلى العامة:

أما بعد فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: «**الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا**»[١].

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٩٠) وتاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٢٨) والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٤/ ٣٧٠) وهنا توثيق البنود (١٠،٩،٨،٧) أيضاً.

وهكذا حمل عثمان أثقال الخلافة، حملها وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره، والعامل في زماننا هذا يتقاعد في سن الستين.

وأساس التقاعد أن الإنسان تتجمد ملكاته، ولم تعُد عنده إمكانية أن يفكِّر أو يجدد، أو يطوِّر، لذلك في معظم بلاد العالم الإنسان إذا بلغ الستين يحال إلى التقاعد، إلا في بعض البلدان، وفي الجامعة فقط، لأن الإنسان إذا عمل بعقله لم يضمر عقلُه، الذين يعملون بعقولهم كالمفكرين، وأساتذة الجامعات، في بعض البلاد فيما علمت أن الأستاذ يبقى على خِبرته إلى أن يشعر بالسأم، والملل، فيطلب إحالته على التقاعد .

لكن سيدنا عثمان ﷺ تسلَّم هذا المنصب، وهو في السبعين لأن المؤمن لا يشيخ أبداً، المؤمن شابٌ دائماً، يضعف بصره، ويشيب شعره، وينحني ظهره، وتضعف قوته، وتظهر عليه أعراض الشيخوخة، لكنه لا يشيخ، وتبقى نفسه شابةً، لأن هدفه كبير .

فلذلك حمل هذا الخليفة العظيم أثقال الخلافة، وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره، وستسمعون فيما نستقبل من الحديث ما لا يصدَّق، إنسان في السبعين له عزم الشباب، وهمة الشباب، وتألُّق الشباب، وتوقُّد عزيمة الشباب. متحملاً معاناة إدارة أمور المسلمين في كل شأن من شؤونهم .

ثانياً: معاناته من الإدارة وهمّ نجاحها (معاناة داخلية) :

أ ـ تحمله معاناة إدارة الفتوحات في عهده:

لقد واصل ﷺ الفتوحات العظيمة التي حققت في عهد الصديق والفاروق، فأرسل جيوشه الجرارة حاملة لواء الإسلام، ففي السنة الأولى من خلافته فتحت الري .

وغزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه

أهل الإسلام أيام عمر ﷺ.

وفي سنة سبع وعشرين هجرية غزا عامله معاوية ﷺ قبرص .

وفي هذه السنة غزا عبد الله بن سعد بن أبي السرح إفريقية وافتتحها سهلاً وجبلاً وهي تونس اليوم. كما فتحت بلاد فارس و خراسان و تركستان وبلخ والقوقاز وكرمان وسجستان وجرجان وطبرستان وقتل يزدجرد آخر ملوك الفرس، وفتحت نيسابور صلحاً. أما في الشام فقد وصل المسلمون إلى عمورية (أنقرة اليوم) وتم إكمال فتح مصر ، وأخضعت ثورة بلاد النوبة .

وأنهيت تمامًا السيطرة الرومية على البحر المتوسط الذي كان يسمى بحر الروم، وذلك بعد معركة ذات الصواري سنة ٣١ هـ، وأصبح البحر المتوسط اسمه بحر العرب.

وقد أنشأ أول أسطول إسلامي لحماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين وتوالت الفتوحات في عهده حتى أصبحت راية الإسلام ترفرف بكلمة التوحيد ورسالة العدل والإحسان. والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. وانظر كم من الهمّ والمعاناة يلاقيها رجلٌ بلغ السبعين من عمره، وأوغل في عقد السبعين حتى ناطح الثمانين، وهو يجيش الجيوش، ويفتح الفتوح، ويستقبل أخبارها ويواجه إدارتها.. وكل ذلك مع إدارة أمور المسلمين ورعاية شؤون الدولة؛ من سياسة واقتصاد واجتماع وحرص على إقامة حكم الله والعدل والأمن..؟! إنها مهمات ومعاناة ولا الشباب لها.

ب: هموم ومعاناة شخصية ناتجة عن التصميم لتقديم الخير للأمة :

١ ـ همّ توسعة المسجدين (الحرام والنبوي) إذ زاد في مساحتهما .

٢ ـ همّ تأدية العطاء المجزي.

٣ ـ همّ إحياء الأرض الموات والإذن للعرب بإصلاحها .

٤ ـ معاناة من وضع الضعفاء فكان أول من صنع طعامًا للفقراء في رمضان وكان ذلك للمتعبد الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترين بالناس في رمضان[١] .

٥ ـ همّ تنظيم القضاء، فقام ببناء دار القضاء .

٦ ـ همومه من متابعة الفتوحات الإسلامية العظيمة على الجبهتين الشرقية والغربية

٧ ـ معاناته من رؤية تفرق المسلمين على صحف القرآن، وظهور الخلاف بين القراء في الأمصار، فقام بجمع المسلمين على مصحف واحد، وهو من أهم وأجل أعمال عثمان بن عفان ﷺ وحفظ بذلك الأمة من الاختلاف في الكتاب كاختلاف اليهود والنصارى .

لقد بدأت كتابة القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ، ولكن بقي متفرقاً في الجريد والعسب، فلما كانت خلافة أبي بكر ووقعت المقتلة في الصحابة في اليمامة، اقترح عمر على أبي بكر جمعه حتى لا يذهب القرآن بذهاب القراء، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت الأنصاري بجمعه، فجمعه من الجريد والعسب وصدور الرجال، فضلاً عن أن زيداً كان يحفظه، فلما كانت خلافة عثمان وبدأ الصحابة ينتشرون في البلاد وظهر الخلاف بين القراء في الأمصار، وخُشيت الفتنة بين الناس، اقترح حذيفة بن اليمان على عثمان أن يجمع القرآن في مصحف واحد فكلف بذلك مجموعة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت الأنصاري، وهم عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٥٩١).

الحارث بن هشام، وقال عثمان للثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما أنزل بلسانهم ففعلوا[١].

فكتبوا المصحف، وأرسل منه ستة نسخ إلى أمصار الإسلام، وأرسل مع كل مصحف إماماً، واحتفظ منه بنسخة واحدة، سميت فيما بعد بالمصحف الإمام، فأخذ أهل كل مصر بما في مصحفهم وفق القراءة التي أقرأهم بها الصحابة، وأجمع أهل كل مصر على صحة روايتهم وقبولها.

ولا شك أن هذا العمل الكريم من أجل الأعمال، حيث حفظ كلام الله من التحريف والاختلاف، ووحد قراءته، وحفظ الأمة من الشك والاضطراب.

والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لـمّا كثر الاختلاف في وجوه القراءات حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك ببعضهم تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً أنه نزل بلغتهم، وإن كان وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة في بادئ الأمر، فرأى أن الحاجة لذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة.

جـ: معاناة عثمان الكبرى من بعض المسلمين (الفتنة الكبرى):

في آخر عهد عمر بن الخطاب ﷺ تطور المجتمع الإسلامي تطورًا كبيرًا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧)، والإتقان للسيوطي (١/ ١٠٢) وتفسير الطبري (١/ ٢٠-٢١) ونقله د. صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن (٧٨ – الطبعة ١٥/ دار العلم للملايين ١٩٨٣.

نتيجة الفتوحات الإسلامية، وكثرت الأموال، وكثرت السبايا، وبدأ المجتمع الإسلامي يودع حياة البداوة والعيش الخشن إلى حياة الرغد والرفاهية، وطرأت على المجتمع طوائف جديدة من الناس، لم يروا النبي ﷺ، ولا اهتدوا بهديه، وكلهم حديثي عهد بإسلام، وتعددت القوميات والعناصر، وكل قومية تدخل الإسلام ومعها بعض عاداتها وثقافتها القديمة، وأمسى المجتمع الإسلامي مزيجًا من بيئات متباينة، جعلت في النهاية سياستها صعبة، كما ظهرت العصبيات ضد قريش، وحقد البعض على ما وصلت إليه قريش من رياسة ومكانة، وقد ظهرت آثار تلك العصبية أيام حروب الردة، وهذا كله بالإضافة إلى حقد أبناء الأمم الموتورة بسيوف المسلمين والفتوحات، وكان بعضهم يدخلون الإسلام ليكيدوا له، كما حدث في مقتل عمر رضي الله عنه، وكل هذا التطور الكبير، والمتغيرات السريعة الأثر المهيئة لإعداد المجتمع لحدوث فتنة وشيكة وثورة قريبة كانت تبدو نارهما تحت الرماد .

ونستطيع أن نجمل أسباب قيام تلك الفتنة المشؤومة في عدة نقاط رئيسية:

١ ـ تطور المجتمع المسلم وتغير التركيبة السكانية فيه .

٢ ـ جميل صفات عثمان رضي الله عنه وحلو خصاله من الحياء والرحمة والرفق واللين للمسلمين جميعًا وليس لأهله فقط، وأيضًا مضاعفة العطاء واستجابته لرغبات المفتونين من أهل الأمصار درءًا منه للفتنة رضي الله عنه .

٣ ـ استغلال بعض الأحداث؛ مثل حادثة عبيد الله بن عمر، عندما ثأر من قتلة أبيه، ودعوة أبي ذر الغفاري للزهد في الدنيا وتقسيم الأموال، وضرب عمّار بن ياسر رضي الله عنه بتهمة لفقت له زورا وبهتانا، كما أوضح عثمان رضي الله عنه للثوار

قائلاً: جاء هو (عمار) وسعد إلى المسجد، وأرسلا إليّ أن ائتنا، فإنا نريد أن نذاكرك أشياء فعلناها، فأرسلت إليهما أني عنكما اليوم مشغول، فانصرفا وموعدكما يوم كذا وكذا. فانصرف سعد، وأبى هو (عمار) أن ينصرف، فأعدت إليه الرسول فأبى، ثم أعدته إليه فأبى، فتناوله رسولي بغير أمري .

والله ما أمرته، ولا رضيت بضربه؛ وهذه يدي لعمار، فليقتص مني إن شاء. وهذا من أبلغ ما يكون من الإنصاف[1] .

ومما يؤيد ذلك ويوهي ما رووه (الثوار) - ما رواه أبو الزناد عن أبي هريرة: أن عثمان لما حوصر ومنع الماء، قال لهم عمار: سبحان الله! قد اشترى بئر رومة وتمنعوه ماءها! خلوا سبيل الماء، ثم جاء إلى علي وسأله إنفاذ الماء إليه، فأمر براوية ماء. وهذا يدل على رضائه عنه .

٤ ـ ما قام به الشيطان اليهودي عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودي من صنعاء، أظهر الإسلام في عهد عثمان ﷺ، ليتخذ من ذلك ستارًا لمؤامراته ضد الإسلام، واستخدم كل أساليب المكر والدهاء والنفاق، حيث قام بالتنقل بين الأمصار الإسلامية، ينشر أكاذيبه، وينفث سمومه، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، ثم مصر التي استقر بها، وقد استخدم هذا المجرم عدة أساليب لتمهيد الجو لاشتعال الفتنة ومن هذه الأساليب:

أ ـ لمزيد من الخداع تظاهر ابن سبأ بحب آل البيت، خاصة علي بن أبي طالب ﷺ، واخترع مقولة الوصاية، فقال: إنه كان ألف نبيّ، ولكل نبي وصيّ، وعليّ هو وصيّ محمد، وقد مهد بذلك الطريق للطعن في خلافة عثمان باعتباره

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري (١/ ٢٣٩).

مغتصبًا لحق عليّ .

ب ـ ثم دخل ابن سبا على المسلمين بالتشكيك في العقيدة الإسلامية، وذلك بحديثه عن مسألة الرجعة؛ أي الاعتقاد برجعة النبي ﷺ مرة أخرى للحياة، كما سيرجع عيسى عليه السلام ويستدل بذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾[1] .

جـ ـ ثم خاض هذا الفتان في حق الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهما .

د ـ ثم انتقل إلى تحريض الناس على أمرائهم، وتشجيعهم على الثورة لأتفه الأسباب. وظل ابن سبأ يعمل في إطار من السرية الشديدة وينتقل بسرعة بين الأمصار لنشر سمومه في الفترة من سنة ٣٠ هـ حتى سنة ٣٤ هـ .

هـ ـ وكان الكذب والتزوير على لسان الصحابة، من أخطر أساليبه؛ إذ كان يكتب هذه المطاعن المكذوبة والمفتراة، ويُرسلها إلى الأقطار، مُوَقَّعَةً بأسماء الصحابة افتراء عليهم، ويدعو الناس فيها للخروج على عثمان. وَيُوَقِّعُ الرسائل باسم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والسيدة عائشة- رضي الله عنهم جميعاً.

د: دفعه رضي الله عنه في وجه الفتنة والمعاناة بالوسائل التالية:

١ ـ مؤتمر الولاة:

عندما كثرت الإشاعات والوشايات بين الأمصار الإسلامية وزادت عن حدها حتى وصلت إلى مقر الخلافة بالمدينة، أرسل عثمان إلى ولاة الأمصار وهم معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وعبد الله بن عامر والي البصرة، وسعيد

(١) القصص : ٨٥.

ابن العاص والي الكوفة، وعبد الله بن أبي سرح والي مصر .

وأمرهم بالقدوم إلى موسم الحج سنة ٣٤هـ، للتشاور في شأن هذه الأخبار، وفي نفس الوقت أرسل من عنده سفراء ومفتشين للتحقق من هذه الأخبار؛ من هؤلاء المفتشين محمد بن مسلمة للكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، فعاد الجميع بصلاح الأحوال.

اجتمع عثمان مع ولاته وتشاور معهم في كيفية التعامل مع الثوار، ورفض كل الحلول المقترحة؛ لأنه كان رجلاً رحيمًا لينًا يخاف الفتنة، ولا يحب إراقة قطرة دم واحدة، ورفض أيضًا أن ينتقل من المدينة إلى الشام، وقال كلمته الشهيرة: (لا أبيع جوار رسول الله بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي)[1].

٢ ـ توجه أهل الفتنة إلى المدينة:

لقد جمع أهل الفتنة أنفسهم من البصرة، والكوفة، ومصر، وبدؤوا في التوجُّه ناحية المدينة المنوَّرة، واتَّفقوا على عزل عثمان، واختلفوا فيمن يتولَّى الخلافة بعده، فأرادها أهل مصر لعليٍّ بن أبي طالب، في حين أرادها أهل الكوفة للزبير بن العوام، وأرادها أهل البصرة لطلحة بن عبيد الله، فلمَّا وصلوا المدينة وعلم المسلمون بقدومهم لهذا الأمر، أرسل عثمان لكلِّ فرقة منهم صحابياً ممن أرادوه خليفةً، فذهب عليٌّ لفرقة أهل مصر، فزجرهم وعنَّفهم قائلاً لهم: لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد، فارجعوا لا صبَّحكم الله؛ وفعل مثله صاحباه طلحة والزبير- رضي الله عنهما[2].

(١) تاريخ الطبري (٣ / ٣٨٢).
(٢) المصدر السابق .

٣ – إفحامه ﷺ لأهل الفتنة :

بدأ أهل الفتنة في الانتقال لطور العمل العلني، وخرج وفد منهم سنة ٣٥ هـ في شهر رجب، وفي نيتهم مناظرة الخليفة في المدينة أمام الناس لبلبلة الآراء، وإشعال نار الفتنة بها، واستطاع عثمان خلال تلك المناظرة أن يفحمهم ويبطل دعواهم وشبهاتهم بصورة قوية أخزت الثائرين، ولم يأخذهم عثمان بالشدة رغم قدرته على ذلك، وجواز ذلك شرعًا، لأنهم أشرار يريدون شق الصف المسلم، ودفعا للفرقة والفتنة فقد وافقهم ﷺ على بعض مطالبهم منها، أن يعود المنفيُّ، ويعطى المحروم، وَيُسْتَعْمَلُ ذوي الأمانة والقوَّة، وَيَعْدِلُ في القسمة.

وتم تدوين ذلك في كتابٍ، وشرط عليهم عثمان ألاّ يشقُّوا له عصًا، ولا يُفَرِّقوا جماعة المسلمين، وأعطَوْه عهدًا بذلك، وخرجوا من المدينة راضِين.

لكن الفتنة لم تُخْمَد بتحقيق المطالب؛ لأن قادة الفتنة لم يكونوا في الحقيقة طالبين للحقِّ، وإنما متآمرون يريدون الفتنة ويبتغون التفريق بين المسلمين، فالقلوب حاقدة، والنفوس مريضة. فبدأت الفِرَقُ في العودة، حتى انتشرت بعض الرسائل الملفَّقة، منها رسالة مع الفرقة القادمة من مصر، بأن عثمان أَمَر بقتل محمد بن أبي بكر، وأَمَر والِيَه على مصر بقتل رؤوس الفتنة، فعاد رؤوس الفتنة إلى المدينة من جديد، وحاصروا عثمان في بيته.

٤ ـ طلب المدد من الولاة:

وعندما وجد عثمان أن الأمر وصل إلى هذا الحدِّ، وأن اللين لن يُجدي كتب رسائل إلى ولاته في الأمصار أن يرسلوا إليه بالجيوش لحلِّ هذه الأزمة، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة، وإلى والي البصرة، لكن فكرة قتل الخليفة لم تكن قد ظهرت بعدُ، بل ما يطلبونه هو عزله، ولم يُصرِّحوا بكلمة القتل مطلقًا.

٥ ـ بيان في أصناف الثائرين :

إن الذين اشتركوا في هذه الثورة المشؤومة على عدة أصناف، لكل صنف رئيس أو رؤساء يمثلونهم وهم:

أ ـ صنف غلب عليهم الغلو في الدين، فأكبروا الهنات، وارتكبوا في إنكارها الموبقات، ويمثل هذا الصنف مالك بن الأشتر وحرقوص بن زهير.

ب ـ صنف متعصبون قبليون خاصة أهل اليمن والعصبية اليمانية، ممن لم يكن لهم سابقة في الإسلام، فحسدوا شيوخ الصحابة على ما لهم من فضل وسبق، ويمثل هذا الصنف الغافقي بن حرب العكي زعيم الثوار، وكنانة بن بشر التحصبي وسوران بن حمران.

جـ ـ صنف موتورون من حدود شرعية أقيمت على ذويهم، فامتلأت قلوبهم حقدًا من ذلك؛ مثل عمير بن ضائم، وأبو المورع، وأبو زينب.

د ـ صنف غرر بهم وانطلت عليهم الحيلة في خضم الفتنة، فلم يتبين لهم الحق من الباطل، ويمثل هذا الصنف محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة.

هـ- صنف حمقى أتباع كل ناعق؛ ضعاف العقول؛ سفهاء الحلوم؛ سيقوا للفتنة كالشاة للمذبح، وهم الأكثرية.

ومن هذه الأصناف جميعًا صاغ المارق المجرم اليهودي ابن سبأ ثورته وفتنته المشؤومة على الأمة الإسلامية، وانتهت هذه الفتنة المشؤومة بمقتل عثمان رضي الله عنه في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ، فسقطت أول قطرة من دمه على قول الله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾[1].

ثالثاً: بعض مناقبه رضي الله عنه:

- عن الحسن قال: رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء

(١) العواصم من القواصم لابن العربي، وهو أفضل ما كتب عن هذه الفتنة وما بعدها.

الرجل فيجلس إليه ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ثم يجيء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم[١].

- عن محمد بن سيرين: أن عثمان كان يحيي الليل فيختم القرآن في ركعة .

لقد كان ﷺ كريماً في خلقه، جواداً في ماله، وفياً في وعده وعهده، تقياً في دينه، عطوفاً على الرعية، متواضعاً بكل التواضع، وكان ﷺ من كتاب الوحي، وأحد العشرة المبشَرين بالجنة، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وﷺ وأجزل له المثوبة والعطاء [٢].

- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان على حِراء هو وأبوبكر وعمر وعلي وعثمان وطلحة والزبير- رضي الله عنهم، فتحركت الصخرة، فقال النبي ﷺ: «**اهدأ، إنما عليك نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ**»[٣].

وفي رواية عن قتادة عن أنس حدثهم أن رسول الله ﷺ صعد أحداً وأبوبكر وعمر وعثمان، فرجف بهم. فقال رسول الله ﷺ: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[٤].

- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: انطلقت مع النبي ﷺ، فدخل حائطاً للأنصار فقضى حاجته، فقال لي: «**يا أبا موسى أَمْلِكْ عليّ الباب، فلا يدخلنّ عليّ أحدٌ إلا بإذن**» فجاء رجل يضرب الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبوبكر، فقلت: يا رسول الله هذا أبوبكر يستأذن. قال: «**ائْذَنْ له وبشره بالجنة**» فدخل وبشرته بالجنة. وجاء رجل آخر، فضرب الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عمر.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠) .
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٧٥) .
(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٧) .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٩٧)، وصححه الألباني .

فقلت: يا رسول الله هذا عمر يستأذن. قال: «**افتح له وبشره بالجنة**»، ففتحت الباب ودخل وبشرته بالجنة. فجاء رجل آخر، فضرب الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عثمان. فقلت: يا رسول الله هذا عثمان يستأذن. قال: «**افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه**»[1].

رابعاً: ما يستفاد من سيرته ﷺ (عبر وعظات):

١ – أول عبرة أن كبر السّن يجب ألا يقعد الداعية عن أداء واجبات ما يوكل إليه من مهام.. بل إن عثمان ﷺ بلغ الثمانين وهو على أشد ما يكون من الجهد والاجتهاد، وتقديم النصح للمسلمين في رعايتهم وإدارة دولتهم، وتسيير الفتوحات ومتابعة أخبارها وأخبار الأمصار.. وهو قدوة ومثل رائعين لكل الشباب والكهول، ممن تصدوا للدعوة.

٢ – الحزم الحزم في الوقت المناسب ضد المفسدين أصحاب الفتن.. الذين يحملون من داخل الصف المسلم المجتمع أفكار التفرقة وشرذمة الصف وتهديم البناء، فلا يصبرن أحد على ذلك الذرّ الذي يذروه مستترين خلف شعارات موهمة زائفة.

٣ – الفداء الفداء.. وعثمان القدوة في ذلك.. إذ عندما وجد نفسه في المدينة والصحابة قلة والمتمردون جيش مسلح.. أمر الصحابة بأن لا يدافعوا عنه.. وليتركوه لمصيره مع المتمردين وذلك حرصاً على دم الصحابة، وافتداء لهم بنفسه.. إذ أيقن أنه مقتول.. وأن كل من يقف في طريق أصحاب الفتنة من الصحابة سوف يقتل.. ففضل أن يقدم نفسه فداءً للصحابة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٠)، وصححه الألباني.

المبحث الرابع
معاناة علي بن أبي طالب ﵁

أولاً: علي ﵁ في سطور:

١ – نسبه:

هو الخليفة الرابع علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي القرشي الهاشمي.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

٢ – مولده ونشأته ﵁:

ولد ﵁ بمكة المكرمة قبل البعثة بعشر سنين، ونشأ في أحضان النبي ﷺ، وظفر بعطفه وحنانه، وسعد بخلقه وصفاته، وقد كرمه الله وأجله، فلم يسجد لصنم قط، ولذلك يقال له بعد ذكر اسمه: «**كرم الله وجهه**».

٣ – إسلامه ﵁:

أخرج أبو يعلى عن علي ﵁ قال: (بعث النبي ﷺ يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء)، فكان ﵁ أول من آمن بالنبي ﷺ بعد خديجة- رضي الله عنها؛ لأنه تأثر بالنبي ﷺ في أخلاقه وتفكيره وطباعه، وبعده عن أكدار الكفر وشوائب الشرك، لذلك اطمأن قلبه إلى دين الفطرة السليمة، وارتاحت نفسه إلى العقيدة القويمة.

ثانياً: معاناته ﵁ الداخلية:

١ – نومه مكان رسول الله ﷺ ليلة هجرته، (من تضحياته):

في اليوم الذي هاجر فيه النبي ﷺ إلى المدينة المنورة أمر عليا ﵁ أن يبقى في

مكة، ليعيد الودائع التي كانت عند النبي ﷺ إلى أصحابها، وأمره كذلك أن ينام على فراشه، ويتدثر ببرده في تلك الليلة الحاسمة، التي اجتمع فيها فتيان قريش بباب النبي ﷺ، ينتظرون خروجه ليقتلوه. وبات علي ؓ مكانه حتى الصباح. ولا شك أن هذا العمل مثل رائع في التضحية والفداء والإيثار، ينم عن نفس باعت أغلى ما تملك في سبيل الله، وهو مثلٌ جدير بالتأمل ثم الاقتداء.

٢ – شجاعته النادرة ؓ:

لقد عرف ؓ بالشجاعة النادرة، والبطولة الفائقة، والبسالة العظيمة، كما حدثتنا مواقفه البطولية، ومن أهم هذه المواقف:

– **مبارزته لعمرو بن ودّ فارس جيش المشركين يوم الخندق**: كان علي في ذلك الحين صغير السن، لا يقارن بعمرو بن ود، ولا بمن هو أقل منه، ولكن بقوة إيمانه وتضحيته النادرة استطاع أن يصرع فارس قريش ويرديه قتيلا .

– **موقفه يوم خيبر**: بعد أن أعطاه النبي ﷺ الراية، ودعا له بالفتح. فقد ثبت في ذلك اليوم أن عليا ؓ بارز مرحبا قائد اليهود فصرعه، ويكفيه تلك المواقف شجاعة وبسالة وقوة .

٣ – معاناته في إلزام نفسه بخلق رسول ﷺ :

أ – فمن كريم خُلقه:

أنه جاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال عليّ: اكتب حاجتك على الأرض، فإني أكره أن

أرى ذل السؤال في وجهك[١]. وأنت ترى أن إلزام النفس بالخلق الكريم العالي لا يكون بدون معاناة وترويض بعد أن يكون معدن الرجل من النوع الغالي الرفيع .

ب – وتواضعه ﷺ :

قال عليّ ﷺ : لا أوتي برجل فضّلني على أبي بكر وعمر، إلا جلدته حد المفتري[٢].

وهنا نستطيع القول: كم من المعاناة والترويض مارسهما عليّ ﷺ حتى وصل إلى هذا المستوى من الإنصاف والشفافية والاعتراف بها للغير من فضل؟

أليست هذه اللفتة جديرة بالاهتمام والممارسة من قبل أجيال الدعاة في كل عصر؟ حتى تسلم النفوس، وتبلغ درجة الاقتداء بمن حققوا لهذا الدين وهذه الأمة ذلك المجد وتلك الانتصارات؟

وقال محمد بن الحنفية: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول: عثمان. قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. (قوله وخشيت أن يقول عثمان) أي لو قلت ثم من. ولعله كان يظن أن عليا ﷺ خير منه[٣].

٤ – معاناته في الخلافة ﷺ :

بويع ﷺ بالخلافة في اليوم الثاني من مقتل عثمان ﷺ ، وذلك أن كثيراً من الصحابة خشي مضاعفات الفتنة، والظروف القاسية توجب وجود إمام

(١) البداية والنهاية (٨ / ٩).
(٢) أخرجه ابن أبى عاصم (٢/ ٥٧٥) (١٢١٩) وكنز العمال (٣٦١٥٧) والاعتقاد للبيهقي (١/ ٣٧٦) وفضائل الصحابة (١/ ٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٧) .

للدولة، يرعى مصالحها، وينهض بأعباء الخلافة وسط الاضطرابات والفتن التي هبطت عليها، فاتجهت أنظارهم إلى علي بن أبي طالب لمكانته من المسلمين، ولما عرفوا فيه من الحزم والقوة والحكمة. فاضطر ﷺ إلى قبول الخلافة، ولم تدع له ظروف المحنة التي بويع فيها أن يبلي بلاءه في الإصلاحات والفتوحات. ولقد كانت ظروف المحنة أهمَّ معاناة لقيها علي ﷺ في ولايته؛ وكل ذلك يحتاج إلى حكمة وتدبر وأناة، لكي تعاد الأمور إلى نصابها، خصوصاً وأن هناك من ينفخ على نار الفتنة لتتوقد وتشتعل، ولتسقط دولة الإسلام، وهو ما كان غاية يهود والشعوبيين ممن دخلوا الإسلام من غير قناعة.. فظلوا يتربصون به وبدولته، وكان على رأس هؤلاء ابن سبأ اليهودي الماكر المتخفي بعباءة حب آل البيت والدعوة لعلي.. !

فقد تولى الخلافة وأمور المسلمين تضطرب وتمور، كأنما تغلي بها القدور، ولكنَّ علياً ﷺ رغم ذلك ترك مُثلاً عليا للأمة في العدل والقضاء، وشرف التعامل والزهد في الدنيا، والنصح للأمة .

فبادر ﷺ في مطلع سياسته بعزل ولاة عثمان ﷺ، الذين كانوا سبباً من أسباب الشكوى، وداعياً من دواعي الفتنة، وأشار على المطالبين بدم عثمان بالتريث حتى تستقر الأمور، وتهدأ الأحوال، ولكن المطالبين بدم عثمان - وفي مقدمتهم معاوية - لم يستجيبوا لرأي الخليفة، وأعلنوا العصيان والثورة، وأخذوا يطالبون علياً بالقصاص من الذين أوقدوا الفتنة، وقتلوا عثمان، وأنى له ذلك في وسط هذا الاضطراب وهذه الفوضى ؟

استعد علي للخروج إلى الشام لمجابهة الواقع وإطفاء الفتنة، ولكن طلحة والزبير خرجا عليه، وذهبا إلى مكة، وانضما هناك إلى أم المؤمنين عائشة،

وكانت غاضبة لهذه المأساة وتطالب بدم عثمان، ثم انتقلوا جميعاً إلى البصرة، وطالبوا علياً بدم عثمان، فأصبح علي ﷺ بين نارين: نار في البصرة، وأخرى في الشام، فعزم على أن يطفئ نار البصرة أولاً.

ثالثا : معاناته من الخارج:

أ - موقعة الجمل:

اتجه ﷺ بجنده إلى العراق، وفي البصرة التقى بطلحة والزبير وعائشة ومن معهم، وراسلهم وفاوضهم ودعاهم للصلح، حتى أوشك الصلح أن يتم بينهم، ولكن عناصر الفتنة بادروا بإذكاء النار وبدء القتال حتى لا يتم الصلح، أو تستقر الأمور، ويُؤْخَذُ مدبرو الفتنة و قتلة عثمان بما اقترفوه .

وفعلاً تم لهم ما أرادوا، وحصلت موقعة الجمل في السنة السادسة والثلاثين في جمادى الآخرة بين علي وصحبه، وبين طلحة والزبير وعائشة ومن معهم، وأزهقت في تلك الموقعة أرواح كثيرة، انتصر فيها علي، وقتل فيها طلحة والزبير، وأكرم علي عائشة وأرجعها إلى المدينة .

وقال طلحة بن مصرف: انتهى علي ﷺ إلى طلحة ﷺ وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه، ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

وكان يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله- عز وجل- فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[1] .

وفي رواية أن عليًا ﷺ رأى طلحة ﷺ في واد مُلقى، فنزل فمسح التراب عن وجهه وقال: عزيز عليّ أبا محمد بأن أراك مجندلاً في الأودية تحت نجوم

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١١٣)، وأحمد (٢/ ٧٤٧)، وذكره ابن كثير في تفسير (٢/ ٥٥٤) وكنز العمال (٣١٦٦٤).

السماء. إلى الله أشكو عجري وبجري. يعني: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي[(١)].

ب – معركة صفين والتحكيم:

في شهر صفر سنة سبع وثلاثين التقى علي وجيشه بمعاوية ومعه جيش الشام في صِفّين، ودام القتال بينهم أياماً، وعندما لاح النصر لجيش الخلافة، رفع أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح، رمزاً لقبول القرآن حكماً بينهم، فوقف القتال بينهم، وتداعوا إلى الصلح، واختار كل طرف من ينوب عنه لعقد الصلح، فاختار أصحاب علي أبا موسى الأشعري، واختار معاوية عمرو ابن العاص.

واجتمع الحكمان في دومة الجندل في رمضان من عام ٣٧ هـ. ولم يتفقا على شيء ورجعا من غير تفاهم[(٢)].

جـ – مناظرته للخوارج:

لما أراد علي ﷺ إرسال أبي موسى حكمًا أتاه رجلان من الخوارج هما زرعة ابن البرج وحرقوص بن زهير، فقالا له: «لا حكم إلا لله»، فقال علي: «لا حكمًا إلا الله»، وتناظر الرجلان من الخوارج مع علي، ثم خرجا من عنده يؤلبان الخوارج عليه، وخطب علي يومًا بالمسجد فقام عدد من الخوارج يصيحون في جنباته: «لا حكم إلا لله»، فقال علي بن أبي طالب: (الله أكبر! كلمة حق أريد بها باطل، أما إن لكم عندنا ثلاثًا، ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع

(١) أسد الغابة (٢/ ٤٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٤٦٣) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٦).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٥٤).

أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا وإنما فيكم أمر الله)[(١)].

فعندها خرجت الخوارج من المسجد واجتمعت بدار عبد الله بن وهب الراسبي، واتفقوا على الخروج من الكوفة إلى بلدة يجتمعون فيها لإنفاذ حكم الله بزعمهم، فأشار بعضهم بالمدائن، ولكن الباقين رفضوا، وذلك لحصانتها وقوة حمايتها، وأخيراً اتفقوا على جسر النهروان قريباً من الكوفة. وتكالب خوارج الكوفة مع خوارج البصرة على الخروج في وقت واحد إلى النهروان .

بعد انقضاء قضية الحكمين بلا نتيجة، عزم علي بن أبي طالب على حرب معاوية وأهل الشام مرة أخرى، واجتمع له خمس وستون ألفًا من أهل العراق، ثم كتب علي بن أبي طالب للخوارج بالنهروان يدعوهم للقتال، فرفضوا دعوته وقالوا له: (إنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[(٢)].

وليتخيل المرء.. كم من المعاناة والحزن والهم نزلت كلها في ساحة علي ﵁، وهو يواجه كل ذلك العنت أو ذلك الفهم العقيم الذي سكن عقول أولئك القوم من الخوارج؟!

د – ابن عباس يدعوهم ويناظرهم:

أراد ابن عباس أن يخرج لمعسكر الخوارج، ليدعوهم للحق والعودة إلى علي، فخاف عليه علي بن أبي طالب، ولكن ابن عباس طمأنه، فأذن له علي بالذهاب إليهم.

---

(١) سنن البيهقي (٢/ ١٥٥)، والتمهيد لما في موطأ مالك من الأسانيد (١٤/ ١٣٦).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ١١٩) وما بعدها، والبداية والنهاية (٧/ ٢٥٤) وما بعدها.

دخل ابن عباس معسكرهم، ودار بينهم حوار طويل، ظهرت فيه مقدرة ابن عباس الإقناعية وفقهه وعلمه الجم، إذ استطاع أن يرجع للكوفة ومعه قرابة الستة آلاف من الخوارج التائبين، فسر بهم علي بن أبي طالب، ودعا لابن عباس.

هـ- اعتداء الخوارج على المسلمين:

ظل الأمر هكذا، الخوارج ساكنين لا يظهرون قتالاً ولا عداوة، حتى تناهى لأسماعهم خروج علي بأهل العراق لقتال أهل الشام، فبدا لهم أن يدخلوا الكوفة، فتحركوا من البصرة على طريق النهروان، وفي الطريق حدثت حادثة كانت السبب في قتالهم بعد ذلك، حيث رأى الخوارج رجلاً يسوق بامرأة على حمار، فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول ﷺ، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم، قالوا: لا روع عليك، حدثنا عن أبيك حديثًا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به، فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه، يمسي فيها مؤمنًا ويصبح كافرًا، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا**» قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرًا، قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًا في أولها وفي آخرها، فقالوا. فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده، قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقيًا على دينه، وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدًا، فأخذوه فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى حتى نزلوا تحت نخل مواقر، فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه، فقال أحدهم بغير حلها بغير ثمن، فلفظها،

وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه، فأخذ بيمينه، فمر به خنزير لأهل الذمة، فضربه بسيفه، فقالوا هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما علي منكم بأس، إني لمسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً، ولقد أمنتموني، قلتم لا روع عليك، فجاؤوا به، فأضجعوه فذبحوه، وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إني إنما أنا امرأة، ألا تتقون الله، فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية، فبلغ ذلك علياً ومن معه من المسلمين، من قتلهم عبدالله بن خباب، واعتراضهم الناس، فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدي، ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم، ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه. فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسائلهم، فخرج القوم إليه فقتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، وقال الناس لأمير المؤمنين: علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفونا في عيالنا وأموالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى أهل الشام، فوافقهم علي بن أبي طالب على ذلك، وقرروا قمع شر هؤلاء الخارجين[1].

و – معركة النهروان:

خرج علي بأهل العراق لقتال الخوارج، فوصل إلى النهروان، وقبل أن يندلع القتال طلب منهم علي تسليم قتلة عبد الله بن خباب، فقالوا له: «كلنا قتله، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم، وحاول قيس بن سعد وغيره وعظهم وإعادتهم للصواب، ولما أيس علي من عودتهم للحق والصواب دعا الله- عز وجل- قائلاً: (والله لا يقتل منا عشرة، ولا يسلم منهم عشرة). وكان علي رضي الله عنه

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١١٩).

حريصًا على عدم سفك الدماء، فأعطى أبا أيوب الأنصاري راية، ونادى في الخوارج: (إنه من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف من القتال ودخل الكوفة فهو آمن)، فانصرفت مجموعة من الخوارج، وبقي قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي مع ألف وثمانمائة من الخوارج، وهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين، وتنادى الخوارج فيما بينهم: (الرواح إلى الجنة) ثم هجموا على جيش علي، وكان علي قد قال لأصحابه: (كفوا عنهم حتى يبدؤوكم بالقتال) .

حملت الخوارج على جيش علي، ولم يكن معظمهم من أهل الخبرة في القتال، فاستطاع جيش علي أن يقضوا على حملتهم تلك، ووضعوهم بين فكي كماشة أتت على الخوارج جميعًا، كأنما قيل لهم موتوا فماتوا، ولم يقتل من جيش علي سوى سبعة نفر، ولم يسلم من الخوارج سوى تسعة نفر، كما دعا علي ربه- جل وعلا، وكان ضمن القتلى ذو الثدية، وهو رجل أسود مخدج اليد، وهو علامة الخوارج كما ذكر في الحديث الصحيح، فالتمسوه في القتلى مرارًا فلم يجدوه، وعلي يكرر عليهم الطلب في البحث عنه حتى عثروا على جثته في حفرة مع خمسين قتيل، وكانت له رائحة كريهة، فلما رآه علي خر ساجدًا لله- عز وجل- طويلاً، لأن قتل هذا الرجل دليل على صدق وأحقية علي بالأمر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن هذه الفرقة الباغية التي تقاتلها أولى الطائفتين بالحق[(١)] .

لقد عانى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أشدّ المعاناة، وهو يحاول الحؤول دون سفك الدماء، مع أن قبيلة من الخوارج مارسوا عمليات استفزاز وقتل واستحلال لدماء محرمة، لا يستطيع إزاءها إنسان كظم غيظه والإمساك

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٤٧٦-٤٩٥) والكامل في التاريخ (٢/ ٨٣) والعواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ (١/ ١٣١) والبداية والنهاية (٧/ ٢٨٠) .

بوسعه، إلا إن كان كعلي الذي تربى في حجر سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

رابعا : معاناته وابتلاؤه ﷺ ممن ادعى محبته:

أ- معاناته ممن ادعوا ربوبيته ومحبته:

ابتُلي ﷺ من قبل أقوام ادّعوا محبّـته، فقد ادّعى أقوام من الزنادقة أن علياً ﷺ هو الله! فقالوا: أنت ربنا! فاغتاظ منهم غيظاً شديداً، وأمر بهم فحرّقـوا بالنـار، فزادهم ذلك فتنة وقالوا: الآن تيقنا أنك ربنا! إذ لا يعذب بالنار إلا الله.

وقد قيل لعلي ﷺ: إن هنـا قومـاً عـلى بـاب المسـجد يـدّعون أنـك ربهـم، فدعاهم، فقال لهم: ويلكم ما تقولـون؟ قـالوا: أنـت ربنـا وخالقنـا ورازقنـا! فقال: ويلكم إنما أنا عبدٌ مثلكم؛ آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعـت الله أثـابني إن شـاء، وإن عصـيته خشـيت أن يعـذبني، فـاتقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر (حاجبه) فقال: قـد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم، فقالوا: كذلك، فلما كان الثالـث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنـبر ائتنـي بفعلة معهم، فخدّ لهم أخدوداً بين باب المسجد والقصر.

وقـال: احفـروا فابعـدوا في الأرض، وجـاء بالحطـب فطرحـه بالنـار في الأخدود وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعـوا، فقـذف بهـم فيها حتى إذا احترقوا قال ﷺ:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أوقدت ناري ودعوت قنبرا (١)

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٣٧) قال الحافظ ابن حجر: وهذا سند حسن. والفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٢٢) .

ب - وأوذي ممن ادّعوا محبته، بل ممن ادّعوا أنهم شيعته!

إن الذي قتل علياً ﷺ، هو الشقي التعيس (ابن ملجَم) وقد كان مِن شيعته خرج عليه! ولذلك كان علي ﷺ يقول في آخر حياته: أشكو إلى الله عجري وبجري.

وقال ﷺ في أهل الكوفة: اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي، وأخلاق لم تكن تعرف لي. اللهم فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني. اللهم أَمِتْ قلوبهم موت الملح في الماء[1].

والكوفة هي موطن الشيعة الذين كانوا يدّعون محبته !

خامساً: هلال يغيب:

لقد دبر الخوارج مؤامرتهم الخبيثة، وبيتوا عملهم الإجرامي، واتفقوا بينهم على أن يتخلصوا من علي ومعاوية وعمرو بن العاص في ليلة واحدة، وفي وقت واحد، وعينوا ثلاثة منهم ليقوموا بهذا العمل الإجرامي، وهم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، على أن يقوم ابن ملجم بقتل علي، والبرك بقتل معاوية، وعمرو بقتل عمرو بن العاص، ثم توجه كل منهم إلى البلدة التي فيها صاحبه لتنفيذ المؤامرة، فأما معاوية وعمرو بن العاص فقد أخطأهما التدبير، وأما علي بن أبي طالب فاستطاع ابن ملجم أن يقتله بسيفه وهو خارج لصلاة الفجر.

واستشهد ﷺ في السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين .

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٢/ ٥٣٤) وكنز العمال (٣٦٥٨١) .

فليتها إذ فَدَتْ عمراً بخارجةٍ فَدَتْ علياً بمن شاءت من البشر

استشهد ﷺ وترك لرعيته مُثلاً عليا وقيماً جليلة، يسيرون على منوالها، ويسلكون طريقها من الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ونماذج رائعة من الشجاعة والبسالة والمروءة والوفاء واحترام العهود، فرحمة الله عليه ورضي الله عنه، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

عن أبي سنان الدؤلي: أنه عاد عليا في شكوى له اشتكاها، قال فقلت له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذا، فقال: لكني والله ما تخوفت على نفسي منه، لأني سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول: «**إنك ستضرب ضربة ها هنا وضربة ها هنا، وأشار إلى صدغيه، فيسيل دمها، حتى تخضب لحيتك، ويكون صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود**»[(١)] .

قال ابن حجر في ترجمة ابن ملجم: من كبار الخوارج، وهو أشقى هذه الأمة بالنص الثابت عن النبي ﷺ بقتل علي بن أبي طالب، فقتله أولاد عليّ ﷺ وذلك في شهر رمضان سنة أربع وأربعين .

قال النبي ﷺ لعلي ﷺ : «**أشقى الناس الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا** – ووضع يده على رأسه– **حتى يخضب هذه**» يعنى لحيته[(٢)] .

وهناك ما لم يصح من مقولات بشأنه: بعضٌ ممن ادعى حبه ﷺ قوله ما لم يقل ولا يصح بحقه، ظناً منهم أن هذا يزيد من قدره، ويرفع من شأنه، وما علموا أنه غني عن كل أكاذيبهم، بل إن ما صح سنداً ومتناً في حقه يكفيه ﷺ.

(٢،١) أخرجه الحاكم (٤٥٩٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني . والبيهقي في الكبرى (٨/ ٥٨) (١٥٨٤٨) وصححه الألباني.

ومن تلك الأقاويل غير الصحيحة التي اشتهرت على الألسنة:

١ – حديث: أنا مدينة العلم، وعليّ بابها. فإنه حديث موضوع .

٢– ومثله: حبس الشمس لعليّ رضي الله عنه. فإنه خبر موضوع مكذوب .

٣– ومثل ذلك حديث: النظر إلى عليّ عبادة!

٤ – وقصة اقتلاع باب حصن خيبر، ومقاتلته بالباب، وأنه اجتمع عليه بعد ذلك سبعون رجلاً فما استطاعوا إعادته. فهذا الخبر لا يصح ولا يثبت.

٥ – وحديث الطير، أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بطير فقال: اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير. وهو حديث ضعيف .

٦– وأنه رضي الله عنه تصدّق بخاتمه وهو راكع!

٧– وتزعم الرافضة أن الله أحيا أبا طالب فأسلم، ثم أماته!

وكل ذلك من الغلو في حق أمير المؤمنين الذي لا يرضاه لنفسه، بل يكرهه ويرفضه رضي الله عنه.

سادساً: ما جاء صحيحا في فضله رضي الله عنه :

فضائله جمّة لا تُحصى، ومناقبه كثيرة؛ حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي.

وقال غيره: وكان سبب ذلك بغض بني أمية له، فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يُثبته، وكلما أرادوا إخماده وهددوا من حدّث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارا .

ومن هنا قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: باب ذِكر شيء من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم أطال- رحمه الله- في ذكر فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، قال: فمن ذلك أنه أقرب العشرة المشهود لهم بالجنة نسبا من رسول الله ﷺ. قال الحافظ ابن حجر: وقد ولّد له الرافضة مناقب موضوعة، هو في غنىً عنها، قال: وتتبع النسائي ما خُصّ به من دون الصحابة، فجمع من ذلك شيئا كثيراً بأسانيد أكثرها جياد.

وكتاب الإمام النسائي هو (خصائص عليّ ﷺ).

وهذا يدلّ على محبة أهل السنة لعلي ﷺ.

وأهل السنة يعتقدون محبة علي ﷺ دين وإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

حُبُّ الصَّحابَةِ كُلُّهُمْ لي مَذْهَبٌ   وَمَوَدَّةُ القُرْبى بِها أَتَوَسَّلُ

سابعاً: مستخلص من سيرته ﷺ:

إن سيرة أمير المؤمنين ﷺ مسكونة بكثافة بالعبر والعظات الكبيرة؛ فمن الزهد، إلى الشجاعة، وإلى التضحية الغالية، والثبات، والإخلاص الكامل لله- سبحانه- ولرسوله ﷺ ولدين الله الإسلام، ثم إلى الحكمة وحب المسلمين التي تجلت أكثر ما تجلت في محاولاته الكثيرة لحقن دماء المسلمين، قبل أن تلتقي سيوفهم.. وكل ذلك فيه من الدروس المفيدة الكثير الكثير لكل من سار ويسير على طريق الدعوة إلى الله في كل عصر.

لكن واحدة من معالجات أمير المؤمنين تحمل في ثناياها أبلغ البلاغ في تلك السيرة العظيمة، وذلك لما تختزنه من خطورة كبيرة على مسيرة الدعوات والدول والجماعات، تلك هي قصة معالجة تداعي الفتنة وما رافقها من

استهانة الفرقاء بالنتائج المترتبة عليها، والتي يمكن أن يمتد أثرها، ويتطاير شررها إلى كل الأمكنة، كما أنها لتمتد مع الأزمنة، فلا يمكن أن ينجو منها أي فريق، حتى لو أنه حقق الغلبة في ساحة الصراع..! .

لقد تحمل علي ﷺ معالجة نتائج الفتنة التي أثارها المشبوهون ضد عثمان ﷺ، وذلك بعد أن بويع له بالخلافة بعد استشهاد عثمان، وكان عليه أن يواجه تحديات كبيرة أهمها: متابعة مسيرة الفتوحات، ومتابعة بناء مؤسسات الدولة الفتية، وتأمين استقرارها وحفظ وحدة وأمن شعوبها، وكذلك وهو الأخطر معالجة مشكلة قتلة عثمان، بما لا يؤدي إلى انشقاقات في الصف المسلم.

وإذن فكم من المعاناة والأحمال الثقيلة وقعت على كاهل الرجل الكبير الزاهد العالم الشجاع الحكيم؟ مع علم الجميع بتغير المجتمع المسلم، واتساع رقعة الدولة، ودخول شعوب كثيرة في الإسلام، ولـمّا يتغلغل ذلك الدين في القلوب كما يجب، هذا فضلاً عن دخول عنصر المال والوفرة اللذين دخلا على الناس نتيجة الفتوحات والغنائم والفيء.. وكل ذلك عمل عمله في داخل المجتمع المسلم؛ إذ قَرَّبَ الدنيا إلى القلوب، وقلل من اعتماد ما فيه مصلحة الدعوة والدين في حراك المسلمين، وكذلك أدى إلى قصر النظر، حتى من قبل من كان يظن به غير ذلك.. هذا إلى جانب ضعف العلم في البلدان المفتوحة، وهو ما جعل كثيراً من الناس يلقون آذانهم لكل ناعق دون تبصر، وهو ما استغله الأفَّاكون المتربصون بالإسلام ودولته.. الذين كمنوا لكل ذلك، يتحينون الفرص للانقضاض، متلفعين بمسحة قشرية من الدين، وبشيء من العلم التحريفي.. فلما حانت لهم فرصة من خلال ما ظنوه أخطاء في بعض المعالجات الإدارية والمالية وفي بعض الأحيان السياسية.. ضربوا ضربتهم

الموجعة المدمرة، وذلك بقتل ذي النورين الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم**»[(١)].

لقد كانت فتنة كبرى، ولا أبا الحسن لها .. وفيما يلي نحاول وضع اليد على بعض الاستنتاجات، من خلال تداعيات الفتنة ومعالجاتها:

١ - إن العلم النافع من أهم الضرورات للدول والجماعات والهيئات، فبدونه يُدلس على الناس، ويدخل الهدامون في صفوفهم فيفتنونهم، وكانت حركة الخوارج أكبر مثل على أثر ضحالة العلم في اختراق الصف، وقد قال فيهم رسول الله ﷺ: «**تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وعبادتكم إلى عبادتهم.. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**».

٢ – إن التحليل الواقعي المعمق للأحداث الجارية ضروري، من أجل سداد الخطوات التالية، ولمعرفة القوة الداخلية الذاتية للدولة أو الحركة، فعلى سبيل المثال كانت ظاهرة الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وحادثة مقتل عمر رضي الله عنه، تشكلان مع غيرهما من الظواهر غير المطمئنة قضية تحتاج على وقفة متأملة عميقة، وإلى تحليل وخلاصات، تضع المسؤولين في الصورة الحقيقية لمدى تماسك الجماعة، ومدى اعتماد المسؤول في خطواته على صف غير متجانس، وكذلك فإنها تضعه أمام مسؤولية معالجة الأمراض المستجدة، وعدم الاكتفاء بقمع الظواهر بالقوة.. لأن الاكتفاء بذلك لا ينهي الظواهر، وإنما يرحلها إلى وقت آخر، تظهر فيه بقوة. من الصعب التغلب عليها.. وهو ما واجهه أمير المؤمنين علي أثناء معالجته لنتائج الفتنة الكبرى .

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وصححه الألباني .

٣ – في حال اتساع الانتشار، ودخول الناس الكثيف إلى الصف المسلم، يجب تكثيف أعمال التربية ونشر العلم والفهم. ثم يجب تكثيف عملية الفرز أيضاً، ووضع الناس على محك التجربة بالتكليف الثقيل، الذي يقتضي التضحية والبذل، بعيداً عن المغانم والأطماع .

٤ – يجب أن يكون التحمل والصبر والحكمة حاضرة جميعها في أذهان الجميع، وهي لازمة أكثر للمسؤول.. الذي إن لم يوطن نفسه لتحمل المعاناة والصبر عليها، والحكمة والرفق في معالجاته.. أفضى إلى بوار .

٥ – وإن من أهم تلك العبر والعظات هي أن نعرف أن الناس بشر من البشر، وأنهم ليسوا ملائكة.. وهنا يجب التعامل معهم بحسب أحوالهم، فلا نحملهم ما لا يطيقون فنفتنهم، ويجب متابعة تطور المجتمعات والانتقال من طور إلى طور ومتابعة الأجيال بما يصلح لهم وبما يفهمونه جيلاً بعد جيل وذلك بتطوير الخطاب والوسائل وأسباب الإدراك ووسائل الاجتماع الناجعة في العصر فلا يكون هناك جمود على منتجات عصر أو عهد.. فتوقف الدعوة عن التقدم والانتشار.

الفصل الثالث

معاناة الأئمة الأربعة

١ – أبو حنيفة   ٢ – مالك

٣ – الشافعي   ٤ – أحمد

المبحث الأول
معاناة الإمام أبي حنيفة النعمان
رحمه الله (٨٠ – ١٥٠ هـ)

أولاً: أبو حنيفة: نسبه، مولده، نشأته:

هو النعمان بن ثابت بن المرزبان، فارسي حر، يعود نسبه إلى أسرة ذات شأن في قومه، وجدُّه (المرزبان) من كابل (عاصمة أفغانستان اليوم) أسلم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وانتقل إلى الكوفة، واتخذها موطناً له.

وُلد النعمان في الكوفة عام (٨٠ هـ) على القول الراجح أيام الخليفة عبدالملك ابن مروان، فقد روى الخطيب بسنده إلى إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة أنه قال: «أخبرنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن المرزبان، من أبناء فارس الأحرار: والله ما وقع علينا رقٌّ قط، ولد جدّي سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى علي ابن أبي طالب ﷺ، وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو من الله- تعالى- أن يكون قد استجاب ذلك لعلي بن أبي طالب..»[١].

نشأ أبوحنيفة- رحمه الله- في الكوفة في أسرة مسلمة صالحة غنية، وكان وحيد أبويه، وكان أبوه خزازاً (تاجر قماش)، وورث النعمان المهنة عن أبيه، حفظ القرآن في صغره، لكنه لم ينتبه للعلم إلا بعد لقائه مع الشعبي، الذي نصحه بالاختلاف إلى العلم وحلقاته، لما يرى فيه من يقظة وحركة[٢]، إذ قال أبوحنيفة: لقد نفعني الله- تعالى- بقول الشعبي.

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٢٦) نقلاً عن كتاب (أبوحنيفة النعمان) للشيخ وهبي سليمان غاوجي: ص٣٧.
(٢) عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان للمحدث المؤرخ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الدمشقي، الشافعي، صاحب السيرة الشامية، نقلاً عن المرجع السابق: ص ٣٨.

ثانياً: معاناته:

١ – من أهل الإلحاد والشبهات: دخل البصرة أكثر من سبع وعشرين مرة.. يدفع فيها عن الشريعة، وناقش الخوارج وحجّهم، وناقش غلاة الشيعة فأقنعهم. غير أنه كان ينهي أصحابه والمقربين منه عن الجدل؛ رأى- رحمه الله- ولده حماداً الذي أصبح بعدُ قاضياً فاضلاً ورعاً، يناظر في الكلام، فنهاه. فقال حماد: رأيناك تناظر فيه، وتنهانا عنه؟! فقال- رحمه الله تعالى: كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير، مخافة أن يزلَّ صاحبنا، وأنتم تناظرون، وتريدون زلة صاحبكم، ومن أراد أن يزلَّ صاحبه، فقد أراد أن يكفر صاحبه، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه[1].

٢ – معاناته الداخلية (داخل نفسه): وهذه كان سببها أن بدأ علمه بالكلام حتى أصبح يشار إليه بالبنان فيه.. إلا أنه راجع نفسه في ذلك، ونازعته الشكوك في الكلام، وعانى داخلياً من هذا الوضع، فهو لما ناقش دواخله قال: إن المتقدمين من أصحاب النبي والتابعين وأتباعهم لم يكن يفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر وبه أعرف وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين، ولم يخوضوا فيه.. ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه.. وكانوا يطلقون الكلام والمنازعة فيه.. على ذلك مضى الصدر الأول من السابقين، وتبعهم التابعون عليه، فلما ظهر لنا من أمرهم هذا الذي وصفنا، تركنا المنازعة والمجادلة والخوض في الكلام، واكتفينا بمعرفته، ورجعنا إلى ما كان عليه السلف.. وجالسنا أهل المعرفة بذلك[2].

وهكذا كانت له معاناة داخلية فهجر الكلام وتحول إلى الفقه، والتزم

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة لابن البزازي (١/ ١٢١) نقلاً من المصدر السابق ص٤١.
(٢) مناقب الموفق المكي (١/ ٦٠).

بالكامل شيخه حماداً بن أبي سليمان.. حتى بزَّ الجميع في الفقه، وقد اختير من قِبَل رجال الحلقة، ليخلف شيخه بعد موته في الدرس والحلقة. وهو الذي لازمه حتى وفاته، وكان شديد الاحترام والتقدير له، وفياً مخلصاً باراً به؛ فقد روى الموفق المكي بسنده إلى محمد بن الحسن بن أبي بشير قال: سمعت أبا حنيفة- رحمه الله تعالى- يقول: ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والديَّ.. ثم روى عنه أنه قال: ما مددت رجلي نحو دار حماد إجلالاً له، وكان بين داري وداره سبع سكك[1].

٣ – صبره وحلمه على العامة: عانى الإمام أبوحنيفة- رحمه الله تعالى- من عدوان بعض العامة عليه؛ إذ كان يقابل شططهم بالحلم والرد الجميل، فيصبّر نفسه على تحمل أذاهم؛ ومن ذلك:

أن رجلاً دخل عليه وهو في مسجد الخيف فسأله عن مسألة فأفتاه، فقال الرجل: قال الحسن البصري: كذا وكذا، فقال أبوحنيفة: أخطأ الحسن، فجاء رجل أحمر الوجه، فقال: يا بن الفاعلة (الزانية)، تقول أخطأ الحسن؟! فهمَّ الناس به، قال أبوحنيفة: أقول: أخطأ الحسن وأصاب ابن مسعود. وقال محمد ابن سليم عن وكيع أخبرنا يزيد بن كميت، سمعت أبا حنيفة – وشتمه رجل واستطال عليه، وقال له: يا كافر، يا زنديق – فقال أبوحنيفة: غفر الله لك، هو يعلم مني خلاف ما تقول . وقال عبدالحميد الحمَّاني: كنت عند أبي حنيفة، فجاءه رجل، فقال: سمعت سفيان ينال منك، ويتكلم فيك، فقال: غفر الله لنا ولسفيان.

(١) المرجع السابق (٢/ ٦- ٧).

٤ – معاناته من الشُّبَه التي كانت تثار ضده: هذه المعاناة بابها طويل، والخوض فيها عويص وشائك، لذا فإننا نكتفي بتعداد تلك الشبهات التي عانى منها الإمام أبوحنيفة نفسياً وعملياً، إلا أنه كان كالطود الأشمّ، فلم يهتز لها علمه ولا سيرته الفذة، وبعد تعداد الشبهات حوله.. نعرج على بعض من الردود باختصار.

أولاً: الشبهات:

أ – أولى الشبهات أن البخاري، ومسلما، وباقي الستة أصحاب السنن لم يخرجوا له، وهو دليل على عدم اعتبارهم له .

ب – وثاني الشبهات كانت بسبب قول البخاري في تاريخه: (أبوحنيفة ضعيف تركوا حديثه).

جـ – وثالث الشبهات: ما أورده الخطيب البغدادي من ذكر كثير من الذين قدحوا في الإمام أبي حنيفة بأسانيد إلى قائليها.

د – ورابع الشبهات، كانت مما نقل من قول بعض رجال الحديث في الإمام مثل النسائي والدارقطني والعقيلي.

هـ – وخامس الشبهات، الادعاء بتقديمه للقياس على النصوص.

و – وسادسها، قولهم: إن الإمام كان يقول بالرأي، بل هو إمام أهل الرأي، وقد ورد في ذم الرأي نصوص كثيرة وهو مقال فيه تدليس على الإمام .

ز – أما السابعة من الشبهات، فهي قولهم: إن أبا حنيفة يقول بالحيلة، التي تضيع الحقوق، وتحرم الحلال وتحلل الحرام، وهذا القول فيه تدليس على العامة أيضاً.

ح – والثامنة من الشبهات، ما قيل من أن أبا حنيفة ينسب إلى الله الجهة، وتلك بدعة وضلالة، وهذا قول ردَّ عليه الإمام بما يفحم قائله.

ثانياً: الردود:

إن معاناة الإمام أبي حنيفة النعمان- رحمه الله- كانت شديدة.. لكن الرد على كل شبهة من هذه الشبهات طويل.. فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الأصول التي حوت تلك الردود بتفصيلها.. أما نحن هنا فإننا نجمل الرد في بيان بعض أسباب تلك الشبهات:

١ – جهل أولئك الذين أطلقوا بعض الشبهات بحال الإمام، وذلك بسبب بعد المكان، أو عدم توفر اللقاء، أو عدم وجود الوسيط العدل ناقل الأخبار، فقد تحامل الأوزاعي على الإمام، وحين أطلعه عبدالله بن المبارك على بعض ما أثير حول أبي حنيفة من كلام.. رجع عن تحامله، ولما التقاه ازداد إعجابه به. وقد أورد الشيخ الجليل محمد أبوزهرة في كتابه عن زيد بن علي بن الحسين، قصة تحامل محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين على أبي حنيفة قبل أن يراه في موضوع القياس.. فلما التقاه في الحرم المكي وراجعه في بعض المسائل.. أجازه وقام فعانقه.

٢ – الحسد.. وهو باب طويل، لا يمكن الخوض فيه، إذ قال العديد من الأئمة في بعضهم البعض أقاويل.. كان منطلقها الحسد.. فقد قيل في البخاري والشافعي وأحمد ومالك، ما لا يصدقه العقل النزيه.. وكذلك كان الأمر مع إمام الفقه أبي حنيفة. ونكتفي هنا بما قاله يحيى بن معين في هذا الأمر، حيث روى الموفق بسنده إلى علي بن الحسين عن أبيه فقال: كان يحيى بن معين إذا ذكر له من يتكلم في أبي حنيفة يقول:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لذميم[(١)]

ثالثاً: المعاصرة والخلاف في الرأي والانحراف:

كلها كانت أسباب في التحامل على أبي حنيفة، ومن أجل أن لا نطيل في الكلام على معاناة الإمام من كل ذلك ننقل قول الثوري رحمه الله: (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة). ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بدر من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات والغضب والشهوات، دون أن يعنى بفضائلهم حرم التوفيق ودخل في الغيبة وحاد عن الطريق، جعلنا الله وإياك ممن يستمع القول، فيتبع أحسنه .

وقد افتتحنا هذا الباب بقوله ﷺ: «**دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء**»[(٢)].

٥ – ما لاقاه من محن في حياته:

– أول ما لاقاه الإمام كان في عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد سنة (١٢٧هـ)، وكانت هذه المحنة من قبل الخوارج عندما دخل الضحاك بن قيس الشيباني إلى الكوفة واحتلها مع فرقته، دخل الضحاك ومعه جماعة من الخوارج على الإمام أبي حنيفة، وطلب منه التوبة من رضاه عن التحكيم (فقد كان الخوارج يكفرون كل من رضي بالتحكيم)، وهذه الاستتابة هي إحدى الشبهات التي تقوَّل بها البعض على الإمام.. إلا أن الإمام بذكائه وسرعة بديهته أنقذ الموقف، حين قال للضحاك مرتين ممّ أتوب؟.. فيعيد الضحاك

(١) مناقب الموفق (٢/ ٩٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، وأحمد (١/ ١٦٤)، وحسنه الألباني.

عليه أمر التوبة، ثم يوضح له ممّ التوبة وأنها من الرضا بالتحكيم . وهنا يقول له الإمام: هل لك أن تناظرني؟ قال: نعم، فقال الإمام: إذ اختلفنا، فمن نجعل بيننا حكماً؟ قال: نجعل فلاناً. فقال له الإمام: أترضى به أن يكون حكماً بيننا؟ قال: نعم. فقال الإمام للضحاك: قد رضيت بالتحكيم، فانقطع الضحاك. وهكذا أنقذ الإمام نفسه ومن معه وإلا فقد كان القتل ينتظره من هؤلاء المارقين وكما وصفهم رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**».

- **أما المحنة الثانية** التي عاناها الإمام فهي أيضاً من الخوارج، وكان معرضاً فيها للقتل منهم. خلاصة ذلك أن فئة من الخوارج دخلوا عليه وقد شهروا السيوف، مستعدين لإعمالها في الرقاب، ومستفتين الإمام قائلين:

بباب المسجد جنازتان: إحداهما لرجل شرب الخمر حتى كظته، وخرج بها فمات، والثانية لامرأة زنت، حتى إذا أيقنت الحبل، قتلت نفسها. وانظر إلى ذكاء الإمام وحسن التدبير وبلاغة القول، وتلمس المخرج الآمن من محنة كان مآلها القتل لو تسرع في الإجابة. فقد رجمهم بالأسئلة حتى برَّد همتهم؛ إذ قال لهم: من أي الملل كانا؟ من اليهود؟ قالوا: لا، قال: فمن النصارى؟ قالوا: لا، قال: أفمن المجوس؟ قالوا: لا. قال: من أي الملل كانوا؟ قالوا: من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. قال: فأخبروني عن هذه الشهادة: أهي من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس؟ قالوا: إن الإيمان لا يكون ثلثاً ولا ربعاً ولا خمساً. قال: فكم هي من الإيمان؟ قالوا: الإيمان كله. قال: فما سؤالكم إيّاي عن قوم قد زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين؟ قالوا: دعنا عنك. أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار؟ قال: أما إذا أبيتم فإني أقول فيهما ما قال

إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وأقول فيهما ما قال عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح عليه السلام إذ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وأقول ما قال نوح عليه السلام: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] وعندما سمع الخوارج هذا ألقوا السلاح[5].

- **وأما المحنة الثالثة:** فكانت مع عمر بن هبيرة والي الكوفة لبني أمية سنة (١٣٠هـ) . إذ امتنع أبوحنيفة عن أن يستلم خاتم الوالي، حيث لا ينفذ كتاب منه إلا بختم أبي حنيفة ومن تحت يده. ولا يخرج من بيت المال مال إلا من تحت يد أبي حنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يقبل أن يضربه، فناشده بعض العلماء ألا يهلك نفسه، فكان ردَّ أبي حنيفة عليهم: لو أرادني أن أعدَّ له أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك، فكيف يريد مني أن يكتب دم رجل يضرب عنقه، وأختم أنا على ذلك الكتاب، فوالله لا أدخل في ذلك أبداً.. فحبسه صاحب الشرطة وضربه أياماً متتالية، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة وقال له: إن

---

(١) إبراهيم: ٣٦.
(٢) المائدة: ١١٨.
(٣) الشعراء: ١١١- ١١٤.
(٤) هود: ٣١.
(٥) من كتاب (أبوحنيفة النعمان) للأستاذ / وهبي سليمان الغاوجي ص٣٢١- ٣٢٢، نقلاً من كتاب أبي حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة ص٢٣.

الرجل ميت، فقال ابن هبيرة.. قل له يخرجنا من يميننا[١]. وهكذا.. كان إصرار أبي حنيفة- رحمه الله- على إخراج نفسه من الوقوع فيما قدره من خطايا قد يقع فيها إذا رضي بأمر الوالي واستلام الخاتم.. نقول: إن إصراره ذلك جعل الوالي يسرحه.. وقد اغتمت أمه لما رأت آثار الضرب على وجهه وجسده، وقالت له: إن علماً أوردك مثل هذا لحريٌّ أن تتركه، فقال لها: لو أردت به الدنيا لوصلت إليها ولكن أردت أن يعلم الله أني صنت العلم، ولم أعرض نفسي فيه للتهلكة[٢].

- **ومحنته مع أبي جعفر المنصور كانت الرابعة** وهي الأشد.. إذ كان أبوحنيفة لا يسكت على ظلم أو خطأ سواء في الحكم أو القضاء.. فقد تكلّم بفعل المنصور مع النفس الزكية (محمد بن عبدالله) الذي خرج على المنصور بالمدينة المنورة، وكذلك ما فعل المنصور بإبراهيم أخي النفس الزكية في العراق عام (١٤٥هـ)، إذ سجنه، ثم قتله. هذا فضلاً عن أحداث كثيرة حدثت في عهد المنصور لا سبيل إلى تتبعها في هذا السياق الذي نحن بصدده، وكذلك بالإضافة إلى تكلمه بحق قضاة الكوفة وقضائهم في بعض القضايا.. وكان يرى خطأ ذلك القضاء، مما أثار القضاة عليه، وجعلهم يرفعون أمره إلى أبي جعفر المنصور.. فقد روى الخطيب البغدادي بسنده أن أبا العباس الطوسي كان سيئ الرأي في أبي حنيفة، ودخل أبوحنيفة على أبي جعفر وكثر الناس، فقال الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة، فأقبل عليه فقال: يا أبا حنيفة، إن أمير المؤمنين يأمر الرجل منا بضرب عنق الرجل، لا يدري ما هو، أيسعه أن يضرب عنقه؟ فقال يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟ قال:

(١،٢) من كتاب (أبوحنيفة النعمان) للأستاذ وهبي سليمان الغاوجي ص٣٢٣- ٣٢٤، نقلاً عن مناقب الموفق (٢/ ١٢).

بالحق. قال: أنفذ الحق حيث كان ولا تسل عنه، ثم قال أبوحنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقني فربطته[١].

وكان ما كان من معاناته الشديدة مع الخليفة أبي جعفر المنصور، بعد أن دعاه لاستلام القضاء، وقد لخص الإمام أبو زهرة قصة أبي حنيفة مع أبي جعفر بما يلي: دعا أبو جعفر أبا حنيفة ليتولى القضاء فامتنع، فطلب إليه أن يرجع إليه القضاة فيما يشكل عليهم ليفتيهم فامتنع، فأنزل به أبو جعفر العذاب بالحبس والضرب أو الحبس وحده على اختلاف في الروايات. وأضاف الشيخ أبوزهرة أنه يميل إلى رواية ابن البزازي[٢] الذي قال في آخرها: إنه بعد أن حبس أبوحنيفة، وضيق عليه مدة، كَلَّمَ المنصور بعضُ خواصه، فأخرج من السجن ومنع من الفتوى والجلوس للناس، والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن توفي[٣].

وهناك روايات تقول إن السم دس له فمات[٤].

وتوفي أبوحنيفة عام (١٥٠هـ) رحمه الله رحمة واسعة، عن عمر يناهز السبعين عاماً.

رابعاً: مناقبه:

١ – الحرص على العبادة، بل نستطيع القول همّ العبادة، فهذا الحسن بن عمارة يقول وقد فرغ من غسل أبي حنيفة بعد وفاته: (رحمك الله وغفر لك، لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء)[٥].

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٦٦)، نقلاً عن المصدر السابق ص ٣٢٦.
(٢) أبوحنيفة للإمام محمد أبو زهرة، نقلاً عن روايات كتب التاريخ ملخصاً لها وهي: مناقب ابن البزازي (٢/ ١٩)، وتاريخ الخطيب (١٣/ ٢٣٧).
(٣) أبوحنيفة للإمام محمد أبو زهرة (٤٧ – ٥٠).
(٤) مناقب الموفق (٢/ ١٧٤).
(٥) مناقب الموفق (٢/ ١٧٦).

ونكتفي بذكر مناقبه بقول الفضيل بن عياض فيه: (كان أبوحنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه، واسع المال، معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به، صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار، حسن الليل كثير الصمت، قليل الكلام، حتى ترد مسألة في حلال أو حرام، فكان يحسن أن يدلَّ على الحق، هارباً من مال السلطان)[1].

خامساً: فائدة:

من أهم الفوائد المستخلصة من سيرة الإمام أن يتعظ كل داعية بدرس مساوئ الخوض بأعراض الدعاة والإخوان من الذين يزاملونه في العمل الدعوي، وأن يكون المرء حريصاً على أخيه وعرضه وسمعته.. عادًّا عرض أخيه من عرضه، خائفاً من الدخول في باب الغيبة ، وواعياً أن تشويه سمعة داعية ظلماً وزورًا هو إضرار بسمعة الجميع، وفتكٌ بثقة الناس في العمل كله، ونحن اليوم نرى بأم عيوننا أن وسيلة الخوض في أعراض المؤمنين الملتزمين هي طريق المعادين والمخاصمين يهدفون منها لنزع الهيبة عن الدعاة والدعوة، ومن ثم إلى نزع القبول لهم ولما يدعون إليه من النفوس.. سواء أكان ذلك الخوض يخص أعراض الدعاة المعاصرين، أم يخص أعراض الأفذاذ من الصحابة والمتقدمين.. فالحذر الحذر من هذا الداء.. الذي رأينا بعض شرره في ساحات بعض الدعاة اليوم.. وليتق الله من تحدثه نفسه بمثل هذا، وليعلم أن الشيطان ينزغ بين الإخوان أحياناً.. فليكن الجميع على علم بما في ذلك من إضرار بالخائض نفسه أولاً.

(١) المصدر السابق .

المبحث الثاني
معاناة الإمام مالك بن أنس
رحمه الله (٩٣ – ١٧٩ هـ)

أولاً: الإمام في سطور:

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي اليمني ينتمي إلى قبيلة (ذو أصبح) اليمنية. وأمه العالية بنت شريك الأزدية اليمنية الأصل أيضاً. وهو يكنى بأبي عبدالله، وكان مولده على الأرجح عام (٩٣ هـ) (١).

– يصفه تلميذه (مطرف بن عبدالله) فيقول: كان مالك بن أنس طويلاً، عظيم الهامة، أصلع، أبيض الرأس واللحية، شديد البياض، يميل إلى الشقرة، ولباسه الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويراه من الْمُثَل (تغيير الخلقة).

– نشأ في بيت علم (علم الأثر) وفي بيئة المدنية العلمية، جدّه (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين وعلمائهم، فقد روى عن عمر بن الخطاب، وعثمان ابن عفان، وطلحة بن عبيدالله وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنهم، وروى عنه بنوه (أنس أبومالك الإمام)، و(ربيع) و(نافع) بن أبي أنس بن مالك بن أبي عامر المكنى أبوسهيل وعُدَّ من شيوخ الزهري . وأخوه (النظر) كان ملازماً للعلماء وكان بداية أشهر من مالك، حتى إذا ظهر مالك بعلمه الغزير.. فاق

(١) يقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (مالك): اختلف العلماء في مولده .. ونحن نختار عام ٩٣ لمولده لشهرته، ولما روى عن مالك في كتاب (تزيين الممالك) صفحة (٧) أنه قال: (ولدت سنة ٩٣ هـ). وقد نقض الأستاذ أبو زهرة فكرة أن أمه حملت به ثلاث سنوات.. فارجع إلى كتاب (مالك) صفحة (١٩) لتجد تفصيل ذلك عنده.

أخاه وأصبح (النظر) يقال عنه أخو مالك[١].

وهكذا كان كل ما حول مالك من أسرة وبيئة مدنية تبني اتجاهه نحو الحديث والفتيا والعلم بهما، وحسن الضبط والحفظ .

ثانيا: معاناة الإمام مالك:

١ – معاناته في طلب العلم:

أخذ عن (ربيعة الرأي) فقه الرأي الموافق لوقائع الناس ومصالحهم وليس القياس وتفرعاته ومناطاته[٢]، وعن ابن هرمز الرد على أهل الأهواء.. وقد انقطع إلى ابن هرمز العالم الكبير في المدينة سبع سنين أو أكثر.. كما ورد في العديد من الروايات.. فلم يكن مالك يختلف إلى غير ابن هرمز أبداً خلال خلال هذه المدة.. لدرجة أنه تطبع بعلمه.. ثم بعد ذلك بدأ يختلف إلى غيره، مع عدم تركه لابن هرمز. ومن معاناته في طلب العلم، أنه كان يجلس بباب ابن هرمز الزمن غير القصير حتى يؤذن له.. إذ يروى أن ابن هرمز قال لجاريته يوماً من بالباب..؟ فلم تَرَ إلا مالكاً، فرجعت، فقالت: ما ثمّ إلا ذلك الأشقر. فقال ادْعِه، فذلك عالم الناس، وكان مالك قد اتخذ تياناً (في القاموس: التيان كرمان السراويل) محشواً (بالقطن).. للجلوس على باب ابن هرمز (منتظراً الإذن) يتقي به برد حجر هناك[٣].

ومن الصور التي تبين معاناته في طلب العلم، تلك الصورة التي رواها بنفسه، إذ قال– رحمه الله: «كنت آتي نافعاً نصف النهار، وما تظلني الشجرة من الشمس، أتحين خروجه، فإذا خرج، أدعه ساعة، كأني لم أره، ثم أتعرض له،

---

(١) من المرجع السابق صفحة (٢٣).

(٢) المدارك ص ١٢١، ومالك لأبي زهرة ص٣٢.

(٣) من كتاب (مالك) المرجع السابق ص ٢٥ نقلاً عن كتاب (المدارك ١ / ١١٦).

فأسلم عليه، وأدعه، حتى إذا دخل (إلى المسجد)، أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه وكان فيه حدة»[١].

ومن معاناة مالك- رحمه الله- في طلب العلم، متابعته لابن شهاب الزهري.. إذ كان يذهب إلى بيته كما كان يذهب إلى بيت ابن هرمز ونافع مولى ابن عمر. وكان يفعل ذلك في العجير، فيترقب ابن شهاب حتى يخرج، ويذهب إليه وقت فراغه من الدرس، يسمع منه الرواية.. فقد روى عنه أنه قال: «قدم علينا الزهري (إلى المدينة)، فأتيناه ومعنا ربيعة (الرأي)، فحدثنا نيفاً وأربعين حديثاً، ثم أتيناه في الغد، فقال: انظروا كتاباً حتى أحدثكم، أرأيتم ما حدثتكم به أمس؟ قال له ربيعة: هاهنا من يرد عليك ما حدثت به أمس. قال: ومن هو؟ قال: ابن أبي عامر. قال: هات. فحدثته بأربعين حديثاً منها، فقال الزهري: ما كنت أرى أنه بقي أحدٌ يحفظ هذا غيري»[٢].

ومن جملة معاناته في طلب العلم.. ما ألزم به نفسه قبل أن يجلس للدرس والفتيا في المسجد النبوي، وهو من هو في العلم والفهم والإدراك والتقوى والورع .. وهذا الذي ألزم به نفسه هو رضا أهل العلم والصلاح من الكبار في الصنعة، فإن رأوه أهلاً لذلك فعل، وقد قال- رحمه الله: «وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك»[٣]. فانظر إلى قوله هذا، وتصور كم من العناء والصبر والمعاناة تحملها الإمام مالك ﷺ حتى حصل على موافاته بتزكية سبعين عالمًا.

(١) الديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٧ / موجود في كتاب «مالك» لأبو زهرة ص ٢٨.
(٢) المدارك ص١١٩. والانتقاء لابن عبد البر ص١٨. عن كتاب «مالك» لمحمد أبو زهرة ص٢٩.
(٣) من كتاب «مالك» للإمام محمد أبو زهرة ص ٣٣.

٢ – معاناته من شظف العيش:

عانى الإمام مالك- رحمه الله- في بداية أمره من عسر الحال وشظف العيش لضيق ذات يده.. حتى وصل به الأمر إلى حالٍ كانت فيها ابنته تبكي من الجوع[١]، فاضطره ذلك إلى نقض سقف بيته فباع خشبه[٢]، ثم مالت عليه الدنيا بعد. فتنعم؛ سكن مسكناً مريحاً، وأكل أطايب الطعام، ولبس أحسن الثياب، وكان يحب من الطعام اللحم مواظباً عليه يومياً.

٣ – معاناته من المرض:

كان درس مالك في المسجد، ثم انتقل إلى بيته، وكان في الأولى يحضر الصلوات والجُمع ويحضر الجنائز، فلما انتقل إلى بيته اكتفى بحضور الصلوات والجمع، ثم لما اشتد مرضه (سلس البول) لم يعد يحضر الصلوات ولا الجمعة ولا الجنائز، وكانت الناس تأتي إليه للفتيا والرواية، وكان ذلك ثقيلاً عليه شديداً ولكنها مشيئة الله تحمل وعانى وصبر حتى مات، وكان ربما قيل له في ذلك فيقول: «ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره»[٣].

٤ – معاناته من الفتن:

أ – رأى مالك بأم عينيه دخول (أبي حمزة الخارجي) المدينة مع سبعمائة من أتباعه عام (١٣٠ هـ)، وعاثوا فيها قتلاً وهتكاً ونهباً، وكانت المقتلة في قريش، فقد كانت فيهم الشوكة، فناله من الحزن والغمّ والعناء الشيء الكثير، خصوصاً أنه كان إمام دار الهجرة (المدينة) والمنظور إليه.. وهو يرى ما دار من

(١) المدارك ص١١٩. والانتقاء لابن عبد البر ص١٨. عن كتاب «مالك» لمحمد أبو زهرة ص٢٩.
(٢) من كتاب «مالك» للإمام محمد أبو زهرة ص ٣٣.
(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب المالكي ص (٢٢) وكتاب «مالك» لأبو زهرة ص ٣٨.

عبث وفساد في حرم الرسول ﷺ وهو الحرم المقدس عنده، الذي كان لا يسير فوق أرضه راكباً أبداً لشدة إحساسه بحرمة ذلك الحرم، وقد نُقل إليه ما حدث في ذلك الحرم من فتنة في واقعة الحرّة حيث استبيحت المدينة، فأُذل أولاد الأنصار، وقيدوا في الأسر، وعلم من شيوخه ما كان قد وقع من استباحة للحرم المكي أيام عبدالملك بن مروان، وذلك في المعركة بين الحجاج وعبدالله بن الزبير.. وقد كان كل ذلك بالإضافة إلى ما أجراه بنو العباس من مجازر عند انتفاضهم على دولة الأمويين، وكان ذلك بانياً لرأي مالك في عدم تأييده للخروج على الحاكم ولو كان ظالماً.. لأن الثورات لم تأتِ بخير ولا إصلاح للحال. وقد أجاب عندما سئل عن قتال الخارجين على الخليفة؟ فقال: «**إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز فلا، فإن لم يكن الخليفة مثله؟ قال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما**»[(١)]. وهو رغم رأيه هذا فإنه لم يكن يدعو إلى ولاة وخلفاء عصره، فهو لا يرى أن سياسة السلطان في عصره هي الحق الصراح، الذي يتفق مع أحكام الإسلام، لكنه يرى أن التغيير قد يكون في صلاح المحكومين أولاً وبموعظة الحكام الموعظة الحسنة وهي الأولى والأبعد عن الفتن[(٢)]. وقد كان الحسن البصري وهو سابق في الزمن لمالك إذ توفي عام (١١٠هـ) عن تسعين عاماً.. كان يحمل رأي مالك في موضوع الخروج على الحكام وعلى بني أمية بالذات، ولعل مالكاً قد أخذ الرأي عن الحسن.. والله أعلم[(٣)].

ب – تعرض الإمام مالك لمحنة في عام (١٤٦هـ)، في عهد أبي جعفر

---

(١) من كتاب «مالك» للإمام محمد أبو زهرة ص ٥٤، نقلاً عن ضحى الإسلام.
(٢) المرجع السابق ص ٥٤.
(٣) المرجع السابق ص ٥٦.

المنصور، وكان سبب تلك المحنة في أصح الروايات التاريخية هو تحديثه بحديث: «**ليس على مستكره طلاق**» وقد حدث بهذا الحديث أيام خروج (محمد بن عبدالله بن حسن النفس الزكية) على المنصور وكان محمد والياً على المدينة. فاتخذ الخارجون من الحديث دليلاً على صحة نقضهم لبيعة المنصور والخروج عليه، واتخذ الشانئون لمالك من روايته للحديث في ذلك الظرف فرصة للكيد له والوشاية به لدى والي المدينة «جعفر بن سليمان»، بأن مالكاً يحرض على نقض بيعة المنصور، ويدعو إلى بيعة محمد بن عبدالله.. وقد ضُرب مالك بسبب ذلك من قبل الوالي وقيل بأمر المنصور.. لكن اعتذار المنصور من مالك في موسم الحج التالي للمحنة، وحلفه له بالله أنه لم يأمر بذلك، ولم يعلم به، ولما علم به حبس الوالي. ومما قاله المنصور لمالك في ذلك وهو من رواية مالك نفسه: لما دخلت على أبي جعفر، وقد عهد إليّ أن آتيه في الموسم، قال لي: (والله الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان).

ثالثاً: فائدة:

إن سيرة حياة الإمام مالك تلقي ضوءًا على قضية جدلية، ما تزال حتى يومنا هذا، تثير الكثير من الكلام، والكثير من الاختلاف.. وهي قضية الخروج على الحاكم الظالم.. وإن وجهة النظر التي قدمها الإمام مالك رحمه الله، المتمثلة في معارضته للثورة والخروج، كانت بنت الخبرة والتجارب الميدانية، إذ ثبت- كما يقول هو- أن كل تلك الثورات لم تأتِ بخير أو تغيير نحو الأفضل، في تطبيق الإسلام أو التعامل مع الرعية، وهو الذي نقل إليه ما وقع في واقعة الحرّة، وفي حروب الخوارج، وفي خروج بعض الصالحين، وكيف أن كل الثورات كانت تؤدي إلى القتل والمجازر والاستباحة للمدن

وانتهاك للمقدسات، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستمرار في المنهج المتفرد للحكم بلا تغيير، وكان من تلك الطبعات خروج العباسيين على الأمويين وما سببه ذلك الخروج من فظائع ودماء واستباحة، ثم كان ما كان من استمرار النهج بعيداً عن الشورى وعن مشاركة الرعية، لذلك فقد اتخذ الإمام اجتهاداً في القضية خلاصته: رفض الخروج والثورة، واتباع طريق إصلاح الناس حتى يخرج من بينهم الحاكم الصالح، وإلى أن يحين ذلك تتبع الموعظة الحسنة مع الحاكم للتعديل أو التخفيف من غلوه وبعده عن العدل.. فلينظر دعاة العصر والناس جميعاً في هذا الاجتهاد دراسة واستفادة .

سادساً: مكانته وأصوله وكتابه «الموطأ» :

إذا ذكر الإمام مالك ذكر معه (الموطأ) .

- أطلق على الإمام مالك: عالم المدينة وإمام دار الهجرة.

- ذهب صيته كل مذهب واتجاه، فهرع إليه أهل العلم من مختلف بقاع الأرض.

- عُرف بالفقه والحديث وأصوله: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وزاد عليها: عمل أهل المدينة، والمصالح المرسلة.. وهذه الثانية قال بها أكثر الأئمة، وعمل أهل المدينة المجمعين عليه المتوارث العمل به جيلاً بعد جيل حتى يصل إلى عهد الرسول ﷺ. هذا العمل أقوى عنده من حديث الآحاد، إذ إن عملهم مرجح على الآحاد عنده .

- استدرك عليه في ذلك (عمل أهل المدينة) كلٌّ من الليث بن سعد فقيه مصر، الذي استدرك عليه سبعين سنداً، ترك الأخذ بها، وهي في موطئه. ولم يوافقه الأئمة والعلماء من بعده على هذا، وقد ناقشه في ذلك الإمام الشافعي،

كما تتالى العلماء في الردّ عليه. وكان من أشهر هؤلاء ابن حزم الأندلسي في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»، وكذلك في «المحلى» .

- أكثر ما عرف به الإمام مالك كتابه الموطأ.. الذي ألفه بطلب من الخليفة المنصور، وقد روى السيوطي سبباً لتسمية الكتاب بالموطأ – رواه على لسان مالك – إذ قال: «عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ». وكان المنصور قال له: دون كتاباً جامعاً في العلم، وتجنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس، ووطئه للناس.. فسمي الكتاب الموطأ. وقد جاء إليه الرشيد في موسم الحج، ومعه أولاده، وسمعه منه، ورغب أن يعلقه في الكعبة، ويحمل الناس على العمل بما جاء به، فأجابه رحمه الله: «لا يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل مصيب». فعدل الرشيد عن ذلك. ورواه أبو نعيم في الحلية[1].

- من أشهر الأئمة الذين سمعوا الموطأ من مالك مباشرة: الأوزاعي، والشافعي، ومحمد بن الحسن، ورواية محمد له، هي إحدى الروايات المشهورة والمعتبرة.

- اختلفوا في مكانة الموطأ:

قال قوم: إنه مقدم على الصحيحين لمكانة الإمام مالك، ولما عُرف عنه من التثبت والتمحيص، وحسبك أنه ألفه في أربعين سنة- كما ذكر السيوطي في مقدمة شرحه للموطأ- عن الأوزاعي قوله هذا. وهذا رأي جمهور المالكية، وذهب إليه ابن العربي ودافع عنه . ومنهم من جعله والصحيحين في درجة واحدة.. ومن هؤلاء «الدهلوي» في حجة الله البالغة. ومنهم من رأى مرتبته دون مرتبة الصحيحين، وهو رأي جمهور المحدثين، إذ يقول ابن حجر

(١) منهاج الصالحين، ص ٩٨٨ – ٩٨٩.

العسقلاني: «إن كتاب مالك صحيح عنده، وعند من يقلده، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع وغيرهما». وقد عرفت عدم اعتداد المحدثين بالمرسل والمنقطع، وما عدا المتصل، فلا جرم أن كانت مرتبة الموطأ عندهم دون مرتبة الصحيحين .

- اهتم العلماء بالموطأ شرحاً وتخريجاً.. شرحه منهم «ابن عبد البر» (٤٦٣هـ)، كما شرحه الحافظ أبوبكر محمد بن العربي (٥٤٣هـ)، والجلال السيوطي (٩١١هـ)، والزرقاني المالكي (١١٢٢هـ)، والدهلوي (١١٨٠هـ)، واللكنوي (١٣٠٤هـ) في كتابه «التعليق الممجد على موطأ الإمام مالك»[١] .

- كما أن الكتاب اختصره كثيرون مثل: «الخطابي ٣٨٨هـ» و«ابن رشيق القيرواني ٤٦٣هـ».. مما يدل على أهمية الكتاب وفوزه بالعمل به عند كثيرين وأكثرهم من أتباع المذهب المالكي[٢] .

- اختلف في عدد الأحاديث الموجودة في الموطأ باختلاف نسخ الكتاب ومن أشهر تلك النسخ، (موطأ محمد بن الحسن)، الذي نال شهرة عظيمة وبخاصة في الهند وفي بلاد الحرمين، وقد بلغ ما فيه من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم. مسندة ومرسلة ومنقطعة (١١٨٠)[٣] .

رحم الله الإمام مالك.. وجزاه عن المسلمين ودينهم خير الجزاء . فقد اجتهد وأوغل في الاجتهاد لخدمة دين الإسلام وأصوله، كما لم يجتهد الكثيرون. فالله نسأل أن يجزل له الجزاء الحسن، ويلحقه بالأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

(١،٢) مصدر سابق ص ٩٩١.

(٣) مصدر سابق ص ٩٩٠.

المبحث الثالث
معاناة الإمام الشافعي رحمه الله (١٥٠ هـ/ ٢٠٤ هـ)

أولاً: الشافعي في سطور:

كانت ولادته في غزة، على أرجح الروايات وبرأي جمهرة المؤرخين من الفقهاء.. وكان ذلك عام (١٥٠هـ).. أي العام الذي توفي فيه أبو حنيفة النعمان رحمه الله.. وقد ولد من أب قرشي مطلبي؛ إذ إن الكثرة العظمى من مؤرخي الفقهاء قالت بذلك وفصّلت نسبه كما يلي:

اسمه: محمد، بن إدريس، بن العباس، ابن عثمان، بن شافع، بن السائب، ابن عبيد، بن عبد يزيد، بن هاشم، بن المطلب، بن عبد مناف، فهو يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف، والمطلب أحد أبناء عبد مناف الأربعة وهم: المطلب، وهاشم، وعبد شمس جد الأمويين، ونوفل جدّ جبير بن مطعم، والمطلب هو الذي ربّى عبدالمطلب ابن أخيه هاشم جدّ رسول الله ﷺ[(١)].

ثانياً: معاناته:

١ – وهو طفل:

نشأ الشافعي يتيماً، إذ مات أبوه وهو طفل صغير، فاحتضنته أمه، وهي التي نقلته إلى مكة، وهو ابن عامين. وبهذا فقد عاش طفولة فقيرة يكتنفها اليتم، وقد حفظ القرآن الكريم وهو بعد طفلاً صغيراً. ثم اتجه إلى الحديث وحفظه بتشجيع من أمه، وكان يحفظ الحديث سماعاً ثم يكتبه بعد ذلك. وهذا مع حفظه القرآن سريعاً وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على ذكاء وألمعية وقوة

(١) الشافعي لمحمد أبو زهرة ص١٤.

حفظ وضبط، ثم لما رأى العجمة تتسرب إلى لغة الناس بالاختلاط مع الأعاجم، توجه إلى العناية باللغة، فرحل إلى البادية ولازم (هذيلاً) مدة عشر سنين كما ذكر ابن كثير في إحدى رواياته.. وهناك في البادية، تعلم كلام هذيل وطبعها، وقد كانت آنذاك أفصح العرب، ومن هنا كان أدبه وشعره وحفظه لأشعار الهذيليين وأخبارهم.. وقد قال الأصمعي في هذا، صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له (محمد بن إدريس)[1]. فكل ذلك عاناه الشافعي وهو بعد طفلاً ثم فتىً يافعاً.

٢ – معاناته في طلب العلم والرزق:

انقطع الشافعي بمكة لطلب العلم مع ما يعانيه من فقر وشظف العيش، وهو بلا عمل يرتزق منه. إلا أنه بانقطاعه هذا بلغ مبلغاً عالياً في العلم لدرجة الإذن له بالفتيا من قبل (خالد بن مسلم الزنجي).. ولما وصله خبر مالك في المدينة وما بلغه من علم وقدر عظيم فيه، استعار الموطأ.. فلم يكن يملك شراءه وقرأه ثم حفظه، ثم غادر مكة إلى إمام دار الهجرة في المدينة مصطحباً معه كتاب توصية من والي مكة إلى والي المدينة، وهناك لازم مالكاً حتى مات عام ١٧٩ هـ، وكان الشافعي حينئذٍ في شرخ الشباب ومع ملازمته لمالك، فقد كان يوظف وقته، فينتقل من مكان إلى آخر طلباً للاستزادة، ومن الاطلاع على العلم ومعرفة أحوال الناس وتغير الظروف، وكل هذا كان يفعله وهو فقير الحال، موارده ضئيلة، وقد رأينا كيف أنه اضطر لاستعارة كتاب الموطأ. وعندما أراد أن يتدبر عملاً، كلَّم بعض القرشيين والي اليمن، وكان في مكة من أجل أن يصطحب الشافعي ويوليه عملاً في ولايته.. وهنا يقول الشافعي: لم

(١) المصدر السابق ص ١٨ – ١٩.

يكن عند أمي ما تعطيني ما أتحمل به، فرهنت داراً، فتحملت مع الوالي، فلما قدمنا عملت له عملاً[١].

٣- معاناته ومحنته مع والي اليمن:

وسبب ذلك هو أن الشافعي تولى عملاً في نجران فأقام العدل وقضى على النفاق ومصانعة العمال للوصول الى المآرب الخاصة، وكان في نجران والٍ ظالم غشوم، حاول الشافعي بطريقته منع مظالمه عن الناس، فوجه إليه النقد الشديد.. فكان أن حقد عليه الوالي، وسعى به بالوشاية والدسيسة لدى الخليفة العباسي.. بتهمة «العلوية»، وكان بنو العباس يقتلون بهذه التهمة بالشبهة دون الإثبات، فأرسل إليه الخليفة هارون الرشيد ليحضر إليه مع تسعة من الرجال اتهمهم والي نجران برسالة إلى الرشيد بأنه يخشى من خروجهم لأنهم علويون، وقال عن الشافعي: إن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي، لا أمر لي معه ولا نهي. أو قال: إنه يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه.. وقد ذكر الشيخ أبو زهرة صاحب كتاب (الشافعي) أن الرواة قالوا: إن الرشيد قتل التسعة، وقد نجا الشافعي بقوة حجته، وشهادة الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة.

أما قوة حجته فكانت بقوله للرشيد وقد وجه إليه التهمة بين النطع والسيف: يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب إليّ؟ قال الرشيد الذي يراه أخاه. قال فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم.

---

(١) الشافعي للشيخ محمد أبو زهرة ص١٩-٢١.

وأما شهادة محمد بن الحسن، فذلك لأن الشافعي استأنس لما رآه في مجلس الرشيد عند الاتهام؛ إذ إن العلم رحم بين أهله، فذكر بعد ما ساق ما ساق أن له حظاً من العلم والفقه، وأن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك، فسأل الرشيد محمداً، فقال: له حظ من العلم حظ كبير، وليس الذي رفع عليه من شأنه، قال الرشيد: فخذه إليك، حتى أنظر في شأنه، وبهذا نجا الشافعي. وقد حدث ذلك عام ١٨٤ هـ. حين قدم الشافعي إلى بغداد مطلوباً من الرشيد[1].

٤ – معاناته في وضع الأصول:

لما رأى الشافعي اختلاف الأنظار، وتشعب الآراء، ونوعين من الفقه: فقه العراق، وفقه المدينة- وجد أنه لا بد من وضع مقاييس لمعرفة الحق من الباطل، أو على الأقل ما هو أقرب للحق. وهنا فكر في استخراج قواعد الاستنباط. وقد خصص قدومه إلى مكة ومكوثه بها تسع سنوات، بعد أن أمضى مدة لا بأس بها في العراق اطلع فيها على فقه أهله.. خصص ذلك المكوث من أجل الانصراف إلى وضع كتاب في قواعد الاستنباط.. وهي مهمة تحتاج إلى تأمل عميق وبحث دقيق، ونظر ثاقب لاستخراج مثل تلك القواعد من بطون الكتب، ومن الرجوع إلى الكتاب والسنة، بعد تنقيح السنة، وبيان طرق الاستدلال بها، وتعيين مقامها من القرآن، وبعد معرفة ضوابط الاجتهاد، وكيف تبنى الأحكام إذا لم يكن في الكتاب والسنة نص.. وإذن فقد عانى الشافعي من ذلك، وطال مكوثه في مكة، إلى أن تسنى له بالصبر والبحث الطويل العميق والمعاناة من صعوبة المهمة أن يخرج على الناس بشيء

(١) الشافعي للشيخ محمد أبو زهرة ص٢٢-٢٣. وصاحب الكتاب نقل عن ابن حجر في توالي التأسيس وعن معجم الأدباء لياقوت، وعن مناقب الشافعي للرازي.

من مهمته يمكن نشره وعرضه. وقد لاقى مؤلفه ذلك قبولاً وإقبالاً كبيرين في بغداد. ومن بعد.. عندما رجع إلى بغداد، عانى من جديد في وضع كتابه الفذ (الرسالة) الذي كان الأساس لعلم أصول الفقه .

وقد دخل في هذه المعاناة أيضاً ما جره عليه من تعب ومصاعب قيامه بنقد أستاذه مالك في منهجه وليس بشخصه.. إذ أثار عليه ذلك أتباع مالك في مصر، ووصل بهم الأمر إلى التماس إخراجه من مصر لدى السلطات هناك . وتقول بعض الروايات (الله أعلم بصحتها): إن سبب وفاة الشافعي هي قيام أتباع مالك بضربه في حلقته في المسجد، إلا أن أغلب الروايات تقول: إن سبب وفاته النزف الشديد من البواسير[١] .

كما أنه عانى من مصاعب الجدل مع أتباع أبي حنيفة وأهل الرأي في العراق مناصراً أهل الحديث ضدهم.. وكان أهل الحديث لا يجيدون الجدل والمناظرة، في حين أن الشافعي كان عالماً في الحديث، وفي الوقت نفسه مجيداً للمناظرة والجدل، قوي الحجة، عارفاً بآداب النظر والجدل فصيح الكلام، قادراً على قهر الخصوم بالحجة القوية الظاهرة . وهو بهذا أوقف تفوق أهل الرأي على أهل الحديث، ولكنه بذلك فتح على نفسه باباً من المعاناة [٢] .

ثالثاً: علمه:

نكتفي هنا باقتباس ما قاله الربيع بن سليمان عن الشافعي ـ رحمه الله ـ ونقله عنه صاحب كتاب (الشافعي) وهو كافٍ لبيان مدى اتساع علمه ومدى تقديره من أهل العلم . قال الربيع: «كان الشافعي ـ رحمه الله ـ يجلس في حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل

(١) معجم ياقوت.. نقله الشيخ أبو زهرة في كتابه (الشافعي) ص ٣٢-٣٣.

(٢) الرازي (مناقب الشافعي).. نقله المصدر السابق ص ٣٢.

الحديث، فيسألونه تفسيره ومعانيه فإذا ارتفعت الشمس قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار»[(١)].

رابعاً: مناقبه ومواهبه:

كان الشافعي في الذروة من المواهب والمناقب من بين قادة الرأي والفكر . ومن بين مواهبه التي صنعت مناقبه الكبرى:

١ – قوة مداركه: فقد كانت قواه العقلية عالية، وكان حاضر البديهة، تنثال عليه المعاني انثيالاً عندما يحتاجها، وكان عميق الفكرة، واضح العبارة فصيحها.

٢ – وكان قوي البيان، فصيح اللسان، بليغ العبارة، ذات صوت عميق التأثير، يعبر بنبراته التعبير المناسب للكلام، فاقت مشافهته كتابته، مع ما كانت عليه كتبه من جودة التعبير وحسن التصوير للفكرة، على حد قول ابن أبي الجارود، الذي جاء في كتاب تاريخ بغداد [(٢)] وقد وصفه ابن راهويه: بخطيب العلماء.

٣ – وكان الشافعي ذا بصيرة عالية في معرفة الرجال وأحوال الناس، وهو ما كان يساعده في تنويع بيانه حسب مقتضى الحال على صورة عالية من التأثير.

٤ – وقد وهبه الله صفاء نفس عالياً، وإخلاصاً لله خالياً من شوائب الدنيا وإغراءاتها، ما جعله صادق التعبير عن الحق، جريء المواقف، لا تأخذه في الله لومة لائم مع حكمة ونظر حصيف.

(١) كتاب الشافعي للشيخ محمد أبو زهرة ص٣٥.
(٢) نقلاً من كتاب الشافعي للشيخ محمد أبو زهرة ص٣٧ بتصرف.

خامساً: ما يستفاد من سيرة الشافعي:

بعد الاطلاع على سيرة هذا الإمام الفذ لا بد من القول: إن هناك في هذه الحياة القصيرة للشافعي (٥٤) عاماً عبرة هامة جديرة بأن تثبت هنا، لما فيها من عظيم القدوة، خلاصة هذه العبرة تقول: إن تعدد الهيئات في الحراك الإسلامي، لا يكون مفيداً، إلا إذا حملت الجماعة أو الفرد الجديد في هذا الحراك إضافة معتبرة وصادقة وعملية ومجددة.. وإلا فإن تكثير الهيئات والفصائل بدون هذه الإضافة، قد يكون وبالاً، تتناحر فيه الهيئات على الأمور الشخصية والأنانيات، والعصبيات.

فالشافعي رحمه الله.. جاء بالجديد الفذ، من تنظيم وتأصيل للفقه، وضبطٍ للرأي والفتيا والقضاء بالأصول (كتاب الرسالة)، صحيح أن ما جاء به من إضافة في الساحة كان علماً مطروحاً من قبل، ولكنه كان متناثراً هناك وهناك، وغير مكتمل الوجوه، وغير موصوف علمياً، وغير مصاغ بشكل منهجي.. وقد أجاد الشافعي فيما توجه إليه، وأثبت تلك الإضافة علامة على علو الهمة، وعلى مراد فيه يبتغي خدمة الأمة، وعلى علم ذي شأوٍ بعيد في التنظيم ومنهجة الموضوع، وبذلك كله استحق الشافعي بجدارة أن يفرض وجوده مذهباً ينضم إلى الموجود، بخدمة لم تكن موجودة بمنهجية علمية تذكر . وإذن فلم يكن وجود هذا المذهب أو هذه (الحركة) كما يسمونها في عصرنا عبئاً على الساحة، بل كان وجودها، تجديداً وتنظيماً، ومنهجة، بها أصبح كل من جاء بعد الشافعي عالة عليه في هذه الإضافة.. التي أفاد منها الحراك العلمي الإسلامي والساح الحركي أشدّ الفائدة.. فهل نتعظ في عصرنا الحاضر بهذا فنغلق باب التعدد غير المفيد، بل هو تعدد في جله يحمل بعض الهوى أو الأهداف المريبة، والله أعلم .

سادساً: مكانته العلمية والدعوية:

- أكرمه الإمام مالك لما رأى فيه من الذكاء وقوة الذاكرة، والنباهة المبكرة، فوصله الإمام لكل ذلك، وتوقع له مكانة في العلم كبيرة .. وكان لقاؤه معه والشافعي يافعاً [(١)].

- كان له اتصال وثيق بالإمام محمد بن الحسن الشيباني في بغداد . وقد أوردنا قصة تبين كيف التقيا. وأخذ الشافعي عن الإمام محمد كتبه وعلمه، والإمام محمد تلميذ أبي حنيفة. وقد قال الشافعي عن ذلك: «خرجت من بغداد وقد حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير».

- سافر إلى مصر للاستزادة في العلم.. وهناك دوّن مذهبه الجديد.. وظلّ فيها إلى أن توفي عام ٢٠٤ هـ بعد أن ملأ الدنيا علماً واجتهاداً، وجمع حوله أفذاذ الطلاب في مصر والعراق .

- وضع قواعد الرواية، واقترب من أهل الحديث، ودافع عن السنة دفاعاً مجيداً، وخالف مالكاً في رأيه الذي يقول: إن الحديث إذا صح بالسند المتصل إلى النبي ﷺ لا يعمل به إلا إذا وافق عمل أهل المدينة.. إذ رفض الشافعي هذا الشرط.. وقال بالعمل بالحديث المذكور دون اشتراط التوافق مع عمل أهل المدينة. كما رفض شروط أبي حنيفة المتعددة للعمل بالحديث.. لذلك سموه (ناصر السنة).

- ومن الأدلة على سعة علمه وضبطه ومنهجته للعلم كتابه (الأم) وكتابه (الرسالة). وفي الحق: إن «رسالته» وكتابه «الأم» من أثمن ما ألفه العلماء دفاعاً عن حجية السنة، ومكانتها في التشريع بأسلوب قوي جزيل،

---

(١) من كتاب د. عزالدين بليق (منهاج الصالحين) ص٩٩٢.

وأدلة دامغة قاهرة، ولا ينكر كل من كتب في مصطلح الحديث وفي علوم السنة والكتاب من علماء الأصول، أنه مدين للشافعي فيما كتب، ومن هنا كان صحيحاً ما قاله الإمام محمد بن الحسن الشيباني: «إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي» وما قاله الزعفراني: «كان أصحاب الحديث رقوداً فأيقظهم الشافعي». وقال فيه أحمد بن حنبل: «ما أحد مسّ بيده محبرة وقلماً إلا للشافعي في رقبته منة». كما قال أيضاً: «ما علمنا المجمل من المفسر، ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه، حتى جالسنا الشافعي» وقال الكرابيسي: «ما كنا ندري ما الكتاب والسنة حتى سمعناه من الشافعي. وما رأيت مثل الشافعي، ولا رأى الشافعي مثل نفسه، وما رأيت أفصح منه وأعرف».

- أما منهجه فهو الكتاب والسنة والقياس والإجماع.. والأخذ بخبر الآحاد على خلاف أبي حنيفة ومالك، ويرفض العمل بالمرسل إلا مرسل كبار التابعين، كسعيد بن المسيب. كما أن من أصوله الاستصحاب.. الذي أخذ به الحنفية في الدفع لا في الإثبات . لم ينقل عنه في الحديث كتاب مستقل إلا «مسند الشافعي» رواية أبي العباس الأصم، و«سنن الشافعي» رواية الطحاوي، ويبدو أنها من استخراج تلاميذه.. فهو إمام مجتهد يبحث في السنة عن كل ما يمكن أن يكون أصلاً من أصول التشريع، فهو يطلبه ليكون نواة لاجتهاده وفقهه، لا ليملأ به الكراريس[١]، رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه. وجعله مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

(١) من كتاب د. عزالدين بليق (منهاج الصالحين) ص ٩٩٣،٩٩٤.

المبحث الرابع
معاناة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله

أولاً : الإمام أحمد في سطور:

ولد الإمام أحمد بن حنبل في بغداد في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤هـ . وكان والده قائدًا في جيش خراسان، أما جده فكان واليًا للأمويين في بلدة تسمى (سرخس) تابعة لبلاد خراسان، وحين بلغ الإمام أحمد رحمه الله من العمر ثلاث سنوات توفي والده، فنشأ يتيمًا، تكفله أمه وترعاه، وتقوم على تربيته والعناية به، وعاش أحمد عيشة فقيرة، فلم يترك له والده غير منزل ضيق، مما دفعه إلى العمل وهو طفل صغير، فكان يلتقط بقايا الزروع من الحقول بعد استئذان أهلها، وينسج الثياب ويبيعها، ويضطر في بعض الأوقات أن يؤجر نفسه ليحمل أمتعة الناس في الطريق، وكان ذلك عنده أفضل من أن يمد يده إلى غيره.

ثانياً : معاناته في طلب العلم:

حفظ أحمد القرآن الكريم، ولما بلغ أربع عشرة سنة، درس اللغة العربية، وتعلم الكتابة، وكان يحب العلم كثيرًا، حتى إن أمه كانت تخاف عليه من التعب والمجهود الكبير الذي يبذله في التعلم، وقد حدث ذات يوم أنه أراد أن يخرج للمكان الذي يتعلم فيه الصبية قبل طلوع الفجر، فجذبته أمه من ثوبه، وقالت له: يا أحمد انتظر حتى يستيقظ الناس .

ومضت الأيام حتى بلغ أحمد الخامسة عشرة من عمره، فأراد أن يتعلم أحاديث رسول الله ﷺ من كبار العلماء والشيوخ، فلم يترك شيخًا في بغداد

إلا وقد استفاد منه، ومن شيوخه: أبو يوسف، وهشيم بن مشير.

وفكَّر أحمد أن يطوف ببلاد المسلمين، ليلتقي بكبار علمائها وشيوخها، لينقل عنهم الأحاديث التي حفظوها، فزار الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والعراق، وفارس، وغيرها من بلاد الإسلام، فكان في رحلاته إذا لم يجد دابة يركبها يمشي حتى تتشقق قدماه، ليلتقي بكبار العلماء في هذه البلاد، وظل أحمد طيلة حياته ينتقل من بلد إلى آخر، ليتعلم الحديث حتى أصبح من كبار العلماء.

سأله أحد أصحابه ذات يوم: إلى متى تستمر في طلب العلم، وقد أصبحت إمامًا للمسلمين وعالمًا كبيرًا؟! فقال له: (مع المحبرة إلى المقبرة)؛ ومعنى ذلك أنه سيستمر في طلب العلم إلى أن يموت ويدخل القبر. ولم يكن في عصره أحد أحفظ منه لحديث رسول الله ﷺ، حتى سَمَّوْه (إمام السنة وفقيه المحدثين) وقالوا: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث!! شملت المكرر من الحديث والآثار، وفتوى التابعين ونحو ذلك.

وبعد أن تعلم الإمام أحمد بن حنبل ما تعلم، وحفظ ما حفظ من أحاديث رسول الله ﷺ جلس في المسجد الجامع ببغداد سنة (٢٠٤هـ) وعمره أربعون سنة، ليعلم الناس أمور دينهم؛ فأقبل الناس على درسه إقبالا عظيمًا، فكانوا يذهبون إلى المسجد في الصباح الباكر، ليتخذوا لهم مكانًا يجلسون فيه.

وكان أغلى شيء عند الإمام أحمد بن حنبل ما جمعه من حديث رسول الله ﷺ، لذلك كان يكتبه في أوراق يحفظها في مكان أمين، وقد حدث ذات يوم أن سرق لص منزله، فأخذ ملابسه وكل ما في بيته، فلما جاء الإمام أحمد إلى البيت،

لم يسأل عن شيء إلا عن الأوراق التي يكتب فيها أحاديث رسول الله ﷺ، ولما وجدها اطمأن قلبه ولم يحزن على ما سرق منه. ولم يكن الإمام أحمد بن حنبل مجرد حافظ لأحاديث الرسول ﷺ، بل كان يعمل بها في هذه الأحاديث، فيقول عن نفسه: ما كتبتُ حديثًا إلا وقد عملتُ به، وكان الإمام أحمد زاهدًا في الدنيا، يرضى بالقليل، وكان كثير العبادة والذكر لله .

وقد تعرض الإمام أحمد ﷺ للتعذيب والأذى بسبب شجاعته وإصراره على الحق الذي آمن به. ومن أبرز مظاهر تلك المعاناة:

ثالثاً: معاناته في قضية خلق القرآن:

١ – مع المأمون: ومواجهة لفتنة القول بخلق القرآن: إذ شهدت حياة الإمام أحمد- رحمه الله- ولاية (المأمون) بن هارون الرشيد، الذي مال إلى رأي المعتزلة بالقول: إن القرآن مخلوق، وأيده ودعا الناس إليه، بل وامتحنهم عليه مهددًا متوعدًا، فأجابه إلى ما طلب علماء كثيرون مكرهين، ولم يبقَ على الحق إلا أقل القليل، في مقدمتهم الإمام أحمد، الذي رأى أن تركه للحق - ولو مكرهًا- في ظل سكوت الجميع؛ يؤدي إلى ضياع الحق، وإضلال عوام الأمة، فأظهر صلابة وشدة في التمسك بالحق مهما كانت عواقب ذلك، ولم يُجِب المأمون إلى ما طلب، فسجنه المأمون، وعذب في السجن .

٢ – مع المعتصم: لم يطل العمر بالمأمون، فجاء من بعده (المعتصم) على نفس منهجه، فضرب الإمام أحمد بين يديه ضربًا شديدًا؛ أشرف به على الهلاك، فلم يتراجع، وناظره علماء المعتزلة، فلم يزد على الاستدلال بالكتاب والسنة، والرد على شبهاتهم المبنية على الخطأ في فهم كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وهو في ذلك لا يلتفت إلى استدلالاتهم العقلية، طالبًا منهم الدليل على ما يدَّعونه من

كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ وهيهات!! ثم سجنه المعتصم، وحبسه حبسًا طويلاً.

٣ – مع الواثق: لما خلف الواثق المعتصم استمر الابتلاء، حيث ألزم الإمام بالبقاء بداره.

٤ – مع المتوكل: فلما تولى المتوكل من بعد الواثق خالف من سبقوه، حيث أطلقه من حبسه بداره، وأظهر القول الحق: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكشف عن الأمة ما كانت فيه من الغمة، وكرَّم الإمام أحمد، وأحسن إليه.

فكان ثبات هذا الإمام الجليل على الحق، وتحمل العذاب الشديد، والحبس الطويل، وتمسكه بمنهج السلف في الاستدلال بالكتاب والسنة، وتقديم النقل على العقل من أسباب تسميته– رحمه الله تعالى– بإمام أهل السنة والجماعة، وهو بهذا الاسم جدير، فجزاه الله عن الأمة خيرًا. ومن معاناته هنا أنه فطم نفسه عن كل ما أقبل عليه من الدنيا، إذ قدمه المتوكل وراح يقدم له الهدايا والمال وهو يعافها.. ويعرض عنها، ويفضل الجوع وشظف العيش على الرفاه.. وهي معاناة شديدة في الحقيقة. وأشد منها أن يلتزم العالم التواضع وهو من هو في موقعه لدى الناس وحب الجماهير له والهتاف باسمه.

رابعاً: همومه الأخرى:

١ – معاناته من الاهتمام بسمته وخلقه:

ورغم انشغال الإمام أحمد الشديد بالعلم وضيق وقته فإنه كان شديد الاهتمام بمظهره، فقد كان من أنظف الناس بدنًا، وأنقاهم ثوبًا، شديد الاهتمام بتهذيب شعر رأسه، وكان الإمام أحمد يميل إلى الفقراء، ويقربهم منه في مجلسه، وكان حليمًا، كثير التواضع، تعلوه السكينة والوقار، وكان إذا جلس في مجلسه بعد العصر لا يتكلم حتى يُسأل. كما كان ؓ شديد الحياء، كريم

الأخلاق، سخيًّا، وكان مع لينه شديد الغضب لله . وكل ذلك اتباعاً وتطبيعاً لنفسه ليكون على السنة .

٢ – معاناته من أجل تبليغ علمه:

والإمام أحمد مؤسس المذهب الحنبلي أحد المذاهب الفقهية الأربعة، وقد ترك الإمام أحمد كتبًا كثيرة منها: (المسند) وهو أكبر كتبه وأهمها، بل هو أكبر دواوين السنة النبوية، إذ يحتوي على أربعين ألف حديث، وكتاب (الزهد) و(الناسخ والمنسوخ). وقد لقي ما لقي من بعض من يَعْزُونَ إليه قولهم والعلم الذي يدعونه خصوصاً المجسمة، فقد حاول هؤلاء اتهام علم بن حنبل بأنه من علمهم وقولهم هذا، هراء، وقد قال ابن السبكي الإمام: (إمامان ابتلاهما الله بأصحابها وهما بريئان منهم: أحمد بن حنبل ابتلي بالمجسمة، وجعفر الصادق ابتلي بالرافضة)[١].

خامساً : وفاته ومناقبه:

مرض الإمام أحمد ﷺ واشتد عليه المرض يوم خميس، فتوضأ، فلما كانت ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، وفي بغداد صعدت روحه إلى بارئها، فحزن عليه المسلمون حزنًا شديدًا، وصاح الناس، وعلا بكاؤهم، حتى كأن الدنيا قد ارتجت، وامتلأت السكك والشوارع، وأخرجت الجنازة بعد انصراف الناس من صلاة الجمعة، وشيعه ما يقرب من ست مئة ألف إنسان، بالإضافة إلى الذين صعدوا إلى أسطح المنازل ليلقوا نظرة الوداع الأخيرة على الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى[٢].

(١) قاعدة في الجرح والتعديل .. تحقيق وتعليق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله ص١٢–٢٠.
(٢) وفيات الأعيان (١/ ٦٥) وطبقات الحنابلة (١/ ٣).

روى أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي وغيره بإسناده قال: قال الوركاني: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس. وقال الوركاني أيضا: يوم مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنوح في أربعة أصناف من الناس المسلمين واليهود والنصارى والمجوس.

وبإسناده عن أحمد بن شبويه قال: سمعت قتيبة يقول: لولا الثوري لمات الورع، ولولا أحمد بن حنبل لأحدثوا في الدين. قلت لقتيبة: تضم أحمد بن حنبل إلى أحد التابعين؟ فقال: إلى كبار التابعين .

وبإسناده قال إسحاق بن راهويه: سمعت يحيى بن آدم يقول: أحمد بن حنبل إمامنا.

وبإسناده قال محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي: سمعت أبي يقول: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عبيده في أرضه. وبإسناده قال علي بن المديني: أحمد بن حنبل سيدنا[1] .

وفي مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ١٢٤: قال أبو ثور في أحمد بن حنبل: «لو أن رجلاً قال: إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك، وذلك أنه لو قصد رجل خراسان ونواحيها لقالوا: (أحمد بن حنبل رجل صالح). وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالوا: (أحمد بن حنبل رجل صالح). وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا: (أحمد بن حنبل رجل صالح)، فهذا إجماع..».

(١) طبقات الحنابلة (١/ ١٨).

الفصل الرابع

معاناة أتباع الأئمة الأربعة

١ـ ابن حزم الأندلسي

٢ـ أبو حامد الغزالي

٣ـ الإمام النووي

٤ـ الإمام ابن تيمية

٥ـ ابن كثير الدمشقي

٦ـ الإمام السيوطي

٧ـ محمد بن عبدالوهاب

المبحث الأول
معاناة الإمام ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ هـ / ٤٥٦ هـ)

أولاً: ابن حزم في سطور:

ابن حزم في قرنين.. الربع الأخير من القرن الرابع وحتى منتصف القرن الخامس من الهجرة النبوية وكان مولده آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من رمضان ٣٨٤ هـ في قرطبة[١].

كنيته: أبو محمد[٢]، وهو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ابن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد.. وهو فارسي الأصل على رأي معظم من ترجم له وأن جده الأول يزيد هو أول من أسلم[٣]. نشأ ابن حزم في بيت رفاهية، ورزق وفير، ونعومة في العيش، وكان مفرطاً في الذكاء، سيال الذهن، كتب كتباً نفيسة كثيرة. وقد أتيح له متابعة العلم في سن مبكرة في قصر أبيه، حيث كانت المعلمات للقرآن والحديث والشعر والخط فهو يقول عن نفسه: «..وهنَّ علمنني القرآن، وروينني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط»[٤]. ثم بعد السن المبكرة.. جالس الشيوخ.. وكان شيوخه كثراً.

وقد تعلم الفقه وهو ابن ست عشرة سنة على يدي (ابن الجور) وابن (وجه الجنة) وكان ذلك أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وقد أيد هذه

(١) الإمام ابن حزم الظاهري لمحمد أبوصعيليك – دار القلم – دمشق / طبعة أولى ١٩٩٥ ص ١٧ نقلاً عن (الصلة) للصاعد ٢/ ٣٩٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٦ نقلاً عن (الجذوة) ص ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٦ نقلاً عن (الجذوة) ص ١٥، ١٦ والصلة ٢/ ٣٩٥ ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٣٧.

(٤) السير للحافظ الذهبي ١٨/ ١٨٦، ونقله المصدر السابق ص ١٧.

التواريخ في بدء تعلمه الفقه العلامة: محمد أبو زهرة [(١)].

وسافر ابن حزم في طلب العلم إلى كل أنحاء الأندلس.. وتولى مناصب الوزارة أكثر من مرة.. وناله من ذلك محن وإحن.. فقد ولي الوزارة زمن صديقه عبد الرحمن المستظهر ٤١٢ هـ، وتولى الوزارة أيام هشام المعتد ٤١٨-٤٢٢، كما وليها زمن المرتضي في بلنسية[(٢)]. ثم «انصرف من بعد ذلك للدراسة والبحث والكتابة ولنشر آرائه بالمناظرة وبالعلم إن واتته الفرصة، وبالرسائل يسطرها، وبالكتب المبسطة الوجيزة يكتبها»[(٣)].

وكان عصر ابن حزم «عصر علم حقاً في الأندلس، فقد انصرف إليه أمراء بني أمية مجاراة لأولاد عمومتهم العباسيين في المشرق، فذخرت مجالسهم بالعلماء، وامتلأت مكاتبهم بالكتب»[(٤)]. وقد سادت حالة من الخضوع والصَّغَار لأعداء الإسلام حتى دُفعت الأتاوات لطاغية النصارى: «واستقل بأمرها منهم الملوك، واستفحل وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية، أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم»[(٥)].

ثانياً: قالوا فيه:

- «كان فاضلاً في الفقه، حافظاً في الحديث، مصنفاً فيه، وله اختيار في الفقه على طريقة الحديث.. وله شعر ورسائل»[(٦)].

- «ابن حزم الأوحد البحر، ذو الفنون والمعارف، الفقيه، الحافظ، المتكلم،

(١) طوق الحمامة ص ١١٦، ونقله المصدر السابق ص ١٨.
(٢) ابن حزم ص ٣٦، ونقله المصدر السابق ص ٢٠ .
(٣) ابن حزم ص ٤٧، ونقله المصدر السابق ص ٢٣.
(٤) المصدر السابق ص ١٧، ونقله عنه ص ١٤.
(٥) نفح الطيب للمقري ١/ ٤١٣ ونقله عنه ص ١٤.
(٦) الإمام ابن حزم الظاهري، مصدر سابق ص ٢٦.

الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف»[١].

- «كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، ومستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة، التي كانت له ولأبيه من قبله، من الوزارة وتدبير الملك، متواضعاً، ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به في العلوم..»[٢].

ثالثا: علمه ومنهجه ومصنفاته:

- عقيدته في الصفات تقارب عقيدة المعتزلة «فهو يقارب أهل الحديث في الألفاظ ويوافق المعتزلة والفلاسفة في المعاني»[٣]، فهو يقول بأن أسماء الله الحسنى ما عدا الخلق والحق لا تدل على معنى كالرحيم والعليم والقدير.. فهي عين الذات ولا شيء زائد عن الذات: «وهذا عين السفسطة والمكابرة»[٤] وقد لخص ابن كثير عقيدته تلك بقوله:«وكان مع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات، لأنه كان أولاً قد تضلع من علم المنطق»[٥]. وكم ضلل هذا العلم أناساً! وخرب على الإسلام وأهله فكراً؟!

- وأما مذهبه الفقهي.. فقد بدأه بالمالكي.. ثم انتقل منه إلى الشافعي وظلّ عليه زماناً، وأخيراً استقر على مذهب أهل الظاهر، حتى اقترن اسم المذهب باسم ابن حزم أكثر من اقترانه باسم داود الأصبهاني. وبقي على هذا إلى رحيله- رحمه الله- حيث قعَّد أصوله ونافح عنه ونهجه [٦].

(١) المصدر السابق ص ٢٧ ونقله عن السير ١٨/ ١٨٤.
(٢) جذوة المقتبس ص ٣٠٨ ونقله عنه المصدر السابق ص ٢٦.
(٣) ابن تيمية (نقض المنطق) ص ١٧-١٨ بتصرف.
(٤) العلامة محمد بن عبدالهادي (طبقات علماء الحديث) ٣/ ٣٥ ونقله المصدر السابق ص ٣٣.
(٥) البداية والنهاية ١٢/ ٩١-٩٢.
(٦) الذخيرة لابن بسام ١/ ١٣٦-١٤٧، ونقله عنه المصدر السابق ص ٣٦.

- وكان موسوعي الثقافة؛ فهو المفسر، والمحدث، والفقيه، والمؤرخ، والشاعر، والمربي وعالِم الفرق والأديان، والمتكلم المتمنطق. وقد كان كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) أحد كتب قلائل يفخر بها التراث العربي والإسلامي في هذا العصر(١).

ومن مصنفاته: الأصول والفروع، حجة الوداع، جمهرة أنساب العرب، الفصل في الملل والنحل، طوق الحمامة في الألفة والألاف، القراءات المشهورة في الأمصار الآتية مجيء التواتر، المحلى بالآثار شرح المحلى بالاختصار، مراتب الإجماع، تسمية شيوخ مالك، أصحاب الفتيا من الصحابة، الإحكام في أصول الأحكام، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، جوامع السيرة، ونكتفي بهذه النخبة من كتبه.. التي أوصل بعضهم تعدادها إلى ثلاثة وثمانين(٢).

رابعاً: معاناته:

إن كل من يحمل همّ أمته في جيله ووقته، وكل من يبرز للدعوة لدين الله والمنافحة عنه، وإزالة ما اعتراه من بدع المبتدعين، وخرافات القبوريين ومن اتباع للعادات والتقاليد زهداً وجهلاً فيما جاء في الكتاب والسنة.

أقول: إن كل هؤلاء لا بد ممتحنين في نفوسهم وفي أجسادهم وفي سُمعتهم وفي أموالهم وأولادهم.. ومن لا يمتلك الصبر من هؤلاء والجلد والبذل والتضحية والشجاعة والعلم الوافر.. فهو إلى اضمحلال وخسران.. لأن المعركة محتدمة وشرسة ومستمرة، ولن تنقطع إلا بزوال الحياة وبالاستجابة لنداء الله ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٣).

---

(١) ابن حزم خلال ألف عام ١/ ١٧٩ ونقله المصدر السابق ص ١٤١ عن أبي عبدالرحمن بن عقيل.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩.
(٣) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

والإمام ابن حزم واحد من هؤلاء الأئمة العظام الذين امتلكوا كل أدوات النصر في المعركة رغم ما لاقاه من معاناة داخلية وخارجية.

١ - المعاناة الداخلية:

أ - مرض ألمّ به في الطحال.

ب - عمق التفكير والغوص في الحقائق.

جـ - المثابرة والمتابعة كل الوقت.

د - الصراحة الحادة والصدع الشديد.

هـ - الحدة الشديدة في الطبع .

يقول ابن حيان: «فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يزفه بتدريج، بل يصك معارضه صك الجندل، وينشّقه متلقيه انشاق الخردل، فينفر عنه القلوب، ويوقع بها الندوب» (١)، «وابن حزم حاد اللهجة في النقد ولكنه لا يقع في الأئمة»(٢).

ويقول الإمام محمد أبو زهرة: «إن ابن حزم كانت فيه حدة، فهو لا يكتفي بالتصريح المجرد بالحق وبيان الدليل، بل ربما فرطت منه عبارات قوية فيها بعض العنف»(٣).

و - وسبب هذه الحدة مرضه في ربو الطحال. فقد اعترف ابن حزم بذلك في كتابه (مداواة النفوس)، وهو كتاب تربوي، فقال رحمه الله: «ولقد أصابتني علة شديدة ولّدت عليّ ربواً في الطحال شديداً، فولّد ذلك عليَّ من الضجر

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ١٣٦، ونقله عنه المصدر السابق ص ٣٨ .
(٢) ابن حزم خلال ألف عام ٢/ ١٠٩.. قاله أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.
(٣) ابن حزم ص ٧١-٨٦.

وضيق الخُلق، وقلة الصبر، والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه، إذ أنكرت خُلُقي، فاشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح، فإذا فسد تولد ضده»[(١)].

كما أن سبب هذه الحدة أنه حورب حرباً شعواء من خصومه: كما أنه حورب وطورد، وتسفّه عليه المقلدة، بدليل رسالته (الرد على الهاتف من بعد)[(٢)].

(ما أحسّه من إرادة السوء به وإنزال الأذى، وأي أذى أشد وأعظم أثراً في نفس العالم من أن يرى جهوده وثمرات فكره تحترق بين يديه.. فكان ذلك كيد خصومه له..)[(٣)].

٢ – وأما المعاناة الخارجية:

فهي في معظمها من السياسة، وإن حامل الحق المنافح عنه بقوة وحضور لا بدّ مبتلى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[(٤)].

وأبو محمد الإمام من هؤلاء الذين ابتلوا، نظراً لحمله الحق، وشدته في ذلك، بل ولشجاعته ولمواجهته الحادة لمخالفيه. ومن صنوف ذلك الابتلاء والمعاناة الخارجية نعدد:

أ – **الإجلاء**: حيث إن الأمير محمد المهدي غضب عليه وأهله، وأمر برحيلهم من مساكنهم الحديثة شرقي قرطبة إلى دورهم القديمة غربي قرطبة، مع المحاصرة عام ٣٩٩ هـ، وفي ذلك كما ترى من المعاناة والشدة وقسوة

(١) الأخلاق والسير ص ٣٩١.
(٢) أبو عبدالرحمن بن عقيل (ابن حزم خلال ألف عام ١/ ١١٥) ونقله المصدر السابق ص ٣٩.
(٣) ابن حزم (مصدر سابق) ص ٨١.
(٤) العنكبوت: ٢.

العيش، كما تعرض للإجلاء مرة ثانية على يد جند البربر «ثم ضرب الدهر ضرباته، وأُجْلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت من قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة»[١].

ثم أجلي عن قرطبة مرة ثالثة عام ٤٢٢ هـ، وذلك بعد الإطاحة بالأمير هشام المعتد بالله، حيث نودي في المدينة بألا يبقى بها أحد من بني أمية[٢].

ب – السجن: سجن ابن حزم أول مرة من قبل (خيران) صاحب (المرية)، وهو يصف سجنه هذه المرة فيقول: «وفي إثر ذلك نكبني (خيرانُ) صاحب المرية؛ إذ نقل إليه من لا يتقي الله - عز وجل - من الباغين - وقد انتقم الله منهم - عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي: أنّا نسعى في القيام بالدعوة للدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً »[٣]، كما سجن مرة ثانية عام ٤١٦هـ هو وابن عمه، وذلك بعد مقتل الأمير المستظهر، وكان صديقه، فسجن ابن حزم، ثم عفي عنه عام ٤١٢ هـ[٤].

جـ – الأَسْر: وقع ابن حزم في الأسر، بعد هزيمة الأمير المرتضى، الذي تولى له ابن حزم الوزارة في بلنسية، وقد وقع له ذلك أواسط عام ٤٠٩ هـ، ثم أطلق سراحه وعاد إلى قرطبة، وكانت الهزيمة أمام جيش غرناطة[٥].

د – النفي والتغريب: وذلك زمن (خيران)، حيث نفي إلى حصن القصر[٦].

---

(١) طوق الحمامة ص ٢٥١.
(٢) السابق، ص ٢٦١.
(٣) السابق، ص ٢٦١.
(٤) ابن حزم الأندلسي ص ٣٣، ونقله المصدر السابق ص ٢٢.
(٥) ابن حزم لأبو زهرة ص ٤٥ بتصرف.
(٦) طوق الحمامة ص ٢٦٠ بتصرف.

هـ - **إحراق كتبه** : وكانت تلك محنة نفسية ومعنوية شديدة، وذلك نتيجة دسّ الدسّاسين ووشايات خصومه، وقد حرقت أيام المعتضد بن عباد(١) .

وكانت وفاته- رحمه الله- ليلة الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة وكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً (٢) .

خامساً: ما يستفاد من سيرته- رحمه الله:

إن الدرس الهام الذي يمكن الاستفادة منه للدعاة في عصرنا، يستقى من كيفية التعامل مع الحاكم والمحكوم.. خصوصاً أن العصر الذي عاش فيه ابن حزم في الأندلس، يشبه في حالته الرسمية والمجتمعية أوضاعنا الحالية والرسمية والمدنية.. حالة فرقة وتنازع وتخلف وضعف وخنوع للأعداء قادها الرسميون، وسكت عنها أو رضي بها الناس عامة- إلا من رحم ربي- وهو ما زال يكافح وينافح من أجل النهوض (أفراداً وهيئات وأحزاباً) مستمسكاً في الأغلب الأعم، بالأصول وبالانفتاح على العصر بما لا يخالف أو ينقض أصولنا، مستخدماً الاعتدال والوسطية والوسائل السلمية مع المجتمع المسلم.. مع عدم إهمال الإعداد والاستعداد لمقارعة الغزاة المعتدين المحتلين بالطرق الشرعية المعروفة لدى علماء المسلمين، هذا فضلاً عن عدم الاشتغال بالمعارك الجانبية، التي يقصد منها جرّ القوى المجتمعية إلى الانشغال ببعضها بدل الانشغال بالهدف الأصلي.. المتمثل بإنقاذ الأمة من وهداتها، والنهوض بها إلى مستوى العصر، مع الاهتداء بالقواسم المشتركة من أصولنا، التي تجمع ولا تفرق، ويعذر بعضنا بعضاً فيما يختلف حوله من الفروع.. فإن الاختلاف

(١) ابن حزم لأبو زهرة باختصار وتصرف .
(٢) الإمام ابن حزم (مصدر سابق) ص ٣٦، ونقله عن السير ١٨/ ٢١١ والصلة ٢/ ٣٩٦ .

في مثل تلك الفروع، أمر طبيعي، نظراً لتنوع العقول والأفهام واختلاف الناس في العلم ومدى تحصيله. وإن الاتفاق التام في ذلك.. ليس طبيعياً ولا هو محموداً حسب ما قرره العقلاء والعلماء .

وقد كان ما خاض فيه ابن حزم في أمور الاختلاف مع حدته وجرأته وصراحته، وما كان منه من المشاركة في الحكومات المختلف على صلاحها، المشكوك في إمكانية قيامها بواجباتها، التي فرضتها شريعة الإسلام على المتولي.. أقول كان ذلك منه خللاً في رؤية طريق الداعية المبتغي للتغيير والنهوض بالأمة.. وهو ما كرس ابن حزم نفسه له.. ولكنه لم يوفق في اختيار السبيل.

صحيح أن علمه الغزير وموسوعيته الهائلة كانت فتحاً علمياً في عصر تراجعت فيه إمكانيات الأمة، وتخلخلت وحدتها واهتز اجتماعها، وكانت أيضاً ضوءاً في عتمة بدأت تُظلم الرؤية، فوق الأرض الإسلامية شيئاً فشيئاً.. إلا أن الخلل الذي أتينا على ذكره.. قلل من إمكانية اجتياح فكره وعقيدته السليمين الصفوف، ليقودها باتجاه تجديد أمور دين الأمة وحياتها .

وهذا هو الدرس بالذات لدعاة اليوم (عدم الخوض في الاختلافات والاجتماع على المشتركات، عدم المشاركة في الهيئات المشكوك في إمكانياتها الخيرية، التحمل الأكثر، والصبر الأكبر، والتمكن من حدة الطبع والصراحة المؤلمة للآخرين).. هذا ورحم الله شيخنا العظيم ابن حزم ونفع بعلمه المنشور الغزير وألحقه بالصالحين المؤمنين في جنات النعيم .

المبحث الثاني
معاناة الإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ هـ/ ٥٠٥)

أولا: اسمه ومولده ونشأته:

١ – اسمه وصفته: هو الإمام الجليل محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي، حجة الإسلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم.. أخمد من نيران البدع ما لا تستطيع أيدي المجالدين مسّها.. جاء والناس إلى ردِّ فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء.. فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يلطخ بدم المعتدين حدّ نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات، وما كانت إلا حديثاً مفترى[1].

٢ – مولده ونشأته:

– ولد الغزالي (بطوس) سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، كان والده يعمل بغزل الصوف، ويبيعه في دكان له بطوس، وكان وأخوه أحمد صغيرين عندما حضرت الوفاة والدهما الغزال، وقد أخذا من مهنته لقبهما: «الغزالي» إذ أقبل والدهما بهما إلى صديق له متصوف ومن أهل الخير، فقال له: «إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعليهما ولا عليك، أن يَنْفَدَ في ذلك جميع ما أخلفه لهما»[2]. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما، إلى أن فني مالهما، ولم يستطع الصوفي -لفقر حاله- أن يتابع تعليمهما، وقال لهما: «ليس لي مال فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى

(١) من ترجمة الإمام في كتابه (إحياء علوم الدين) ص ٣ – باختصار.
(٢) المصدر السابق ص ٣ .

مدرسة، كأنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما، وكان الغزالي «أبوحامد» يحكي هذا ويقول: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»[1].

– وقد استجاب الله لدعاء والدهما.. الذي كان فقيراً، يأتيه رزقه من مهنته، وكان يطوف على المتفقهة، يجلس إليهم ويخدمهم، وينفق عليهم في حدود قدرته، فإذا سمع كلامهم بكى ودعا الله أن يرزقه ولداً فقيهاً، وإذا حضر مجلس الوعاظ بكى أيضاً، وسأل الله أن يرزقه ولداً واعظاً.. فاستجيبت دعوتيه بمحمد الفقيه، وبأحمد الواعظ.

فأما ولده أبوحامد: فكان أفقر أقرانه، لكنه إمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، شهد بذلك الموافق والمخالف، وأما أحمد فكان واعظاً تنفلق الصم عند استماع تحذيره، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره[2].

ثانياً: علمه، وترحاله، وبعض سيرته:

١ – قرأ في صباه العلم (طرفاً من الفقه) ببلده (طوس) على الشيخ أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان، فاتصل بالشيخ أبي نصر الإسماعيلي، وعلق عنه التعليقة ثم قفل راجعاً إلى طوس.. وبعد ذلك قدم إلى نيسابور، وهناك لازم إمام الحرمين.. وجدَّ واجتهد وتعب وعانى.. حتى برع المذهب والخلاف، والأصلين والجدل والمنطق (الكلام)، واطلع على الفلسفة وما يسمونه الحكمة، حتى أحكم علمه بكل ذلك، وبرع في كلام أرباب تلك العلوم، وحينئذٍ تصدى لهم وردَّ عليهم الردود المفحمة، مبطلاً دعاويهم وبدعهم، وصنَّف في كل ذلك المصنفات الجادة والهامة، فكان فيها وفي دروسه

(١) المصدر السابق ص ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤ بتصرف .

عجيب الفطرة، عظيم الإدراك، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة، جبلاً في العلم، مناظراً محجاجاً، وصفه شيخه إمام الحرمين بأنه «بحرٌ مُغْرِقٌ»[(١)].

وقد تولى التدريس في «النظامية» في بغداد، عينه فيها «الوزير» نظام الملك، الذي التحق به الإمام أبوحامد بعد وفاة إمام الحرمين، حيث ناظر الأئمة والعلماء في مجلسه، فقهر الخصوم منهم، وكانوا كثراً، إذ ظهر بعلمه وكلامه على الجميع، فاعترف المنصفون بفضله، وحينئذٍ، عظمه الوزير وبجله وولاه التدريس في النظامية. فقدم بغداد عام ٤٨٤هـ، وبدأ التدريس فيها، فظهرت براعته في كل العلوم، وعلا شأنه، وكثر محبوه، وجلّ مكاناً لم ينله كثير من الطامحين.. ودحض أفكار الباطنية الذين كانوا يعملون لتقويض الدولة العباسية، فألف في ذلك[(٢)] (كتاب فضائح الباطنية).

٢ – زهده وعزلته: بعد أن حاز كل ذلك المجد والشرف والحبّ والإقبال عليه وترحال الناس إليه من كل حدب وصوب، ترفعت نفسه عن كل ذلك الذي وجده في نفسه لا يساوي شيئاً، ثم رفض كل ما كان فيه من جاه ووجاهة (ما يسمونه فترة الشك)، فاستأذن، وترك المدرسة قاصداً بيت الله الحرام، فحجَّ، وعاد إلى الشام سنة ٤٨٨هـ، تاركاً أخاه في التدريس، ثم جاور في بيت المقدس، ثم رجع إلى دمشق، فاعتكف في زاوية الجامع الأموي (معروفة اليوم بالزاوية الغزالية) نسبة إليه، وهناك اقترب من الصوفية، فلبس الملابس الخشنة، وقلل من الطعام والشراب، وأخذ بتصنيف كتابه (الإحياء)، وراح يزور الترب ويطوف بالمشاهد، وينام في القفار، مروضاً نفسه ومجاهداً

---

(١) المصدر السابق ص ٤ باختصار وبتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ٥ باختصار وبتصرف. وانظر رواية الفارسي في طبقات السبكي.

رغباتها، مع تكليفها أشق العبادات وأعلى أنواع القرب والطاعات.. إلى أن صار قطباً وبركة، مستأنساً بالرب المعبود وبعد ذلك، وبعد أن حصّل كل تلك البركات من عزلته وزهده، عاد إلى بغداد، فعقد بها مجلساً للوعظ والإرشاد، متكلماً بالحقيقة التي حصّلها من عزلته وزهده وتأمله في كل الأحوال، قارئاً بكتابه «الإحياء»[1].

ثالثاً: مصنفاته وبعض القول فيه ووفاته:

١ - «الغزالي هو الشافعي الثاني» الإمام محمد بن يحيى.

٢ - «لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله، إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله» الإمام أسعد الميهني.

٣ - «ثمرة هذا العلم (الذي في كتاب الإحياء) طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطبُّ الذي يعالج الأجساد..» من خطبة كتاب الإحياء[2].

٤ - ومن تصانيفه: الوسيط، البسيط، الوجيز، الخلاصة، المستصفى، المنخول، وتحصين الأدلة، وشفاء العليل، والأسماء الحسنى، والرد على الباطنية، وتهافت الفلاسفة، ومنهاج العابدين، وإحياء علوم الدين.. وغيرها.

٥ - وفاته: عاد الغزالي بعد كل ذلك العناء الذي لاقاه في ترحاله: إلى نيسابور، ودرس في المدرسة النظامية فيها مدة يسيرة، وبعدها رجع إلى طوس بلده، فاتخذ إلى جانب داره فيها مدرسة للفقهاء، وخانقاه للصوفية، ووزع أوقافه على من ختم القرآن، ثم اتخذ من مجالسة أرباب القلوب، وتدريس طلبة

---

(١) المصدر السابق ص٥ باختصار وبتصرف. وارجع إلى كتاب الخوالد من آراء حجة الإسلام ص١٨-١٩.

(٢) من خطبة كتاب الإحياء ص ١٢.

العلم، والدوام على الصلاة وسائر العبادات برنامجاً له، إلى أن انتقل إلى رحمة الله- تعالى، طيب الثناء عليه، عالي المنزلة، أهدى للأمة ما ينير لها الطريق، ويذهب زيف البدع وقسوة القلب، وكانت وفاته- رحمه الله- بطوس وهو على الحال التي ذكرنا، يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة (٥٠٥هـ).. تغمده الله برحمته ونفع به وبعلمه، وألحقه بالأنبياء والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

رابعاً: معاناة الإمام أبي حامد الغزالي:

١ – المعاناة الداخلية:

أ – **من اليتم**: مات والده وتركه مع أخيه أحمد صغيرين، وأوصى بهما أحد أصدقائه، عندما حضرته الوفاة .

ب – **من الفقر**: المال الذي تركه الوالد لدى الوصي، لم يكن كثيراً، بحيث يكمل لهما مسيرتهما التعليمية، مما جعلهما يلجآن إلى مدرسة كطلاب علم، بقصد الاستعانة على الوقت وتدبير معيشتهما. كما نصحهما الوصي، بعد أن نفد مال أبيهما، وقد مرَّ معنا آنفاً، كيف أن أبا حامد كان يقول مفتخراً: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله».

جـ – **من العزلة**: ترك الإمام حياة الدعة والركون إلى الجاه وعلو الرتبة، وذيوع الاسم والشهرة ذائعة الصيت، وقد حصل كل ذلك من خلال تدريسه في المدرسة النظامية في بغداد بخاصة، حيث راحت تشد له الرحال، كما قلنا سابقاً في سيرته.. وقد عانى الشيخ معاناة جمة، مما رأى من التنافس على هذه التشوفات الدنيوية، واعتبرها من الرذائل التي أزرت بالعلماء قبل العامة.. وراح يبحث في نفسه، وعلى ضوء الواقع المتردي، الذي يراه بين يديه، إلى أن

وصل من خلال خصلة (الشك) إلى اليقين.. فرفض كل ما سبق أن أوردناه.. والتجأ إلى العزلة (حجّ، وجاور بيت المقدس، ثم اعتكف في جامع دمشق الأموي، ولبس خشن الثياب، وتخفف من الطعام والشراب، وراح يطوف بالمشاهد والمقابر، وينثر العبرات، ويعبئ من العظات والعبر، ويلتزم بأشق العبادات، ويبلو نفسه بأنواع وألوان من القربات والطاعات والخلوات حتى عاد قطباً وبركة يتبرك به كل موجود)(١).

د – يقول الغزالي: إنه عندما سافر إلى جرجان من (طوس)، وجلس إلى أبي نصر الإسماعيلي الإمام (وعلق عنه التعليقة) وهي مجموعة كتب كتبها عنه ليتعلمها، عاد إلى طوس، ثم بعد ذلك ينقل عنه الإمام (أسعد الميهني) قوله: «قُطعت علينا الطريق، وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت. فقلت له: أسألك بالذي ترجو سلامة منه أن تردّ عليّ تعليقتي فقط، فما هي شيء تنتفعون به؟ فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه، فسلم لي المخلاة(٢).

هذه قصة فيها المعاناة متشابكة: فيها الخوف على النفس، وفيها فقد المال وهو الفقير المحتاج، وفيها أغلى من كل ذلك: (التعليقة)، المحتوية على العلم الذي هاجر من طوس إلى جرجان من أجله، وفيها العبرة والعظة.. إذ إن

---

(١) من مقدمة كتاب الإحياء ص ٤–٥ بتصرف واختصار.
(٢) المصدر السابق ص ٤.

العقل الذكي، والنفس العالية لا تدع حدثاً يمر دون الاستفادة من إشاراته وعلاماته على الطريق. قال الغزالي ـ رحمه الله: «فقلت هذا مُسْتَنْطَقٌ أنطقه الله (عن زعيم العيّارين) ليرشدني به أمري، فلما وافيت طوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع الطريق، لم أتجرد من علمي» [(١)].. وقد روى هذه القصة عن الغزالي بالإضافة إلى الإمام الميهني الوزير نظام الملك، وذلك وارد في ترجمته في كتاب «ذيل ابن السمعاني»[(٢)]. وهناك أيضاً معاناة أخرى هي (حفظ تلك الكتب في ثلاث سنوات حفظاً لا يذهب بضياعها منه).. واليوم تأخذ شهادة الدكتوراه من وقت الطالب ٣ – ٤ سنوات على الأقل.. فهل يخرج الطالب بعدها حافظاً فاهماً مدركاً أم ناقلاً..؟!

هـ– ومن صور المعاناة أيضاً التي وجدها أبو حامد في مسيرته، ونشمّ بعضها شماً: فنقول: انقطاعه في نيسابور إلى إمام الحرمين وجدُّه في تعلم المذهب الشافعي والبراعة فيه حتى قيل فيه إنه الشافعي الثاني، ثم انقطاعه إلى تعلم الحكمة والمنطق والجدل والفلسفة والكلام، وفهم وسائل أرباب كل ذلك، ليس من أجل قناعته بها.. وإنما ليردّ على هؤلاء جميعاً بضاعتهم، ولإبطال دعاويهم، وقد أتاح الله له ذلك، فجادل وناظر وصنّف، وتغلّب في كل الأحوال، وأقدره الله على هزيمتهم. ومن مصنفاته في ذلك«تهافت الفلاسفة».. فكم استغرق ذلك منه وقتاً وجهداً ومعاناة، حتى حقق الله على يديه نصر الدين، وإزالة غمة محدثات المتهافتين، وتجديد أمر الدين، فحاز لقب (حجة الإسلام). وعلى لسان إمام الحرمين لقب (بحرٌ مُغْرِقٌ). وأيضاً كم عانى من

(١،٢) المصدر السابق ص ٤ .

هجوم هؤلاء المبتدعة عليه واتهامه بالزندقة والكفر من طرفين: الطرف الذي في الصف والجماعة.. الذين وجدوا في لغته واستعماله منطق المتكلمين والفلاسفة خروجاً لا يستسيغونه، فمنهم من بالغ، وولغ في عرض الرجل، ومنهم من توسط واعتدل وأعذر. وأما أصحاب المنطق والجدل الفلسفي المتأثر إلى حدٍ بعيد باليونانية وغيرها.. فهؤلاء خرجوا معه عن حدّ الاعتدال إلى التطرف والابتذال، وناله منهم ما ناله من الاتهام والمعاناة.. وهو الجبل الأشم، الذي رماهم بعاتي صخره، وأصل علمه، وسنا رعده وبرقه فأخنسهم، وحولهم إلى مهزلة.. إنها معركة وأي معركة ؟! حاز منها التعب والعناء مع النجاح والفوز والغلبة.. لكنها جميعاً نالت من جسمه وصحته.. فمات من أجله المكتوب له من الله مبكراً.. لم يتجاوز الخامسة والخمسين من السنين.

خامساً: بعض الدروس والعظات:

الدنيا خضرة مغرية فتانة.. وهي مسلطة على الناس في مسيرة امتحان وتجربة وقد قال فيها رب العالمين: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ (١).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما مَثَلُ الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعل أحدكم إصْبَعَهُ في اليمّ فلينظر بِمَ يرجع**»(٢). وقد جاءت هذه الدنيا ومغرياتها للإمام أبي حامد تسعى.. فأدار لها الظهر.. راغباً إلى ربه، ساعياً سعياً حثيثاً إلى مرضاته، فتجهز بالعلم والصبر والمجالدة لردّ الكيد عن دينه.. ولأن النية كانت صادقة، والعزيمة ماضية، والهمة في أعلى درجاتها، فقد كتب الله للإمام

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) .

حسن الفوز وعظيم الغلبة، فأعطى الإمام من نفسه وماله ووقته وعرضه وراحته وهدوء أيامه ما أعطى الدعوة، زاهداً بكل ما أتته به الدنيا من مجد وشرف ورفعة وشهرة.. فارتفع بعمله وإقدامه عن كل ذلك.. لينصر دينه ثابتاً مستسلماً لأمر الله شجاعاً مقداماً حتى وافته المنية وهو على ذلك.. فهل من اتعاظ من دعاة اليوم بتلك السيرة العريقة العطرة، التي مدّ الله بعمر تأثيرها إلى اليوم وما بعد اليوم ؟[١]. ومن تلك الأفكار المؤثرة، البحث عن الحقيقة وتعطشه إليها، وقد كانت عزلته من أجل ذلك، وليس للهروب: فهو يقول في ذلك: «قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور، من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله، وصنعتا في جبلتي..»[٢]، وكذلك كان من أسس منهجه البعد عن التقليد، وبذل الجهد من أجل الوصول إلى الحق والحقيقة ولو خالف الأولين، وفي ذلك يقول: «فإن زُعم أن حدّ الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلم أنه غِرٌّ بليد، قد قيده التقليد»[٣]. ولا نشك أن الغزالي عندما اختلط بالطبقة الحاكمة في بغداد، أثناء تدريسه في النظامية، وأخذ مما أخذوا منه ومديحه في البداية للدولة العباسية.. أقول لا نشك أن هذا جعله ينظر إلى مبادئه العليا وما كان يدعو إليه من عدلٍ في الحكم ومن توحيد لله وتَمَثُّلٍ بسيرة الراشدين، ثم يقارن ذلك بما دخل فيه من ترف ومن استغراق في لذائذ الدنيا، قد جعله يترك كل ذلك وراء ظهره، ويزهد فيه، ويسيح باحثاً عن الحقيقة في القرب من الله بادئاً بالشك في كل ما

---

(١) مستخلصات من سيرته.. عن المصدر السابق (المقدمة).

(٢) من كتاب الخوالد من آراء الغزالي د. صلاح عبداللطيف الناهي ص ٢٨.. منقولاً عن المنقذ من الضلال.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠ وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص ٦ – ٨.

مرّ معه، ليصل في نهاية العزلة إلى أن الحقيقة هي رضا الله والجهاد من اجل الوصول إليه... وأخيراً نقول إنه من بعض العبر في سيرة الشيخ الغزالي القول: إنه لا كمال لمخلوق.. فهو الغزالي في رحلته إلى الله مَرِض، وفي تلك الحقبة الانعزالية صادفت بعض الأفكار مسيراً على لسانه، والتقت في بعض كتاباته، وأخذت شيئاً من برية قلمه.. مما لم يجلَّ عن النقد.. وَمَنْ مِنَ الناس لا ينقد؟! فذلك من حكمة الله، ليري الإنسان أنه مهما جلّ قدره وعلت رتبته.. لا بد أنه ضعيف، والضعيف موكول أمره إلى العلي القدير، ويكفي الإمام أنه اجتهد، فإن أخطأ فله الأجر الواحد، وإن أصاب فلهو أجران. ولا نزيد أو نعيد فيما خاض فيه البعض من تأويل وتحويل لآراء الغزالي.. وإنزالها على أفكار عصرية.. نعتقد أنها بعيدة عن تفكير ومآلات ما أراد الرجلُ أن يوصله للناس، لينقذهم مما هم فيه من تيه وبعد عن الحق والحقيقة؛ فإن أصاب– وهذا ما نقدره في فكر الرجل– فمن الله.. وإن أخطأ فمن نفسه.. فهو العالم الفقيه الأصولي المربي المصلح الذي لم يدع جهداً لنصرة دينه حسبما رآه صالحاً لذلك، هذا والله أعلم.

المبحث الثالث
معاناة الإمام النووي (٦٣١ هـ/ ٦٧٦ هـ)

أولاً: الإمام النووي في سطور:

هو أبو زكريا يحي بن الشيخ الزاهد أبي يحي شرف ابن مُرِّي بضم الميم وكسر الراء المشددة كما ورد في شرح الأربعين النووية لإبراهيم بن مرعي، ثم ابن حسن، بن حسين، بن محمد، بن جمعة، بن حِزام الحزامي النووي، لقب بمحي الدين، وكان يكره اللقب تواضعاً، وقد زعم بعض أجداده أن الحزامي نسبة إلى حِزام بن أبي حكيم الصحابي ﷺ، قال وهو غلط[١]. وقد صح عن النووي أنه قال: لا أجعل في حلٍّ من لقبني (محي الدين)[٢].

كان أبوه صاحب دكان في نوى وقد وصفه علاء الدين بن العطار بقوله الشيخ الزاهد الورع وليُّ الله[٣]. ويقول الذهبي: وكان شيخاً مباركاً[٤].

ولد الإمام النووي في العشر الأوسط من المحرم، وقيل في العشر الأول سنة ٦٣١ هـ في نوى[٥] من حوران، ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام، وقد عاش النووي آخر عصر الأيوبيين وعصر الملك الظاهر بيبرس من عصر المماليك، وقد امتازت هذه الفترة بالاستقرار النسبي، وقد هيأ لذلك الاستقرار قيام كل من نورالدين زنكي وصلاح الدين بخضدهما من شوكة الصليبيين، وقيام «الظاهر بيبرس» بإيقاع الهزيمة في صفوف كلٍّ من الصليبيين والتتار، واسترجاعه لكثير

(١) من كتاب (الإمام النووي) للشيخ عبدالغني الدقر ص ١٨ ونقله عن تحفة الطالبين .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ نقله من ترجمة النووي للسخاوي (٤) .
(٣) المرجع السابق ص ١٩ نقلاً عن تحفة الطالبين (٢ – ب).
(٤) المرجع السابق ص ٢٠ نقلاً عن ترجمة النووي للسخاوي (٧٦) .
(٥) المرجع السابق ص ٢٠ نقلاً عن تحفة الطالبين مصور (٣-١) .

من البلاد التي احتلوها. وقد اشتهر قرن النووي (السابع) والقرن الذي بعده (الثامن) بأنه من أزهر العصور بالعلم الناضج والتأليف الوازن، فقد برع الكثير من العلماء في عصره في مختلف العلوم؛ في الفقه، وفي الحديث، وفي اللغة من قبل ابن الصلاح والرافعي والنووي وإسماعيل بن عبدالكريم شيخ الحنفية في وقته، وعبدالرحمن بن محمد بن عساكر، وخطيب دمشق عبدالكريم بن الحرستاني. وابن يعيش شارح المفصل للزمخشري، وشيخ بن مالك اللغوي، وابن القفطي متعدد العلوم، الذي عُدّ من مفاخر القرن السابع وفي علوم التاريخ اشتهر بن النديم، وابن خلكان وياقوت الحموي وأبو شامة صاحب كتاب الروضتين وفي الهندسة كان إبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية، وصاحب دار الهندسة نجم الدين يحي بن اللبودي، وفي الحكمة والطبّ برز بن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة الطب، وسيف الدين علي الثعلبي الآمدي، كان من أذكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية، وشمس الدين الخويني، وبدر الدين بن قاضي بعلبك عالم الطب. وفي التصوف اشتهر محيي الدين بن عربي صاحب كتاب الفتوح المكية.. وما ذكر من أسماء هو غيض من فيض، وإلا فالأسماء كثيرة، والعلوم مزدهرة في القرن السابع[(١)].

ثانياً: طلبه للعلم:

بدأ النووي طلبه للعلم بعد قدومه إلى دمشق سنة ٦٤٩ هـ وله من العمر ثماني عشرة سنة[(٢)]. قدم به أبوه إلى هناك، بعد أن عرف فيه النبوغ وحب العلم وتوجهه إليه. وأول من لقي من العلماء خطيب الجامع الأموي وإمامه الشيخ

(١) المرجع السابق ص (١٢-١٣).

(٢) كتاب (الإمام النووي) للشيخ عبدالغني الدقر ص ٢٣، نقلاً عن تحفة الطالبين مصور (٣/ ب) والسخاوي.

جمال الدين عبدالكافي الربعي الدمشقي[١]، الذي بعد أن عرف توجه الشاب النووي أخذه إلى حلقة الشيخ تاج الدين الفزاري، المعروف بالفركاح، وقد لازمه النووي زمناً وكان هذا أول شيخ له. ثم دلّه شيخه الأول على الكمال إسحاق المغربي بالرواحية[٢]، الذي منحه بيتاً في مدرسة الرواحية وكان بيتاً لطيفاً عجيب الحال.. ظل فيه حتى مات رحمه الله. وكان قوته فيها من الجراية (خبز يوزع كل يوم على الطلبة)[٣].

ثالثاً: معاناته:

١ – الداخلية:

أ – **معاناته في طلب العلم**: أقبل النووي على العلم بجد لا مثيل له، أتعبه وعانى منه، وكان في ذلك مضرب المثل؛ فقد قال عن نفسه: وبقيت سنتين لم أضع جنبي على الأرض[٤]، وفي هذا يقول الذهبي: وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا على غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ[٥].

– وقد حكى البدر بن جماعة عن معاناة النووي في طلب العلم قوله: إنه سأل النووي عن نومه؟ فقال: إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وانتبه[٦].

– ومما يوضح مدى هذه المعاناة ما كتب في ذلك: من أنه كان يقرأ كل يوم

---

(١) المرجع السابق نقلاً عن السخاوي (٨) .
(٢) المرجع السابق ص (٢٥/ ٢٦) .
(٣) المرجع السابق ص (٢٥/ ٢٦) .
(٤) الدارس (١/ ٢٦٨) .
(٥) المرجع السابق ص ٢٨ نقلاً عن السخاوي (٧).
(٦) المرجع السابق ص ٢٩ نقلاً عن السخاوي (٣٦).

اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً: درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جني في النحو، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، تارة في اللمع لأبي إسحاق، وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين (التوحيد) قال النووي أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي وقتي واشتغالي، وأعانني عليه(١).

فانظر إلى هذا الدأب والمداومة والاستمرار بلا كلل، وتخيل كم من المعاناة الجسدية كان يلاقيها في إلزام نفسه بكل تلك الدروس ومتابعة العلم..؟

ب – **معاناته مما ألزم به نفسه من عبادة وزهد:**

– ألزم النووي نفسه ببرنامج من العبادة والذكر لا يصبر عليه إلا من كان في قمة الهمة، ومن طلق هذه الدنيا وما فيها.. ومما ألزم به نفسه وصبر على ما يلاقيه في ذلك من معاناة جسدية ومعنوية .

– القيام الدائم: وفي ذلك قال تلميذه ابن العطار(٢): ذكر لي صاحبنا أبوعبدالله محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي:

كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق (الأموي)، والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾(٣) مراراً بحزن وخشوع، حتى حصل عندي من ذلك شيء الله أعلم به .

(١) المرجع السابق نقلاً عن تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٠).
(٢) تحفة الطالبين (٩ ب) نقله كتاب (الإمام النووي) ص ١٢٤ .
(٣) الصافات:٢٤.

وذكر في البداية والنهاية لابن كثير: إنه «كان يصوم الدهر»[(١)].

- وفي الزهد والورع ألزم النووي نفسه بسلوك يحتاج إلى نفس عالية وقدرة وإرادة لا تلينان، وتحمل لثقل كالجبال.. فقد قال الذهبي في ذلك: «كان رأساً في الزهد قدوة في الورع»[(٢)]. وقال أيضاً في سِيَر النبلاء: «كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع الثخين، والمراقبة لله في السّر والعلانية، وترك رعونات النفس، من ثياب حسنة، ومأكل طيب، وتجمل في هيئة.. إلخ»[(٣)].

ومن ورعه وأخذه نفسه بالشدة والمعاناة أنه كان لا يأكل من فاكهة دمشق[(٤)]، يقول تلميذه ابن العطار[(٥)]: وسألته عن ذلك، فقال: إنها كثيرة الأوقاف والأملاك لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في ذلك إلا على وجه الغبطة والمصلحة، والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي.

٢ – المعاناة الخارجية:

أ – **معاناته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وفي هذه كان النووي قمة أيضاً: يقول الشيخ علي الدقر[(٦)]: وما علمنا في القرن السابع الهجري أحداً من علمائه بلغ ما بلغه النووي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو في

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ١٣/ ٢٧٩ نقلاً عن المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق (الإمام النووي) نقلاً من كتاب العبر للذهبي (٥/ ٣١٢).
(٣) المرجع السابق (الإمام النووي) نقلاً من السخاوي ٣٩.
(٤) المرجع السابق (الإمام النووي) ص ١٢٦ نقلاً عن جميع من أرخ له (كابن كثير، وابن العماد وابن العطار والذهبي والسخاوي).
(٥) المرجع السابق (الإمام النووي) ص ١٢٦ نقلاً عن تحفة الطالبين (٤/ ب).
(٦) المرجع السابق (الإمام النووي) ص ١٤٢.

ذلك نادر في كل قرن. يقول الذهبي: كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أجمع المترجمون على أنه كان رحمه الله لا يبالي في أمره ونهيه (ما يلاقي من معاناة) لومة لائم، بل لا يبالي الإهانة والموت، ولا يكبر عنده أحد عن النصيحة حتى العلماء والأمراء والملوك والجبابرة .

ب – **معاناته من مواجهة الأمراء والملوك**: وكانت وسائله في ذلك المواجهة المباشرة إن أمكن، أو بواسطة الرسائل والكتب. ومن أشهر قصصه في المواجهة المباشرة، قصصه مع الملك الظاهر بيبرس البندقداري في قضيتين (الحوطة) و(الفتوى): أما قضية الحوطة على بساتين دمشق، فملخصها أن النووي واقَفَ الظاهر غير مرة بدار العدل من أجلها.. فقد أراد السلطان وضع اليد على بساتين الغوطة، فرد عليه النووي مواجهة، فغضب السلطان من ذلك، لكن الله سلم وتحقق مراد النووي بعد أن نوى (بيبرس) البطش به.. إلا أنه تراجع بعد أن رأى ما رأى من هيبة الشيخ النووي، وفي رواية بعد أن رأى سَبْعَيْن على كتفي الشيخ يذودان عنه كلما همّ الظاهر بالإيقاع به، فكان يقول بعد ذلك: أنا أفزع منه.. ثم أحبه وعظمه[١] .

وأما قضية الفتوى: فقد ذكر السخاوي في آخر ترجمته للنووي القصة فقال: لما خرج الملك الظاهر لقتال التتار بالشام طلب فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فوقع خلق من العلماء على الفتوى خوفاً أو طمعاً، وخالف خلق منهم ذلك، فعرضوا على السيف وقتل منهم كثيرون، ثم سأل الظاهر بيبرس هل بقي من أحد ؟. فقالوا: نعم، بقي

(١) مأخوذة بتصرف من كتاب (الإمام النووي) للشيخ عبدالغني الدقر ص ١٤٢-١٤٤ نقلاً عن أكثر من مرجع لابن كثير والعماد واليونيني والسخاوي .

الشيخ محيي الدين النووي، فطلبه، فقال: أكتب خطك مع الفقهاء، فامتنع وقال: لا. فقال الظاهر: ما سبب امتناعك، فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقار، وليس لك مال، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كلهم عنده حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حِق من الحلي. فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً من الحياصات الذهب، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيك بأخذ المال من الرعية، وإنما يستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى واتباع آثار نبيه ﷺ. فغضب السلطان من كلامه وقال: اخرج من بلدي (يعني دمشق) فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى نوى، فقيل للملك: ما سبب عدم قتلك له، فقال: كلما أردت قتله أرى على عاتقه (سَبْعَيْن) يريدان افتراسي فأمتنع عن ذلك[1].

ولما رأى الشيخ أن المواجهة المباشرة لم تجد اتخذ من المراسلة وسيلة للنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكتب إلى الظاهر بشأن غوطة دمشق، وكتب إلى من مالأ السلطان في سلب بساتين الغوطة.. وإلى ابن النجار بالذات، وكان في كتاباته ناصحاً مبيناً حريصاً على قبول المنصوح.. وحريصاً على فائدة المسلمين مراعياً المقامات والأحوال، والرسائل طويلة يرجع إليها في مظانها.. ومنها كتاب الشيخ عبدالغني الدقر (الإمام النووي).. وقد وجد الشيخ من المواجهة والمراسلة المعاناة والعنت والإبعاد إلى حدّ التهديد بالقتل ولولا لطف الله به لكان ذلك مصيره، إلا أنه لم يبالِ ولم تلن له قناة، وظلّ على منهجه في الإصرار على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا

(١) السخاوي.. بشيء من التصرف ص ٨٠، وأورده المرجع السابق صفحة ١٤٤-١٤٥.

يخاف في ذلك لومة لائم، ولا يخشى منه على شيء من أشياء الـدنيا.. مبتغيـاً في ذلك وجه الله بإخلاص منقطع النظير، وبعلم عظيم وقدرة على تنويع الخطاب ومراعاة المقامات والظروف، وحريصاً على مصلحة الناس وأحوالهم والقرب منهم ومشاركتهم .

رابعاً: تصانيفه وشيوخه:

أما تصانيفه فإليك بعضاً منها: عاش النووي قريباً من ست وأربعين عاماً، ورغم قصر تلك الحياة إلا أنهـا حفلـت بالعمـل الجـاد الـدؤوب مـن دروس وطلب علم في مختلف العلوم حتى الطب، يدل على ذلك ما نقلناه مـن معانـاة الإمام في طلب العلم.. لقد بارك الله له في وقته وفي عمره حتى أنجز مـا أنجـز ورفع تلك القامة العلمية الشامخة علماً لا تتجاوزه أية صحائف كتبت بعده .

ومن أهم كتبه: شرح مسلم، الروضة، المنهاج، رياض الصالحين، الأذكار، التبيـان، تحريـر التنبيـه، تـصحيح التنبيـه، الإيـضاح في المناسـك، الإرشـاد، التقريب، الأربعين النووية، بستان العارفين، مناقـب الـشافعي، مختـصر أسـد الغابة، الفتـاوى، أدب المفتـي والمستفتي، مختـصر آداب الاستـسقاء، رؤوس المسائل، تحفة طلاب الفضائل، الترخيص في الإكرام والقيام، مـسألة تخمـيس الغنائم، مختصر التـذنيب، مـسألة نيـة الاغـتراف، دقـائق المنهـاج والروضـة، التقريب والتيسير. وكل هذه كانت منجزة عندما حضرته الوفاة وهنـاك كتـب بدأها الإمام النووي وكتب منها شيئاً.. ولم تمهله المنية لإكمالها ومنها على سبيل المثال شرح البخاري المجموع: وهو كتاب فقهـي عظـيم لم يكتمـل، وتهـذيب الأسماء واللغات، شرح الوسيط للغزالي، شرح أبي داود وكثير كثير من الكتب التي لم تكتمل.

وأما شيوخه فمن أوائلهم: شيخه جمال الدين عبدالكافي خطيب المسجد الأموي، ثم تاج الدين الفزاري مفتي الشام والمعروف بالفركاح ثم إسحاق المغربي ثم المقدسي، وعبدالرحمن بن نوح المقدسي، ثم عمر بن أسعد الأربلي، ثم أبوالحسن سلاّر بن الحسن الأربلي وهؤلاء شيوخه في الفقه. ومن شيوخه في الحديث: زين الدين النابلسي، وأبو إسحاق إبراهيم الواسطي، الذي سمع منه النووي صحيح مسلم وشيخ الشيوخ عبدالعزيز بن محمد بن عبدالمحسن الأنصاري الحموي، وزين الدين أبو العباس المقدسي، وأبو قدامة المقدسي وهو أجل شيوخه كما قال تلميذه ابن العطا(١)، وأبو الفضائل عبدالكريم الحرستاني خطيب دمشق، والتنوخي، والحراني، جمال الدين أبو زكريا .

ومن شيوخه في علم الأصول وأشهرهم العلامة القاضي أبو الفتح عمر بن بندار التفليسي الشافعي، ومن شيوخه في النحو واللغة أحمد بن سالم المصري وابن مالك والفخر المالكي الذي قرأ عليه اللمع لابن جني.

خامساً: وفاته:

توفي الإمام النووي ـ رحمه الله ـ ليلة الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٧٦هـ. يقول الإمام السبكي: لما مات النووي بنوى ارتجت دمشق وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً وأحيوا ليالي كثيرة لسنته(٢). وكانت وفاته بعد زيارة بيت المقدس والخليل، حيث عاد إلى نوى ومرض في بيت أبيه، ثم كانت وفاته- رحمه الله، وقد خرج قاضي القضاة في دمشق عزالدين محمد بن الصائغ وجماعة من العلماء إلى نوى للصلاة على قبره، وكان يسأل الله أن يموت في فلسطين(٣). وقال الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس

(١) تحفة الطالبين مصورة (٨/ ب) نقله الشيخ عبدالغني الدقر في كتابه الإمام النووي ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) السخاوي ٧٥ ونقله عنه الشيخ الدقر ص ١٩٧.

في رثائه قصيدة، أولها:

أكتم حزني والمدامع تبديه   لفقد امرئ كل البرية تبكيه(١)

وقد رثاه كثير من الأدباء والعلماء، ولا يتسع المجال لذكر كل ذلك .

سادساً: ما يستفاد من سيرة الإمام النووي ـ رحمه الله:

أبرز ما يستفاد من سيرة هذا الإمام الكبير هو: الوقوف مع الحق وقوف الرجال مهما كانت النتائج، فإن ذلك الوقوف هو الذي يفرض هيبة العالم العامل، ويحقق على يديه مصلحة المسلمين ونهوضهم، سواء كانت تلك الوقفة فردية من عالم باع نفسه لله، فلم يؤخر وقفته القوية أي معوق من دنيا أو جاه أو خوف من طغيان سلطان، أو رضوخ لشهوة، أو مطلب من مطالب الأنانية الشخصية.. أو كانت تلك الوقفة من هيئة أو جماعة أو تجمع، اجتمعوا على الحق وقاموا في الناس من أجله .

وإن ذلك لا يتحقق لأحد فردياً كان أم جماعياً إلا بعد أن تتحقق في الفرد أو الجماعة مواصفات والتزامات معينة أهمها:

١ – العلم الغزير، ونعني بالعلم كل ما يفيد الفرد والمجتمع من علم شرعي أو علم كوني، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢) .

٢ – العمل بالعلم بلا خوف ولا تردد، أي حتى لا يكون العلم عبارة عن ثقافة باردة، أو مجرد محفوظات لا أثر لها في الحياة، وقد قال الله تعالى في هذا: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍۭ۟ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(٣) و﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ .. ﴾(٤) .

---

(١) الشيخ الدقر (الإمام النووي) ص ١٩٨.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) الطور: ٢١ .
(٤) التوبة: ١٠٥.

٣ – الإخلاص الكامل لله، ومن علاماته: عدم التمسك بالدنيا ونعيمها ورفاهها (أي الزهد فيها). وامتلاء القلب بالخوف من الله، والنظر الدائم في العمل والمحاسبة (الورع). وإفراغ النفس من التطلع إلى ما عند الحكام والناس من مال أو جاه (الترفع). وفي هذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(١) وقال: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢).

٤ – التفاعل مع حاجات الناس والاهتمام بحياتهم ومشاكلهم والنظر في أوضاعهم والتعاون على تحسين كل ذلك..وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣). وقال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(٤).

٥ – الشجاعة عند الحاجة إليها، وعدم الهروب من الساحة بالتستر خلف الأعذار.. أرأيت موقف الإمام في مواجهة بيبرس، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(٥).

٦ – المثابرة بلا كلل ولا ملل ولا يأس، بحيث يكون آخر غيث العمل كأوله بل وأغزر، متوكلاً في ذلك على الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾(٦).

---

(١) فصلت: ٣٠.
(٢) هود: ١١٢.
(٣) آل عمران: ١٣٤ .
(٤) أخرجه البخاري (٥٥٥٢) ومسلم (٤٦٤١).
(٥) الأحزاب: ٣٩.
(٦) الطلاق: ٣ .

صابراً محتسباً: ﴿.. وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[١] و﴿.. إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**»[٣].

٧ – الخطاب المعتدل المتوازن المحسوب: وهو خطاب يراعى فيه حال المخاطب، وحال المتلقين، والظرف العام ومآل الكلمات أو الفعل. ﴿قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ..﴾[٤]. و﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ..﴾[٥] ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٦]. وقد أمر ربنا سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام بالخطاب المناسب مع فرعون: فقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٧].

٨ – وأخيراً وليس آخراً: إن الداعية وعضو الحراك الإسلامي في كل عصر، يجب أن يستحضر في ذاكرته دائماً قول القائلين: إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فاعرف فيم أقامك. وحينئذ تعرف ما هو واجبك ومسيرك. ولقد عرف النووي فيم أقامه الله، فعرف كيف يقف أمام الجبابرة وقبل ذلك تجاه الدنيا.

---

(١) آل عمران: ١٨٦.
(٢) الزمر: ١٠ .
(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٤) الأنعام: ١٥٢ .
(٥) الإسراء: ٥٣ .
(٦) الحج: ٢٤ .
(٧) طه: ٤٤.

المبحث الرابع
معاناة شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ هـ/ ٧٢٨ هـ)

أولاً : مولده ونشأته:

هو تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحرّاني الدمشقي ولد «بحران» من بلاد الشام في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ. وقد انتقل به أبوه إلى دمشق- وهو ابن سبع سنين- عندما أغار التتار على البلاد.

كان أبوه الشيخ شهاب الدين عبدالحليم من أئمة فقهاء المذهب الحنبلي في دمشق، وكان له مجلس للوعظ والإرشاد والتدريس في جامع دمشق، وتولى مشيخة دار الحديث، وكان بها سكنه، وفيها نشأ ولده شيخ الإسلام ابن تيمية.

وكان جده عبدالسلام كذلك من علماء الحنابلة المعدودين. درّس وأفتى وانتفع الناس بعلمه .

وفي هذه الأسرة نشأ ابن تيمية، فكان من الطبيعي أن يتجه للعلم .

ثانياً : طلبه للعلم:

حفظ القرآن في حداثته، ثم اتجه إلى حفظ الحديث واللغة، وقرأ الكتب الستة، ومسند الإمام أحمد عدة مرات. ودرس الأصول والتفسير والفقه وعلوم القرآن والسنة، وقد وهبه الله حافظة واعية، وذاكرة قوية، فما كان يحفظ شيئا وينساه، ولا يكاد يقرأ الشيء حتى ينتقش في ذهنه.

ثالثاً : شخصيته العلمية:

تفتحت مواهب ابن تيمية منذ صغره، حتى فاق أقرانه، بل كان يناظر

الكبار، ويتفوق عليهم. وأفتى وهو ابـن تـسع عـشرة سـنة، وأخـذ في الجمـع والتأليف منذ ذلك الوقت، وتضلع في علوم الحديث حتى قالوا: كـل حـديث لا يعرفه ابن تيمية، ليس بحديث، ولما مات أبوه خلفه ابنه في وظائفه، وجلس مجلسه في دار الحديث، وله إحدى وعشرون سنة، وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وصار يقصد بالاستفتاء من كل مكـان، وقـل أن يفتي في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة .

وكان يقوم بتفسير القرآن الكريم أيام الجمع من حفظه، ويتكلم الـساعات دون تلعثم.

رابعاً : شهادة العلماء له:

وقد اعترف له أئمة عصره بالأمانة والسبق. قـال المحـدث الكبـير ابـن دقيـق العيد: «رأيت رجلا جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

وقال أحد معاصريه: «وقد أَلاَن الله له العلوم، كما ألان له الحديث، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائـي والـسامع أنـه لا يعـرف غـير ذلـك الفـن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله، وكان الفقهاء من سـائر الطوائـف إذا جلـسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفـوه قبـل ذلـك، ولا يعـرف أنـه ناظر أحداً فانقطع منه، ولا تكلم في علم سواء أكان من علـوم الـشرع أم مـن غيرها، إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه» .

خامساً : إنتاجه العلمي:

لا تكاد تحصى كتب ابـن تيميـة لكثرتهـا، فقـد ألـف في العقائـد والتفـسير والفقه، وأكثر كتبه كان يكتبها من ذاكرته دون الاستعانة بمرجع، وكتب كثيراً منها وهو في سـجنه، وكتـب رسـائل شـتى رداً عـلى الملاحـدة وأهـل البـدع،

ورسائل أخرى إجابة على أسئلة كان يستفتى فيها من بلاد مختلفة، فتكون من ذلك ثروة علمية هائلة لا يستغني عنها عالم أو باحث، وقد قيل: إن تآليفه بلغت أكثر من خمس مئة مجلد[1].

سادساً : اجتهاداته:

كان الإمام ابن تيمية حنبلياً بنشأته وثقافته، إلا أن استقلاله الفكري، وعلمه الواسع بنفائس الكتاب والسنة، وأقضية الصحابة والتابعين ومذاهبهم جعله لا يحصر نفسه في نطاق المذاهب، بل كانت له ترجيحات واختيارات على خلاف المذهب، حلق بها في آفاق الكتاب والسنة، وفتاوى الصحابة والتابعين ووصل فيها إلى نتائج تخالف ما عليه أئمة المذاهب الأربعة أحياناً .

من ذلك: فتواه المشهورة في «الحلف الطلاق» وأنه لا يقع به الطلاق، وتجب في الحنث كفارة يمين .

وفتواه بأن الطلاق بلفظ الثلاث في مجلس واحد يقع طلقة واحدة فقط، وقد أوذي بسبب هذه الفتاوى، واعتبرت مآخذ ضده، وشنّع عليه بسببها، ثم شاء الله أن ينتهي إليها رأي الفقهاء اليوم، وأن يكون عليها العمل في المحاكم بعد قرون من تقريرها وإيذاء صاحبها ابن تيمية رضوان الله عليه .

سابعاً : معاناته:

أ – مما وصل إليه حال الأمة:

منذ نهاية القرن الرابع الهجري بدأت عوامل الضعف والانحلال تدب في كيان الأمة الإسلامية، وتوالت على المسلمين المحن والنكبات، فتعرضوا

---

(١) من أهم كتبه (منهاج السنة) و(درء تعارض العقل والنقل) و(اقتضاء الصراط المستقيم) و(الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) و(الصارم المسلول على شاتم الرسول) و (الفتاوى الكبرى) و(مجموع الفتاوى) و(السياسة الشرعية في صلاح الراعي والرعية) .

لموجات التتار من الشرق، والحروب الصليبية من الغرب، وبقيت بلاد الشام حوالي قرنين من الزمان تحت حكم الأوربيين، فاحتل الصليبيون دمشق وما جاورها سنة ٤٩١هـ، وبيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، وظلت الحرب مستمرة بين المسلمين والإفرنج مدة طويلة، ثم احتل الإفرنج مدينة دمياط بمصر، وخرج التتار من أطراف الصين، فاحتلوا بلاد تركستان، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند، وبخارى، وغيرهما، ثم عبرت طائفة منهم إلى خراسان، وإلى حد العراق، ثم تمكن التتار عام ٦٥٧هـ أو ٦٥٦هـ من احتلال بغداد، وبذلك سقطت هيبة الخلافة الإسلامية، وانتهت الخلافة العباسية، وبعد ذلك احتل التتار بلاد الشام، ثم جاء بعد ذلك دور المماليك في القيادة الإسلامية. ومن هذا يعلم أن شيخ الإسلام ظهر في عصر قد اضطربت فيه السياسة والحكم، وظهرت فيه انحرافات في العادات والتقاليد والسلوك والحياة، واشتدت فيه غربة الإسلام، وتفرقت كلمة المسلمين، وظهرت الفرق المخالفة لما كان عليه السلف الصالح في العقائد والفروع، وخيّم الجمود الفكري والتقليد الأعمى، فأثر ذلك في الجو العلمي، وظهرت فرق الشيعة، والصُّوفية المنحرفة والقبورية، ونفاة الصفات: كالجهمية والمعتزلة والقدرية، وطغى علم الكلام والفلسفة حتى حلَّا محلّ الكتاب والسنة لدى الأكثرية من المتعلمين في الاستدلال، حدث هذا كله في داخل المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، مع تكالب أعدائه من الخارج، فحصل من البلاء ما الله به عليم .

زد على هذا استبداد الحكام وظلمهم واسترسالهم في شهواتهم وغفلتهم عن أعدائهم الذين يغزونهم في عقر دارهم، حتى دب الوهن في النفوس، واستولى اليأس على القلوب .

في هذا الجو المعتم عاش شيخ الإسلام، فكيف يعمل حتى يصلح هذه المفاسد ويظهر النور في هذه الظلمات ؟ ما هو الموقف الحكيم الذي سلكه حتى أنار الله به الطريق لهذا المجتمع وألزمهم بالكتاب والسنة والإجماع وعقيدة السلف الصالحة الصافية النقية؟

وبالنظر في ذلك نجد أن الشيخ - رحمه الله - وقف مواقف حكيمة لإظهار علم الكتاب والسنة، وقمع أهل البدع والأهواء .

ب - جهاده باللسان والسنان:

في هذه البيئة المفككة، وفي هذا المجتمع الممزق، نشأ الإمام ابن تيمية فكان عليه أن يجاهد في أكثر من ميدان، كان عليه أن يجاهد التقليد والجمود، وأن يجاهد الإلحاد والزندقة، والنحل الضالة، وأن يجاهد الظلمة وأرباب الشهوات، وأن يجاهد الكفار والغزاة الذين يُغِيرون على بلاد الإسلام .

وبالجملة كان عليه أن يجاهد بالقلم واللسان والسيف والسنان، وكل ذلك كان.

فقد:

١ - **جاهد التقليد والمقلدين**، وأعلن في الناس ما أعلنه الإمام مالك من قبل: «كل يؤخذ من كلامه ويترك، إلا المعصوم ﷺ». وفتح أبواب الاجتهاد، ودعا إلى رد الأمة إلى منابع دينها: «كتاب الله وسنة رسوله». وكانت له اجتهادات حرة لا يتقيد فيها بمذهب معين، وله استنباطات لا تستند إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله.

٢- **ونازل أهل البدع والنحل الضالة**، وجادلهم حتى أفحمهم وانتصر

لعقيدة السلف. وألف الكتب الضخمة والرسائل الصغيرة في الرد عليهم، كمنهاج السنة النبوية، والرسالة المحمدية، والرسالة الواسطية وغيرها .

وقصارى القول: فقد أعاد للروح الإسلامية شبابها من جديد، فتعلقت به قلوب الناس وأحبوه، وكثر أتباعه ومريدوه.

٣- جهاد المنكرات: لم يمنع العلم والعكوف عليه الإمام ابن تيمية من أن ينزل إلى ميدان الحياة العامة يشارك فيها، ويباشر بنفسه تغيير المنكر وإزالته، وما كان يكتفي بالدروس والمواعظ يلقيها على الناس، فقد بلغه أن صخرة تزار، وتنذر لها النذور، وتقدم لها القرابين، فذهب مع أصحابه بالمعاول والفؤوس فكسروها وأراحوا المسلمين من وزرها. وكان ـ رحمه الله ـ يدور مع أصحابه على الحانات والخمارات فيغلقونها ويكسرون أواني الخمور، ويريقون ما فيها، ويعاقب أصحاب الخمارات .

وقد استطاع ابن تيمية أن يطبق هذه الأحكام في دمشق يوم أن فر الأمراء والعلماء والحكام من وجه التتار، وصار هو الحاكم الفعلي الذي بيده زمام الأمور.

وقد بقي لابن تيمية سلطانه الأدبي على الناس، فتوارى الفسقة عن العيون وامتنعوا عن المجاهرة بالمعصية .

٤- جهاده بالسيف: ففي سنة ٧٠٠ هـ، تسامع الناس بعودة التتار مرة أخرى، فأصاب الناس من ذلك بلاء وفزع، ولكن ابن تيمية الذي واجه التتار في الماضي بالسلم، أصر هذه المرة على حربهم بالسيف، وأفتى بأنهم بغاة يجب قتالهم، ولا جدوى من سلمهم، وحمل السيف، ووقف يلقي على الناس

دروسا في الجهاد والمرابطة والاستشهاد، ونهى عن الفرار، ورغب في إنفاق الأموال، وبين للناس أن ما ينفقونه في الهرب وما يضيع منهم بسببه إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا.

وسافر إلى مصر يستحث سلطانها وحكامها على نجدة أهل الشام، وما زال بهم حتى خرج السلطان بجنده إلى الشام .

وعلم التتار بتجميع المسلمين، وعزمهم على حربهم هذه المرة، فعادوا من حيث أتوا، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا بجموعهم في سنة ٧٠٢ هـ. واتجهوا نحو دمشق، فانخلعت قلوب الناس مرة أخرى، ولكن ابن تيمية الشجاع ترك حلقة العلم إلى ميدان الجهاد، وحمل السلاح، وامتطى صهوة جواده، وأخذ يشجع الناس ويثبت قلوبهم، ويعدهم بالنصر، ويتلو قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾[1] حتى إنه ليحلف بالله «إنكم لمنصورون» .

ووقعت الواقعة، والتقى الجمعان في موقعة معروفة باسم «شقحب» وأبلى المسلمون فيها بلاء حسنا، واستبسل أهل الشام، وجند مصر وابن تيمية معهم، حتى انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للتتار لم يعودوا بعدها للإغارة، ولم تقم لهم قائمة.

ج - معاناته من حسد المغرضين ووشاية المبغضين:

من الطبيعي أن يكون لابن تيمية حساد وأعداء، يكيدون له، ويحقدون عليه -شأن كل داعية مخلص، يجرد لسانه وقلمه وعلمه وعمله لله وحده .

---

(١) الحج: ٦٠.

فقد اتهموه بأنه يطمع في السلطان والملك، واتهموه بالتشبيه والتجسيم وهو الذي عاش حياته حرباً على المشبهة والمجسمة، وتلمسوا له بعض الآراء التي لم يتقيد فيها بمذهب من المذاهب التقليدية .

فنقل إلى مصر، وتمت محاكمته بحضور القضاة وكبار رجال الدولة، فحكموا عليه بالحبس سنة ونصف في القلعة، ثم أخرجوه من السجن، وعقدوا جلسة مناظرة بينه وبين منافسيه وخصومه، فكسب (ابن تيمية) المناظرة، ورغم ذلك لم يتركه الخصوم فنُفِي إلى الشام، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر وحبس، ثم نقل إلى الإسكندرية حيث حبس هناك ثمانية أشهر .

واستمرت محنة (ابن تيمية) واضطهاده إلى أن عاد إلى القاهرة حيث قرر السلطان الملك (الناصر محمد بن قلاوون) براءته من التهم الموجهة إليه، وأعطاه الحق في عقاب خصومه الذين كانوا السبب في عذابه واضطهاده، لكن الإمام (ابن تيمية) فضَّل أن يعفو عنهم ويصفح عن جميع من أساء إليه، ويحللهم من كل حق له .

وهكذا تكون شيم الكرام قال ابن مخلوف كان يقول: ما رأينا أفتى من ابن تيمية، سعينا في دمه. فلما قدر علينا عفا عنا.. صفحه عمن أساء إليه:

وظل (ابن تيمية) في القاهرة ينشر العلم، ويفسر القرآن الكريم، ويدعو المسلمين إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ثم رحل إلى (دمشق) بعد أن غاب عنها سبع سنين، وخلال وجوده هناك أفتى في مسألة، فأمره السلطان بأن يغير رأيه فيها، لكنه لم يهتم بأوامر السلطان وتمسك برأيه وقال: (لا يسعني كتمان العلم)، فقبضوا عليه وحبسوه ستة أشهر، ثم خرج من سجنه، ورجع

يفتي بما يراه مطابقًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. لكن خصومه انتهزوا فرصة إفتائه في مسألة شدّ الرِّحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، فقد كان ابن تيمية يرى أن تلك الزيارة ليست واجبة على المسلمين، فشنَّعوا عليه حتى حبس هو وأخوه الذي كان يخدمه، ورغم ذلك لم ينقطع عن التأليف والكتابة، لكنهم منعوه من ذلك، فأرادوا كتمان صوت علمه أيضاً، فأخرجوا ما عنده من الحبر والورق، فلم تلن عزيمته ولم تضعف همته وتحداهم، فكان يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك.

وكان – رحمه الله – يرى السجن فرصة للخلوة والعبادة. وكان يقول: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رحلت، فهي معي لا تفارقني، وإن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه» .

د – معاناته من التصاقه بالأمة ونجدتها:

لم يكن ابن تيمية – كما قلنا – معزولاً عن المجتمع، بعيداً عما يجري حوله من أحداث، ولكنه كان يهتم بأمور المسلمين، وينفعل بها، حتى أصبح معقد الآمال، تجزع إليه الأمة كلما ادلهمت الخطوب ووقع بها ظلم، أو أغار عليها عدو.

فعندما هاجم التتار بلاد الشام سنة ٦٦٩ هـ، وعاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الرعب والفزع في كل مكان، قصدوا إلى دمشق ففر كثير من العلماء إلى مصر، وترك الحكام البلد، فانتشر فيها السلب والنهب، وعمتها الفوضى، وخرج المحبوسون من السجون، وأخذوا ينهبون ما تقع عليه أيديهم. في هذه المحنة القاسية، لم يجد الناس إلا ابن تيمية الذي أبى أن ينجو بنفسه، بل آثر أن

يبقى مع الناس، يواسيهم ويثبت قلوبهم، ويوجههم، ويشاركهم في ما يصيبهم.

هـ- موقفه من قازان:

جمع ابن تيمية من بقي من أعيان البلد، واتفق معهم على ضبط الأمور، ومحاربة الفوضى حتى تستقر الأوضاع .

وخرج بنفسه على رأس وفد لمقابلة قازان ملك التتار، ليطلبوا منه الامتناع عن دخول دمشق .

وكان لابن تيمية معه موقف رائع، فقد خاطبه عن طريق ترجمانه:

«قل للقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - ومع ذلك غزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدًا فوفيَا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وَجُرْت».

وكان يرفع صوته بهذه الكلمات وهو يقرب من السلطان، والسلطان مقبل عليه، مصغ إليه، لما أوقع الله في قلبه من الهيبة حتى أنه سأل: من هذا الشيخ ؟ فإني لم أَرَ مِثله، ولا أثبت قلبا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه. وخرج من عنده بعد هذا القول معززاً مكرماً .

وقد أنتجت مقابلته لقازان أن رجع عن دخول دمشق في عامه هذا .

و – من شجاعته:

ومن مواقفه الرائعة الدالة على شجاعته وعزة نفسه، أن إنسانا شكا إليه من «قطلوبك» الكبير وظلمه له، فدخل عليه الشيخ وكلمه، فأراد أن يهزأ

بالشيخ، فقال له: إنك عالم زاهد، وكنت أريد أن أجيء أنا إليك، فقال له: كان موسى خيراً مني، وكان فرعون شراً منك، وكان موسى يجيء إلى فرعون كل يوم ثلاث مرات يعرض عليه الإيمان .

ولما تغلب التتار على أهل الشام ذهب ابن تيمية لمفاوضة (قطلوشاه) في إطلاق الأسرى، فسمح بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يطلق الأسرى من النصارى واليهود، فرفض الشيخ ـ رحمه الله ـ وأبى إلا أن يطلق النصارى واليهود من أهل الذمة، فلهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فأطلقهم له .

ومن شجاعته أنه لما وشي به إلى السلطان الناصر، وقالوا له يعمل للاستيلاء على الملك، أحضره الملك وقال له: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك. فلم يكترث به، وقال بنفس مطمئنة، وجنان ثابت، وصوت عال: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً .

فأخذ الملك من هذه اللهجة الصادقة، وقال له: والله إنك لصادق، وإن الذي وشى بك لكاذب، وأحبه بعد ذلك وأكرمه .

ثامناً : وفاته:

توفي ﷺ وهو سجين بقلعة دمشق، ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ. وخرجت دمشق عن بكرة أبيها في جنازته، وسار فيها الأمراء والعلماء والفقهاء والجنود وباقي الناس، ولم يسمع بجنازة بمثل هذا الجمع سوى جنازة الإمام أحمد بن حنبل في بغداد .

رحمه الله وجزاه خير ما يجزي العلماء العاملين المجاهدين الصادقين عن دينهم وأمتهم .

هذا هو ابن تيمية، العالم الفذ الذي أحدث في عصره تحولاً كبيراً، ووقف كالجبل الأشم يصارع أصحاب النحل الضالة، والعقائد الفاسدة، ويصارع التتار الجبابرة حتى حفظ للإسلام شبابه ونضارته، وحمل الراية بعده العز بن عبدالسلام، وقام برسالته خير قيام، فصدع بالحق في وجه الحكام الظلمة، وتعرض في سبيل ذلك لمحن شتى، ولكنها لم توهن من عزمه، ولم تضعف من قوته، وعبأ مشاعر الأمة وقوتها لمواجهة التتار حتى تم النصر.

لقد كان ابن تيمية يعتبر بحق مجدد أمر الدين. ومحيي مجد الإسلام في القرن الثامن[1].

---

(١) مراجع معاناة شيخ الإسلام ابن تيمية: وفيات الأعيان (٤/ ٣٨٦) والعبر في خبر من غبر (١/ ٢٩٠) والوافي بالوفيات (٢/ ٣٧٥) وذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٩) وشذرات الذهب فيمن ذهب (٦/ ٧٩) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ٨٠) والمفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى (٢/ ٢٩٣).

المبحث الخامس
معاناة ابن كثير الدمشقي (٧٠١ هـ/ ٧٧٤ هـ)

أولاً: ابن كثير في بطاقة:

١ – عاش ابن كثير رحمه الله حياته كلها في القرن الثامن الهجري، فهو ولد عام ٧٠١ هـ على الأرجح، وتوفي عام ٧٧٤ هـ (١٣٠٢–١٣٧٣) م، وأمضى هذه الحياة المباركة في مدينة دمشق (حاضرة بلاد الشام) التي كانت موحدة آنذاك مع مصر في ظلّ دولة المماليك. (الحاكم الأعلى هو السلطان ومقره مصر، وهو يعين نائباً عنه للسلطنة في دمشق) حيث تدار البلاد من الإدارتين.

٢ – وفي هذا العصر.. عاشت بلاد المشرق الإسلامي عزّ الانتصارات على بقايا الصليبيين؛ وآخرها الاستيلاء على عكا، وطرد آخر الصليبيين منها (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، وكذلك الانتصارات على المغول في عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠هـ على يد السلطان قطز، ثم بيبرس في حين كان الغرب الإسلامي في حالة من الحزن.. إذ كان المسلمون يودّعون الوجود في الأندلس، ويشهدون اضطرابات في المغرب وانشقاقات بين ملوكهم[1].

٣ – وقد حفز سقوط بغداد من قبل، وسقوط الأندلس من بعد، العلماء على الاستجابة لنداء ضمائرهم (لتعويض الإسلام وتاريخه عما فقده من ذخائره في بغداد (بالتتار)، وفي الشام (بالصليبيين)، وفي الأندلس (بالفرنج)[2] فنشطت حركة علمية، تم فيها حراك في التأليف كبير، وبناء للمدارس

---

(١) ابن كثير الدمشقي لمحمد الزحيلي ص٢٠ بتصرف وانظر: تهذيب الكمال (المقدمة) ١/ ١١–١٢.
(٢) المرجع السابق ص٢١، وانظر عصر سلاطين المماليك ٣/ ٩٥ (محمود رزق سليم).

العلمية، ونشاط عظيم في الدروس والتدريس. وقد شجع كل ذلك تنافس شديد بين الأمراء والحكام على رعايته ودعمه. إلا أن (شمس الاجتهاد قد احتجبت)[١].

٤ – في هذا الجو من القرن الثامن الهجري ولد ابن كثير عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م، وهو ما ذهب إليه جمهور المؤرخين، دون تحديد اليوم والشهر، وهو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء... بن زرع القيسي القرشي البَصروي، ثم الدمشقي، الشافعي[٢]. وكان مولده في قرية (مجيدل القرية) من أعمال بصرى الشام.. وهي غير بلدة (القرية) الموجودة الآن والتابعة للسويداء. وكانت أسرة ابن كثير.. أسرة علم، فوالده كان خطيب المسجد في القرية التي ولد فيها ابن كثير، وهو قرشي من بني حصلة، وانتقل إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ وهو ابن سبع سنين بعد وفاة والده عام ٧٠٣هـ، وفي دمشق انصرف ابن كثير إلى أخذ العلم حتى برّ فيه الأقران، وذاع اسمه، وجلس للتدريس، ثم للفتيا والقراءة، فكان قارئاً مجازاً ومجيزاً. ومن هنا جاء نسبه الدمشقي[٣].

ثانياً: قالوا فيه[٤]:

قال الذهبي أحد شيوخ ابن كثير في وصفه: «الإمام، الفقيه، المحدث، الأوحد، البارع، عماد الدين،.. فهو فيه متقن، ومحدث متفنن، ومفسر نقاد،

(١) المصدر السابق ص٢٢، وانظر إذا شئت: الفتح المبين (٢/ ٩٩) للشيخ عبدالله مصطفى المراغي.
(٢) المصدر السابق ص٤٧، وانظر إذا شئت: ترجمة ابن كثير في المنهل الصافي (٢/ ٤١٤) والدرر الكامنة (١/ ٣٩٩) لابن حجر العسقلاني، وذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي ص٥٧ و٣٦١ .
(٣) المصدر السابق ص٥٩-٦٣ باختصار شديد.
(٤) ابن كثير (مصدر سابق ص٥) .

وله تصانيف مفيدة».

وقال الحافظ ابن ناصر الدمشقي: «ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، عَلَم المفسرين أبو الفداء».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته» .

وقال المؤرخ ابن حبيب الحلبي: «إمام أهل التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرف الأسماع بأقواله وشنّف، وحدّث وأفاد وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد» .

ثالثاً: تصانيفه[1]:

وصلت مصنفاته إلى عشرين مصنفاً تقريباً.. نكتفي بتعدادها ومواضيعها:

١ – الاجتهاد في طلب الجهاد- رسالة في الجهاد.

٢ – الأحكام الصغير- رسالة في الحديث .

٣ – الأحكام الكبير- كتاب كبير لم يكمله.. وصل فيه إلى باب الحج.

٤ – أحكام التنبيه.

٥ – اختصار علوم الحديث، وهو اختصار لمقدمة ابن الصلاح المعروفة وهو مطبوع بعنوان (الباعث الحثيث).

٦ – اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي.

٧ – البداية والنهاية.. كتاب تاريخ نفيس معروف ومشهور (عدة مجلدات).

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٠ وما بعدها باختصار وبتصرف.

٨ – تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فروع الشافعية.

٩ – تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه.

١٠ – تفسير القرآن العظيم.. وهو التفسير المشهور لابن كثير.

١١ – التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل.

١٢ – جامع المسانيد والسنن.. الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن.

١٣ – السيرة النبوية.. (السيرة المطولة).

١٤ – شرح صحيح البخاري (لم يكمله).

١٥ – شعب الإيمان.

١٦ – طبقات الشافعية (ومعه مناقب الشافعي).

١٧ – الفصول في سيرة الرسول (السيرة الصغرى).

١٨ – فضائل القرآن.

١٩ – قصص الأنبياء.

٢٠ – كتاب في السماع.

٢١ – مسند الشيخين.

رابعاً: معاناته:

أ – الداخلية:

١ – بم كان تأثير ابن كثير: تمثلت مكانة ابن كثير بعلمه وكتبه النافعة المفيدة.. أكثر بكثير من مكانته بسيرته الشخصية، التي كان تأثيرها محدوداً في حياته وبعد مماته[(١)].

(١) المصدر السابق ص ١-٢.

٢- معاناته في طلب العلم والعمل:

أ- تفرغه للعلم كل الوقت: «لازم الاشتغال (بالعلم) ودأب، وحصل، وكتب»[١].

ب- حفظ القرآن وهو ابن ١١ سنة (٧١١هـ) . وقرأ بالقراءات، حتى عدّه الداودي من القراء، وترجم له في طبقاتهم[٢].

ج- تعلم الفقه على أخيه ثم على الشيخين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شِهْبَةَ .

د- ثم توجه إلى الحديث وعلومه: «واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله»[٣].

ثم انتقل إلى علم الرجال ومعرفتهم والنظر في العلل وبرع في ذلك، وصنف فيها[٤].

هـ- واهتم بعلوم اللغة العربية: «ويشارك في العربية مشاركة جيدة وينظم الشعر»[٥].

و- وقال الشوكاني: «وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل[٦]. وكل الذي ذكرناه آنفاً يدلّ على مدى المعاناة، في تناول هذه العلوم مجتمعة، وتحصيل الإتقان والبراعة فيها، بل وذيوع الشهرة، وكسب ثقة

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠، ثم انظر ابن تغري بردى في : المنهل الصافي (٢/ ٤١٥).
(٢) المصدر السابق ص ٧٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٢ وانظر هذا القول لابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩).
(٤) المصدر السابق ص ٧٣ .
(٥) المصدر السابق ص ٧٤ وانظر إذا شئت هذا القول لتلميذه ابن حجر (طبقات المفسرين ١/ ١١١).
(٦) البدر الطالع (١/ ١٥٣) .

الثقات فيها والتصنيف والتأليف.. وكلها أعمال تحتاج إلى الوقت كله والمعاناة الداخلية النفسية والجسدية .

ب – المعاناة الخارجية:

أ – كثرة مهماته: مع انشغاله في تحصيل العلم في مختلف فنونه كما رأينا، وجد الإمام ابن كثير وقتاً للقيام بمهمات عامة كلف بها ولم يتذمر أو يتهرب منها بحجة (الوقت والتعب) كما يفعل العديد من الدعاة اليوم؛ ومن تلك المهمات التي زادت همه هماً، واعتلت فوق كاهله المثقل بمعاناة وانشغال مهم:

– الإقراء.. أي تعليم التلاوة والقراءة .

– التحديث: وهو جزء من أعمال التدريس التي كان يقوم بها .

– التدريس: حيث درس الفقه والتفسير في الجامع الأموي وبدأ التدريس في المدرسة النجيبية.

– ولي مشيخة مدرسة أم الصالح ودرس فيها.. وأم الصالح هي أم الملك الصالح بن الملك العادل.

– ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وكان أعلم العلماء بالحديث في دمشق في زمانه.

– ولي مشيخة التنكزية .

– وقام بأمر الفتوى عملاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[1] وعملاً بحديث رسول الله ﷺ: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه، ألجمه الله بلجام من**

(١) البقرة: ١٥٩.

نار يوم القيامة»(١) .

- مستشار قضائي: حيث كان يدعى للمشاورة القضائية في الأمور الهامة الجسيمة، وكمثال عليها يروي ابن كثير حضوره مجلس في دار العدل بدار السعادة (حوادث ٧٤١هـ) في قضية عثمان الدكاكي .

يقول ابن كثير في هذا: وأحضر يومئذ عثمان الدكاكي قبحه الله تعالى، وادعي عليه بعظائم من القول، لم يؤثر مثلها عن الحلاج.. وقامت عليه البينة بدعوى الإلهية، لعنه الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء، ومخالطة أرباب الريب من الاتحادية، عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على القاضي الحنبلي، وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً.. والحكم بقتله لردته وكفره وفسقه وتنفيذ حكم القتل . إلى أن قال ابن كثير: «وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره»(٢) .

ب- معاناته من محاربة البدع وتتبعها والتألم من وجودها والفرح والاغتباط حين يعلن عن إلغائها.. وذلك اتباعاً للقرآن والسنة، وابتعاداً عما دخل على الإسلام من عادات وخرافات ليست منه، ومن هذه البدع التي فرح ابن كثير لإلغائها الوقيد في الجامع الأموي ليلة النصف من شعبان، والوقيد هو ما تشعل به النار، فكان الجامع الأموي ليلة النصف من شعبان يزاد في زيوت القناديل، وتشعل النيران.. مما كان يسبب شروراً كثيرة للناس والاستيجار بالجامع الأموي. وكان إبطال هذه البدعة بأمر من السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون.. وقد فرح الإمام ابن كثير(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦٤)، وصححه الألباني.
(٢) ابن كثير (مصدر سابق ص ١١٥-١١٦).
(٣) ابن كثير (مصدر سابق ص ١٢٥) باختصار وتصرف .

واغتبط لإزالة هذه البدعة.. ودعا للسلطان الناصر حسن.

ج- المعاناة من المواقف: لم يعتزل ابن كثير الناس والمجتمع وقضاياهم وأحداثه اليومية، بل كان يشارك في مجريات الأمور.. شأنه شأن العالم العامل.. الذي يعرف معدنه على المحك وعند الامتحان؛ وقد ظهر منه الموقف الحق رغم أنه مخالف لموقف أمر السلطان في مصر في قضية معاملة النصارى عام ٧٦٧هـ على إثر استيلاء الفرنجة على الإسكندرية: إذ أمر السلطان (بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يؤخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى، وطلبوا من بيوتهم بعنف) ثم يضيف الإمام ابن كثير: وقد طُلبت يوم السبت، السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعاً بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنساً كثيراً، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة، كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال: إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا.. فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه وأني كاشفته به، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية[1].

- وهناك موقفه الذي صدع به بالحق بطريقة لا تلحق به الأذى.. وهذا الموقف يتعلق بطلب نائب السلطنة في دمشق (سيف الدين بيدمر) فتيا من الشيخ بشأن موقف النائب من أحداث جرت في السلطنة في مصر، كان

(١) ابن كثير(مصدر سابق)، وارجع إلى البداية والنهاية (١٤/ ٣١٤-٣١٥)، وعمدة التفسير (١/ ٣٢) وما بعدها.

للنائب موقف متمرد.. وأراد فتيا لموقفه تؤيده.. فكان جواب الشيخ لا يعطي النائب ما يريده، ولا يجزم بضده..[(١)].

– ولا بد هنا من ذكر بعض مواقفه تعداداً: وهي تتعلق بشهادات له ضد علماء كان بينهم وبينه شحناء وخصومة، وهذه كما نعلم محنة يعاني منها الشخص المستقيم، ويتألم بسبب اتباع قول ربه: ﴿.. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴾[(٢)].. ومن هذه المواقف ترجمته لوفاة الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ترجمة وافية ومنصفة، مع أنه كان خصماً لشيخه ابن تيمية ومن يناصره ومنهم ابن كثير طبعاً[(٣)].

– وكان بين ابن كثير وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي خصومة فكرية.. فلما طُلب القاضي السبكي بدعوى التفريط بأموال الأيتام.. ويصل الأمر في الشهادة إلى الشيخ ابن كثير أنصف قاضي القضاة، وأوقف الافتراء عليه.. وجرى ذلك عام ٧٤٣هـ[(٤)].

– وكذلك امتحن ابن كثير بقضية حبه لابن تيمية والأخذ برأيه، خصوصاً فيما يتعلق بفتوى ابن تيمية في الطلاق، يقول الحافظ ابن حجر: «وأخذ عن ابن تيمية، ففتن بحبه، وامتحن بسببه»[(٥)].

رابعاً: وفاته رحمه الله:

في آخر حياته «أُضِرَّ» ابن كثير– أي فقد بصره– وقد حدد ابن حجر ذلك

(١) ابن كثير(مصدر سابق) وارجع إلى البداية والنهاية (١٤/ ٢٨١-٢٨٢) وعمدة التفسير (١/ ٢٩) والفصول ص٦٣ بتصرف واختصار .
(٢) المائدة: ٨.
(٣) ابن كثير (مصدر سابق) ص ١٣٤ مختصراً .
(٤) ابن كثير (مصدر سابق) ص ١٣٥ مختصراً .
(٥) الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠) وانظر البدر الطالع (١/ ١٥٣) نقلاً عن ابن كثير ص ١٣٦.

عام ٧٦٧هـ وإن لم يكن لديه دليل عليه، أي قبل سبع سنوات من وفاته. لقد أتعب ابن كثير نفسه بالمطالعة والدراسة وبالتأليف والتصنيف.. وقد نقل عنه تلميذه (ابن الجزري) قوله: «لا زلت أكتب فيه (جامع المسانيد) في الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه»[١].

وتوفي الإمام ابن كثير رحمه الله عام ٧٧٤هـ الموافق ١٣٧٣م وذلك باتفاق المؤرخين، وحدد أكثرهم أن الوفاة كانت في شعبان يوم الخميس، واختلفوا في تاريخ اليوم، فبعضهم ومنهم ابن حجر قال: في الخامس عشر من شعبان، وقال آخرون في السادس والعشرين من شعبان ودفن إلى جانب شيخه ابن تيمية في مقبرة الصوفية بناءً على توصيته .

ويقول الدكتور محمد الزحيلي فيه: «المحدث، المؤرخ، المفسر، الفقيه، العالم، الداعية، المصلح، المجاهد، التقي، الورع، المخلص، الطيب الذكر، الغائب بجسمه، الحي الحاضر بروحه وعلمه.. وطلاب العلم والعلماء بالملايين يلهجون بذكره في كل مكان وعصر..»[٢].

خامساً: الدرس المستفاد من سيرته:

عاش الإمام ابن كثير في القرن الثامن الهجري الذي سادته الاضطرابات السياسية والاجتماعية في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وكان الوضع يحتاج إلى عملية إصلاح أو تغيير كبيرين، وهو ما كان بحاجة إلى نخبة من الشخصيات المخلصة الفاهمة الواعية، ذات الأبعاد العلمية العميقة، والحاصلة على ثقة الناس وحبهم، وقد تحصل ذلك على يد مجموعة متتالية من العلماء

---

(١) ابن كثير (مصدر سابق) ص ١٨٧ نقلاً عن كتاب (المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد) تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (١/ ٤٠) دار المعارف – القاهرة .
(٢) ابن كثير (مصدر سابق) ص ١٩٨.

الكبار العاملين المخلصين من ذوي الشجاعة والإقدام، الباذلين كل شيء في سبيل إنقاذ أمتهم من كل ما يعوق نهوضها وتقدمها، ابتداءً من البعد عن مصادر الإسلام الحق واتباع البدع والخرافات والعادات والقبوريات، وانتهاءً بوجود المحتلين المغول والصليبيين الذين يهددون كيان المسلمين ودينهم. ومن هؤلاء الكبار الذين عنيناهم بالقول: العز بن عبدالسلام، وابن تيمية، وابن كثير وشيخه الكبير المِزّي وابن حجر العسقلاني (القرن التاسع)، وابن دقيق العيد، وابن قدامة المقدسي، وابن قيم الجوزية، وابن مفلح المقدسي الصالحي.. وغيرهم كثير.

وقد كان لكل منهم منهجه وطريقته في الإصلاح: فقد أجمعوا على أن الوضع الإسلامي لا يستقيم على ما هو عليه في ذلك الزمان.. لكنهم تفرقوا في الآليات والوسائل والأداء الموصلة للنتائج المرجوة. وبما أن مصر والشام كانتا في حوزة سلاطين المماليك، فقد هيأ هؤلاء البلاد لتكون زعيمة البلاد الإسلامية، وقد رأوا أن ما يقربهم من الناس ويوطد سلطانهم هو أن يعظموا الدين وأهله، ويرفعوا من قدر العلم والعلماء وذلك بفتح المدارس وإرصاد العلماء لها[1].

وقد ساعد موقف المماليك العلماء على تكثيف الأنشطة في العلم والإصلاح، وعلى تيسير مهمتهم.. لكن الأمر لم يخل من التحديات من مثل ما حدث مع العز بن عبدالسلام وتحديه للمماليك، وما حدث مع ابن تيمية وسجنه حتى مات، وما حدث مع شيخنا ابن كثير من بعض المواقف مع الحكام دون أن يلحق به أذى.. وما كان من الشحناء بينه وبين بعض علماء العصر.. وهو معتاد أصلاً.

---

(١) ذيل المزهر (تعريف بالسيوطي) ص٦٥٢ / المزهر للسيوطي وفي آخره التعريف من قبل شارحي (المزهر).

إلا أن ابن كثير واجه التحديات بمنهج الحياد والموضوعية.. وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون أن يوصل الأمور إلى التأزم والأذى.. وهذا المنهج.. يلتزمه بعض الدعاة والعلماء اليوم، فهم على حياد بما يجري على الساحة، فإذا كان لا بد من موقف، فهو بالمداراة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصيغة الموضوعية التي لا توصل الأمور إلى حالة من الاحتقان فهم على علم أن الحكام اليوم بأيديهم سلطات وإمكانيات أمنية واسعة، وإمساك شديد بمصائر الناس اقتصادياً ومالياً وحياتياً.. وقد خالف الشيخ ابن كثير في منهجه هذا منهج ابن تيمية شيخه المقرب، الذي لم تكن تأخذه في الله لومة لائم.. مهما كانت النتائج، وقد قابل غزو المغول بنفسه وسلاحه.. وقابل الحكام والمناوئين من المشايخ الصوفية والقبوريين وأهل البدع بقوة وبلا تهيب.. فهل تنفع طريقة ابن كثير الدعاة اليوم في مواجهة ما يجري في بلاد الإسلام؟

إن الدرس الذي يمكن استفادته من سيرة ابن كثير.. يقول: يجب على الدعاة اليوم التحلي بالصفات التالية: إحراز المكانة العالية في المجتمع بواسطة العلم والخدمة، ومختلف عناصر القرب من الناس.. وذلك حتى يصعب على المتنفذين النيل منهم، ثم امتلاك المؤسسات الكبرى التي تجعلهم قليلي الاعتماد على وظائف الدولة، وأيضاً امتلاك الشجاعة في مواجهة الترتيبات الرسمية لإبعادهم عن أماكن التأثير بدون مواربة .

وأخيراً.. إقناع الناس ببرنامجهم ليكونوا معهم.. وكل ذلك بالوسائل السلمية بعيداً عن العنف غير المسوغ .

المبحث السادس
معاناة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي
(٨٤٩هـ - ١٤٤٥م/ ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

أولاً: الإمام في سطور:

ولد السيوطي في مصر (القاهرة) في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (٣/ ١٠/ ١٤٤٥م) وهو الإمام الحافظ أبو الفضل كنيته، جلال الدين لقبه، عبدالرحمن بن كمال الدين والده، أبو المناقب كنيته، أبو بكر بن ناصر الدين محمد الخضيري الأسيوطي[(١)].

ولد الإمام جلال الدين في بيت علم وفقه وسائر الفنون، فوالده أبوبكر محمد بن أبي بكر الإمام العلامة ذو الفنون الفقهية، الفرضي، الحاسب، الأصولي، الجدلي، النحوي، التصريفي، البياني، البديعي، المنشئ، المترسل، البارع[(٢)].

وأما جده الأعلى الشيخ همام الدين، فكان أحد مشايخ الصوفية، ويقول الإمام جلال الدين: (ولجدنا هذا ضريح بأسيوط يزار ويتبرك به). وأما والدته فهي كما ذكر السخاوي معاصره وخصمه في الضوء اللامع (أَمَةٌ تركية، وقد تقدم بها العمر، حتى فجعت بوحيدها جلال الدين فبنت له ضريحاً لائقاً، وكان يعيّر بأنه ابن أمة، وله ردود لطيفة على ذلك)[(٣)].

ومن رحلاته في طلب العلم: رحلة الحجاز، والرحلة المصرية، وليس له

---

(١) من كتاب: الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، لإياد خالد الطباع، سلسلة أعلام المسلمين (٦٤) ص٢٩-٣٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ – ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ ، نقلاً عن الضوء اللامع للسخاوي (٣/ ٦٥).

غيرهما؛ الأولى كانت وهو ابن عشرين عاماً ٨٦٩هـ.. التقى فيها العديد من العلماء والنحاة، ومنهم من هو من تلاميذ والده . وقد جمع السُّيوطي فوائد رحلته، وما وقع له بها، وما ألفه أو نظمه، أو طالعه في كتاب أسماه: «النحلة الزكية في الرحلة المكية» .

وأما رحلته الثانية، فكانت داخل مصر سنة ٨٧٠هـ، وكانت وجهتها دمياط والإسكندرية وأعمالهما، وجمع فوائد هذه الرحلة التي أسمع فيها ودرس وقرأ من مؤلفاته الكثير، ثم سمع من العلماء والمشايخ، في مؤلف أسماه «الاغتباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط» .

حفظ السيوطي القرآن وله من العمر ثماني سنين، وكان له ستمائة شيخ، ومن عيون شيوخه برهان الدين المعروف بابن الضُّعَيّف ، والمناوي، والحارث المكي، والحصكفي الشافعي، والقليوبي، وأحمد بن إبراهيم الحلبي، وأحمد بن خليل الشهير بابن اللبودي، وشهاب الدين أبو العباس الكناني العسقلاني، وأبوالفضل بن حجر العسقلاني، والبلقيني، والجبرتي، وخليل بن أحمد الدمشقي الصالحي، وخليل بن عبدالقادر بن حمايل النابلسي، والبزاز خليل ابن محمد أبو الفضل، وصالح بن عمر بن رسلان الكناني البلقيني، وعبدالرحمن بن محمد بن إسماعيل الكركي، والتكروري، وخلق كثير غيرهم منهم الحنفي ومنهم الشافعي ومنهم المالكي والحنبلي، وهذا يدل على سعة اطلاعه، ورحابة صدره، وعظيم سماعه، وهو الشافعي العريق. وكان من بين شيوخه ٤٢ عالمة.. مما يدل على أن المرأة في الإسلام ليست خاملة (١).

ثانياً: قالوا فيه:

١- «الأستاذ الجليل الكبير، الذي لا تكاد الأعصار تسمع له بنظير، شيخ

---

(١) المصدر السابق صفحات ٤١ – ٥٤ بتصرف واختصار .

الإسلام، وراث علوم الأنبياء عليهم السلام، فريد دهره، ووحيد عصره، مميت البدعة، ومحي السنة، العلامة البحر الفهامة، مفتي الأنام.. جامع أشتات الفضائل والفنون.. والسيف الصارم في قطع رقاب المعاندين، سلطان العلماء، ولسان المتكلمين، إمام المحدثين في وقته وزمانه،.. ومن اجتمعت فيه شروط المجتهد وصفاته.. مربي المريدين ومرشد السالكين، وعمدة التحقيق، وقدوة الناسكي»[١].

٢-«كثير الاطلاع، نادرة في عصره، بقية السلف، وعمدة الخلف، وبلغت مصنفاته نحواً من ستمائة تأليف، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل»[٢].

٣- «المسند المحقق المدقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة»[٣].

٤- «فخر المتأخرين، علم أعلام الدين، خاتمة الحفاظ.. هذا الرجل كان نادرة من نوادر الإسلام في القرون الأخيرة حفظاً ومشاركة وكثرة تأليف»[٤].

٥- «الحافظ المجتهد.. الذي طبقت شهرته الآفاق علماً وتواليف وفتاوى، حتى يمكننا الجزم بأنه لا يوجد على ظهر البسيطة من له من النسخ الخطية المبثوثة في خزائن العالم أكثر منه ولا من ألف بعدد كتبه مثله، وأما فتاواه فقد تلقاها الناس بقبول حسن، وانتشرت ما بين مشارق الأرض ومغاربها»[٥].

ثالثاً: من صفاته الشخصية:

١- شخصيته الموسوعية العلمية: من العجب أن تنجب الأمة شخصية

(١) تلميذه عبدالقادر بن محمد الشاذلي، من المصدر السابق ص٥ .
(٢) تلميذه المؤرخ البحاثة ابن اياس، من المصدر السابق ص٥ .
(٣) ابن العماد الحنبلي، من المصدر السابق ص٦ .
(٤) الشيخ عبدالحي الكتاني، من المصدر السابق ص٦ .
(٥) من مقدمة مؤلف المصدر السابق ص٧ .

موسوعية بهذه الغزارة في العصر الذي يسمونه (عصر الانحطاط) عجباً من هذه التسمية، وفيها يوجد مثل السيوطي.. وله ستمائة شيخ..!

٢- خصاله: يقول عن نفسه: «إن الله سبحانه من فضله وكرمه جبلني من حين كنت ابن سبع سنين على خصال: منها حب الخير والعمل الصالح، وحسن الاعتقاد في الفقراء وأهل الصلاح، والزهد والتعبد.. ومنها كثرة التأني في الأمور.. ونشأت على حبّ الصالحين واعتقادهم»[1].

٣- وكان إلى جانب ذلك أبياً.. لا تذله الأطماع، قنوعاً، يقول الحق ولو جلب إليه العداوة، زاهداً في مناصب الدنيا.. وهذه من صفات السلف العارفين المقبلين على الله، متبعين قول رسول الله ﷺ الذي رواه الترمذي **«من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء»**[2].

رابعاً: من مؤلفاته:

نذكر هنا أهم مصنفات جلال الدين، التي كان لها أثر وتأثير، أو كان حولها جدل وضجيج، ومن أولها كتابه الداعي إلى الاجتهاد، وادعاؤه فيه أنه بلغ الدرجة المطلقة فيه .

١- الردّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض.

٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦ مجلدات) .

٣- التفسير المسند المسمى (ترجمان القرآن) .

٤- أسرار التنزيل المسمى (قطف الأزهار في كشف الأسرار) كتب منه إلى

(١) المصدر السابق ص ٧٦-٧٧، نقله عن كتاب « بهجة العابدين» لتلميذ الشيخ الشاذلي ق/ ٣٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

آخر سورة الإسراء.

٥- الإتقان في علوم القرآن، وله في علوم القرآن ما يزيد على سبعة عشر كتاباً غير الإتقان .

٦- معترك الأقران في إعجاز القرآن .

٧- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع .

وله المصنفات الكثيرة في باب التفسير وعلوم القرآن وفي علوم الحديث له:

١- الجامع الكبير والجامع الصغير .

٢- تعليقاته وشروحه على الكتب الستة .

٣- مجرد الموطأ .

٤- المنتقى من المستدرك على الصحيحين .

٥- بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد .

٦- الخبر الدال على وجود القطب والنجباء والأبدال .

٧- فلق الصباح في تخريج أحاديث الصحاح .

٨- الألفية في مصطلح الحديث .

٩- الفوائد المتكاثرة في الأحاديث المتواترة .

١٠-اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة .

وهناك الكثير من كتبه المتعلقة بالحديث وأصول علمه وفي الفقه وأصوله:

١- مختصر الحاوي الكبير للماوردي .

٢- مختصر الأحكام السلطانية للماوردي .

٣- الحاوي للفتاوي .

٤- جزيل المواهب في اختلاف المذاهب .

٥- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية .

٦- الأزهار الغضة في حواشي الروضة، شرح فيه كتاب النووي «روضة الطالبين وعمدة المفتين».

٧- الوافي: مختصر التنبيه للشيرازي .

٨- العذب المسلسل في تصحيح الخلاف المرسل .

وله تصانيف كثيرة في الفقه في مسألة واحدة أو الرد على سؤال واستفتاء.. مثل تحفة الأنجاب بمسألة السنجاب، والظفر بقلم الظفر، والخط الوافر من المغنم في استدراك الكافر إذا أسلم[١] .

وله مصنفات كثيرة في النحو واللغة والأدب والشعر والتاريخ والكلام لا يتسع المجال لذكرها . وقد ذكر مؤلف كتاب الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي من مؤلفاته ١١٩٤ عنواناً رحمه الله .

خامساً: معاناة الإمام السيوطي:

١ – المعاناة الداخلية:

أ – كان الإمام صاحب فكر في كل ما ألف وناظر وليس حاطب ليل، وكان طامحاً لرضاء الله عن طريق وصول المجد في العلم والعمل، فهو كاره للبدع والخرافات، كاره للفلسفة والمنطق حدّ التحريم فهو يقول: وألفت في ذم

(١) يراجع المصدر السابق مفصلاً ص١٠٩-١٧٦.

المنطق وأنا ابن ثمانِ عشرة سنة، وكرهته كراهة تحريم، وما سمعت بمسألة تعزى إلى علوم الفلاسفة إلا كرهت سماعها، ولا بكتاب في شيء من فنونهم إلا وتحاميت النظر فيه[١]. وهذا فيه ما فيه من عناء نفسي داخلي شخصي، وبخاصة إذا علمنا كم كانت البدع منتشرة؟! وكم كان المنطق سائداً؟

وزاد في معاناته الشخصية زهده بالمناصب وعطايا السلاطين والمتنفذين - فكان إذا احتاج نفقة باع من كتبه وأكل من ثمنها - قاله تلميذه الشاذلي.. وقال أيضاً.

ب- «وكان- رحمه الله- مترفعاً على أرباب الدنيا، بل على ملوكها وسلاطينها.. معرضاً عما في أيديهم.. لا يداهنهم، ولا يرائيهم، بل لا يتردد إلى أحد أصلاً، لا في الخلوة ولا في الملأ، وكان يُسأل بالأموال النفيسة والوظائف الضخمة الرئيسة من السلطان فمن دونه سراً لا مشاهداً محققاً، فيقول في الجواب: لا أقبل وظيفة ولا مرتباً مطلقاً، وكانت الملوك والأمراء تسعى إلى منزله، ويأتون إلى خدمته، ويجلسون بالأدب في حضرته ويعظمونه، ويفتقدونه.. ويسألونه: ألك حاجة يا سيدي ؟ فما يزيدهم على أن يقول لهم في الجواب: حاجتي إلى الله.. ويرد هدية السلطان (قانصوه الغوري) المؤلفة من خصيٍّ وألف دينار، فردّ الألف، وأخذ الخصيّ، فأعتقه، وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقال لقاصد السلطان: لا تعد تأتينا بهدية قط، فإن الله أغنانا عن مثل ذلك، وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه»[٢].

تعليق: فما بالنا اليوم نطلب لقاء السلطان فلا يلتفت إلينا.. ويجيبنا بمزيد

---

(١) المصدر السابق ص٧٨-٧٩ ونقله عن «بهجة العابدين» ق ٣٣ لتلميذه الشاذلي.

(٢) المصدر السابق ص٧٩-٨٠ ونقله عن «بهجة العابدين» ٣١/أ و ٢٩/أ.

من القمع والاعتقال؟!.. لنتأمل في ذلك.. ولعلنا نصل إلى جواب.

ثم إن السؤال حول ذلك الزهد العالي يقول: أليس في ذلك من المعاناة النفسية الداخلية الشيء الكثير.. إن تحمل العروض السخية ورفضها، وتحمل الإعراض عن الدنيا وما يبذل من نعيمها للإنسان ابتغاء مرضاة الله، وحتى لا يكون قبول معروضات الكبراء سبيلاً منهم إلى التأثير في دين الشيخ وآرائه وفكره.. ونقول: إن تحمل ذلك فيه من العناء وقمع النفس الشيء الكثير.. وهو ما دفع الإمام السيوطي إلى تأليف رسالة خاصة أسماها: «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»[1].

وهذه لعمري سيرة السلف والخلف الصالحين المبتغين وجه الله.. ولقد ورد مثل ذلك في منهج الإمام البنا رحمه الله.. في البعد عن الكبراء .

ج- ومن معاناته الداخلية أنه رُزِءَ بفقد إخوته وأولاده في حياته.. وهذا لعمري بلاء نفسي وشخصي كبير، لا شك أنه عانى من تحمله المعاناة الشديدة، التي تحتاج إلى صبر عظيم، وتسليم خالص.. وهو أهل لهما رحمه الله.. فقد قال الشيخ في ذلك: «.. وكذا غالب إخوتي وأولادي ماتوا ما بين مطعون (الطاعون).. ونفساء وصاحب ذات الجنب، وأرجو ذلك من فضل الله»[2].

د- وقد عانى الشيخ جلال الدين من اليتم، بسبب وفاة والده وهو ابن ست سنوات، وذلك عام ٨٥٥.. حيث أوصى به صديقه الكمال بن الهمام علامة الديار المصرية وقتها (٧٩٠هـ-٨٦١هـ) . (وهو صاحب الكتاب الفذ «فتح القدير» الذي شرح فيه كتاب (الهداية) واختار فيه آراءً مخالفة لرأي إمامه

(١) المصدر السابق ص٨٠ ونقله عن «شذرات الذهب» (١٠/ ٧٦).
(٢) المصدر السابق ص٣٧ ونقله عن «بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة» (١/ ٣٧٧).

أبي حنيفة).. فرعاه الكمال ودعا له، وختم القرآن في عهده، ولم يتم بعد سنواته الثماني[١].. فكانت وفاة والده أول المعاناة النفسية الداخلية .

٢- المعاناة الخارجية:

وهي نوعان:

الأول: ما كان من معاناة نفسية بسبب كثرة ما كان يعرض عليه من مال ومناصب، والحرج الذي يقع فيه لردّه كل ذلك، خصوصاً أن السلطان ومن حوله هم من كانوا يعرضون عليه تلك العروض. وقد أتينا آنفاً على ذكر شيء من ذلك.

وأما الثاني: فهو الذي كان يشكل له معظم المعاناة الخارجية، وهو متأتٍ من خصومه من العلماء والمشايخ بسبب الحسد أو الخلاف في الرأي.. وقد لحقه رحمه الله من هذا الباب ضرر وأذى، حتى أنه خصص باباً في ذلك ضمن ترجمته من كتاب «التحدث بنعمة الله» أسماه: ذكر نعمة الله عليّ في أن أقام لي عدواً يؤذيني، وابتلاني بأبي جهل يغمصني، كما كان للسلف مثل ذلك[٢]:

أ – وفي هذا الشأن عانى الإمام جلال الدين.. حيث انقسم العلماء في عصره إلى معسكرين معسكر معه يقوده ومنهم: الفخر الديمي، والأقصرائي (أمين الدين)، وزين الدين قاسم الحنفي، وسراج الدين العبادي.. ومعسكر خصم يقوده: السخاوي، ويناصره بذلك إمام السلطان الكركي، والشمس الجوجري، والقسطلاني، وشمس الدين الباني .

ودارت بين المعسكرين معارك ومناظرات في القول والرد، وكان أكثر ما

(١) المصدر السابق ص٣٨ ونقله عن كتاب الشيخ «التحدث بنعمة الله » ٦٣، ٢٣٦.
(٢) المصدر السابق ص٨٠ ونقله عن «التحدث بنعمة الله » ١٦٠.

يؤخذ عليه من أولئك الخصوم بعض فتاويه، وقولُه بالاجتهاد وادعاؤه لنفسه، وأنه يمتلك أدواته ومواصفات القائم فيه. وقد صنف في الرد على السخاوي قائد معسكر خصومه: «الكاوي في تاريخ السخاوي»؛ ردّ فيه على ما أورده السخاوي في كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، حيث يقول السيوطي في الرد: «درأت بها عن أئمة أعلام، ومشايخ هم أركان للإسلام، وعلماء ما لحومهم إلا سمام»[1].

وكتاب السخاوي هو كتاب تأريخ لأعيان القرن التاسع الهجري، وعلى ما يبدو فإن السخاوي لم يراع فيه الحق والحقيقة، إذ «ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض، لم يفرق فيه بين جليل وحقير..»[2].

ب- وكان ردّه على الكركي بسبب تعرض الرجل لبعض فتاوى الإمام، ولإدعائه الاجتهاد، وكتب في ذلك وفي بيان رأيه في خصميه السخاوي والجوجري كتاب: «الدوران الفلكي على ابن الكركي»[3].

ج- وحدث بين الإمام والجوجري خلاف في عدد من المسائل المتعلقة بالفقه والتوحيد والنحو، وقد ألف في ذلك كتابه: «اللفظ الجوهري في ردّ خباط الجوجري» في مسألة رؤية النساء لله تعالى في الدار الآخرة.. أَوَ تَخْتَص بالرجال؟ والجوجري أحد تلاميذ الإمام وكان تاجراً ثم اشتغل بالعلم، وكان ذكياً كما قال السيوطي عنه[4].

(١) المصدر السابق ص٨٢ ونقله عن « شرح مقامات جلال الدين السيوطي» (٢/ ٩٣٥) مقامة الكاوي.
(٢) المصدر السابق ص٨٣ .
(٣) المصدر السابق ص٨٤، ونقله عن «التحدث بنعمة الله» ١٨٦-١٩٠ .
(٤) المصدر السابق ص٨٤ ونقله عن «التحدث بنعمة الله» ١٨٦-١٩٠ .

د- ويقع ضمن هذه المعاناة ما تحدى به جلال الدين أهل زمانه، وهي سبعة أسئلة تتعلق بحروف المعجم: **أولها**: ما هي هذه الأسماء/ ألف، باء، تاء، ثاء، جيم إلى آخره وما مسماها؛ **وثانيها**: من وضع هذه الحروف؟ وفي أي زمن وضعت؟ وما مستند واضعها، هل هو العقل أو النقل؟ **وثالثها**: وهل هي مختصة باللغة العربية..؟ **ورابعها**: الألف والهمزة، هل هما مترادفان أو مفترقان؟ **والخامس**: لِمَ أجمع علماء اللغة والعدد.. على الابتداء بحرف الهمزة؟ **والسادس**: كلمات أبجد هوز.. هل هي مهملة أو مستعملة؟ وما عُني بها، وما أصلها..؟ **والسابع**: ما حكمها في الابتداء والوقف، والمنع والصرف، والتذكير والتأنيث، والإعراب والبناء، واللفظ والرسم، وعند التسمية بها، وما حكمها عند نقشها على ثوب أو بساط أو حائط أو سقف؟ وهل للحروف المجتمعة أو المتفرقة حرمة؟ وقال الشيخ في الآخر: فهذه سبعة أسئلة، من أجاب عنها فهو من الرجال، وإلا فلا مزية له على الأطفال[1]. وقد أجاب عليها السيوطي في تصنيف مستقل، نشره الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه «جلال الدين السيوطي (مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ٢٥٩-٢٦٤)».

هـ- كل هذا العناء والعنت الذي يجلب الهم والغم، ويضيع الوقت في القول والردّ وإثارة الإِحَن والخصومات، زاد عليه ما لاقاه من مثله في قضية كبرى هي قضية الاجتهاد، وما أثاره عليه المقلدون من لجاج، لفتحه هذا الباب المغلق منذ قرون. وقد دافع السيوطي عن الموضوع دفاعاً مفحماً، وردّ بهجوم كاسح، رسخ الموضوع وأثبته. كما أنه مما زاد في عنائه تعيينه وتفويضه بالقضاء بالديار المصرية وسائر الممالك الشريفة الإسلامية شرقاً وغرباً، وما سيفتحه الله

(١) المصدر السابق ص٨٦ ونقله عن «التحدث بنعمة الله» ١٧٣-١٧٤.

على المسلمين من بلاد الكفار تفويضاً عاماً مطلقاً، لا شرط فيه ولا استثناء، وفوض أيضاً بالنظر في شؤون القضاة.. وقد صدر التفويض سنة اثنين وتسع مئة، وأشهد عليه أربعة عدول، وكتب ذلك بحروفه الخليفة عبدالعزيز بن يعقوب العباسي (المتوكل على الله) أمير المؤمنين إذ كتب له يقول في مقدمة التفويض: «.. إلى سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى، شيخ الإسلام والمسلمين، حافظ العصر، ومجتهد الوقت، جلال الدين أبي الفضل عبدالرحمن السيوطي الشافعي، أدام الله تعالى النفع به»[(١)].

و- ومن المعاناة الخارجية التي جاء من خصومه وأعدائه إيغار صدر السلطان طومان باي المعروف ببطشه وسطوته، فعزم على الفتك بالسيوطي، فتوارى الإمام مدة ثلاثة أشهر وذلك بدءًا من جمادى الآخرة سنة ٩٠٦هـ، إلى أن سقطت دولة طومان باي، وتولى قانصوه الغوري وكانت علاقته به طيبة[(٢)].

سادساً: وفاته:

مرض الإمام السيوطي رحمه الله.. إذ أصابه ورم شديد في ذراعه اليسرى، مكث معه سبعة أيام، ثم توفي رحمه الله في ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١ هجرية.. الموافق لـ ١٧/ ١٠/ ١٥٠٥، وكان ذلك في منزله بروضة المقياس، وقد استوفى من العمر آنذاك إحدى وستين وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، وصُلي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع الأباريقي بالروضة، وحضره هناك خلائق، وصلى عليه خلق لا يحصون مرة ثانية، وكان له مشهد عظيم، كما صلى عليه في دمشق في الجامع الأموي صلاة الغائب، يوم الجمعة ٨

---

(١) بهجة العابدين ٣٣/ ب ونقله منه مصدرنا السابق ص٤٣٠-٤٣١ بتصرف واختصار .
(٢) المصدر السابق ص٤٣٥ – ونقله عن بدائع الزهور لابن إياس ٤/ ٥، ١١.

رجب ٩١١هـ[١]. وهكذا رحل إمام مجدد على رأس المئة التاسعة وباعث الهمة في العلم والاجتهاد للمئة العاشرة الهجرية. رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن المسلمين وعن نبي الإسلام خير الجزاء، فهو من خير من علم وتعلم. وفي آخر المطاف معه يمكننا استخلاص الدروس التالية من سيرته:

سابعاً: الدروس المستفادة من سيرته:

١- إن هذا الدين محفوظ ما مرّ الزمان قرناً بعد قرن، فلا يُخشى عليه؛ فأولياء الله والعلماء الأفذاذ لا تخلو منهم ساعة، ولا تفتقدهم ساحة.. حتى يرث الله الأرض، ويأذن بالساعة .

٢- إن من ينظر في ساحة القرن العاشر، وما قبله وما بعده، ويدقق في كثرة العلم والعلماء، والجدال الذي يدور، وانتشار العلم وعناية الحكام به وإقبالهم عليه في ذلك الزمان ليصل إلى نتيجة مفاجئة؛ وهي أن إطلاق اسم عصر «الانحطاط» على تلك الأيام والأزمان (عصر الأيوبيين والمماليك)، ليس إلا خدعة انخدع بها كتاب عصرنا، مقلدين ما أوحى به الآخر، نكاية بالأمة، وتحضيراً لتسمية ما نحن فيه اليوم ومنذ قرن / بعصر النهضة/ وما هي بنهضة/ وإنما هي محاولة لاقتياد الأمة إلى الانخلاع من دينها تحت ذلك المسمى، وحتى لا يبقى في جعبتها أي سهم.

٣- ولكن الله لهم بالمرصاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٢]. أليس هو العصر الذي اندحر به المغول اندحاراً كاملاً بداية من عين جالوت؟ أليس هو العصر الذي رأينا فيه فلول الصليبيين تتزاحم على بوابات البحار، هروباً من وقع سيوف

---

(١) الإمام الحافظ جلال الدين (مصدر سابق) بتصرف ص٤٣٦-٤٣٧، وانظر: الكواكب السائرة ١/ ٢٣١.
(٢) الفجر:١٤ .

المماليك؟ أليس هو العصر الذي أعيدت به الخلافة العباسية ولو شكلاً؟ أليس هو العصر الذي توحد به قطرا الشام ومصر في دولة مهابة؟ ثم أو ليس هو العصر الذي فتح فيه الملوك المماليك، ومن قبلهم الأيوبي صلاح الدين، أبوابهم للعلماء، مقربين مسموعي الرأي، مفوضين في التوجيه.. ثم أليس هم من شجع العلم وتديّن به، وخاف الله، وحصص الأموال الكثيرة للمدارس والخانقات وللقضاء العادل؟ ألم يقل السيوطي نفسه: إن الأمراء والملوك كانت تسعى إليه في منزله، ويجلسون بالأدب في حضرته، ويعظمونه، ويسألونه عن حاجته؟

إن الدولة القوية المهابة، التي أقنعت المغول المحتلين بالإسلام، وإن المجتمع الممتلئ بالعلم والعلماء، والجيوش المنتصرة المظفرة في كل المعارك مع الأعداء، والدولة التي بدأت مع العلم بالصناعة وتشجيع المخترعات، وبالمشيدات التي تشهد بها آثارها العظيمة، وإن الحكام المتدينين والمتواضعين الراضخين لشرع الله، لا يمكن أن نصف زمانهم بعصر الانحطاط وإلا كنا بلا منطق وبلا عقول.. نقول هذا ونحن على علم بما كان أيضاً من هنات وتناطح بين المتنفذين وفي بعض الأحيان من ظلم وخروج على المعروف من العلم.. إلا أن الناس دائماً تتكلم عن الأكثر والأبرز، وفي سبيل ذلك تنسى الهنات الحادثة هنا هناك..

وأخيراً وليس آخراً إنه درس للدعاة في كل زمان يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[(١)].

فإن يكن أصحاب المناهج غير المهتدية بهدي الإسلام هم الظاهرون اليوم، المهيمنون على معظم سدد الحكم والسياسة والإعلام.. فقد حدث من قبل مثل هذا الوضع، ولكن الله نصر دينه بالرجل الواحد، الذي أصبح أمة تؤازره، وتتبع الهدى الرباني الذي أعاد به الأمل.. فمن بعد الصحابة كان عمر ابن عبدالعزيز مجدداً، ثم كان مالك وأحمد وكان في القرون المتأخرة صلاح الدين، والعسقلاني والنووي، والسيوطي فأحيوا الهمة في الشعب وفي الحكام.. حتى عاد بعض الرونق للأمة والعزيز من القوة، التي سادت ساحات الوغى بشعار: وا إسلاماه، والله أكبر.. وجاء الإمام البنا في القرن الأخير.. فدبت حركة الإسلام في الأمة إلى أن أصبحت مطالب الناس بالعودة إلى دينهم، ونبذ تقليد الأعداء والخنوع لهم هي الصوت الأعلى في الأمة. ولا زال العمل في هذا الاتجاه من قبل أتباعه ومريديه والسائرين على الطريق مستمراً ومتدفقاً ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾.. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ..﴾ فلا يكون يأس.. أبداً.. ما دام في الأمة رجال وحراك يسيرون على درب رسول الله ﷺ.. فالتمسك والعزم العزم والأمل بين يدي الكلام.

(١) آل عمران: ١٣٩-١٤٠.

المبحث السابع
معاناة الإمام محمد بن عبد الوهاب
(١١١٥هـ- ١٧٠٣م/ ١٢٠٦هـ-١٧٩٢م)

أولاً: الإمام في سطور:

ولد الإمام عام ١١١٥ هـ في منطقة العُيينة في إقليم نجد (قرية حـريملا)؛ أي قبل تشكيل المملكة العربية السعودية في شبه الجزيرة العربية، وكان مولـده في بيت أبيه الشيخ عبدالوهاب بن سليمان الـوهيبي التميمـي قـاضي العُيينـة. وهو بيت عرف بالعلم والتقوى والـصلاح، يرعـاه والـده في مـسيرته الدينيـة والثقافية في بدايات حياته. فقد حفـظ القـرآن في كتَّـاب البلـدة قبـل أن يبلـغ العاشرة من عمره، وهو حفظ يعيشه الحافظ أحكاماً وتشريعاً للتنفيذ، ولـيس للتلاوة وحسب. ثم تعلّم الفقه على أيدي علماء الحنابلة، فأتقنـه بـسرعة تـدل على ذكاء حاد وحافظـة طيبـة، فهـذا أخـوه يقـول: «كـان أبي (عبـدالوهاب) يتعجب من ذكاء أخي محمد، فقد تعلم والدي منه، واستفاد من سعة اطلاعه، ونفاذ بصيرته فراح يقول: لقد استفدت كثيراً منه»[1].

اتصل محمد بن عبدالوهاب بعلماء الحـرمين، فأخـذ مـن علمهـم، وذلـك عندما قام في بداية شبابه بتأدية فريضة الحج . وكان لعدد مـن العلـماء الحنابلـة دور بارز في بناء فكر الإمام، ومن هؤلاء: الشيخ محمد المجموعي، وبعض من علماء العراق. وكانت بدايات تبنيه لعملية الإصلاح من هذه الرحلة، نظراً لـما رأى من المعاصي والبدع، وكان للشيخ ابن عبـداللطيف مـن علـماء الأحـساء

(١) سلسلة أعلام العلماء، عبدالمنعم الهاشمي (٤/ ١١١).

الحنابلة فضل في بناء توجهات الرجل. وأما دراسته لتصانيف وآراء الشيخين ابن تيمية وابن القيم فقد كان لهما أثر كبير في انطلاقته الفكرية، واجتهاده الفقهي والأصولي وحرية الاختيار.. بعد رحلاته إلى الأحساء والبصرة والمدينة ومكة.. إذ لم يعد محدوداً بمنطقته وآراء العلماء فيها، بل اتسع منظوره، وتفتحت مواهبه، فاتخذ له سبيلاً إصلاحياً جاداً حازماً عملياً، بادئاً فيه من العقائد لتخلص الأعمال والنيات لله تعالى، وتنتقى الأفكار والعبادات والممارسات المجتمعية والعادات والتقاليد وأساليب الحكم، مما علق بها من بدع وخرافات وتسلط وظلم وهضم لحق الضعيف[(١)].

ثانياً: قالوا فيه:

١ – «لم ييأس الرجل ولم يكلَ.. ما تقاعس أبداً في سبيل محاربة البدع، والدعوة الصادقة للجهاد؛ جهاد النفس، والجهاد في سبيل الله. لقد أشعل شمعته، وانطلق في طريق وعر، زاد في وعورته جهل القوم، وتكالب الأعداء، حباً في السلطة والتسلط. سنوات قلائل من الجهد والعمل، هي جهد الرجل، وكان المحصول وافراً طيباً.. إنها الشريعة الإسلامية وتطبيقها في شبه جزيرة العرب»[(٢)].

٢ – «إن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوة إصلاح، يتحمل المسؤولية من وقف أمام هذه الدعوة، لمنع انتشارها بين عامة المسلمين»[(٣)].

٣ – أهم مسألة صقلت ذهن الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دروسه ورحلاته مسألة التوحيد، التي هي عماد الإسلام، والتي تبلورت في: لا إله إلا الله، والتي تميز الإسلام بها عما عداه، والتي دعا إليها محمد ﷺ أصدق دعوة

---

(١) المصدر السابق باختصار وتصرف (٤/ ١١٣).
(٢) عبدالمنعم الهاشمي، المصدر السابق ص ١١٠.
(٣) محمد عبده، من المصدر السابق ص ١٢٦.

وأجرأها؛ فلا أصنام، ولا أوثان، ولا عبادة آباء وأجداد ولا أحبار ولا نحو ذلك. ومن أجل هذا سمَى هو وأتباعه أنفسهم «بالموحدين»، أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليه خصومه[١].

٤ – «كان هذا المصلح يتأسى بسيرة الرسول ﷺ، ويحذو حذوه، وينحو نحوه في التفكير. وكان الرسول ﷺ قادراً على إلهاب الحماسة في قلوب أصحابه، وعلى استثمار محبتهم العادية للحرب في سبيل قضية، أما اعتقاد المسلمين فلا يماثل الرسول ﷺ في شيء.. وبعد كل هذا، وفوق كل شيء، فإن الإمام الشيخ- رحمه الله- أراد جوهر العبادة.. إخلاصاً لله وحده عقيدة صافية، لا يشوبها جهل البدع»[٢].

٥ – «ولا يستطيع الباحث عن الحياة في جزيرة العرب أن يهمل حركة عنيفة نشأت بها أثناء القرن الثامن عشر الميلادي، لفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب، وأخطرته أن يهتم بأمرها، وأحدثت فيه آثاراً خطيرة، هان شأنها بعض الشيء، ولكنه عاد فاشتد في هذه الأيام، وأخذ يؤثر، لا في الجزيرة وحدها بل في علاقتها بالأمم الأوروبية، هذه الحركة هي الحركة الوهابية»[٣].

٦ – وقد أيد الإمام الصنعاني دعوة (محمد بن عبدالوهاب) فقال فيها وفيه شعراً، منه:

يذكرني مسراك نجداً وأهله ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد
قفي واسألي عن عالم حلَّ سوحها ... به يهتدي من ضلَّ عن منهج الرشد
محمد الهادي لسنة أحمد ... فيا حبذا الهادي ويا حبذا المهدي[٤]

(١) أحمد أمين، من المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٢) مستشرق ألماني، من المصدر السابق ص ١٢٨.. هكذا ورد الاسم في المصدر دون تحديد .
(٣) طه حسين، من المصدر السابق ص ١٢٦.
(٤) الإمام الصنعاني اليمني، من المصدر السابق ص ١٢٦.

ثالثاً: توجهات الشيخ في دعوته الإصلاحية:

انطلق الشيخ ابن عبدالوهاب من بيئته النجدية البسيطة، التي لم تخالطها المحدثات الكلامية والصوفية العقلانية، المتأثرة بشكل مزرٍ بالمقولات الفلسفية والكلامية، وهي التي أدخلت إلى الإسلام إلى جانب الطقوس الشكلية أفكاراً قد تصل إلى حدّ الشرك بالله، باسم العقل والعقلانية، قريباً من الاعتزال المتأخر. فلما اطلع على ما أحدثته تلك التوجهات في عقيدة الإسلام البسيطة، وما انتشر في العهد العثماني من تصوف، غادر زهد وتصوف الأئمة الذين ظلوا متمسكين بالأصول الطيبة للعقيدة الإسلامية الصافية مثل الإمام القشيري، وأبي نعيم والمحاسبي. نقول: عندما اطّلع الشيخ على ما رآه في رحلاته الحجازية وإلى البصرة العراقية، صمم على مواجهة كل ذلك بالدعوة وبالسيف، واستعان بأمراء مدن نجد وجيوشهم لمحاربة البدع والخرافات والقبور والمقامات وإعادة الناس إلى الدين النقي: «لكن ابن عبدالوهاب كان أكثر من شيخ وأعظم من فقيه، ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها، أو مواعظ يلقيها، أو حتى حلقة أو حلقات من الأتباع والمريدين، وإنما أراد لهذه الدعوة أن تكون أكثر وأكبر من مجرد دعوة أو مذهب، يستقر في مجرى التاريخ ومتحف التراث، لقد أبصر دور الدولة والسلطة في وضع الدعوات موضع الممارسة والتطبيق، ووعى جيداً الحكمة التي تقول: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(١)]، ومن هنا ذهب إلى العُيينة، فعرض دعوته على أميرها عثمان بن أحمد بن معمر الذي اقتنع بها.. وسخّر الأمير

(١) أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث (٣١٥٨٩) وعزاه للمتقي الهندي في كنز العمال (١٤٢٨٤)، والخطيب (٤/ ١٠٧).

جيشه وسلطته لنشر دعوة التوحيد[١].

والخلاصة: إن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب كانت ردة فعل عنيفة على واقع أليم من الخرافات والقبوريات والمبتدعات والفلسفات اليونانية المتزيية بزي العقل.. وهي ليست من العقل في شيء.. وإنما هي أفكار منطق محشوة بوثنيات مزخرفة ببعض حواشٍ عقلية فاسدة في جلها.. حيث كان بعضها منزلقاً لمفكرين كبار في تاريخنا القديم والحديث، لحشو عقيدة الإسلام وشرائعه بهمهمات وزمزمات، هزت عقول بعض من أعجبوا بحضارات أنتجت مواد مدنية ليس لها علاقة فكرية بتاريخ العقائد والشرائع.. وظن أولئك أن في الغض من المناهج الدينية والعقدية، أو في تركها وإهمالها، يكمن سر ذلك التقدم التقني الفني العجيب، ولم يكن الأمر كذلك أبداً، وليرجع أصحاب هذا التوجه إلى تاريخ الثقافة في الغرب، ليجدوا أن سيرة معظم مخترعيها.. لم تكن على علاقة بالصراعات العقدية.. بل هم قومٌ عاكفون في مختبراتهم على تجاربهم.. لا وقت لديهم حتى للطعام، إلا ما كان يعد لهم من وجبات سريعة تؤكل (على الواقف)، دون موائد تمدُّ وأوقات تُضيّع، تماماً مثل سيرة علمائنا في قرون الخير؛ علماء الدين واللغة والاجتماع والاقتصاد والعلوم الحية.

وبما أن دعوة الشيخ بن عبدالوهاب كانت ردّة فعل، فقد دخل فيها العديد من صفات ردات الفعل، من استخدام السيف، والتعجل بالحكم، والضعف في دراسة واقع الحال لاتخاذ الطريق الأمثل، هذا إلى جانب النقاء والصفاء،

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي، محمد عمارة، مصدر سابق ص٢٥٥ ونقله عن كتاب الدعوة الوهابية ص٦٤.

وحي الإنقاذ، وتحرق القلوب على حال المسلمين، والغيرة الشديدة على دين الله والصدق في النية واللسان والقلب، وكان كتاب الشيخ «التوحيد» قائد الدفة إلى محافل الخير، وتوجيه الناس إلى الدين الخالص من كل ما علق به، وشوه مسيرته العقدية، إلى لا إله إلا الله، خالصة من كل ما يبعد الناس عن تنزيه الخالق عز وجل عن وجود سلطة تسيّر الدنيا بعيداً عن الله الخالق البارئ المصور؛ ومن ذلك التنزيه ذلك الذي تحمله الآية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[(١)(٢)].

رابعاً: معاناته:

١ – الداخلية:

لم يشغل الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه بالتأليف ومجرد بث الرسائل والمواعظ والدروس وحسب، بل إن ما كان يهمه ويعاني منه أن يرى المنكرات بأم عينه، والشركيات بين يديه، تسود وتنتشر، وهو لا يستطيع فعل شيء إلا من بعض الدروس والعظات والرسائل إلى الأمراء والمسؤولين، يسعى من خلالها لإعادة الناس إلى الدين الحق النقي.. وقد كان كتابه التوحيد والقليل القليل من المؤلفات الأخرى، عماد نضال لمصلح، وقد رفض الشيخ القياس، فقد كان عنده النص هو الأصل، والرأي لا قيمة له إلى جانب النص (وهذا مذهب بعض السلف)، فلم يقم أحد من أئمة الإسلام المعتبرين ليقول بأن العقل والرأي حاكمين على النص.. بل إن المهتدين بهدي سيد المرسلين، قالوا إنما حدود العقل في التدبر واستخراج الحكم من النص والعمل عندما لا

(١) آل عمران: ٦٤. المصدر السابق ص ١١٥.
(٢) المصدر السابق ص ١١٥.

يكون هناك نص، فإن وجد النص الصحيح تدبره العقل وقلّب أفكاره، التي لا تخرج عن حدود الفهم اللغوي والمصطلحي المعروفين المتفق عليهما.. وإلا فإنها الأهواء، وملايين العقول، التي لكل منها طاقة وهوى ورغائب وعادات ومستوردات وثنية سمّوها (حكمة وفلسفة) تفعل فعلها في الإنسان ! في حين أن قرآننا ونصوصنا لا تحتاجها أبداً.. ما دام النص موجوداً، والنظر العقلي المهتدي يعمل في حدوده، والكون الفسيح أمامنا ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ.. ﴾(١). يؤيد ما يريد الله أن يثبته في عقولنا من توحيد وفهم مهتد للنصوص، ومن تعرف على الله الواحد الأحد الفرد الصمد، بعيداً على مجادلات الكلاميين والمناطقة الذين استزلتهم الترجمات إلى مثل المراء الذي أدخلنا فيه المعتزلة.. بقولهم في خلق القرآن، وبقولهم بشأن الصفات ونفي وجود ذاتي خاص بها، وإشغال الناس بمثل هذه المتاهات، بينما كانت ميزة العقيدة الإسلامية الكبرى أنها بسيطة مفهومة مقنعة، وما زالت حتى اليوم تقنع الناس حتى في الغرب، من خلال تلك البساطة التي تجيب على كل الأسئلة التي تحير البشرية.. «ما أحوج الناس اليوم إلى رجل مثل محمد يحلُّ مشاكل الناس كلها وهو يشرب فنجاناً من القهوة العربية» (برناردشو). فهل فعلاً كان المجتمع الذي دخلت عليه التعقيدات والوثنيات اليونانية.. متحضراً (كما أراد البعض منا أن يوهم الناس بذلك.. وليقول بالتالي إن أصحاب العقيدة الأصيلة المؤصلة على ما نزل على محمد ﷺ ندية طرية معقولة مفهومة مفحمة هم بدو، لم تمسسهم نفحات الفلسفة وأساطيرها الوثنية) إن هذا ما كان يعاني منه محمد بن عبدالوهاب.. ومن هذه المعاناة انطلقت حركته

(١) العنكبوت: ٢٠.

الإصلاحية [١].

٢ – المعاناة الخارجية:

إن استعجال النتائج، وابتغاء قطف ثمرة الإصلاح بأية وسيلة، دون النظر إلى الواقع ومشاكله وكيفية مخاطبته، ومن أين تؤكل الكتف لترسخ المفاهيم، وتبدل إيمانيات المجتمعات.. كل ذلك كان حاجة لم تكتمل لدى الشيخ على ما نعتقد، رغم النية الصادقة والإخلاص الشديد والرؤية الصالحة لما يجب أن يكون عليه الناس. وهذا كله جلب للشيخ متاعب جمة.

صحيح أن درب الدعوات محفوف دائماً بالمكاره والمعاناة.. إلا أننا بشيء من التأني والحكمة والدراسة الدقيقة نستطيع أن نخفف من الآلام.

ومع ذلك فإن الله يجزي على النيات الصادقة، والإخلاص في التوجه، والرؤية المطابقة لشرع الله.. وبعض من التأمل في الوسائل.. فيعطي على كل ذلك جزءًا من النصر، وبعضاً من المآلات الطيبة.. وهذا ما كان من حال الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

أ – فقد لاقى الشيخ بعض المتاعب والمعاناة في سبيله إلى تحقيق ما يرضي الله من إصلاح؛ إذ – كما قلنا – إن أمير العُيينة آمن بدعوته وجيّش جيشه معه لينفذ ما يريد من هدم الأصنام والمقامات والأشجار، التي كان يُتَمسح بها، ويُدعى بها.. وذلك لنصرة (لا إله إلا الله) برأيه.. وكان أمير العُيينة على رأس الجيش وفي المقدمة ابن عبدالوهاب، حتى كان اليوم الذي أمسك فيه الشيخ بالفأس وهدم قبة زيد بن الخطاب في بلدة الجبيلة.. وكانت القبة مزاراً عظيماً يتبرك الناس بزيارته.. فصدم الناس، وهددوا حاكم العيينة بالتمرد على

(١) المصدر السابق من ص١١٢-١١٦ باختصار وتصرف.

سلطانه إن هو بقي على مناصرة دعوة محمد بن عبدالوهاب.. واختار الحاكم العاجل (الدنيا) على الآجل (الآخرة) وتخلى عن مناصرة الشيخ أو بالأحرى تخلى عن أسلوب القوة والعنف في نصرة الدعوة.

ب – وطلب من ابن عبدالوهاب مغادرة العيينة، كان ذلك سنة ١١٥٨هـ ١٧٤٥م.. فالتجأ الشيخ إلى (الدرعية) وأميرها (الإمام محمد بن سعود رحمه الله ١١٧٩هـ ١٧٦٥م)، واستجاب له الإمام ابن سعود.. بل رحب به وكان عالماً تقياً.. يريد الإصلاح. وتمّ التعاقد بينهما على تأسيس دولة جديدة وملك جديد على الفكر الذي حمله الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حيث قال الأمير للشيخ: أبشر ببلاد خير من بلادك، وأبشر بالعز والمنعة.. وقال له الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين[1].. ونجحت الفكرة، وقامت دولة في نجد كلها تدين بفكر محمد بن عبدالوهاب وعاصمتها الدرعية وملكها الإمام محمد بن سعود، ومدير شؤونها الإدارية والعسكرية والمالية ابن عبدالوهاب. وقد انتقلت تلك الدولة من نجد إلى العراق وكربلاء بزحف كبير عام ١٢١٦هـ ١٨٠١م – فهدم قبابها ومزاراتها خصوصاً قبة الإمام الحسين واستولى على كل ما طالته أيديهم– وبعدها بأربع سنوات ١٢٢٠هـ١٨٠٥م، دخل جيش تلك الدولة بقيادة ابن سعود المدينة المنورة، فهدم قبابها ومزاراتها، وفي العام التالي استولى على مكة، وبايعه شريفها، وطرد من كان فيها من موظفي الأتراك، وبهذه سيطرت دولة ابن سعود على نجد والحجاز وتهامة ومكة والمدينة. وكل ذلك بعد وفاة ابن عبدالوهاب بعشر سنوات.. وعندها وضحت خطورة تلك الدعوة ودولتها.. ورأيها الموافق لرأي الإمام أحمد بن حنبل بأن الخليفة يجب

(١) تيارات الفكر الإسلامي، مصدر سابق، ص ٢٥٦.

أن يكون عربياً من قريش بالتحديد، وهذا يعتبر تحدياً للخلافة العثمانية.. فحاربته الدولة العثمانية، وهُزمت جيوشها مرات إلى أن استعانت بجيش مصر وإبراهيم باشا ابن محمد علي باشا فسقطت الدرعية في ٧ ذي القعدة ١٢٣٣ هـ (٨ من سبتمبر ١٨١٨م) وبذلك دالت دولة ابن عبدالوهاب، التي اختلط فيها حبّ السلطان إلى حب الإصلاح[١]. وانتهت حياة رجل أخلص لله، لكنه لم يتأن في اختيار الطريق الأمثل إلا أن دعوته إلى تنقية الإسلام ظلت تعمل إلى يومنا هذا.. فهي ذات كلمة عالية في سوحنا.. ولكن وسائلها حتى اليوم لم تعط الاهتمام والخطاب والآليات السديدة.

(١) تيارات الفكر الإسلامي، مصدر سابق، ص ٢٥٧.

الفصل الخامس

معاناة الدعـاة المعاصرين

١ – جمال الدين الأفغاني

٢ – محمد رشيد رضا

٣ – حسن البنا

٤ – مصطفى السباعي

٥ – سيد قطب

٦ – عبدالفتاح أبو غدة

٧ – محفوظ نحناح

المبحث الأول
معاناة جمال الدين الأفغاني
١٢٥٤ هـ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ م - ١٨٩٧م

أولا: جمال الدين في سطور:

ولد جمال الدين الأفغاني عام ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨م في قرية «سعد اياد» إحدى قرى «كُنَر» بأفغانستان. والده السيد «صفدر» من أعيان «كُنَر»، يتصل نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما(١).

عني به والده منذ صغره، حيث ظهرت عليه علامات الذكاء والنجابة والنبوغ والشجاعة، تعلم الفارسية والعربية وعلومهما، فضلاً عن الأفغانية، أتقن علوم القرآن، والحديث، ودرس الفقه وأصوله، واطلع على التاريخ والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، والفلك، وبعض من الطب والتشريح، وذلك على طريقة السابقين، الذين كانوا يأخذون من كل علم بطرف، ليكون الواحد منهم في عداد المثقفين، وقد أخذ الأفغاني كل تلك العلوم مستكملة حين بلغ الثامنة عشرة من عمره، بعدها سافر إلى الهند فأمضى فيها قريباً من السنتين، وهناك درس العلوم الحديثة، فوسع آفاقه بها، ومن هناك سافر إلى الحج عام ١٨٥٧م في رحلة استغرقت عاماً كاملاً، ثم عاد إلى كابل فعينه الأمير «دوست محمد خان» في حكومته، فاشترك معه في فتح هراة. وبعد ذلك

---

(١) سلسلة أعلام العلماء (٤) تأليف عبدالمنعم الهاشمي ص ٦٥، وجمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه لمحسن عبدالحميد ص ١٣، وتيارات الفكر الإسلامي لمحمد عمارة ص ٢٩١. وبالنسبة للنسب الشريف.. فإن هذا الأمر فيه شكوك، خصوصاً أن الكثيرين في زمن الدولة العثمانية كانوا يدعون هذا الانتساب، نظراً لتساهل الدولة في إثباته وللمميزات التي يحصل عليها صاحب النسب.

المشوار عينه الأمير «محمد أعظم» بعد استلامه الحكم رئيساً لوزرائه، وبعد سقوط «محمد أعظم» وعودة أخيه «شير علي» إلى سدة المملكة بمعاونة الإنجليز أبعد الأفغاني، لكنه لم يؤذه. إلا أن ذلك كان درساً بليغاً له في معرفة دسائس المستعمرين ومحاولاتهم للسيطرة على البلاد الإسلامية، فكره الأفغاني الاستعمار الإنجليزي، وظل يقاومه ويدعو إلى مقاومته مدى حياته(١).

ثانياً: معاناته :

إن الدعاة إلى الإصلاح من أي نوع، لا بد أن يجدوا في طريقهم الصعوبات والمعاناة، وليس الأفغاني بعيداً عن ملاقاة المتاعب والألم والمعاناة، خصوصاً، أنه كان شجاعاً، يجهر بدعاواه ومطالبه، ومواجهاً لا يخشى العواقب، وشديداً في إيمانه بوجوب التغيير، أصاب أم اخطأ في الوسائل والأساليب والأداء. وهذه المعاناة التي تعرض لها الأفغاني جاءت من الداخل ومن الخارج :

١ ـ المعاناة الداخلية:

أ – **أول معاناة كانت من داخله:** لأنه يملك نفساً كبيرة، وطموحاً لا حدود له، ونظرة إلى المآلات، تنطلق من اللامبالاة بها. إن هذه النفسية تتعب صاحبها، وهو ذاهب في الطلب بلا هوادة، وقد دل على ذلك قوله: «ملابسي على جسمي، وكتبي في صدري، وما يشغلني في رأسي، وآلامي في قلبي»(٢). وكما قال الشاعر :

إذا كانت النفوس كباراً　　تعبت في مرادها الأجسام

---

(١) جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، مصدر سابق، ص ١٣، ١٤ نقلاً عن تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٢٨، وجمال الدين الأفغاني لعبدالقادر المغربي ص ٢٧، وجمال الدين الأفغاني لمحمود قاسم ص١٢-١٤.

(٢) سلسلة أعلام العلماء (٤)، مصدر سابق، ص ٧٠-٧١ .

ب- **من المقربين:** الحسد، وحبّ الحظوة عند الحاكم، جعل بعضاً ممن يحضرون دروس الشيخ في بيته وفي بيوتهم أو في مقهى (البوستة) بالعتبة في القاهرة.. يَشُون بالأفغاني لدى الخديوي توفيق، بما كان يدعو إليه من إثارة العمال والفلاحين، ودفعهم للثورة على ظالميهم القامعين لهم، مما دعا الخديوي إلى الأمر بالقبض على الشيخ، وسوقه في القطار إلى السويس، ومنها في الباخرة إلى (بومباي) في الهند[1].

جـ- **من شجاعته التي أودت به:** فهو عندما استدعاه الخديوي توفيق إلى قصر عابدين لمقابلته، وقال له: «إني أحبُّ كل خير للمصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في التهلكة»[2]، فكان جواب الشيخ للخديوي حاملاً من الشجاعة والجرأة، ما جعل الخديوي يفكر في نفيه وهو ما كان. وفيما يلي ردّ الشيخ على الخديوي:

«ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل؛ فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة؛ تسنُّ القوانين، وتنفذها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم

(١) المصدر السابق ص ٧٦، مختصرا.

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

لسلطانكم»[١].

٢ ـ المعاناة الخارجية:

أتت هذه المعاناة من اصطدامه مع توجهات ومواقف حكام مصر وإيران والهند، وبصورة مركزة من مواجهته للاستعمار الإنجليزي، الذي كان يسيطر على سياسات تلك البلدان :

أ - أول تلك المعاناة.. كانت من الإنجليز في الهند، التي رحل إليها بعد شعوره بأن الأمير (شير علي) في كابل يدبر له المكائد.. إذ إنه حال وصوله إلى الهند، التف حوله العلماء وطلاب العلم والأحرار، فراح يبث فيهم روح العزة والثورة ضد الاستعمار، ولما أصبح وجوده هناك خطراً على الإنجليز، اعتقلوه، وحملوه على سفينة مغادرة إلى السويس.

ب – وصل إلى مصر عام ١٢٨٦هـ، فأقام في القاهرة أربعين يوماً، اتصل به خلالها الشيخ محمد عبده، الذي تلقى عليه الرياضيات، والحكمة (الفلسفة) وعلوم الكلام. ودعا الناس إلى التلقي عنه.. إلا أن مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته، أخذوا يناهضون اتجاه الأفغاني، فيزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يقضي إلى زعزعة العقيدة الصحيحة، فنال الشيخ وأتباعه من ذلك ما نالهم من عنت ومعاناة وحزن[٢].

جـ – وثالث تلك المعاناة، جاءت من قبل شيخ الإسلام حسن فهمي[٣]، الذي لم تكن تعجبه أفكار الأفغاني في التربية والتعليم، وقد كان الصدر الأعظم (عالي باشا) عينه عضواً في مجلس المعارف.. فراح شيخ الإسلام

(١) المصدر السابق ص ٧٥.
(٢) جمال الدين الأفغاني، مصدر سابق، ص ١٥-١٧.
(٣) جمال الدين الأفغاني، مصدر سابق، ص ١٥-١٧.

(حسن فهمي) يتحين الفرص للإيقاع بالأفغاني.. وحصل له ذلك عندما ألقى الشيخ الأفغاني محاضرة له في دار الفنون تدعو إلى الأخذ بالصناعات، وكان مما قاله الأفغاني في تلك المحاضرة: أن شبه الحياة الإنسانية بالجسد الحي، وشبه كل عضو في ذلك الجسد بصناعة من الصناعات، وقال في آخر المقالة.. «ولا حياة لجسم بلا روح، وروح هذا الجسم إما النبوة، وإما الحكمة.. ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب، يختص بها الله من يشاء من عباده.. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات، وبأن النبي معصوم من الخطأ، والحكيم (الفيلسوف) يجوز عليه الخطأ، بل يقع فيه. وهنا ادعى شيخ الإسلام أن الأفغاني جعل النبوة صناعة.. وأثار عليه خطباء المساجد وبعض العلماء والعوام.. فردّ عليه الأفغاني بقوة، فخشي (عالي باشا) من العاقبة، فطلب من الأفغاني باعتذار شديد أن يغادر الآستانة، ريثما تمر الفتنة.. فيعود إليها إذا شاء[1].

د – ورابع صورة من صور معاناة الأفغاني، جاءت على يد الخديوي إسماعيل، إذ حين شعر الخديوي وحكومته بخطر الأفغاني على الحكم، من خلال دروسه، التي كان يُدخل بها الوعي لدى الناس بحقوقهم، ويؤلبهم على المستعمرين، وعلى الحكم الذي يخضع للإنجليز – وكانت الحكومة المصرية قد خصصت له منزلاً وراتباً شهرياً – فأصدر مجلس وزرائها قراراً بطرد الأفغاني من مصر، وكان التنفيذ يحمل القسوة والإهانة؛ إذ قبض عليه ليلاً يوم السادس من رمضان ١٢٩٦هـ (أغسطس ١٨٧٩م)، واحتجز في قسم الشرطة حتى الصباح، حيث نقل في عربة مغلقة إلى محطة القطار، ومن هناك إلى السويس،

---

(١) جمال الدين الأفغاني، مصدر سابق، ص ١٦-١٧ بتصرف .

ومنها في الباخرة إلى الهند[1]. وهناك حددت إقامته، وحددت له السلطات الإنجليزية الأشخاص الذين يمكن أن يزوروه.. وظل كذلك ثلاث سنوات، تفرغ خلالها للكتابة؛ حيث ألف كتاب «الرد على الدهريين»[2]. ثم سمح له بالسفر إلى بلد غير إسلامي، فسافر إلى إنجلترا ومنها إلى فرنسا. وقد ظلّ الأفغاني بعد ذلك يتقلب في المحن والمعاناة من الطرد من بلد إلى آخر فمن فرنسا وأوربا ونقاشه العلمي مع «رينان» المستشرق الفرنسي، انتقل إلى إيران.. بناء على طلب الشاه «ناصر الدين القاجاري»، ولكنه لم تطل إقامته هناك، فقد تغير الشاه عليه.. نظراً لتحريضه العامة على الثورة، فانتقل إلى روسيا، وبعد مقابلته للقيصر والتكلم معه بصراحة بأفكاره عن الحكم الدستوري وإعطاء الشعب حقوقه.. أنكره القيصر، وأمر بإبعاده، فذهب إلى ألمانيا، وهناك التقى بالشاه «ناصر الدين»، فصاحبه الأفغاني إلى إيران بعد إلحاح وإلحاح.. ولما لم يجد من الشاه استجابة لآرائه في الحكم، راح يحرض عليه لخلعه، وهنا أمر الشاه كتيبة من ٥٠٠ جندي، أن يقتحموا مكانه عند أحد أحفاد أئمة آل البيت، فأخرجوه إلى البصرة (من أراضي الدولة العثمانية)، ومن هناك غادر إلى لندن، ثم أرسل إليه السلطان عبدالحميد بالحضور إلى الأستانة لمعاونته في ترتيب فكرة الجامعة الإسلامية، وظل في الآستانة إلى أن مات بسرطان اللثة في ٥ من شوال ١٣١٤هـ/ ٩من مارس ١٨٩٧م[3].

ثالثاً: مؤلفاته :

لم يسعف الوقت وعدم الاستقرار الأفغاني، كي يؤلف الكتب.. فهو مقل

(١) المصدر السابق ص ١٩ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣-٢٩ باختصار وتصرف.
(٣) المصدر السابق ص ٢٣-٢٩ باختصار وتصرف.

في هذا إلا أن تراثه الفكري انبث في كتابه « الرد على الدهريين »، وفي مقالاته الكثيرة وخطبه ودروسه التي جمعها بعض تلاميذه أو محبوه. (وفي مجلة العروة الوثقى بخاصة) التي ظلت تصدر في باريس مدة ثمانية شهور، وقد أصدرها الأفغاني بالاشتراك مع الشيخ «محمد عبده». وكان إغلاقها بسبب تعاضد الإنجليز مع بعض حكام العالم الإسلامي على منع دخولها الهند ومصر وغيرهما من البلاد. وإذن فهو كتاب واحد، ومقالات وخطب ودراسات تردد في الندوات، والدروس غزيرة كثيرة، سطر فيها فكره وخططه وبرامجه والحلول التي يراها مناسبة لنهوض الأمة وصحوتها.

رابعاً: **شبهات ومعاناة**:

سوف نستعرض بعض الشبهات التي عانى منها الشيخ، وسيكون استعراضنا على سبيل الذكر وحسب؛ لأن الكتاب والمفكرين اختلفوا حولها، وظلوا مختلفين إلى يومنا هذا.. لأن التوثيق من الطرفين، لم يكن دقيقاً.. فمحبوه يبرئونه، بل يحولون الشبهات إلى مناقب وخصال حميدة، في حين أن الآخرين يبالغون، فيحولون محامده إلى مذمات.. والله هو العليم بالحقيقة.. إلا أن الذي نستطيع قوله بحق: إن الرجل مثّلَ إحدى صيحات اليقظة البارزة في القرن التاسع عشر الميلادي.. التي نادت بالتغيير بالوسائل غير التقليدية.. إلا أن حماسه وردة فعله غير المنضبطة، أدخلته في دائرة شبهات نورد واحدة منها وهي أهمها على الإطلاق: إنها التزام العقل والعقلانية؛ التي استوردها المعتزلة من الثقافات الأخرى، الخالية من النقل الرباني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. إن النوايا الطيبة لا تنجز دائماً ممارسات مثلها.. بل إن تلك النوايا إن لم تكن مقعدة تماماً بالنقل الرباني، اعتماداً على أن العقل أولاً

تذهب بصاحبها إلى ما ذهبت إليه المعتزلة في مآلات أفكارهم، المختلطة خلطاً شديداً بالفلسفة، التي بنيت أساساتها في كثير من أنحائها على الضلال.

وهنا يحق لنا أن نقرر: أن الأفغاني- رحمه الله- والشيخ محمد عبده وأتباعهما، كانا أصحاب نوايا طيبة، تدعو إلى سلفية إيمانية ناضجة، إلا أن الحماسة وردة الفعل غير المتأنية أخذا بخطام فكرهما وحراكهما إلى حوزات فكرية وعلمية غير سديدة.. وانظر إذا شئت الدليل على ذلك فيما نقله عنهما د. عمارة في كتابه «تيارات الفكر الإسلامي» ومن الأمثلة على تفكير تلك المدرسة قول محمد عبده ومناداته بالتعليم المدني: «..حتى يأذن الله بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم.. ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه..»[(١)]. ومن أقوال الأفغاني قوله وهو يدخن «الشيشة» في مقهى (مثاثيا) في ميدان العتبة الخضراء محبذاً الفلسفة والتصوف: «الفيلسوف إن لبس الخشن، وأطال المسبحة، ولزم المسجد فهو صوفي، وإن جلس في مقهى (مثاثيا)، وشرب الشيشة فهو فيلسوف»[(٢)].

خامساً: **مناقبه وشمائله**[(٣)]:

- كان مصلحاً موسوعياً.. غير مقتصر على قطر بعينه.. بل هو داعية إصلاح لكل بلاد الإسلام.

- كان ذا ثقافة موسوعية أيضاً.

- كان شخصية جذابة، ولكنه عنيد صريح لا يخشى في قولة الحق التي آمن

(١) تيارات الفكر الإسلامي ص ٢٩٩.
(٢) تيارات الفكر الإسلامي ص ٣٠١.
(٣) سلسلة أعلام العلماء (٤)، مصدر سابق، ص ٦٣ – ٦٧.

بها لومة لائم.

- كان فيلسوفاً سياسياً وخطيباً مفوهاً.. إلى جانب مؤهلات متنوعة على رأسها أهليته الصحفية.

- عنده قدرة هائلة على الحركة والحراك دون كلل أو ملل .

- سليم القلب. عنده حلم عظيم، كريم يبذل ما في يده بأريحية عجيبة، يضع حمله على الله، فلا يبالي بعد ذلك بما يأتي من ظروف وصروف .

- عصبي المزاج، متوسط القامة، حنطي اللون، شبيه بأي عربي عادي، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين.. هش بش عند اللقاء .

سادساً: ما يستفاد من سيرته :

إن في الجمل التي قالها الأفغاني عن نفسه، خلاصة درسه، وهي :

«ملابسي على جسمي، وكتبي في صدري، وما يشغلني في رأسي، وآلامي في قلبي».

وإذن فمِمَ يخاف؟ وعلام يخاف؟ والتوكل على الله معتمده، وأساس حركته. وهذا شبيه بقول ابن تيمية.. بل في الأغلب الأعم مقتبس منه.. وقول ابن تيمية هو: سجني خلوة، ونفيي سياحة.. وقتلي شهادة.

إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وماذا بعد لنقوله؟ إنا لنقول الكثير.. وأول القول: توجيه رسول الله ﷺ «**اعقلها وتوكل**».. وهناك أسئلة توضح الموقف والمستفاد.. وهي:

- هل أخطب، وأكتب، وأسافر، وأقابل الكبار والصغار.. كافية لختم موضوعة التوكل بما يؤهلها لحمل الأثقال، ثم لتثبيت النتائج في الميدان، ثم

لاستمرار العطاء من بعد الرحيل؟

- هل إيجاد الدافع السياسي للحراك.. ودعوة الناس إلى اعتماد ذلك الدافع كافٍ لإغلاق الدائرة على النصر؟ إن الأفغاني اعتمد في جل حراكه على الدافع السياسي، الذي هو: توعية الناس بمراد الصليبية، ومناهضة الغرب للشرق، وبيان حال حكام المسلمين، وتثوير الناس عليهم.. وهذه دوافع ممتازة لحراك وطني شامل.. ولكن أين التأسيس وبناء القواعد الراسخة الحاملة للعبء بعد الرحيل؟ إن صيغة: قل كلمتك وامضِ لا تثمر إلا وقتياً، أو هي ذات صدى يمتد حتى نهاية حياة قائلها.. أو أبعد من ذلك قليلاً، فإذا ما رام صاحبها ترسيخها وفعلها في الأجيال.. وجب الإعداد المؤسسي الدائم لذلك. وهذا ما لم يفطن إليه الأفغاني.. وفطن له الباني الإمام الشهيد البنا- رحمه الله.

- ثم هل الاندفاع غير المحسوب في الانتماءات، وعدم الانتباه إلى مواطن الشبهات، بل والانزلاق إليها بفعل ردات الفعل العصبية.. يخدم المراد، ويُسَلِّم الخطوات؟ لقد جرته الحماسة وردات الفعل غير المنضبطة شرعياً إلى مثل تلك المواقف.. مما أثار حوله الشبهات، وقلل من فاعلية الحراك، وأعطى للمعادين مادة للاتهام.. وإن سكنت تلك التوجهات المبالغة.. لقد امتلك الرجل كل ما يحتاجه الداعية المخلص، من علم، وأهلية وقوة شكيمة، وتوكل جاد على الله، وجرأة نادرة، وحركة لا تهدأ، وبذل لا ينفد إلا أن ما أوردناه من ملاحظات.. يجب أن تستوفى.. ليقوم بناء دعوة الإسلام على أساسات راسخة.. والنتائج بعد ذلك عند الله تقديرها وقضاؤها.

رحم الله الشيخ الأفغاني.. وأفادنا من دروسه.. وأسكنه فسيح جناته، مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

المبحث الثاني
معاناة الشيخ / محمد رشيد رضا

أولا: محمد رشيد رضا في سطور:

ولد في قرية القلمون في ٢٧ من جمادى الأولى ١٢٨٢هـ/ ٢٣ من سبتمبر ١٨٦٥م، وقريته تقع على شاطئ البحر شمال لبنان، بعيدة عن طرابلس الشام مسافة ثلاثة أميال فقط.

كان الشيخ شديد الحرص على بيان انتساب عائلته لآل البيت، فكثيراً ما كان يذكر في كتاباته: «على جدنا المرتضى عليه السلام»، وتارة أخرى يقول: جدنا الحسين عليه السلام، وكانت تصدر عنه أحياناً كلمات تفيد تشيعه أو انحيازه إلى علي وآله: «ولعلّ هذا من نزعات الأمويين في هضم حقوق العلويين». ويبدو أن هذا الانتساب إلى آل البيت قد استشرى بين العائلات في زمن الدولة العثمانية؛ لما كان يوفره من امتيازات، خصوصاً أن الدولة كانت تتساهل في التثبت والاعتراف بذلك الادعاء من العائلات، نظراً لأن ذلك التثبت لم يكن يسيراً.. والدولة تريد أن تزيد من عدد العائلات المرموقة الموالية..

أصل عائلة الشيخ من الحجاز، ثم انتقلت إلى بغداد، وأخيراً استقرت في بلاد الشام.. درس الشيخ بداية في كُتَّاب القرية، ثم في المدرسة الرشيدية في طرابلس، وهي مدرسة ابتدائية حكومية، تدرس بالتركية، وتُخرج موظفين حكوميين، داوم فيها سنة واحدة فقط، ثم تركها لأنه لا يريد أن يعمل موظفاً حكومياً، ثم لأنها تدرس بالتركية لا بالعربية.. ثم انتسب إلى المدرسة الوطنية الإسلامية عام ١٣٠٠هـ، وهي أعلى مستوىً من الرشيدية، وتدرس بالعربية

وإلى جانبها التركية والفرنسية، وقد درس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية. ولما أغلقت المدرسة أبوابها لأسباب خاصة، توزع طلابها بين المدارس، أما الشيخ فقد آثر متابعة العلم على شيوخ طرابلس وعلمائها.. وعلى اجتهاده الشخصي بقراءة الكتب والمراجع في شتى الفنون القديمة والمعاصرة.. علمية وصوفية وفلسفية وأدبية. وقد نال عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م إجازة التدريس من شيخه الأزهري حسين الجسر، الذي كان مدير المدرسة الوطنية الإسلامية. ثم درس علوم الحديث رواية ودراية والفقه الشافعي على شيخه الثاني «محمود نشابة» الأزهري الذي أمضى ثلاثين سنة في الأزهر عالماً ومتعلماً، وحصل على إجازات في ثمانية عشر علماً، وأكمل علوم الحديث بإتقان على يد الشيخ «محمد القاوقجي» وكان تصوف الشيخ محمد رشيد رضا على يد «إحياء علوم الدين للغزالي»، إذ يقول عنه: ألا إنه أول كتاب ملك عقلي وقلبي؛ لذا كان تصوفه خاليا من كثير من المخالفات الشرعية التي أُخذت على بعض الصوفية[١].

وفي نهاية الأمر توجه توجهاً سلفياً، بعد اتصاله بكتب ابن تيمية، وانسلخ من الصوفية، إلا ما كان يقوله هو عن: استعداده للزهد في مجال المأكل والملبس[٢].

وقد كان كثير الاطلاع على كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. ثم كتب الهيثمي، وقرأ لابن مسكويه في الأخلاق، وأتبعهما بكتب الشاطبي، وبخاصة الاعتصام والموافقات، ثم طالع مقدمة ابن خلدون، ولم ينس كتب الأدب

---

(١) محمد رشيد رضا، د. أحمد الشوابكة ص ١٣-١٧ طبعة أولى، ١٩٨٩ دار عمار، عمان – الأردن. وانظر إذا شئت: مجلة المنار (م١ص٨ و م١٢ص١٥ و م١٣ص١٣٢.. الخ).

(٢) (المنار والأزهر) كتاب للشيخ ص ١٤٠ مطبعة المنار ١٣٥٣هـ، نقلاً عن المصدر السابق ص ١٨.

واللغة مثل (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي ومقصورة ابن دريد، التي عارضها الشيخ بالمقصورة الرشيدية.. كما أنه واصل الاطلاع على الكتابات الحديثة.. اجتماعية وعلمية وتربوية.. ولم ينس الشيخ أن يطلع على الأناجيل ونقدها، وعلى أدب النصارى في لبنان وعلى كتبهم وصحفهم..[1]. وكل هذا يدل على سعة اطلاع الشيخ وعنايته بتعليم نفسه والارتفاع بها إلى جانب خبرته الجيدة بأحوال المسلمين وبما يحيط به من أحوال العصر .

كانت فترة نشاط الشيخ العلمي والعملي مع بداية تسلم السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله للدولة العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩م، وكان ما كان فيها من أحداث انتهت بسقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة ١٩٢٤م.. وقد اضطرت الظروف السياسية والاجتماعية الشيخ للهجرة إلى مصر.. ووصل الإسكندرية في ٨ من رجب ١٣١٥هـ/ ٣ يناير ١٨٩٧م.. ونزل ضيفاً على الشيخ محمد عبده[2].

ثانياً: قالوا عنه :

١ – كان الشيخ «رضا» حريصاً على الإصلاح عن طريق التربية والتعليم والكلمة الطيبة. وقد ظلّ أميناً على أفكار أستاذه (محمد عبده)، ومتعلقاً بجوهر دعوته في سلوك أسلوب التربية والتعليم كوسيلة هامة من وسائل الإصلاح» [3].. ظلّ كذلك حتى بعد وفاة أستاذه .

٢ – كان الشيخ ميالاً إلى هداية الحكام خاصة في سنواته الأخيرة، ولم يهتم كثيراً بالشعوب فقد كان يرغب في أن يرى في حياته دولة عربية مستقلة

(١) المصدر، محمد رشيد رضا للشوابكة، مصدر سابق، ص ١٨-١٩.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠-٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٣ .

استقلالاً كاملاً.. تجمع بين الشريعة الإسلامية والإدارة العصرية.. وعلى هذا الأساس كانت نصيحته للملك غازي وريث الملك فيصل على عرش العراق، إذ أرسل إليه رسالة يعزيه فيها بوفاة والده ويدعوه إلى إقامة الحكم على أساس الدين، والأخذ بالعلوم العصرية والاستقلال الكامل[١].

٣ – في مذكراته (الشيخ رضا) مذكرات غير منشورة قال في أول لقاء له مع الشيخ (محمد عبده): إن من بين أهداف المجلة التي ينوي إصدارها: «الإصلاح الديني والتأليف بين الإسلام والنصارى»[٢].

٤ – لم يكن للسيد رشيد رضا مذهب جديد في الإسلام، حتى يصح أن يقال: إن له ذلك وينسب إليه، بل كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف، التحاكم إلى الله ورسوله، وتخير الأحكام المناسبة للزمن، والنافعة للأمم، فهو رجل سني سلفي، يكره التقليد، وينادي بالاجتهاد، ويراه فرضاً على نفسه وعلى كل من قدر عليه[٣].

٥ – ولشدة ما سيطرت عليه فكرة أن يصلح أي حاكم من بين حكام المسلمين ليؤيده دون تحديد منهج ومواصفات، وقع الشيخ في الحرج من هذا الاتجاه، وذلك بأخذه بالظواهر والشكليات حكماً على الفعل، وليس بالموضوعات والجواهر.. «فها هو يشيد بالشاه مظفر الدين على إثر إعلانه للدستور والشورى النيابية في إيران عام ١٩٠٥م، وفضّله بذلك على سائر

(١) المصدر السابق ص ٣٧-٣٨ باختصار وتصرف.
(٢) المصدر السابق ص٤٧ من مذكرات غير منشورة.
(٣) محمد رشيد رضا، مصدر سابق، ص٦٦. نقلاً عن مجلة المنار (م/ ٣٥، ج/ ٣، ص١٨٨) والقول لشيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي (في ذلك الوقت) باختصار وتصرف.

ملوك المسلمين انطلاقاً من مبدأ أن الحكومة الشورية هي حكومة القرآن»[١].

تعليق: ولو كانت تلك الحكومة أخذت الشورية – شكلاً – لا موضوعاً.. وكانت أحكامها زاخرة بمخالفات للقرآن؟!

ثالثاً: معاناة الشيخ :

إن كل من يخوض مسار الدعوة للإسلام في كل عصر ومصر، لا بد أن يلاقي من العنت والنصب والمعاناة والفتن الشيء الكثير: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[٢]. ولا بد أن يكون ما يلاقيه الداعية نابعاً إما من الداخل– من ذاته ومنهجه– أو ممن هم من الدعاة المسلمين خاصته، أو المخالفين له في الرأي والمنهج. وإما أن يكون آتياً من الخارج: الأعداء القريبين من قومه.. أو الأعداء البعيدين من دين آخر أو جنس آخر. ولا يخرج ما لاقاه الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا بعيداً عن هذا الذي وصفناه :

١ـ المعاناة الداخلية :

المعاناة الآتية من ذاته ومنهجه :

حدد الشيخ لنفسه هدفاً هو إصلاح الأمة، وعين وسائل لبلوغ ذلك الهدف منها: التعليم والتربية – التوفيق بين السنة والشيعة – اعتماد إصلاح الحاكم وبخاصة في أواخر حياته.. والملاحظ على هذا الهدف وهذه الوسائل.. أنها مرتكزة على إمكانية الوصول إلى وحدة الأمة، وعودتها إلى دينها مع الملائمة مع العصرية.. بدون منهج تغييري جذري.. بل إن كل الدلائل الفكرية والعملية التي صدرت عن الأستاذ الشيخ، تنم عن فكرٍ تجزيئيٍ للحل

(١) المصدر السابق ص٤٩، نقلاً عن كتاب رشيد رضا (السنة والشيعة) (١/ ١٦) بتصرف .
(٢) العنكبوت: ٢-٣ .

شبيه بها أملاه أستاذه الشيخ محمد عبده، فضربة هنا ومعول هناك ومدرسة هنا، ومجلة هناك، ومنتدىً هنا ومؤتمر هناك.. كافية جميعها إلى إحداث الأثر المنشود.. وكان هذا هو أهم سبب في معاناته من ذاته ومنهجه:

فوسيلة التربية والتعليم وإنشاء المدارس.. كانت أضيق من أن تؤتي أكلها بالتمام.. فهي بطبيعتها محدودة التأثير، محدودة الأعداد والأبعاد، وأما موضوع التوفيق بين السنة والشيعة، فقد بدأه بزخم شديد، وبالتهوين من الفروق الموجودة بين عقائد هؤلاء وهؤلاء حتى أنه حابى في كلماته الشيعة أكثر من السنة، طمعاً بجلبهم إلى دائرة الوفاق[1]، إلا أنه في نهاية المطاف، ونظراً لما عاناه من تعنتهم، وما كشف له من خلال مواقفهم تجاه المبدأ السني، وأنها مواقف معادية للمبادئ والأسس، وهو الذي حاباهم وقدمهم في كثير من المؤتمرات والمنتديات.. انقلب عليهم، فتصدى لكشف ما عليه الشيعة من بدع وانحرافات في العقائد والعبادات.. وكيف أن الاتفاق معهم، على ما هم عليه أصبح محالاً.. هذا إلى جانب أن مفهوم التأليف والتقريب أصبح عند علمائهم وعامتهم يعني اعتناق السنة لمبادئ الشيعة[2].

إلى هذا الحدّ وصلت معاناته النفسية والفكرية، التي سببها له منهجه ووسائله، كما سببها له تلك الثقة بجهات كانت قريبة منه، وقد قدم لها كثيراً من الاحترام والتقدير والقبول.. فقابلت ذلك بأن اكتشف في نهاية المطاف أن هؤلاء يحاولون استغفاله واستغفال أمثاله.. فكم من الألم انتابه ورافقه مما وصل إليه من استنتاج، قامت عليه الأدلة، ما جعله يعُدُّ الجهد الذي بذله في

---

(١) انظر إذا شئت المصدر السابق ص ٥٠-٥١.

(٢) المرجع السابق ص٥٥ نقلاً عن كتاب السنة والشيعة، مصدر سابق، (٢/ ٥، ١٥٧).

هذا السبيل جهداً ضائعاً لا طائل منه وأبدى أسفه لهذه النتيجة (١).

٢ – المعاناة الخارجية :

أ – **هجرته**: إن خوف الدولة العثمانية من كل ما كان يكتب وينشر في ولاية سورية، وكل تحركات الأفراد والجماعات واتصالاتهم، وقيامها بمراقبة الكثيرين من أبنائها.. جعل الناس فيها يشعرون بوطأة تلك المراقبة والمعاناة منها.. وكان من بين هؤلاء الشيخ محمد رشيد رضا- رحمه الله.. وقد زادته ظروف عائلته (أسرته) إصراراً على الهجرة، حيث كانت تشعر بتميزها علميًّا ونسبًا ودينيًّا.. فهم من آل البيت، وأهل بيت علم. وأهل التدين والزهد وكانت العائلة لذلك تأنف من الخضوع للحكام، فضلاً عن التردد عليهم.. وهو ما كان قميناً بتفسيره من قبل الرسميين بمظهر من مظاهر عدم الولاء للسلطة.. وقد كان هذا يحدث من بعض التقارير التي ترفع إلى المركز.. وقد زاد من تعقيد الموقف وزيادة المعاناة للشيخ العلاقة التي تدهورت بين أبي الهدى الصيادي مستشار السلطان في شؤون الولايات العربية؛ وذلك بسبب أمور فكرية، انتقد فيها الشيخ الطريقة الرفاعية التي ينتسب إليها الصيادي، كما زاد الطين بلة عند الصيادي، تبني الإمام محمد رشيد رضا لأفكار جمال الدين الأفغاني، ولما تولى شؤون متصرفية طرابلس (بدري باشا) صهر الصيادي، زادت معاناة الشيخ، بسبب الضغوط المتزايدة عليه، ومنع مجلة المنار من الدخول إلى أراضي الدولة إلا تهريباً. فلم يعد أمامه نتيجة المعاناة.. إلا التفكير بالهجرة إلى مصر، وقد كان ذلك عام ١٨٩٧م .

ب – **ومن المعاناة الخارجية**: وقوف مشيخة الأزهر في ذلك الوقت

---

(١) المرجع السابق ص٥٥ المنار م١٣ ج٧ صفحة ٥٤١.

(الشيخ الظواهري، شيخ الأزهر، والشيخ يوسف الدجوي الذي كان يترأس تحرير مجلة الأزهر آنذاك)، ضد مشروع الشيخ محمد رشيد رضا في الإصلاح.. وقد كان موقف المشيخة صدى للموقف الرسمي الحكومي، وقد عانى الشيخ رشيد من تلك المعارك الكلامية التي دارت على صفحات مجلة الأزهر ومجلة المنار العائدة للشيخ، وبخاصة أن (الدجوي والظواهري) كانا يتسلحان بدعم رسمي، فهما موظفان حكوميان، ثم بسلاح التهديد بالتكفير والزندقة لكل من يأتي بجديد، بعيداً عن كثير من الخرافات والجموديات.. وهنا لا بد من إيراد بعض مظاهر تلك المعركة (الكلامية)، التي أدت إلى التضييق الرسمي على الشيخ محمد رشيد رضا.. فمن الاتهامات التي وجهت للشيخ في مجلة الأزهر: الوهابية، الكفر، الزندقة والافتتان بالغرب، ومن الاتهامات التي وجهتها مجلة المنار للشيخ الظواهري ومناصريه في المشيخة (حزب الجمود الخرافي القديم)، و(حزب الحشوية)، و(القبوريون).. إلخ. وقد كانت الغلبة في تلك المعركة فكرياً.. للشيخ على المشيخة، نظراً لاستقلاليته وثقافته الواسعة المطلعة على مجالات واسعة من الواقع والتاريخ والثقافات الأخرى، ونظراً لحريته في الرأي، إذ كان الآخرون محاصرين بالرأي الرسمي[1].

جـ – **ومن المعاناة الخارجية للشيخ:** معاناته مع العلمانيين المتغربين، وقد دارت بينهما مساجلات ومناظرات مباشرة وعن طريق الصحافة والكتب، اشتدت خلالها معاناته وتعبه في ملاحقة أفكار هؤلاء الهدامين، وما شكلوه من

(١) المرجع السابق الصفحات (٧٨،٧٩،٨٠) نقلاً عن (المنار والأزهر ص٢١) وعن مجلة الإسلام الأعداد (سنة ١ عدد ٥٦ ذو الحجة ١٣٥١) و (سنة ٢ عدد ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٢) و(سنة ٥ عدد ١٠ ربيع أول ١٣٥٥) ذلك لمن يرغب في الاستزادة .

هيئات جاحدة مدمرة. وفيما يلي تلخيص مختصر للخلافات التي أخذت مساحات واسعة من الوقت ومن الصحافة ومواضيعها :

– الديمقراطية السياسية وحدود الحرية الفردية .

– مدنية القوانين والفصل بين الدين والسياسة .

– الفصحى والعامية .

– الجامعة الشرقية والفرعونية .

اتفق الشيخ مع هؤلاء على التنديد بحكام الشرق المستبدين. وعلى إيجابية أخذ بعض نظم دول الغرب من نظم برلمانية ووسائل حكم ديمقراطية.. إلا أنه خالفهم في الأخذ بنظم أولئك كما هي دون انتقاء.. وكانت حجته داحضة لهم غالبة: في أن ما يصلح لقوم ليس بالضرورة أن يصلح لآخرين، خصوصاً أن الشرقيين عندهم الإسلام، الذي يغنيهم ويجعلهم متقدمين على غيرهم. في حين أن نظام الغرب الديمقراطي، كرّس ديكتاتورية الحزب.. أو أي جماعة تحظى بالأكثرية حيث يضع أولئك القوانين التي تناسبهم وتناسب مصالحهم، وتهضم حقوق الكثيرين؛ فالرأسماليون وضعوا القوانين التي تخدم مصالحهم الرأسمالية، وفرضوها على الناس باسم حزب الأكثرية، أو باسم جماعات الأكثرية.. والشيوعيون والاشتراكيون، سنّوا القوانين الخادمة لديكتاتورية العمال والفلاحين.. وهي في الحقيقة كانت خادمة لمصالح الحزب الحاكم (ذي الأكثرية). وليس لمصلحة الفلاحين والعمال الذين ظلوا يعانون ويتألمون.

واشتدت معاناة الشيخ من احتدام الجدل حول فصل الدين عن الدولة والقوانين المدنية. وخلاصة الخلاف في ذلك: بدأ فيما اقترحه الفريقان في لجنة

وضع الدستور عام ١٩٢٣.. وهما فريق متغرب، وفريق وطني إسلامي.. فكان اقتراح الأول: أن يضم الدستور مادة تقول: «ليس لوطني مصري أن يحتج بأحكام دينه للتخلص من أداء الواجبات المفروضة عليه كوطني أو جندي» وكان اقتراح الفريق الثاني الإسلامي، أن يتضمن الدستور مادة تقول: «لا يجوز للحكومة أن تعرض على الأمة المصرية واجبات وطنية أو عسكرية تتعارض مع أحكام الدين الإسلامي، الذي هو الدين الرسمي للدولة المصرية»، وكان صدور كتاب «الإسلام وأصول الحكم ١٩٢٤» للشيخ علي عبدالرازق داعماً قوياً- برأي المتغربين العلمانيين- لمواقفهم في فصل الدين عن الدولة والقوانين، ويخص بالذكر هنا حزب الأحرار الدستوريين الذي ظهر عام ١٩٢٢، وتولى الشيخ كبر المعاناة في مواجهة الكتاب وأنصاره، المحتجين بما جاء فيه من أن الدين ليس فيه سياسة، وأن الحكم ليس من أصول الدين الإسلامي، والخلافة مسألة تاريخية وليست شرعية.. إلخ. وقد اشتد الشيخ في دحض أفكار الكتاب واتهام صاحبه، كما حرض الشيخ الأزهر على إعلان موقفهم منه.. خصوصاً أن (عبدالرازق) واحد منهم.. فأصدرت هيئة علماء الأزهر قراراً يدين الكتاب وصاحبه، ويعلن فصل الكاتب من سلك العلماء والقضاء الشرعي.

وبعد صدور هذا القرار، صبّ حزب الأحرار الدستوريين وجريدتهم السياسة جام غضبهم على العلماء بعامة، وعلى الشيخ محمد رشيد بخاصة، واتهموه بشتى التهم الدينية والسياسية، والسبّ الشخصي[1].

(١) المصدر السابق ص ٨٥ – ٨٩.

– ومن هنا.. دخلت اللغة العربية في المعركة، التي هي في يقين الشيخ ركن من أركان الدين، وأصل من أصول الإصلاح. وعانى الشيخ كثيراً في الذبّ عن اللغة الفصحى، ومواجهة الداعين إلى قطع الأدب والشعر، وحتى التخاطب عن اللغة الأم.. وكان هؤلاء خليطاً من المستشرقين الألمان والإنجليز في مصر، ومن النصارى المصريين واللبنانيين، ومن بعض المسلمين المصريين المقلدين لأولئك الجافين عن الإسلام وعظمته. ومن الأسماء نذكر: الألماني (وليام سبيتا) كان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية (ألا تلاحظ المهزلة)، و(j.s.willmore) ويلمور الإنجليزي كان يعمل مستشاراً في محكمة الاستئناف المصرية الأهلية، و(وليم ولكسوس) مهندس الري الإنجليزي و(سلامة موسى) النصراني المصري، وعيسى إسكندر المعلوف عضو مجمع اللغة العربية.. إلخ[1].

– أما بشأن: (ما بين الرابطة الشرقية والدعوة الفرعونية): إن هذه المعاناة التي وجدها الشيخ أمامه في مصر.. كان من الممكن أن نصفها في باب المعاناة الداخلية، إذ إنها أثارت عليه احتجاج المقربين منه والعاملين معه في المجال الإسلامي. خصوصاً أن انتسابه إلى جمعية الرابطة الشرقية غير مناسب لفكره الإسلامي، فهي جمعية أقرب إلى العلمانية بأساساتها وتوجهها، والمنتسبين إليها. وكان دفاعه عن انتسابه إليها هو دفاع جميع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يخدم من أي سبيل وفي أي حراك إذا دخل فيه الإسلامي، فهو يمكن أن يدفع ببعض وسائله ليتبناها الحراك، أو يمكن أن يمنع معاداة ذلك الحراك للإسلام.. أو أي شيء آخر.. وهذا ما أثبتت التجارب والخبرات والأيام

(١) المصدر السابق، انظر ص ٩٢ – ٩٦.

خطأه.. وقد ثبت للشيخ فيما بعد، عندما هيمن الفريق العلماني على الهيئة ومجلتها، وبدأ الجميع يوجهون إلى نبذ الفكرة الشرقية والاتجاه نحو الغرب، ونبذ الإسلام وقواعده في الحياة والملبس والمرأة، والتشبه بالغربيين في كل شيء (سلامة موسى)، كما أنهم راحوا يوجهون إلى اعتزال العلماء للسياسة وشؤون الدنيا، والاشتغال بأمور الدين وحسب (طه حسين)، إلى أن وصل بهم الأمر إلى رفض مقالات الشيخ التي يرد بها على مناوئيه وعدم نشرها في مجلتهم[1].

- وبشأن الفرعونية.. نقول بداية.. هل كانت الدراسات عن التاريخ القديم لكل قطر في المنطقة على حدة بريئة؟ وهل كان الحفر والبحث الحثيث عن آثار الدول التي قامت في المنطقة قبل الإسلام تحت شعار البحث عن التأريخ؟ نقول: هل كان ذلك خالصاً لوجه العلم؟ أم أن الأهداف مسكونة بالمريب أيضاً.. ؟

قدمنا هذه المقدمة، لنلقي بعض الضوء على سرّ وجود الدعوات الهدامة مثل: الفرعونية والفينيقية التي نشأت في ذلك الحين، وكيف أن من ضمن أهداف الدراسات الإقليمية وأعمال الحفر كان هدف تمزيق الأمة، وإظهار أنها أمم وحضارات رائعة، كانت تقطن هذه الأرض قبل الإسلام، فهي إن لم تكن أجذر منه وأعلى مكانة في التقدم، فهي تنادده في امتلاك الشعوب.

وليكن معلوماً أنه عندما اندثرت تلك الدعوات، ولم تجد لها أتباعاً أمام وعي النخب والناس بشكل عام، فقد راحت الدعوات القومية النابذة للإسلام، تحل محلّ تلك، فقامت القومية العربية الآخذة بعنان معاداة الإسلام عندما بدأت طريقها، وإن هي عادت لتستنير مؤخراً وتعتدل.. ثمّ أخيراً بدأت

(١) المصدر السابق، انظر ص ٩٩ – ١٠١.

القطرية الإقليمية المقيتة تستأثر بالساحات، وإن كانت هذه ليست آخر المطاف مع الساعين إلى أي صيغة تبعد الناس عن دينهم وهويتهم ووحدة آمالهم وحياتهم وأهدافهم وطريقة حياتهم، فمآل هذه الأخيرة ليس أفضل من زميلاتها السابقات .

كما أننا قدمنا هذه المقدمة.. لنظهر خطورة المواجهة مع هذه الأفكار الهدامة وشدة المعاناة من الردّ عليها ومتابعة تفرعاتها، والوقت والجهد والبذل وكلها تحتاجها هذه المتابعة. وقد كان الشيخ جديراً بالتصدي لها؛ إذ كان من ضمن ما ردّ فيه على هذه الدعوات وسفهها قوله: «.. لا توجد أمة ولا دولة في هذا العصر تُسَفِّهُ نفسها ببناء أهرامات كأهرامات الجيزة، ولا يمكن لعاقل أن يؤثر استعمال» الهيروغليفية «على العربية، لأنها لغة ميتة ذهبت عينها، وبقيت آثارها، وليس فيها ميزة توجب إحياءها.. أما المدنية الفرعونية فكانت تستعبد البشر وتذلهم، والأهرامات- وهي أظهر آثارهم- حجة عليها وعليهم»[1] .

وقد استمرت معاناة الشيخ ومتابعاته المتعبة للقضايا الإسلامية والعربية، ومعارك التعليم والإصلاح وافتتاح المدارس التي كان يعوّل عليها في عملية التغيير، ومما زاد الأمر هموماً قضية فلسطين والماسونية والصهيونية، والمؤتمرات التي عقدت من أجل ذلك فيما بعد.. وفي عام ١٩٣٥ انتهت مسيرة الشيخ بوفاته.. بعد أن أبلى بلاءً حسناً في سبيل دينه وأمته.. فهل من درس يستفاد من تلك السيرة ؟

رابعاً: الدرس المستفاد من سيرة الشيخ محمد رشيد رضا:

إن عبقرية العثور على السبيل إلى الإنقاذ والتغيير في الأمة تحتاج إلى :

(١) المصدر السابق ص١٠٣، نقلاً عن المنار (م/ ٣١، ج/ ٦، ص ٤٦٨، ٤٧١).

١ – الصفاء الفكري والعقيدي .

٢ – أن يكون التغيير هماً حاضراً في إهاب المصلح ليلاً ونهاراً .

٣ – أن تكون آماله ووسائله وآلياته ورؤاه مرتبطة بالله في كل صغيرة وكبيرة، لا تحيد لحظة عن ذلك .

٤ – أن يمتلك وعياً عبقرياً، شاملاً بواقع الحياة من حوله، وفهماً عالياً بالنفوس البشرية وما يقودها باتجاه التغيير، وما يجعلها في حال من التضحية والبذل دون كلل ولا ملل ولا تردد.. مهما تقلبت لها الأمور، وضاقت الآفاق.

٥ – وأن يكون قدوة عالية غالية في كل ما ذكرنا.. لا يتأخر أبداً عن موقع ندب إليه، ولا يعتذر عن جهد مطلوب وتضحية واجبة، وبذل غالٍ.. بل إنك لتجده من يكون هناك حاضراً دون ندب.. إنه الوضوح التام .

والشيخ في سيرته التي مررنا باختصار عليها امتلك الكثير من تلك الصفات، وترك إرثاً ممتازاً من الخبرات والتجارب يحمل الصواب والخطأ معاً.. إلا أنه كانت تخالط رؤاه وآماله ووسائله وحتى وعيه بعض الاشتراك مع الواقع الأليم.. مما كان يغبش لديها الطريق والسبيل إلى الصواب في المواقف والآراء، أو الانحياز إلى جهة أو هيئة أو حكم لا يؤدي به إلى ما يريد من خير يضمره لأمته.

وقد يشفع للشيخ في ذلك اختلاط الأمور في تلك الفترة التي عاشها، وكابد المعاناة فيها؛ إذ كانت المنطقة كلها تموج بالأحداث العظيمة والإرهاصات التي ساقت إلى سقوط إمبراطوريات كبرى منها: العثمانية والروسية والألمانية على إثر الحرب العالمية الأولى.

وهذا ما أوقع الشيخ في الولاءات السياسية المختلفة، نتيجة عدم الوضوح التام في رؤية واقعه وأفضل السبل إلى تغييره.. فهو متنقل بين ولاء سياسي وآخر، أو ولاء لمنظمة وأخرى.. ركضاً خلف إمكانية يرتجيها من وراء ذلك الولاء، قد تحرك الجمود باتجاه التغيير، ولكن هيهات هيهات لتلك الولاءات غير الصافية أن تعطي دسماً.. !

ونقطة الوضوح تلك التي ذكرنا من أهم ما يجب أن يكون متحلياً بها أهل الحراك الإسلامي باتجاه التغيير، وقد استفاد الإمام البنا الذي رافق حراك الشيخ في مرحلة متأخرة من الوقت.. استفاد من تجربته الثرية، فكان واضح الرؤية للواقع وواضح الرؤية للسبيل القويم، مبتعداً عن المتنفذين والكبراء، فاهماً لما يدور حوله من حراك قومي ووطني وبلدي وعصبي، واضعاً لكل اتجاه نصابه الذي يفهم من خلاله.. مبيناً أن كل حراك لا ينبني على تشكيل دائم مستمر.. يزول أثره بزوال وجود صاحبه إلا من تأثير قليل يخضع للذكريات والأمنيات .

لذا، فإن البنا- رحمه الله- التقط كل التجارب التي سبقته ولم يشخصن الحراك، بل جعله مؤسساتياً راسخاً باقياً مستمراً به وبدونه.. وهو الذي كان.. رحم الله الجميع وجزاهم عنا خير الجزاء.. فهل وعينا الدرس؟

المبحث الثالث
معاناة الإمام الشهيد حسن البنا (١٩٠٦- ١٩٤٩)

أولاً: الإمام الشهيد في سطور:

علمه ومناقبه :

وُلِد الإمام في بلدة المحمودية في الدلتا، مديرية البحيرة عام ١٩٠٦ م، من عائلة متوسطة الحال، كان فيها العلم وحب الإسلام، فوالده أحمد عبد الرحمن كان خطيباً لمسجد المحمودية، حافظاً للقرآن، عالماً بالحديث، وله فيه مؤلفات كبيرة مثل الفتح الرباني في شرح مسند أحمد. وهو الذي تولى تربية ابنه حسن، فقد حرص على أن يحفظ ابنه القرآن كله، فلم يوافق على التحاقه بالمدرسة الإعدادية إلا بعد أن تعهد له بحفظه من المنزل. ثم تعهد الوالد ولده بالقراءة، ففتح له مكتبته، وراح يهديه بعض الكتب المنتقاة، وهذا هو الذي ولّد عند الإمام شغفاً غير متناه للمطالعة والاطلاع والمتابعة. كما وجهه والده لحفظ المتون.. وقد برع الإمام في ذلك، ونمى لديه الحفظ السريع والذاكرة الحاضرة. وقد أخذ البنا عن والده مهنة تصليح الساعات، وهو ما نمى عنده الدقة والصبر[1].

وأما شيوخه وأساتذته، فقد أثّروا فيه كل من اتجاهه :

فشيخه وأستاذه في مدرسة الرشادية الدينية (الشيخ محمد زهران، ركز فيه حب المطالعة والقراءة والبحث والنقاش، وكان يقرأ عليه ما يحتاج من مسائل، ويستمع إلى نقاش بعض العلماء الذين يحضرون الجلسة. وأما شيخه

(١) التربية السياسية عند الإخوان المسلمين، عثمان عبدالمعز رسلان، ص ١٣٥ بتصرف.

عبدالفتاح أبوعلام في مدرسة المعلمين، فقد نمّى فيه التعمق في طاعة الله، والتعمق في النظر في أسرار التشريع الإسلامي، وفي تاريخ المذاهب والطوائف والفرق. أما الأستاذ فرحات سليم في مدرسة المعلمين، فقد دفعه إلى نبذ العزلة، التي وجهته إليها حياة التصوف، التي دخل فيها وتأثر بها، كما دفعه إلى البحث والمذاكرة بإلحاح وجدية.

ولم تقتصر مطالعات الإمام على أساتذته، بل وسع من اتصالاته؛ كي يزداد معرفة وعلماً وأدباً؛ فقد جالس الأستاذ محب الدين الخطيب في مكتبته السلفية، واتصل بالشيخ محمد الخضر حسين، وبأحمد تيمور، وبالشيخ الغمراوي، وكان يحضر مجالس الشيخ رشيد رضا، ويغشى منزل محمد فريد وجدي، وكان من محبي دائرة معارفه (وكان ذلك وهو طالب في كلية دار العلوم)[1].

وقد تأثر الإمام البنا بالصوفية، وبخاصة بالطريقة الحصافية وبأسلوبها في التربية الروحية، وبالمعارف المعمقة عن طريقها، وبالأوراد والعبادات المكثفة. وكان (حسن خزبك) أحد شيوخه في الطريقة عميق الأثر فيه، حيث كان يحضر جلسته بعد صلاة الفجر، ويستمع لدرسه من إحياء علوم الدين. ومن جملة ما استفاده من درسه الإحياء كله بعده عن المظاهر والزهد. وعن طريق الحصافية التقى البنا بأحمد السكري وشكلا معاً (جمعية الحصافية الخيرية). وقد توثقت علاقتهما، كما التقى الشيخ عبدالوهاب الحصافي، الذي استفاد منه خصلة البعد عن الجدل فيما لا ينفع. وقد استغرقت فترة بقائه في الطريقة منذ كان عمره ١٣,٥ سنة، وحتى بلغ الحادية والعشرين؛ حيث توجه بعدها مع عدد من أصفيائه إلى تأسيس جماعة (الإخوان المسلمين)، التي كانت خلاصة

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ بتصرف، وهو منقول عن مذكرات الدعوة والداعية.

تجربته المعرفية والصوفية والسياسية، التي صبغت أجواء الحياة المصرية والإسلامية عموماً؛ إذ كانت تلك الفترة فترة مزدحمة بالأحداث التي كان أهمها: سقوط الدولة العثمانية الجامعة للمسلمين، وتكالب الغربيين على الميراث العثماني وتقاسمه، وما تبع ذلك وسبقه من المؤامرات على الإسلام ومحاولة زعزعته من النفوس، وبث روح الهزيمة والتقليد للغرب في مناحي الحياة بكل تجلياتها[1]. وذلك كله ما دفعه دفعاً إلى تأسيس جماعة الإخوان، حيث تفتقت عبقريته وخبرته التي اكتسبها من تجاربه مع السياسيين والعلماء والجماعات الصوفية، تفتقت عن حقيقة لم تراود أحداً من المصلحين في ذلك الوقت، ألا وهي: أن الاكتفاء بالوعظ والخطب والكتابة العابرة كلها وسائل جيدة، ولكنها وقتية، يمضي تأثيرها بمجرد غياب صاحبها، وأن ما حدث وما جرى لدولة الإسلام وللمسلمين، إنما حدث عن طريق التنظيم والتخطيط والتنفيذ المرسوم، وأن العودة بالمسلمين لا بد لها من مواجه مكافئ، يمثله تنظيم الإخوان كجبهة مخطط لها في الدعاية والتكوين والتنفيذ. وكان للإمام البنا ما أراد، وبزغت الجماعة الإسلامية الغضة كأغلى أمل راود المسلمين والإصلاحيين منهم خاصة؛ في أن يكون لهذا الدين شأن وكلمة ورأي في مستقبل الأمة، بعيداً عن الغفلة التي كانت تحيط بالكثيرين وتشغلهم عما يحيط بهم من ظروف وما يخطط لهم من قبل المستعمرين، لذا جاءت دعوة البنا والجماعة التي أسسها مع رفاقه الأوائل شاملة محيطة بالعلمي والاقتصادي والسياسي والروحي والاجتماعي ومواجهة المستعمرين.. وكان ذلك من أهم الأسباب التي وسعت انتشار دعوة الإخوان وامتدادها في الشعب. إذ عجزت

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ – ١٣٧ وما بعدها.

حراكات الأزهر والجماعات والشخصيات العلمية والسياسية الموجودة آنذاك عن إيجاد هذا التفكير الشامل الذي قدمته الجماعة نموذجاً للإسلام المؤسس على ما كان من دعوة رسول الله ﷺ في مسيرتها المباركة الشاملة[١]. وهذا الذي كان هو السبب الرئيس في تكاتف كل القوى المعادية لوأد هذه الجماعة في مهدها.. ولكن الله سلم، إذ امتدت أفنان الدعوة وارتفعت، رغم العداء والكيد المستمرين.

ثانياً: قالوا فيه:

اتفق الدارسون لشخصية البنا مع أتباعه، على أنه كان زعيماً آسراً (وشخصية أخاذة) وهو تعبير الشيخ طنطاوي جوهري[٢] وإليك بعض ما قالوه:

- (روبير جاكسون) الذي التقى البنا عام ١٩٤٦م: «وكنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله»[٣]. ويضيف جاكسون: «أعتقد أن حسن البنا كان أهلاً للمكان المرموق والزعامة الحقة التي وصل إليها»[٤].

- (ريتشارد هربر دكمجيان) أستاذ العلوم السياسية في جامعة نيويورك: «وظهور البنا مثال يجسد الشخصية الآسرة، التي تظهر في أوقات الأزمات، لتقوم بمهمة الخلاص الاجتماعي الروحي..»[٥].

(١) المصدر السابق بتصرف ص ١٤٢ – ١٤٣.
(٢) المصدر السابق ص١٣٠، نقلا عن كتاب محمود عبدالحليم (أحداث صنعت التاريخ ١/ ١٨٦).
(٣) المصدر السابق ص١٣٠-١٣١ نقلا عن كتب (حسن البنا الرجل القرآني لروبير جاكسون، وكتاب الأصولية في العالم العربي لدكمجيان، وكتاب الإمام الشهيد لجابر رزق).
(٤) المصدر السابق ص١٣٠-١٣١.
(٥) المصدر السابق ص١٣٠-١٣١.

- طنطاوي جوهري: حسن البنا في نظري أعظم من الأفغاني ومحمد عبده، وأنه مزاج عجيب من التقوى والدهاء السياسي: (إنه قلب علي، وعقل معاوية) ويضيف: «رأيت فيه صفات القائد الذي يفتقده العالم الإسلامي»[(١)].

ويحسن بنا أن نقتبس فقرتين مما قاله روبير جاكسون في كتابه حسن البنا الرجل القرآني عن أسباب شخصيته الآسرة وتفوقه الآسر: فهو يقول: أهم ما كون تلك الشخصية برأيه القراءة الواسعة، والاطلاع الضخم، وسعة الأفق: ولم تكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة مما عرف العالم في الشرق أو في الغرب، في القديم أو في الحديث، لم يبحثها أو يقرأها، أو يدرس أبطالها وحظوظهم من النجاح أو الفشل. يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا وفي الصحراء وفي مصر الوسطى والعليا وتقاليدها، بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات.. بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعي الطرق والقتلة..»[(٢)].

ويجمل جاكسون عوامل زعامة البنا فيقول: «كان له من صفات الزعماء صوته الذي تتمثل فيه القوة والعاطفة، وبيانه الذي يصل إلى نفوس الجماهير، ولا تنبو عنه أذواق المثقفين، وتلك اللباقة والحنكة والمهارة في إدارة الحديث والإقناع. كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رسالتهم، وكان كل جانب من

(١) المصدر السابق ص١٣٠-١٣١.
(٢) المصدر السابق ص١٣٢.

هذه الجوانب يبرز كطابع خاص في الوقت المناسب.. وكان أبلغ مواهبه القدرة على الإقناع وكسب الفرد بعد الفرد، فيربطه به برباط لا ينفصم»[1] وإنها لمواهب ربانية، وعجائب خبرات ميدانية نمت وأنبتت من كل فن تنظيمي دعوي عجيب وزاهر متقدم. وبعد تشكيل الجماعة، بدأ الإمام دعوته في الشارع، وفي المقاهي مصطحباً لوحاً صغيراً يستعين به على شرح بعض الأفكار لرواد تلك الأماكن ؛ وذلك لأنه رجل عملي جداً .

ثالثاً: معاناته :

١ - معاناة الإمام الداخلية:

أ - **من تحصيله للعلم والخبرة**: عانى الإمام الشهيد- وهو بعد شاباً يافعاً- من كثير من السهر، وكثير من بذل الوقت، وكثير من التفكر.. وذلك خلال علاقاته في المدارس التي درس فيها، وخلال اتصاله بالعلماء والمشايخ والحركات الصوفية والشخصيات السياسية، وهو في كل ذلك يجافيه النوم، وتبتعد عنه الراحة في النهار، وتذبل عيناه وهو يلاحق العلم في الكتب، ويوافيه من مظانه في الدروس، وحضور الندوات، ومتابعة المدرسين، ومطالعة الكتب، وملاحقة العلم الديني والدنيوي في ساحاتها وكتبها ومنتدياتها وشيوخها، وهو لم يحصل الدرجة التي قالها عنه (جاكسون).. إلا بعد صلته بأساتذته ومشايخه والتزامه بالطريقة الحصافية، ثم فرط مكتبة والده كتاباً كتاباً، ثم استعارته للكتب الكثيرة ومطالعاتها، ومن ثم تنقله بين مجالس محب الدين الخطيب في مكتبته السلفية والاستماع إليه ومطالعة مكتبته، ثم استفادته من جلساته مع الشيخ الكبير محمد الخضر حسين، ومن علاقته مع

(١) التربية السياسية عند الإخوان المسلمين (مرجع سابق) ص ١٣٣.

أحمد تيمور، وجلسات الشيخ الغمراوي، ومجالس الشيخ محمد رشيد رضا، وجلساته مع محمد فريد وجدي اليانعة واتصاله الحثيث بـ(دائرة معارفه) أثناء وجوده طالباً في دار العلوم. وأخيراً وليس آخراً اطلاعه على كل الدعوات التي كانت موجودة في تلك الأيام.. بدءًا بدعوة الأفغاني ومحمد عبده، وانتهاءً بصلته بالأحزاب السياسية المتناحرة على الساحة، صلة وثيقة وليست سطحية، ومن ثم إلى معاناته من خلافات الصوفية ودخول بعضهم في ممارسات مماثلة أو فاسدة خارجة عن شرع الله.. مستفيداً فقط من التربية الروحية والالتزام والطاعة، التي تميزت بها تلك الحركات دون غيرها. بدأ حياته باهتمام شديد بالنواحي العملية، فأنشأ خلال دراسته الأولى جمعية الأخلاق الأدبية، ثم بعد ذلك جمعية منع المحرمات[1] وكان ذلك إضافة جدية عملية على خبراته ومواهبه.

وقد كلفه كل ذلك الجهد وقته وماله وراحته الجسمية، والبذل غير المحدود في كل ذلك.. إلى أن حصّل العلم والخبرة بدرجة امتياز، ودليل كل ذلك وبرهانه، أنه وصل في تفكيره إلى إيجاد الحل الذي لم يعثر عليه الكبار، ألا وهو تشكيل جماعة الإخوان المسلمين فكرة عملية ميدانية، لا تكتفي بقول الكلمة أو كتابتها، بل هي نظام وتنظيم يريد احتواء الحل، وبذل الجهد والمال، ونقل ذلك إلى الأجيال، حراكاً لا ينقطع بموت أحد أو بعده، وهو في الوقت نفسه مكافئ لما هو مطروح في الساحة من تحديات محلية أو عالمية .

وقد أورد الإمام عمر التلمساني في أحد كتبه برهاناً على خبرة الإمام الشهيد، وبعد نظره المتولدين من الموهبة أولاً، ومن طول العناء ومعاركة

(١) عمر التلمساني في ذكريات لا مذكرات ص ٥٦ .

الأحداث وعمق العلم ثانياً. وكان هذا البرهان متمثلاً بقصة الشابين النجيبين من شباب الإخوان، اللذين كان أداؤهما الديني العبادي عاليًا، وكانا خطيبين جيدين لا يملهما السامع، وكان الجميع يظن فيهما الكفاءة والخير.. إلا أنهما طلبا من الإمام الشهيد ضمهما في عداد الهيئة التأسيسية للإخوان، وألحّا في الطلب، ووسّطا العديد من الإخوان لدى المرشد العام. إلا أن المرشد رغم ذلك كله، كان يمهلهما حتى استشهد، ولم يحصل الأخوان على مرادهما، وكان ذلك مثار دهشة وعجب الإخوان وتساؤلهما.. وتمر السنون.. وعندها يتجلى بعد نظر الإمام في هذه القضية وخبرته وعلمه في النفوس(١).

ب – **من المسلمين المخالفين**: وقد حدد الإمام موقفه وموقف الجماعة من هؤلاء المخالفين في أمور شرعية فرعية فقال في رسالة مصارحة من كتاب مجموعة رسائل الإمام الشهيد ص ٢٤: «.. فنلتمس العذر كل العذر لمن يخالفونا في بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبداً حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير..» وقد حدد في مكان آخر أسباب هذه الخلافات نلخصها فيما يلي: «منها اختلاف العقول في الاستنباط، وإدراك الدلائل والغوص في أعماق المعاني وربط الحقائق بعضها ببعض، ومنها سعة العلم وضيقه، قال مالك لأبي جعفر المنصور، عندما رأى أن يتخذ من الموطأ مذهباً لجميع الناس في الدولة: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار، وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة. **ومنها** اختلاف البيئات.. وإنك لترى الإمام الشافعي رضي الله عنه يفتي بالقديم في العراق، ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح

(١) من كتاب الملهم الموهوب – حسن البنا، للإمام عمر التلمساني ص (١٢-١٣) بتصرف.

عنده، لا يعدو أن يتحرى الحق في كليهما. **ومنها** اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين لها.. فهذا الراوي ثقة عند إمام.. تراه مجروحاً عند غيره لما علم من حاله. **ومنها** اختلاف تقدير الدلالات، فبعضهم يعتبر عمل الناس (خصوصاً في المدينة) مقدم على خبر الآحاد نقلاً، وذاك لا يقول معه به وهكذا..»[1].

وكأمثلة على **تلك المعاناة** من بعض المسلمين: كانت مواجهة بعض الإقطاعيين، وأيضاً مواجهة بعض الصوفية الذين قال الإمام عنهم بشكل عام: «.. وليست الصوفية دق الدفوف، وإعلاء البيارق، وجمع النذور». كما واجه بقوة وصبر نقد الناقدين لشعار الجماعة بربط المصحف بالسيف.. و**عانى** حتى من المنتمين للحراك الإسلامي بسبب ذلك.. لكنه لم يشك لحظة أن الورد يحتاج إلى الشوك ليحميه، كما قال المرشد العام اللاحق للجماعة عمر التلمساني رحمه الله ورضي عنه في كتابه (ذكريات لا مذكرات)[2] كما **عانى** من معاندة ومحاربة كبار الحزبيين من المسلمين الذين هالهم سرعة انتشار الجماعة، وعلو شعبيتها، وقبول الناس لها، فخافوا على مستقبلهم السياسي والشعبي، فراحوا يستخدمون الكثير من وسائل الإعلام والدعاية لتشويه صورة الإمام والجماعة؛ فهم تارة يتهمونه بالعمالة للمستعمر، وتارة بالعميل للقصر، وتارة ثالثة بالذي يغطي طموحه للسلطة بالدين.. وقد سايرهم في ذلك حتى بعض من المشايخ والعلماء.. لكنه والجماعة، صبروا، وتحملوا الأذى، وردوا على كل ذلك بالعقل والعلم والأدب، فأفشلوا أهداف أولئك، وبقيت الجماعة قوية

(١) رسائل الإمام الشهيد (رسالة مصارحة) ص٢٣-٢٤ بتصرف.
(٢) ذكريات لا مذكرات – عمر التلمساني ص ٦٧ وما بعدها بتصرف.

متقدمة شامخة.

جـ- وأهم ما واجهه الإمام من **معاناة داخلية** خلافه مع وكيل الجماعة (أحمد السكري) وذلك حول علاقة أحمد السكري بحزب الوفد، وقيام الوزير فؤاد سراج الدين بترقية أحمد السكري في الوظيفة إلى الدرجة الثانية دون استحقاق، وكان هدف سراج الدين استقطاب بعض كبار الإخوان بإغرائهم بمناصب أو درجات، ليكونوا عوناً لحزبه.. وقد شعر الإمام بخطورة ذلك على الجماعة- وهي نظرة حق- فطلب من الأستاذ السكري أن يرفض الدرجة حفاظاً على مصلحة الدعوة، فرفض السكري الأمر.. وكان هناك تحكيم، حكم به الأستاذ صلاح شادي بقوله للأستاذ السكري: «هل ارتضيت حسن البنا مرشداً لك في أمور الآخرة؟ قال: نعم، قلت: وما يمنعك أن ترتضيه مرشداً كذلك في شؤون دنياك؟ وقد تعلمت منك قول رب العزة في الحديث القدسي: «**من أراد رضاي، أردت ما يريد، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد**» وأما ما يتعلق بصلة الجماعة بفؤاد سراج الدين، فلن تضار برفضك للدرجة إذا كان فؤاد سراج الدين يبغي منا خيراً، وإذا كان الأمر غير ذلك فالقطع أولى بنا.. «لكن أحمد السكري أبى الاستجابة، وأعلن عن خروجه من الجماعة، وقاد حملة في صحف الوفد تحت عنوان هذه الجماعة تهوي»[1].

د- وأيضاً كان مما واجهه الإمام من معاناة داخلية هي صلف أحمد السندي رئيس قسم التنظيم الخاص في الجماعة.. فقد كان هذا الرجل، بما جمع في يديه من إمكانات تنظيمية خاصة عسكرية وبشرية يخاطب الإمام خطاب الند للند، كما كان- لأنه الفرد المسؤول عن القسم الذي فيه القوة- في ساعات

(١) من كتاب صفحات من التاريخ - صلاح شادي ص ٢٠-٢١.

الأزمات موضعاً لاختراق قرار الجماعة[١].. ولذلك صدر عن الإمام الشهيد فيما بعد كلاماً ينبئ عن ندمه لتشكيل هذا القسم.. وقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لعدت بالإخوان إلى تنظيم الأسر وبرامجها الأخلاقية والروحية.

هـ- ومما واجهه الإمام من **معاناة داخلية** بسبب تردد بعض الإخوان في تعيين نائب للإمام في مرحلة الإسماعيلية، واعتراض هؤلاء على تعيينه.. وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى اتباع الهوى والمزاج؛ إذ عندما نزل الإمام على رأيهم في جمع الإخوان لانتخاب نائب له بحجة أن التعيين الأول لم يحضره جميع الأعضاء.. فلما اختار الإخوان في الاجتماع الثاني الأخ نفسه.. لجأ هؤلاء إلى الرفض، وإلى محاولة تشويه صورة الإمام، واتهامه بالتلاعب بمالية الجماعة، حيث برّأته النيابة العامة التي رفعوا لها الأمر من هذه التهم.. وأدى الأمر في النهاية إلى تفكير الإمام بفصل هؤلاء إلا أنهم استقالوا من الجماعة قبل ذلك، لكنهم ظلوا عاملين على خطتهم في مناوأة الجماعة، ومحاولة اتهام المرشد العام رضي الله عنه.

٢ – **المعاناة الخارجية:** وقد تعينت أسباب تلك المعاناة فكانت بالتحديد :

أ – الإنجليز.

ب – القصر ومن والاه.

جـ – الصهيونية والشيوعية والعلمانية الغربية وموالوها.

وبذلك نكون قد جمعنا بهؤلاء الثلاثة كل أشكال الأدواء في الأمة وحددها الإمام بما يلي[٢]:

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) ذكريات لا مذكرات– عمر التلمساني ص ٧٦-٧٧.

١- الاستعمار. ٢- الحزبية المتناحرة المفرقة للأمة. ٣- الربا.

٤- الشركات الأجنبية. ٥ - الفوضى الفكرية والمروق العقيدي وتحطيم المثل العليا. ٦- التقليد الغربي الأعمى. ٧- القوانين الوضعية. ٨- التخبط الكامل في مناهج التعليم. ٩- مظاهر اليأس.

ولنستعرض الهموم الثلاثة (أ، ب، ج).

أ - **الإنجليز**: إن كل مسلم غيور على دينه ووطنه لا يقبل أن يكون الأغيار محتلين لوطنه، مهيمنين على قراره، الذي يتصدره بعض المداهنين من المسلمين المواطنين.. فكيف بإمام استيقظ منذ طفولته على رسالة الإسلام، تتردد في جنبات بيته، وفي العديد من الهيئات الاجتماعية التي كان يغشاها، ويجري ذكرها على ألسنة مشايخه والعلماء المخلصين الذين ما كان يتوانى عن الاتصال بهم، وحضور مجالسهم وندواتهم ودروسهم. كيف بهذا الإمام الذي وضع كل ما يملك من وقت ومال ومكانة وعلم وإمكانيات ومواهب عظيمة، بل وحياة أمّنه الله عليها، في سبيل نصرة دين الله، هاجراً كل مباهج الدنيا وموجوداتها الفانية. وكذلك في سبيل تخليص مصر وبلاد المسلمين مما هي فيه من تخلف وتخبط وضياع واستعمار.. ونقول: كيف برجل هذا شأنه، يمكنه أن يهادن لحظة واحدة وجود المستعمر فوق أرضه؟

ولما اكتشف الإنجليز خطورة دعوته، بعد أن كانوا والقصر والأحزاب ظانين أنها دعوة كباقي الدعوات المارة مروراً في أفق البلاد، أو المقيمة على بعض الطقوس والروحانيات التي لا تتدخل بوضع سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي. لما اكتشف الجميع أن جماعة الإخوان ودعوة الإمام روح جديدة،

تسري في القلوب والنفوس، وتمتد إلى الجوارح والحراك مبتغية خير الأمة وخلاصها من المستعمر وجميع مخلفات عهود الركود والقعود، وأنها دعوة مشمرة عن السواعد، مهتدية بشمولية الإسلام لكل مناحي الحياة، راحت كل تلك الجهات تحوك المؤامرات، وتدبر المفتريات، وتنسج الكمائن، وتصنع المعوقات والمثبطات والتهم للدعوة الجديدة ولمنشئها ورجالاتها، مستهدفة القضاء عليها في مهدها، لكن كل ذلك باء بالفشل، وسلّم الله الدعوة وامتدت ونمت وأنبتت من كل فكر أصيل، ومن كل حراك بهيج، شامخ مستمر بإذن الله بدون تردد. وكان من تلك العداوات والمعوقات[1] أنه عندما رشح الإمام نفسه مرتين لانتخابات مجلس النواب، ثارت ثائرة الإنجليز، وطلبوا من رئيس الوزراء (النحاس باشا) أن يطلب من الإمام سحب ترشيحه في الإسماعيلية، وأبدى الإمام إصراراً كبيراً على المضي في الترشيح، عند ذلك أطلعه النحاس على تهديد الإنجليز، وأن البلاد نتيجة لذلك سوف تكون في خطر، تنازل الإمام عن الترشيح تفادياً لما قد يقع من مخاطر على البلاد.. وهنا تعرض الإمام حتى من إخوانه لمواقف غاضبة، حتى أن الأستاذ التلمساني وصل به الغضب حدّ الانقطاع عن الحضور للمركز العام. وأما في الترشيح الثاني للإمام، فقد قام الإنجليز بتزوير الصناديق عند فرز الأصوات ما أدى إلى سقوطه، وقد كان وإخوانه ضامنين النجاح. وواجه الإمام والإخوان الأمر بصبر ورجولة وحكمة، فالمهم عند الإمام هو استمرار الدعوة، ونمو فعلها، وهو ما تحقق.. ولئن خسر الإخوان معركة الانتخاب بفعل التزوير والقمع، فهم كسبوا الدعاية والتعريف بها بشكل أوضح وأفصح عن طريق الدعاية

(١) المرجع السابق ص ٧٩ .

الانتخابية، ثم عن طريق أن الخسارة المبرمجة من قبل الإنجليز ورجالات الحكم.. كانت دعاية للجماعة وللإمام، مصحوبة بوعي كبير لما يكنه الأعداء لدعوة الإسلام ورجالاتها. وأن هذا الإسلام لا بد أن يتحمل دعاته البذل والتضحية، كي تصل الرسالة إلى غايتها المرتجاة، فتعود الأرض إلى حضن الإسلام الدافئ المنقذ من الضلال والإفك السائدين المهيمنين على أفق العالم .

وقد تعب الإمام وعانى الكثير، من أجل أن يضع فكر الإسلام الشامل على مائدة الميدان في مجتمعات المسلمين، وفي مقدمتهم إخوانه الذين تحملوا المسؤولية معه: فكان مما قاله عن موضوع الميدان والجهاد(١): الفريضة الماضية إلى يوم القيامة، والمقصود بقول رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم ينو الغزو، مات على شعبة من النفاق**»(٢). وأول مراتبه إنكار القلب، وأعلاها القتال في سبيل الله وبين ذلك: جهاد اللسان والقلم واليد وكلمة الحق عند السلطان الجائر. ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها... ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ.. ﴾(٣).

ب – وسوف نعدد بسرعة أهم الأحداث والمعاناة مع القصر والإنجليز والحكومة وبعض الممالئين. أما مع الشيوعيين والعلمانيين فالمعركة ومعاناتها طويلة ومستمرة لا تنقطع أبداً، وتحتاج إلى مجلدات نكتفي منها بإشارات أيضاً.

١ – حادثة تفجير القطار الإنجليزي المحمل بالعتاد والجنود، لدعم الصهاينة في فلسطين في مواجهة العرب المسلمين هناك (يمر القطار في منطقة

(١) رسائل الإمام ص ٢٧٣ .
(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٤) .
(٣) الحج: ٧٨.

الشرابية)، وهناك يتباطأ نظراً لوجود حفريات، وقد خطط قسم الوحدات في الجماعة بموافقة المرشد العام والجماعة لتفجير القطار، ونجحت الخطة وتفجر القطار، وعاد الإخوان المنفذون سالمين .

٢- مذبحة كوبري عباس: خلاصة الموضوع أن طلاب الإخوان قاموا بمظاهرة احتجاجية على المفاوضات مع الإنجليز، وكان على رأس المظاهرة «مصطفى مؤمن». وكان ذلك في ٩ من فبراير ١٩٤٦م، تصدت الشرطة الحكومية تحت إشراف عسكر المستعمرين الإنجليز للمظاهرة عند كوبري عباس، وقتلت عدداً من طلاب الإخوان. وعلى إثرها سقطت حكومة النقراشي ١٤ من فبراير ١٩٤٦م .

٣- معاناة البنا والإخوان من وزارة إسماعيل صدقي: وذلك بعد أن أعلن الإمام الشهيد في ١٧ من أكتوبر ١٩٤٦م، أن حكومة صدقي في حرصها على المفاوضات مع الإنجليز لا تمثل إرادة الأمة، وجرت اعتقالات كثيرة للإخوان، وعلى رأسهم الأستاذ أحمد السكري وكيل الجماعة .

٤- إصابة الإمام الشهيد بجروح في يده أثناء مظاهرة قادها الإخوان بعد عودة النقراشي من مجلس الأمن تحية له وتعزية لخسارته في مجلس الأمن، الذي لم ينصف مصر في طلباتها بالاستقلال التي قدمها النقراشي هناك.. ومع ذلك أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين وأصيب الإمام .

٥- في ٨ من ديسمبر ١٩٤٨م حلّ محمود فهمي النقراشي رئيس الحكومة جماعة الإخوان المسلمين، وأغلق مكاتبهم، وصادر ممتلكاتهم بتهمة التهيئة لقلب نظام الحكم، وهي تهمة باطلة، هيأ لها محمود فهمي النقراشي بعض الأحداث الفردية، أو الحوادث الوطنية من مثل تفجير وكر الاستخبارات

الإنجليزية في فندق الملك جورج في الإسماعيلية، ومن مثل البذل الذي يبذله الإخوان في فلسطين من خلال كتائبهم الأولى[١]، على أسس وطنية إسلامية (مزجت الوطنية بالدين)[٢]. وقد كانت القشة التي قصمت ظهر البعير الحكومي مظاهرات طلبة الجامعة ضد محادثات الهدنة المقترحة لإنهاء الحرب مع الصهاينة في فلسطين، وكانت المظاهرات في ٤ من ديسمبر ١٩٤٨م.. أي قبل أربعة أيام من قرار حل الجماعة، حيث بنت الحكومة القرار على هذه المظاهرات التي قادها الإخوان، وعلى العديد من الأحداث التي سبقت، وذلك بصيغة متهافتة مبنية في معظمها على مجرد الظن وعلى التلفيق أحياناً[٣].. وبناءً على توقع الإمام وهمّه الكبير ومعاناته من الوضع الذي وجد نفسه والجماعة فيه، بعد عودة الإخوان من فلسطين، وزجهم في المعتقلات، كتب البنا رسالة حرص فيها على دحض مفتريات الحكومة في قرار حل الجماعة، كما حرص أكثر على تهدئة الأمور، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه[٤].

إلا أن الأمور جرت بعكس ما كان يريده الإمام؛ ففي ٨ من ديسمبر أصدر النقراشي قرار حل جماعة الإخوان المسلمين، بناءً على مذكرة من سفراء بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبالتفاهم معه، باعتبار أن الفرصة الآن واتتهم، وأعدوا لذلك لائحة اتهام عريضة، موسومة بالتلفيق والبناء على الظن الذي دحضته العديد من المحاكمات. وتبع قرار الحل تنفيذ إجرامي، ينبئ عن النوايا

---

(١) كل البنود من ١ إلى ٥ مستقاة بتصرف من كتاب صفحات من التاريخ بدءًا من ص ٣٣ وحتى ٦٠.
(٢) من رسالة البنا التي كتبها ووزعت يدوياً بعد أن حالت حكومة النقراشي بينه وبين الإخوان، وذلك بمحاصرته في منزله، وزج الكثيرين من الإخوان في السجون، وكل ذلك بعد أن أصدر النقراشي قرار الحل.. جاءت الرسالة كاملة في كتاب صفحات من التاريخ، وهو مرجع سابق صفحة ٦١.
(٣،٤) راجع الرسالة في المرجع السابق ص ٦١ وما بعدها.

المريضة للنقراشي والـذين خلفـه مـن المـستعمرين؛ إذ صـودرت كـل أمـلاك الجماعة، وكل أملاك الأفراد وأقاربهم ممن زجوا بالسجون، وحـوصر الإمـام، ونهبت مكاتب الجماعة، وصودرت العقارات.. وذلـك في حملـة وحـشية غـير قانونية، لا تصدر عن حكومة وطنية أبداً. وقد كان هذا القرار ومـا تبعـه مـن تنفيذ ذي وقع أليم على نفوس الإخوان، وفي نفوس الشعب المـصري. ورغـم مساعي الإمام المحاصر، الذي دعته المعاناة الشديدة، وهو يرى عملية إيقـاف ما اعتبره– نهضة اجتماعية كبرى، تهيأ لها هذا الجيل من أبناء الوطن[1]– على يد الجماعة قائدة هذه النهضة.. أقول دعته المعاناة إلى محاولة إيقاف حركة الكارثـة إلا أن الكارثـة وصـلت مـداها، بمـصرع النقـراشي عـلى يـد أحـد الإخـوان المحزونين، وذلك يوم ٢٨ من ديسمبر ١٩٤٨م.. أي بعـد عـشرين يومـاً مـن قرار الحل. ولم يكن هناك في تلك اللحظة قيادة للجماعة بسبب قرار الحل وزج الجميع في السجون، ومحاصرة المرشد العام حيث حيل بينه وبين الاتصال مـع إخوانه.

ثم كانت نهاية الأحداث أكثر مأساوية وأشد مـضاضة؛ إذ مـضت أجهـزة القصر وبوليس الحكومة بدعم من المحتلين في غيهم جميعاً إلى أن دبروا مؤامرة اغتيال الإمام الشهيد يوم ١٢ من فبراير ١٩٤٩م.. ولكن فأل أولئك المجرمين لم يتحقق فها هي الجماعة اليوم تتربع على وجه الأحداث رقماً لا يمكن تجاوزه، فأنى للحق أن تذبل فسائله؟!

وأين من التاريخ تكمن إمكانية تغييب الفكر النيّر الرباني ..؟! لقد كانـت حياة البنا معاناة كلها.. صبر لها، وحمل أثقالها بشجاعة وبطولة، رأيناهمـا فقـط

(١) المرجع السابق ص ٦٧.

في ذلك الجيل الأول لهذه الدعوة المباركة، ذلك الجيل الفريد، الذي وضع الإسلام في قيادة خريطة العالم نحو النور، بعد أن كان يتخبط في جاهلية جهلاء، لكن تلك الحياة لم تصمت بعد أن استقر الرصاص في ذلك الجسد الطاهر، بل ظلت تغرد للأجيال ألحان الحياة النظيفة المهتدية بهدي الله.

وقد كان قرار الحلّ هذا بناءً على مذكرة من سفراء بريطانيا وفرنسا وأمريكا، الذين اجتمعوا في فايد وكتبوا المذكرة لرئيس الوزراء المصري (محمود فهمي النقراشي) قالوا فيها: بأنه لا بد من حلّ الإخوان المسلمين.. وكان تنفيذ قرار الحل دالاً على أن الأمر مدبرٌ ومشترك بين المستعمرين وبين رجالات الحكم والقصر، بعد أن تبين لهم أن الإخوان المسلمين ليسوا كما كان يظن بهم من قبل، وأنهم يشكلون روحاً جديدة متجهة إلى إنقاذ مصر وغيرها من بلاد المسلمين من المستعمر، ومن حالة الخضوع لثقافة الغرب، ومن ضياع الشخصية الخاصة للمسلمين، وذلك بإبعادهم عن دينهم، وبالاتجاه لجعل ذلك كله ثقافة يومية للناس، بحيث يصبح برنامجاً عادياً للمواطن[1].. لقد تناول التنفيذ أكثر بكثير من حلّ هيئة من الهيئات.. إذ شمل ذلك التنفيذ اتهام كل من يتصل بتلك الجماعة ومصادرة حريته وماله وعمله، ثم عمدوا إلى احتلال المؤسسات الخاصة بالجماعة، من شركات صناعية وتجارية، وبنوك غير ربوية، ودور صحافة ونشر وطباعة، ومدارس، ومستشفيات، وكلها شركات خاصة، وأموالها خاصة وليست للجماعة.. ثم مالوا إلى الإخوان فاعتقلوا العشرات بل المئات، وحوصر منزل المرشد العام الإمام الشهيد، وعزل عن إخوانه.. إذ كان كل من يأتي إليه يعتقل مؤقتاً أو اعتقال دائم بعد تفتيشه، ثم

(١) المرجع السابق ص ٦٤ بتصرف.

التحقيق معه.

ودليل أن أمر الحل كانت له تلك الأبعاد التآمرية على الجماعة ومرشدها، تلك الاحتفالات والولائم التي أقامها الشيوعيون واليهود والغربيون والصهاينة بمناسبة القرار والتنفيذ الكيدي المؤلم الذي أدخل المرشد العام في هم ومعاناة يحتاجان إلى قوة الجبال لتحملهما[١].

جـ – النقراشي – فلسطين – واغتيال الإمام:

شكلت فلسطين هماً أولوياً بالنسبة للإمام والجماعة، وبدأت علاقتها الميدانية بها منذ عام ١٩٣٥م، وفي إضراب ١٩٣٦م قدمت الجماعة أولى مساعداتها المادية لأهل فلسطين، وبنت علاقات وطيدة مع حراكهم، وذلك بالاتصال بالحاج أمين الحسيني رحمه الله وبغيره. وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة كان الاتصال عمليًّا وفكريًّا وميدانيًّا، وكان ضابط الإخوان «محمود لبيب» الذي ساعد في التدريب على أرض فلسطين مبعوثاً من قبل الإمام إلى هناك بموافقة الجماعة، وكان إلى جانبه إخوان فنيون ودعاة.. وشكل همّ إنقاذ فلسطين.. هماً مؤرقاً للإمام الشهيد، دفع له كتائب الإخوان المدربة المسلحة، التي أثبتت القدرة والكفاءة العسكرية والشجاعة، والفعل المؤثر في توجهات المعركة إيجابياً لصالح العرب. وقد استشهد أكثر من مائة من خيرة شبابهم في معارك فلسطين. وفي ٨ ديسمبر ١٩٤٨م وبعد الهدنة، وضع كل مجاهدي الإخوان في معتقلات الجيش المصري، وذلك كان جزاء الإخلاص والشجاعة وإنقاذ لواء الجيش المصري في الفالوجا الذي حوصر من قبل الصهاينة.. ثم رحلوا إلى المعتقلات في مصر، في رحلة عجيبة لا يفعلها إلا حكم عميل غارق

(١) المرجع السابق ص ٦٦ بتصرف.

في العمالة[١]، وقد كان واضحاً للإمام الشهيد أن حكومة النقراشي تجر الأحداث باتجاه فعل شيء كبير ضد الجماعة، وأن هذا الفعل وراءه قوى كبرى، تريد الخلاص من الجماعة التي شكلها البنا ورفاقه، وظهرت لهم على حقيقتها في السنوات الأخيرة من الأربعينيات بأنها جماعة نهضة للأمة، تستخدم كل الوسائل المدنية المتاحة لإخراج المستعمر وبناء البلد.

رابعاً: ما يستفاد من دروس مستقاة من سيرته:

إن سيرة الإمام الشهيد حافلة بالدروس الكبيرة.. نختصر منها ما يلي :

١ – حسن الاستفادة من الأعمال السابقة سواء في البناء على الحسنات، أو استكمال النواقص.. وقد استفاد الإمام، بل وبنى كل خطواته على خطوات رسول الله ﷺ، ثم درس حياة – الأفغاني – محمد عبده – محمد رشيد رضا – واستفاد منهم: الحركة الدؤوب – التوكل على الله – امتلاك العلم اللازم وموسوعيته .

٢ – كما استفاد بالانتباه إلى السلبيات، فابتعد عن الكبراء، رسخ أمر الإسلام الشامل الكامل في القلوب، وأنه به وحده يقوم الإصلاح والتغيير، ثم ابتعد وجماعته عن مواطن الشبهات .

٣ – وأخيراً وهو الأهم اكتشف الإمام بخبرته وذكائه وسعة آفاقه.. أن العمل لا يبقى ويستمر إلا بقيام مؤسسات دعوية منظمة ذات أهداف ووسائل وآليات ومراتب.. وهكذا فعل.

لذا فقد استمرت فكرته، ونمت دعوته بالخط الصاعد، واستوعبت من رجالات الإسلام الأعلام في العلم والحركة، والتنظيم والسياسة، ما جعلها

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ بتصرف.

تمتد وتمتد في الزمان والمكان لتصبح رقماً صعباً في ساحة الأمة، أعادت الأمل في التغيير، وجعلت الإسلام مادة رئيسة فوق طاولة المجتمعات والأفراد، وفوق طاولة السياسة.. بل وجعلت من حراكها الحراك الأهم في مواجهة الخصوم والأعداء .

وفي العموم.. أثبت الإمام من خلال سيرته كل المواصفات التي ذكرناها في سيرة الأفغاني، بل ورسخها بحسن امتلاكها، وحسن إدارتها وتنفيذها في الميدان.. وهو وإن كان أي عمل بشري غير معصوم لا يكتمل.. فالكمال لله وحده.. أتعب من بعده في إلحاحه على الأخوة الإيمانية الصادقة، وعلى الأمل المشع ذي البريق الذاهب باليأس، وعلى التضحية والبذل غير المحدودين، وعلى الالتزام الصادق بالجماعة وعلى الطاعة المبصرة.. وغيره.. وغيره.. دروس تحتاج إلى مجلدات.. رغم أن العمر لم يطل به، وكانت عيون الأشرار ترصده، وأيديهم الآثمة تمتد إلى تلك الروح الطاهرة الوثابة، لتنهي نبض القلب واتصاله بالحياة، ظناً منهم أن ما بناه البنا سينهار لحظة تدفق أول قطرة من دمه، فكانت تلك القطرة على عكس مرادهم.. فقد اهتزت لقيمتها النفوس، والتفت حول معانيها الغالية القلوب، ورنت الأبصار فوراً إلى ذلك الأفق الذي كان يتحرك الإمام باتجاهه.. لإعادة الإسلام حياً ندياً، يقطر رحمة بالشعوب، وينضد حياتها لتكون آمنة على يومها مطمئنة على آخرتها.

إن إلقاء نظرة متأملة على سيرة هذا الرجل الفذ، الذي أنتجت عبقريته الفكرية الميدانية وإمكانياته البنائية والإدارية هذا الصرح العظيم، الذي أصبح معلم الدعاة والدعوة، وصوت السياسة المهتدية والحركة الطموحة الدائبة لاستعادة مجد وعز الإسلام والمسلمين في الحياة المعاصرة، وإن هذا الصرح هو

(جماعة الإخوان المسلمين).. وكفى بها وببنائها دليلاً صارخاً على إخلاص الرجل وهدية الله لإخلاصه أن ألهمه هذا الفهم.. فما الذي يستفاد من ذلك كله؟

- إنه الإخلاص أولاً.
- والعمل الدؤوب الخالص ثانياً.
- والعلم والفهم والمثابرة ثالثاً.
- والأمل المضيء النابذ لليأس رابعاً.
- والمحاسبة الدائمة الدقيقة خامساً.
- والقرب القريب من الحدث والناس سادساً.
- والشورى والمشاورة والتواضع سابعاً.
- والبناء المخطط المنهج المتأني الواعي ثامناً.
- والخطاب الفاهم للظرف والمحيط تاسعاً.
- والفرار مع كل ذلك إلى الله، إخلاصاً واستغاثة وعوناً وتصحيح منهج عاشراً.
- ومع ذلك كله خلاص من ضغوط الشهوات، وشراسة الجاه ومغريات المال.. حادي عشر.
- وأخيراً الاعتدال والتوسط والتوقف المتأمل قبل الإقدام.

فهذه بعض الاستفادات لكل داعية جاء بعد البنا رحمه الله.. ترسم الطريق وتضيء عتمة الظروف والأحداث.

المبحث الرابع
الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي - سورية
(١٣٣٤هـ-١٣٨٤هـ/ ١٩١٥م-١٩٦٤م)

أولاً: السباعي في سطور:

باختصار شديد، ولد الشيخ الدكتور مصطفى السباعي عام ١٣٣٤هـ-١٩١٥م في مدينة حمص وسط سورية. وكان :

١- أول مراقب عام لجماعة الإخوان المسلمين في سورية، ومؤسس الجماعة هناك.

٢- أول عميد مؤسس لكلية الشريعة في جامعة دمشق .

٣- مفكر إسلامي من الطراز الأول، وخطيب مفوه .

٤- ولد في أسرة حمصية كريمة اشتهرت بالعلم. فقد كان أبوه وأجداده خطباء المسجد الكبير في حمص .

٥- حفظ القرآن الكريم وتلقى المبادئ الأولى للشريعة الإسلامية على يد والده الشيخ حسني السباعي، حصل على الثانوية الشرعية عام ١٩٣٠م/ ١٣٤٩هـ بدرجة امتياز .

٦- أكمل دراسته في الأزهر (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م) .

٧- عين أستاذاً في كلية الحقوق (الجامعة السورية) ١٩٥٠م .

٨- في مصر اتصل بالإمام الشهيد حسن البنا، وأعجب بدعوته، وبايعه .

٩- عاد إلى سورية وجهد حتى جمع الهيئات الإسلامية في جماعة واحدة هي جماعة الإخوان المسلمين على خطا البنا وذلك بإعلان قيام الجماعة عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م .

١٠- كان له سبق الجهاد في فلسطين، حيث قاد كتائب الإخوان السوريين للجهاد فيها عام ١٩٤٨م، وحقق عدة إنجازات مع إخوانه المجاهدين السوريين في ميدان المعارك، وذلك بالتنسيق مع قيادات مجاهدي الإخوان المشاركين من مصر والأردن وغيرهما .

١١- انتخب عضواً في مجلس النواب السوري عام ١٩٥٠م، وكان له صولات وجولات في المجلس ومع الحكومات السورية والأحزاب، وقادة الانقلابات العسكرية، ومع معركة الدستور الشهيرة عام ١٩٥٠م.. من أجل إدخال مواد تثبت الهوية العربية الإسلامية لسورية .

١٢- أنشأ جريدة المنار (١٩٤٧-١٩٤٩)، ثم الشهاب الإسلامية السياسية (١٩٥٥-١٩٥٨) كما أصدر مجلة (المسلمون)، وجددها باسم (حضارة الإسلام) يوليو ١٩٦٠م .

١٣- له من المؤلفات ٢٥ كتاباً مطبوعاً، ومخطوطاً (كلها طبعت) منها: (المرأة بين الفقه والقانون) و(أخلاقنا الاجتماعية) و(شرح قانون الأحوال الشخصية) و(السيرة النبوية دروس وعبر) و(اشتراكية الإسلام) و(من روائع حضارتنا) و(الاستشراق والمستشرقون) و(عظماؤنا في التاريخ) .

١٤- عاش في يفاعته سقوط الدولة العثمانية وحلول الاستعمار مكانها، وكان له جولات مقاومة وجهاد مع المستعمرين ومع دعاة التغريب.

١٥- توفي عام ١٩٦٤م، ودفن في دمشق في مقبرة الباب الصغير، رحمه الله[١] .

(١) موجز تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في سورية ص٣٠، إعداد مجموعة من باحثي الإخوان السوريين.

ثانياً: شهادات فيه :

قال الأستاذ محمد المبارك رحمه الله: لقد كان السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضة، وخطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وكاتباً أديبًا، ومؤلفًا منتجًا.. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، وقد جمعها الله فيه(١).

وقال الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله: ما أكبر هذه الهمة المتسعة المتشعبة التي أوتيها، إنها لو قسمت عزماتها ومقاصدها على عشرين شاباً من ذوي الجد لضاقوا بأدائها والنهوض بها ذرعاً، وناؤوا بها ثقلاً(٢).

وقال د. عمر فروخ المفكر اللبناني: لقد عاش السباعي للإسلام في أوضح معانيه، وعمل للإسلام في زمن من أحلك أزمانه(٣).

وقال د. محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق سابقاً: إذا ذكرتم فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، فاذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان اليقظة الحديثة في دنيا العرب حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى، فما لوى عنان جواده يمنة أو يسرة، ولا ارتد منهوكاً من المقدمة إلى المؤخرة، بل ظل طيلة حياته ضميراً حراً لا يُسَخّر، وجبيناً عالياً لا يُعَفّر(٤).

وقال د. حسن هويدي المراقب العام الأسبق لجماعة الإخوان المسلمين في سورية ـ رحمه الله: إن القائد يُبكى إن فُقد بين القادة، فكيف لا يُبكى وقد ندر القادة، والقائد يُبكى إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبكى إذا كان فريداً بين أقرانه؛

(١) من كتاب مصطفى السباعي الداعية المجدد، للدكتور عدنان محمد زرزور ص ١٠،٩ طبعة أولى عام ٢٠٠٠م، دار القلم .
(٢-٤) المصدر السابق .

فالحزن عليك يا أبا حسان حزن على فقد القائد، وندرة القائد، ونوعية القائد[١].

وقال د. يوسف العش (كلية الشريعة) جامعة دمشق سابقاً: وإنكم لتُكبرون معي رجلاً ملئت نفسه إيماناً، وعقله علماً، وروحه فيضاً، وجرى في الحياة جاداً لا هازلاً، وعاملاً لا متراخياً، وكريماً لا بخيلاً، وقوياً لا ضعيفاً، وإنساناً لا جلفاً، على أحسن ما يكون الجد، وخير ما يكون العمل، وأجود ما يكون الكرم، وأشدّ ما تكون القوة، وأرفق ما تكون الإنسانية[٢].

وقال صاحبه ورفيق دربه الأستاذ محمد خير الجلاد: لقد كان الفقيد الراحل من الأفذاذ النادرين في تاريخ القرون والأجيال، قلّ أن يجود بمثله الزمان، وقد لا يجود[٣].

ثالثاً: معاناة الأستاذ الشيخ السباعي:

أ - **من الجو العام**: ولد الشيخ على أبواب الحرب العالمية الأولى، وكانت دولة المسلمين (الدولة العثمانية) على مشارف السقوط؛ إذ تآمر عليها الداخل والخارج.. فمن الداخل القوميون الطورانيون، والاتحاد والترقي المتحالفون مع الماسونية العالمية، ومن الخارج روسيا وفرنسا وإنجلترا، تلك الدول التي عملت على اقتسام تركة الدولة العثمانية، وعلى إنهاء الجامعة التي كانت تجمع المسلمين، تحت خيمة واحدة، هذا فضلاً عن دخول فرق المتغربين من الأتراك والعرب وباقي المسلمين على خط الحفر تحت أساسات الدولة العثمانية.

وما أن بلغ السباعي سن التمييز (العاشرة من عمره)، حتى صدم بسقوط الدولة العثمانية ودخول دول الاستعمار الغربي، الذين بدؤوا بإلغاء القوانين الإسلامية، ثم راحوا يعملون لمدنية التعليم، وإدخال الفكر الغربي مباشرة عن

(١-٣) المصدر السابق.

طريقهم هم، ثم عن طريق المتغربين الذين راحوا في ظل المحتلين يتبوأون أعلى المناصب الحساسة، ليسيروا بالبلاد باتجاه الغربة الغربية.

وقد أهم هذا الأمر السباعي في سن مبكرة؛ إذ كان له عقل ذكي، ونفس ناهضة حاضرة، تعاني من منظر الغريب، وهو يدوس بكابوسه على مقومات الأمة لينقضها عروة عروة، أولها إلغاء الخلافة على يد أتاتورك السالونيكي الماسوني.. ثم إلغاء الحرف العربي من اللغة التركية، واستبداله بالحرف اللاتيني، وذلك من أجل فصم عرى العلاقة بين الشعب التركي المسلم وتاريخه الإسلامي ودينه الإسلام.. فضلاً عن انتشار المدارس الأجنبية والحملات التبشيرية والأحزاب والهيئات العلمانية المتغربة، التي راحت تبث في مجتمعات المسلمين روحاً غريبة من الاستسلام ومن التبعية الثقافية للغرب.

وهنا بدأ السباعي- وهو ما يزال فتى- يناهض كل هذا الذي راحت نفسه تعانيه وقلبه يؤلمه منه؛ وكانت البداية بكتابة المنشورات وتوزيعها، منددًا بالاستعمار وأعوانه ومساعديه من المتغربين وأهل التبشير والمدارس الأجنبية، وقد جمع في منشوراته تلك تنديداً بالمستعمرين الفرنسيين ليس في سورية وحسب، بل ندد بهم وقاوم وجودهم في المغرب العربي أيضاً، وكان أول اعتقال له عام ١٩٣١م على يد الفرنسيين المستعمرين لسورية، وكان عمره آنذاك ستة عشر عاماً. وقد أفرجت عنه السلطات بسبب الهياج الشعبي الذي خرج إلى الشارع منددًا باعتقاله مطالباً بإخراجه، ولكنه لم يسكت بعد خروجه.. بل ثابر على التنديد بالاستعمار في خطبه في المسجد الكبير في حمص، أو في الدرس بعد صلاة الجمعة، أو في المدرسة التي كان يعلم فيها، وهو ما دفع سلطة الاحتلال

إلى اعتقاله ثانية عام ١٩٣٢م حيث لبث في السجن ستة أشهر[(١)].

ب – معاناته مع الإنجليز: بعد اعتقاله الثاني من قبل الفرنسيين في حمص، وبعد أن أفرج عنه، إذ أمضى بضعة شهور في السجن، غادر السباعي حمص إلى مصر، والتحق بالدراسة في الأزهر طالباً في كلية الشريعة (الفقه والوصول) وهناك خلط السباعي- كعادته- طلب العلم بالكفاح والجهاد، فلم يكن في مصر أقل حراكاً ضد الاستعمار الإنجليزي منه مع الفرنسي في سورية.. وقد لحقته المعاناة من ذلك، لكنه كان حديد العزم، شديد البأس، صابراً على لأواء ما يعدّه فرضاً واجباً. لقد قاد الكلمة هناك بين الطلبة لإبراز مطالبهم الدراسية، كما شارك بحماسة في مناوأة الإنجليز المحتلين لمصر العربية، التي كان يحمل همها كما يحمل همّ سورية وكل بلاد العرب والمسلمين.. وفي عام ١٩٣٤م كان في قيادة طلبة الأزهر في مظاهرة ضخمة ضد المحتلين الإنجليز، فألقت السلطات القبض عليه، وأودعته السجن، ثم أفرج عنه بمساعدة أساتذته في الأزهر، وعلى الأرجح فإنه لم يطل به المقام في السجن. إلا أنه لم يستكن وظل على مداومته في الأزهر على الخطب التحريضية والكتابات النارية، إلى أن اعتقله الإنجليز عام ١٩٤١م مرة أخرى بتهمة تشكيله جمعية سرية لتأييد ثورة الكيلاني في العراق، وبعد شهرين سلمته سلطات الاحتلال في مصر إلى سلطات الاحتلال الإنجليزي في فلسطين، حيث أمضى في سجونها أربعة أشهر، أفرج عنه بعدها وعاد إلى حمص، ليمارس من جديد كفاحه ضد الفرنسيين، فاعتقلته السلطات الاستعمارية الفرنسية، ونقلوه إلى لبنان متنقلاً بين عدد من السجون التي أمضى فيها سنتين ونصف مع الأشغال الشاقة والتعذيب صابراً

(١) مصطفى السباعي، عبدالله الطنطاوي ص١١، ١٢ بتصرف – ط ١ – ٢٠٠١ – دار القلم – دمشق. ومصطفى السباعي الداعية المجدد، للدكتور عدنان محمد زرزور ص١٠٠.

محتسباً بانياً الأمل في نفوس السجناء بابتساماته ودروسه[١].

جـ- هموم السباعي مع قضية فلسطين: لقد حمل السباعي ـ رحمه الله ـ صادقاً همَّ القضية الفلسطينية والفلسطينيين، فكانت له المعاناة التي لم تهدأ عواصفها في نفسه وفي حراكه اليومي. شهدت على ذلك ساحات فلسطين والدماء الزكية التي أُهريقت على ثرى بيت المقدس من أجساد إخوانه الذين رافقوه في الجهاد، وكتائب الكفاح فوق الثرى المقدس، كما شهدت له مساجد دمشق وسائر المدن السورية وأنديتها وبرلمانها، فضلاً عن صحافتها، وعلى رأسها مجلته التي أصدرها وعنوانها (حضارة الإسلام)، إذ خصص لها باباً دورياً للقضية بعنوان (الدرة المغتصبة). وإذن فهو قد وجد المعاناة في الجهاد والمخاطر التي تعرض لها مع كتيبة إخوانه التي دخلت إلى الأرض الفلسطينية عام ١٩٤٨م، كما وجد المعاناة، وهو يسافر من محافظة سورية إلى محافظة أخرى كي يبعث الفلسطينيين الذين لجأوا إلى سورية، فيحسن معاملتهم، ويهيئونهم ماديًّا ومعنويًّا وجهاديًّا ليستردوا الحق والأرض بدعم معنوي ومادي ودبلوماسي من إخوانهم العرب.

إن هموم السباعي الفلسطينية كبيرة، وهموم جماعته في ذلك أيضاً كبيرة، لا يمكن أن نستوعبها ونستوعب جهاده من أجلها في سياق الحديث عن شخصيته ومعاناته بشكل مختصر، بل هي تحتاج إلى إفراد لها في كتاب خاص.. وقد فعل ذلك البعض مشكوراً.. ونكتفي هنا باقتباس بعض من افتتاحية (حضارة الإسلام) العددان السادس والسابع من السنة الثانية لإصدارها وقد خص الشيخ الافتتاحية تلك بحديث عن كارثة فلسطين[٢].

---

(١) المصدران السابقان: الأول ص١٢، ١٣ والثاني ١٠٢، ١٠٣.

(٢) المصدر السابق – الفرع الثاني منه د. زرزور ص١٢١.

يقول السباعي- رحمه الله: «والآن يجب أن نصحح خط السير الذي بدأناه في معالجة القضية الفلسطينية، فنسلم بالقيادة لأبنائها، ونرفع مستوى المشردين منهم روحيًّا وخلقيًّا وماديًّا لتجنيدهم لخوض المعركة المقبلة، ونترفع عن استغلالهم واستغلال قضيتهم لأغراضنا الخاصة، وأن نرفدهم بكل إمكانياتنا من مالٍ وسلاح، ونستمر على تبني قضية فلسطين في المحافل الدولية بتضامن وتنظيم دقيقين.. كما يجب أن نعد شعوبنا لخوض المعركة المقبلة مع إخواننا أهل فلسطين، وذلك إنما يكون بتحرير شعوبنا من مختلف أنواع العبودية والمهانة، وتربيتها تربية الأحرار الذين تفيض نفوسهم بالإيمان بالله، وترتفع رؤوسهم بالخلق الكريم، وتهوى أفئدتهم مصارع الشهداء؛ لينعموا بالخلد في جنات النعيم».. إنها عبقرية المطلع المحيط، الملقى إليه بالنظر البعيد من قبل إيمان ملهم، لا يني يعطيك الحلول التي لا تبلى مع مرور الوقت.. فما رآه الشيخ السباعي كحلٍ.. ما يزال حتى اليوم بعد خمسين عاماً هو الحل الأمثل.

د – قبسات من معاناة متنوعة المصادر: وهنا واختصاراً بدلاً من الإطالة، نأتي على تعداد بعض ما لاقاه الدكتور السباعي من معاناة مجرد تعداد، ولمن أراد التفاصيل فليرجع إلى ما كتب من كتب ومطولات في ذلك[1].

١- حمله همّ العمال والدفاع عن حقوقهم ورفع مستواهم.. فعمل على إنشاء مدارس لهم لمحو الأمية ورفع مستواهم الثقافي والفكري.. كما حمل هو

(١) كتب الدكتور عدنان زرزور (مصطفى السباعي الداعية المجدد)، وهو سفره الذي يزيد على ٥٠٠ صفحة، وفيه تفاصيل عن المعاناة.. وكذلك كتب الأستاذ عبدالله الطنطاوي كتابه (مصطفى السباعي الداعية الرائد) في ١٦٥ صفحة.. وكذلك كتب الأستاذ عبدالعزيز الحاج مصطفى كتابه (مصطفى السباعي رجل فكر وقائد دعوة) في حوالي ٢٠٠ صفحة، وهذه الكتب هي مراجعنا في تعداد المعاناة المتنوعة. وفي الكتب الثلاثة تفاصيل وافية عن جميع مجالات المعاناة التي لقيها في مسيرته الحياتية القصيرة نسبياً. فمن أراد المزيد فليرجع إليها، فسيجد فيها ضالته، وقد كتب أيضاً غيرهم كتباً جيدة في سيرة الرجل الكبير.

وإخوانه أعضاء مجلس النواب الإسلاميون مطالب العمال إلى المجلس وكان لهم الفضل في النص على حقوقهم في الدستور السوري، وقد تخرج من مدارس العمال من أكمل تعليمه الجامعي والدراسات العليا، وكذلك فعل مع الفلاحين.

٢- وكان التحدي الأكبر للسباعي وإخوانه هو استعادة مكانة الإسلام بين الناس، وقد أدى اجتهاد الليل والنهار في هذا المجال من قبل الإخوان في سورية بالتعاون مع الإخوان في باقي الأقطار إلى تحقيق إنجاز كبير في هذا المجال.. بحيث أصبحت دعوة الإسلام اليوم في عين الأمة، وأصبح مطلب العودة إلى ديننا مجمعا عليه إلا ممن شذ عن آمال هذه الأمة وهم قلة، تستمد قوتها من الأعداء ومن بعض النافذين.

٣- **معاناته من جولاته السياسية**: كافح السباعي من أجل :

- فرض أسبوع الخطر الصهيوني.. لاقى نقداً وكلاماً غير مناسب بسببه.

- ظل يكافح مع إخوانه النواب حتى أقر مجلس النواب السوري تدريس القضية الفلسطينية في مناهج التعليم.. ولاقى بشأن ذلك الكثير من العنت والمخالفة .

- عام ١٩٥٢م اعتقلته السلطات السورية بسبب تأييده لثورة الشباب الجامعي المصري، وعمله الفدائي ضد الإنجليز في قناة السويس.. وظل في السجن أربعة أشهر .

- وفي عام ١٩٥٢م تعرض له الشيشكلي رئيس الانقلاب العسكري الذي استلم الحكم وحلّ الأحزاب وألغى مجلس النواب.. إذ طلب من جميع أساتذة

الجامعات وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لحكمه.. فرفض السباعي أداء ذلك القسم غير الشرعي، فناله من الشيشكلي تسريحه من الجامعة، ونفيه خارج البلاد إلى لبنان.

- كما كانت هناك **معاناته** في مجلس النواب من أجل الدستور، وذلك لإدخال مادة في دستور ١٩٥٠م تنص على أن دين الدولة الإسلام.. وكانت هناك معركة كبرى شارك فيها الإعلام والبيانات والكلمات منها المؤيد ومنها المعارض، وهؤلاء من العلمانيين والعديد من رؤساء النصارى.. وكان للسباعي من أجل تثبيت هذا النص جولات وجولات، وهو الخطيب المفوه الموفق البليغ المتغلب على كل متكلم، وقد كان له ما أراد ونصره الله، بعد أن ناله ما ناله من محاولات تشويه وعنت وعناد.

- ولم يسلم السباعي مثل كثير من الأعلام في السابق وفي اللاحق من الزمان، لم يسلم من معاناة بسبب شبهات أثيرت من بعض إخوانه أو من بعض الإسلاميين الآخرين؛ فقد نشأت في صفوف الإخوان حركة تشكيك في جدوى المسيرة السياسية للإخوان، والمشاركة في مجلس النواب، وقد ذهب هؤلاء إلى التشكيك بقيادة السباعي رحمه الله، وقد استغلوا غياب السباعي بسبب الإقامة الجبرية التي فرضها عليه الشيشكلي بعد انقلابه الثاني عام ١٩٥٢م.. ثم بسبب نفيه إلى لبنان، ليقوموا بعمل انقلاب داخلي على السباعي، وجد صداه وممارسته بعد عودته من المنفى؛ إذ كانت هناك حملة تشكيك في أخلاقياته خصوصاً فيما يتعلق بالأمانة المالية، حيث أثيرت في وجهه قضية مصروفاته في لبنان أثناء مدة نفيه، كما أثير بوجهه موضوع منحة مالية من الجماعة سلمت له عند سفره إلى باريس لاستكمال دراسته.. وقد فند

السباعي الشبهتين الزائفتين.. فبين أن مصروفاته في لبنان غطاها من خلال قرض من ابن عمه عبدالسلام السباعي في بيروت، وأما مبلغ المنحة: فقد ذكر الأستاذ عبدالكريم عثمان- رحمه الله- الرجل الذي أثار الشبهتين بقوله له عن تلك المنحة: إن السباعي أعاد المبلغ وسلمه له لينفق في مصالح الجماعة، وأقر هذا الرجل بهذا، ثم ظل واجماً لا يتكلم بقية اللقاء القيادي، الذي حضره من مصر الأستاذان: صالح أبو رقيق وحسن العشماوي ومن سورية الأستاذ عصام العطار والأستاذ عبدالكريم عثمان والرجل الذي أثار الشبهة والسباعي نفسه، وكان وجومه خجلاً وخزياً من فعلته الشنعاء. ولقد دخل على الخط في هذه الأثناء أعضاء من حزب التحرير، حضروا من الأردن، واشتركوا في حملة التشكيك في العمل السياسي للإخوان، محاولين شق صف الإخوان وإضعافهم وأخذ مكانهم.. وقد أفلح هؤلاء بإمكانياتهم الجدلية وإلحاحهم ومثابرتهم في ضعضعة بعض الأفراد الضعفاء من الإخوان.. ولم يستطيعوا أكثر من ذلك، وفي هذه الفترة حضر (نجيب جويفل) من مصر (١٩٥٢)، مبعوثاً مخابراتياً مصرياً بمهمة إحداث شرخ في صفوف الجماعة.. وكان قد ادعى أنه إخواني مصري هارب من السجن، وهذا هو الرأي الراجح فهو مبعوث من المخابرات المصرية، قاصداً شخص السباعي بالذات، حيث كان انطباع المراقبين والسياسيين والأمنيين أنه بوجود الدكتور السباعي قائداً للجماعة، تكون الجماعة عصية على الاختراق.. لذا فقد اتجهت حملات المنشقين والتحريريين ونجيب جويفل لتنصب على شخص السباعي بشكل عام.. وقد سبب ذلك للسباعي كل تلك المعاناة والعنت، إلا أنه تلقاهما بالصبر وروح التحمل، وكانت صلابته وعودته إلى سورية رغم المخاطر، وقيادته لإفشال

مساعي هؤلاء جميعاً.. كفيلة جميعها بإخفاق المخطط.. رغم كل ما بذله المناوئون من جهد ومال وتخطيط، شاركت فيه السفارة المصرية في دمشق آنذاك.. وخرجت الجماعة وعلى رأسها القائد الفذ مصطفى السباعي أقوى شكيمة وأسلم صفاً، وتساقطت العناصر القليلة الضعيفة ذات المطامع القريبة الأنانية[1].

رابعاً: ما يستفاد من سيرة الدكتور مصطفى السباعي:

هناك درسان مستفادان من هذه السيرة، زيادة على ما ذكر من استفادات من سيرة قادة الرأي والأبطال التي جئنا على ذكرها من قبل.

وقد اخترنا هذين الدرسين من سيرة السباعي- رحمه الله- لبروزهما عن غيرهما في حياته، وكانا سبباً في إذكاء تلك الروح الوثابة التي تحلى بها ولم تفارقه حتى لفظ الأنفاس الطاهرة الأخيرة، وكذلك فقد كانا سبباً لبعث تلك الروح المتسامحة الصابرة على الجوى فيه وتحمل الطعن من القريب والبعيد.

وهذان الدرسان هما :

١ - المثابرة الهائلة على إتمام العمل الذي بدأه رغم كل الآلام والمرض، ورغم كل الصعوبات والمعوقات، وهو ما كان يؤهله إلى تجاوز كل التضاريس الوعرة في الطريق محتسباً صابرًا مطمئنًا، متابعًا بلا كلل ولا ملل، غير آبه بما سيحدث له، أو ينتابه ضارباً بالذات عرض الأحداث والملمات.. وقد كانت تلك صفة غير متوفرة في كثير ممن أحاطوا به، لذا فهي صفة يجب أن ينتبه لها عند اختيار القائد في كل حين وآن.. وإلا فإن مسيرة الدعوات ستكون – في حال عدم الانتباه لهذه الصفة، ليتحلى بها قائد الركب – في حالة مراوحة في

(١) من كتاب (مصطفى السباعي الداعية المجدد) د. عدنان زرزور ص ٢٩٠ بتصرف.

المكان.

٢ – وأما الدرس الثاني، فهو مرافقة الأمل للقائد بلا انقطاع، مهما ادلهمت الخطوب وتعكرت الأجواء، ووقفت العقبات حواجز منيعة في السبيل الذي تسير فيه الدعوات.. واسمعه يقول في كلمة توجيهية للإخوان والناس – لترى بأم عينيك ذاك الأمل المشع من بين الحروف، وتلك المثابرة الثائرة من بين السطور، رغم ما تنبئك به الظروف من مثبطات كالجبال :

فلسطين لنا: يوم نجند في سبيلها العزائم والسواعد، ويوم نحشد لها الإمكانيات والمواهب، ويوم نحرسها بالسلام الشاكي والإيمان اللاهب.

فلسطين لنا: يوم نعزم أن نرفع رؤوسنا للسماء، ويوم نأبى أن ننهزم وبأيدينا اللواء، ويوم نقول: (لا) للطغاة الأعداء، لا تيأسوا.. فاليأس كفر بالله، ولا تترددوا، فالتردد مفتاح الهزيمة، ولا تقفوا، فالوقوف أول الموت. يا شباب.. اذكروا فلسطين.. يقظتكم ومنامكم، واذكروها مغداكم ومراحكم، واذكروها في عبادتكم ورياضتكم، واذكروها لأطفالكم وأمهاتكم.. اذكروها.. اذكروها.. فهي قلب وطنكم الكبير الواحد، اذكروها.. فهي طريق الإسلام إلى عاصمته مكة، اذكروها.. فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ. يا شباب.. اجعلوا لفلسطين ما تملكون من مال، وما ترزقون من مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض وعقيدة.. هذا هو طريقكم الجديد إلى وطنكم المفقود.

ونقول: ما أجدر أن تكون كلمات هذا القائد الفذ المفعمة بالأمل، المسكونة بالمثابرة والإصرار.. ما أجدر أن تكون ميثاقاً ثقافياً وميدانياً للعاملين المجتهدين المهتدين بهدي الإسلام، من أجل بناء إنسان عربي مسلم لا يسكت

على ضيم، ولا تهزه هزيمة في معركة، بل هي الحافز الثائر على النوم، الحامل لطائر اليقظة الدائمة، التي تحتاجها الجماعات والشعوب في مسيراتها إلى النجاح.. ورحمك الله أبا حسان (الدكتور مصطفى) وأجزل مثوبتك، وجزاك عنا وعن المسلمين كل خير.. وجعل مقامك في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا[1]. ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[2].

(١) من كتاب (مصطفى السباعي) لعبدالله الطنطاوي ص ١٦٥-١٦٦.
(٢) الأحزاب: ٢٣.

المبحث الخامس
معاناة المفكر الكبير الشهيد سيد قطب

أولاً: سيد قطب في سطور:

- كانت ولادته عام ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٦م، أي مع ولادة الإمام الشهيد حسن البنا (١٩٠٦م) رحمهما الله، وأعلى مقامهما في عليين شهيدين حيين؛ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

- وكانت ولادته في قرية «موشا» من محافظة أسيوط في صعيد مصر.

- والداه متدينان وعائلته ميسورة الحال.

- والده كان منتمياً للحزب الوطني المصري الذي أسسه مصطفى كامل.

- حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره.

- تخرج من كلية دار العلوم، التي أنشأها علي باشا مبارك لتدريس اللغة العربية والتربية على غير طريقة الأزهر. وقد كانت تخرج مدرسين للمدارس الثانوية وكان تخرجه فيها عام ١٣٥٢هـ الموافق لعام ١٩٣٣م.

- عمل سيد بعد تخرجه في جريدة الأهرام، وكان يكتب لمجلة الرسالة ومجلة الثقافة، كما عمل مدرساً لمادة اللغة العربية، وموظفاً ومراقبًا فنيًّا في وزارة المعارف.

- وقد دخل سيد قطب معترك الأدب وجولات الأدباء، وكان منحازاً لعباس محمود العقاد وطه حسين. وظل ملتزماً بالأدب حتى عام ١٩٤٥م

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

حين انحاز إلى الكتابات الفكرية، فأصدر: (التصوير الفني في القرآن)، (مشاهد القيامة في القرآن) .

- بدأ مسيرته الإسلامية عام ١٩٤٦م ثقافياً، فراح يدبج المقالات في الصحافة، منتقداً الغرب وحياته وتأثيره المادي المؤلم على حياة الناس.

وفي عام ١٩٤٨م أصدر أول كتبه الفكرية المستندة إلى الإسلام (العدالة الاجتماعية في الإسلام).

وقد أحدث الكتاب حراكاً ثقافياً في مجتمع المثقفين المصريين؛ إذ سلط الضوء على سوء توزيع الثروة في المجتمع المصري آنذاك. هذا رغم أن في الكتاب العديد من الآراء والمعروضات الفكرية المحتاجة لمراجعة وتسديد. فهو بداية، وكل بداية تكون غير مكتملة التصور .

- أوفد من قبل وزارة المعارف للدراسة في أمريكا عام ١٩٤٩م، حيث اكتشف بنفسه وبأمّ عينيه عورات الحضارة الغربية، وزيغ تصورات الحياة فيها وقيمها، إذ لمس لمساً واضحاً العنصرية وتطبيقاتها الفاقعة في المجتمع الأمريكي، حيث يعامل غير البيض والمهاجرون معاملة العبيد، كما شاهد الفرح الذي أبداه الأمريكيون باغتيال الإمام الشهيد حسن البنا عام ١٩٤٩م، وكان ما رآه من آيات الفرح تلك، أن تنبه لدعوة البنا، فراح وهو في أمريكا يتصل بالدعاة من الإخوان، اتصال تأييد وانتماء وتعاون .

- كما تبرأ من بعض ما كتبه قبل ذلك، مع أن ما كتبه مدعاة لاعتزاز أي كاتب عادي.. إلا أنه- رحمه الله- بعد أن رأى ما رأى في أمريكا، اعتبر بعض الكتب التي كتبها قبل ذلك هزلاً لا جدّ فيها، ولا تنتمي إلى ما وصل إليه من تفكير.

- ولما عاد إلى مصر عام ١٩٥١م انضم إلى الجماعة رسميًّا.. وانتخب عضواً في مكتب الإرشاد، وكان رئيساً لقسم نشر الدعوة ورئيس تحرير جريدة الإخوان .

- حضر المؤتمر الإسلامي العام في القدس (١٩٥٤م) وكان عضواً في لجنته العليا، منتخباً من أعضاء المؤتمر .

- ومنذ عام (١٩٥٤م) بدأت المحن والسجون والمعتقلات والتوقيفات، حيث كتب الظلال، ومعالم في الطريق .

ثانياً: قالوا فيه:

١ - «لا يختلف اثنان في أن سيداً- رحمه الله- قد بلغ منزلة في قلوب الناس- كأمر واقع- لم يَعُدْ معها في حاجة أن يشهد له المختلفون في الحكم عليه، أو المترددون، فقد جاءته السيارة تمشي في حلتها متجملة في غير تأبٍّ أو ارتياب»[١] .

٢ - «وبعد: فهذه نظرة الأستاذ سيد قطب إلى الحكم، وهي نظرة قائمة على استقراء النصوص، والنظر في الكتاب والسنة، وهدي النبي ﷺ وسيرته العطرة، وليست نظرة خيالية بعيدة عن الواقع، وقد أراد سيد بهذه النظرة أن يعرف المسلمون أن الحكم عندهم مهم جداً، وأنه وسيلة لا غاية، وأن تكاليف الشرع لا تقوم إلا بوجود الحكم الإسلامي، ولا تتم إلا بأن يحيا الناس وهم محكومون بحكم الشريعة الذي أنزله الله»[٢] .

---

(١) محمد إبراهيم شقرة (سيد قطب بين الغالين فيه والجافين عليه) ص ٢٥، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٦٦.

(٢) محمد أبوصعيليك (فكر سيد قطب ومنهج التغيير عنده) ص٥١، ط١، ١٩٩٩، الدار الشامية - الأردن.

٣ – «.. اعتمد الدارسون في هذه الأيام كتب الأستاذ سيد قطب- رحمه الله تعالى- كمصادر للثقافة الإسلامية؛ فمن رام البحث في تفسير القرآن، ما استغنى عن تفسيره العظيم (في ظلال القرآن)، ومن رام دراسة بلاغة القرآن، ما استغنى عن كتابه (التصوير الفني في القرآن)، وكتابه (مشاهد القيامة في القرآن)، ومن رام البحث في العقيدة، ما كان له أن يستغني عن كتابه (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته)، ومن رام الاطلاع على الاقتصاد الإسلامي، ما كان له أن يغمض عينيه عن كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، ومن رام البحث في النقد الأدبي، ما استغنى عن كتابه (النقد الأدبي)، ومن رام البحث في فقه الدعوة، وضع (معالم في الطريق) و(هذا الدين) و(المستقبل لهذا الدين) نصب عينيه، وهكذا فقد أصبحت كتب الشهيد سيد قطب- رحمه الله تعالى- مصدراً ثراً للثقافة الإسلامية بشتى فروعها[1].

٤ – «والذي أدين الله به أن الأستاذ سيد قطب من أئمة الهدى والدين، ومن دعاة الإصلاح، ومن رواد الفكر الإسلامي، سخر فكره وقلمه في الدفاع عن الإسلام، وشرح معانيه، ورد شبه أعدائه، وتقرير عقائده وأحكامه على وجه قلّ من يباريه أو يجاريه في هذا الزمان. وكان حديثه حديث المعايش الذي لابس همّ الإسلام قلبه، وملك عليه نفسه، قد شغله الحزن على الإسلام والغضب له، حتى عن ذاته وهمومه الخاصة»[2].

(١) المصدر السابق ص ٥٤-٥٥.
(٢) هذا قول الكاتب البحريني (محمد جابر الأنصاري) منقول في كتاب (العبقري العملاق والمجدد المبدع سيد قطب) ص ١٥٢ والكتاب للدكتور توفيق الواعي.

٥ – ويقول العلامة الدكتور يوسف القرضاوي عن سيد: «هو سيد الشهيد الداعية المفكر الإمام، وهو جدير بأن يوصف بهذه الألقاب، وأن يجمع كل الوظائف التي يكفي واحدة منها لتجعل صاحبها في مصافّ الخالدين، إنه خطّ للدعوة طريقها، وجدد طاقتها إلى قرنين قادمين من الزمان على الأقل. إن الذي يقرأ كلام سيد قطب (الشهيد) في تفسيره خاصة، وسائر كتبه الحركية عامة، يشعر أن هذا كلام ليس تراكيب لغوية، تنتمي إلى أساليب الكتّاب المحترفين ومهارات المتقنين، بل كانت جنينًا في رحم المعاناة، وكان غذاؤه روح كاتبه، وكانت حروفه من نبض قلبه وذوب وجدانه»[(١)].

٦ – أما العالم الجليل الشيخ أبو الحسن الندوي، فقد كتب حين علم بإعدام سيد قطب يقول: «.. إنها خسارة فادحة للدعوة الإسلامية والعلم والدراسة والبحث والأدب والنقد، ومأساة علمية ضخمة. إن سيداً من أولئك الأفذاذ الذين يسعد بهم العالم الإسلامي، وهو في الطراز الأول من صفوة الدعاة ورجال الفكر والأدب الذين تحظى بهم الأمم بعد فترات طويلة»[(٢)].

٧ – ويقول الشيخ الجليل عبدالله بن جبرين: «إن حسن البنا وسيد قطب من علماء المسلمين ومن أهل الدعوة، وقد نفع الله بهما، وهدى بدعوتهما خلقاً كثيراً، ولهما جهود لا تنكر، ولأجل هذا شفع الشيخ عبدالعزيز بن باز في سيد قطب.. وتلطف في الشفاعة، فلم يقبل شفاعته الرئيس المصري (جمال عبدالناصر) ولما قتل كل منهما – البنا وسيد – أطلق على كل واحد منهما (شهيداً) لأنه قتل ظلماً. وشهد بذلك الخاص والعام، ونشر ذلك في الصحف

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٣.

(٢) مجلة البعث الإسلامي، عدد ١، مجلد ١١ – جمادى الأولى ١٣٨٥هـ.

والكتب بدون إنكار. ثم تلقى العلماء كتبهما ونفع الله بهما، ولم يطعن أحد فيهما منذ أكثر من عشرين عاماً»[(١)].

٨ – يقول د. الطاهر مكي: وأفرج عن سيد قطب عام ١٩٦٤م بمناسبة تدشين السد العالي، حيث توسط الرئيس عبدالسلام عارف – وكان هذا قوميًّا عربيًّا ومسلمًا طيبًا – لدى الرئيس جمال عبدالناصر للإفراج عن سيد قطب.. التقيته صدفة يتجول في شارع ٢٦ يوليو «فؤاد الأول سابقاً»، وبدا لي أنه أطول وأقوى مما رأيته قبل عشرين عاماً، فتقدمت منه، وسلمت عليه، وأبديت له رغبتي في زيارته، فرد: ليس في صالحك، وافترقنا على أمل في لقاء تأتي به الأيام.. بعد شهرين ألقي القبض عليه من جديد، بتهمة قلب نظام الحكم، وقدم سريعاً للمحاكمة العسكرية، وحكم عليه بالإعدام ونفذ (وهكذا كما ترون، فقد كان الإفراج عنه مؤامرة للقضاء عليه، فهل يعقل أن شخصاً خرج من السجن منذ أيام، يستطيع أن يهيئ لقلب نظام حكم عسكري متمكن من كل صغيرة وكبيرة في البلاد، فما الذي بيده أن يفعله في مثل ظروفه، ليضع هذا الهدف نصب عينيه.. عجيبة غريبة.. فكما اغتيل البنا سابقاً للحيلولة دون استكمال المشروع الإسلامي بناءه في إيقاظ الأمة بأمر من دول الغرب وتواطؤ مع الحكام.. كذلك اغتيل سيد للسبب نفسه بأمر أجنبي وتواطؤ حاكم ذلك الزمان، ولكن الله بالمرصاد.. وليسأل كل منا نفسه ماذا حدث للذين اغتالوا البنا، وما الذي حدث للذين اغتالوا سيد قطب.. بعد ذلك؟).. أما هو فقد كان إعدامه وإحراق كتبه بداية خلود يزداد كل يوم وهجاً.. كان سيد قطب مفكرًا عظيمًا، وتطور فكره تبعًا لتطورات عصره، وتبعًا لظروف مصر

(١) (سيد قطب الأديب الناقد) للدكتور صلاح الخالدي ص ٢٩.

السياسية والاجتماعية، ومتطلبات تحررها وتقدمها، وأراد لنفسه أن يكون حيث يمكنه أن يسهم في تحقيق هذه الغايات، حتى وهو جثمان مسجىً تحت التراب»[١].

ونكتفي هنا بما قدمناه من أقوال في الرجل، معرضين عن مقالات دبجت فيه، من الكثيرين تضعه في موضع الاتهام وهؤلاء كتبوا ما كتبوا من مفتريات:

- إما لأنهم لم يفهموه، فهو قد فهم القرآن وعقيدة الإسلام فهماً عمليًّا حياتيًّا كأنه يتنزل الآن، وليس في مثل الظروف والأحوال التي فسر المفسرون فيها القرآن على قدّ ظروفهم ومجتمعاتهم وعلمهم الاجتماعي والكوني، وهؤلاء ظلوا يراوحون في فهمهم في مكانهم مع الماضي.. (وقولنا هذا لا يعني عصمة سيد.. بل هو رجل يخطئ ويصيب، يجتهد ويتحرك بغير جمود ولا لحود..).

- وإما من قبل بعض المنطلقين من عداوة للإسلام الذي يحمله سيد قطب، ولسيد بذاته الذي يحمل الإسلام هماً وخلاصاً للمعاناة الإنسانية. وهؤلاء كثر، وتنهال عليهم الجوائز من كل حدب وصوب، ليشتدوا في عداوتهم ومفترياتهم.

- وإما ثالثاً: حسداً من عند بعض الأنفس، على طريقة التنافس بين المتعاصرين.

---

(١) من مقال للدكتور الطاهر مكي نشر في جريدة اليوم السابع–العدد ٧٦ الثلاثاء ١٣ أبريل ٢٠١٠م تحدث فيه عن ذكرياته مع سيد قطب. ومن جملة ما قاله في هذا المقال: «لم يكن سيد قطب فيما أرى متطرفاً ولا رجعياً ولا متخلفاً جامداً في أفكاره (كما يدعي أعداؤه وأعداء الإسلام).. لقد كان صادقاً مع نفسه، ومع ما يؤمن به، وكانت طريقته في الدعوة بالكلمة ومصارعة الفكرة بالفكرة».
تنبيه: الذي بين الأقواس الكبيرة تعليق مني.

ثالثاً: معاناة سيد قطب:

١ - المعاناة الداخلية:

أ - فترة قلقة ناتجة من حساسيته الشديدة والبحث عن الحقيقة، جعلتا من حياته الأولى مكمناً للقلق والتعب والنصب فكريًّا، وموئلاً لعدم الاستقرار ولهجوم الأمراض عمليًّا.

وقد استغرقت هذه الفترة من حياته عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، واتسمت هذه الفترة بالجرأة في الموقف، والحماسة لما يؤمن به، والبحث الحثيث عن مواقع الحق ومن يحملونه، وبالحمل على الظلم والظالمين، وتأييد من يوافقونه في ذلك؛ ففي كتابه لماذا أعدموني يقول: (آن الأوان ليضحي رجل برأسه في مقابل إصلاح الدنيا والدين) لقد كانت حياته في تلك الحقبة، ثم من بعد هذه التواريخ.. درامية مأساوية تجنَّى فيها الكثيرون عليه، حتى ممن هم في عداد إخوانه.. وقصة حياته تلك ومعاناته وصموده أمام التعذيب والتنكيل والإهانة، وتعامله الحكيم مع ما لاقاه من قبل من صدمات عاطفية ونفسية، وما عاناه من تقلبات في مسيرته لاكتشاف الحق الذي كان تواقاً إليه، كل ذلك كان جديراً بأن يستدعي بحماسة (تعادل حماسته هو للحق) المراجعة لإعادة الحق إلى نصابه فيما يخص هذه الشخصية الفذة وسيرتها، التي افترى عليها المفترون[١].

لقد تضامن في فترته الأولى مع العقاد ضد الرافعي، وتنازع مع طه حسين وكان أول من نقد كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ثم عاد وصالحه، ودخل في

(١) من جريدة اليوم السابع (ملف أعده وائل السمري) العدد (٧٦) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠ بتصرف واختصار.

معركة مع الشيخ علي الطنطاوي انتهت بالمصالحة ومؤازرته للشيخ، انضم لحزب الوفد وأيد معاهدة ١٩٣٦م، ثم هجر الحزب، وانتقد المعاهدة، لما تبين له زيفها وزيف مواقف الحزب. وفي الطريق انضم إلى حزب السعديين باحثًا عن الحق والحقيقة عندهم.. لكنه لم يجدهما، فقد كان الجميع أيادٍ للمستعمر، ثم مال إلى الاشتراكية واليسار والعمال، ظناً منه أن هناك بعض الحق، إلا أنه ما لبث أن اكتشف زيف الشعارات وسوء الممارسات، وهنا هلل لثورة (يوليو) وهاجم الاشتراكية باعتبارها عدوة للإسلام، فهو في كل طريقه لم ينس أنه حافظ للقرآن سليل عائلة صاحبة دين، فهو منها ومثلها(١).

ب – معاناة قبل اكتشاف الحقيقة:

إذن كم من المعاناة والألم والأشواق المكبوتة بواقع أليم، يلاقيها رجل مخلص متحمس في إخلاصه، حساس شديد الحساسية تجاه ما يؤمن به، صادق اللهجة، جريء، حتى أنه لا يخاف في الله لومة لائم.. خصوصاً أن مصر كانت تموج بفساد أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي لا يبارى.. فهي تعيش فوق حصباء ساخنة من القلق، والشوق إلى التغيير، ومعاقرة اليأس منه.. فوضع الفساد كان خليطًا من ممارسات القصر، والمتنفذين أصحاب الأطيان والأرض وغالبيتهم من الغرباء عن الشعب. ثم من ممارسات الإنكليز المستعمرين المتعجرفين القتلة الذين لطخوا أفق البلاد بالفساد السياسي والمالي والأخلاقي والقانوني. ثم ليأتي دور الأحزاب، التي لعب بها الزمن، وباتت تعيش على تراث الآباء المؤسسين الصالحين، لتقيم حاضرها على معاقرة تبادل الأدوار مع كل المفسدين. ركضاً وراء الوجاهات والثراء والبقاء.. هذا هو

(١) المرجع السابق بتصرف واختصار.

الألم، وتلك هي المعاناة، التي عاشها سيد وهو الأديب الناقد الشاعر ذو الأحاسيس المرهفة، وحامل الصدق في اللهجة، والجريء في الحق الباحث عنه في كل مكان.. إنها آلام ومعاناة قادته أخيراً وهو في أمريكا- مبعوثاً من وزارة المعارف لدراسة المناهج ووسائل التربية- إلى معرفة استقر عندها وقدم حياته ورقبته ووقته وقلمه وصحته في سبيل نجاحها.. فهو بعد أن اكتشف ما تعوم فوقه المظاهر الزائفة للحضارة الغربية من فساد أخلاقي وسياسي واقتصادي ومجتمعي، وبعد أن كان قد اكتشف فساد الأنظمة جميعاً في بلاده.. وبعد أن رأى ما رأى من احتفال وابتهاج وفرح أداره الأمريكيون في ساحاتهم ابتهاجاً باستشهاد الإمام البنا.. أقول بعد ذلك كله.. مال إلى كتب الإخوان ورسائل الإمام، وأنظمة الجماعة وأهدافها وثقافتها، وكتبها، فدرسها، واستوعبها، ليجد فيها مبتغاه، الذي أمضى معظم عمره يبحث عنه.. ولما عاد إلى مصر، اتصل بالجماعة، وانضم إليها بحماسة فريدة، وأعطاها كل شيء يملكه، وهنا بدأت معاناته الخارجية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١).

٢ – المعاناة الخارجية:

أ – قبل المحنة الكبرى: سيد أول من قال جملة: «نحن دعاة لا قضاة»، ولم تكن فكرة التكفير فكرته، كما ظن شانئوه، أو من لم يفهموا كتاباته من صف الإسلاميين، بل إن الفكرة نشأت على يد شكري مصطفى ١٩٦٨م وما بعدها.. وشكري وأمثاله لم يتربوا على يد سيد قطب- رحمه الله- ولا كانوا من الإخوان أصلاً(٢). وقد بينا مثل هذا الاتجاه على لسان بعض كبار الكتاب حين

(١) العنكبوت: ٢ .

(٢) أحمد عبدالمجيد (سيد قطب بين مؤيديه ومعارضيه) ص ١٥٠ – ١٥١ .

اقتبسنا بعض أقوالهم في سيد- رحمه الله.

ولا بد هنا من بعض التوضيح لما عاناه حتى قبل انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.. فرغم أننا بينا قبل أسطر بعض تلك المعاناة النفسية الداخلية، إلا أننا بحاجة لإلقاء بعض الضوء على ما لاقاه من عوائق وعنت في فترة القلق، من قبل الظروف والمحيط الذي عاش في كنفه. قبل أن يحزم أمره، ويضع حياته ومصيره في خضم الحراك الإسلامي المبارك. كما لا بد من إلقاء الضوء على بعض ما لاقاه وهو يكافح داخل الجماعة من أجل تحقيق أهدافها، وذلك قبل عام ١٩٥٤م. ودخول فترة المحنة الكبرى له وللجماعة وإن تميزت فترته من أواخر عام ١٩٥١م وحتى أوائل عام ١٩٥٤م ببعض الهدوء في حياته واستقرار فكره، والعمل الجاد الذي استلمه في الجماعة مشرفاً على الدعوة والنشر ورئيساً لتحرير جريدة الإخوان.. ويمكننا في هذه الفترة تعداد بعض ما لاقاه:

- إن الانتقال من منهج في الحياة إلى منهج آخر، لا بد أن يوجد بعض المعاناة في النفس وفي الوسائل، وفي الضغط على العقل والفكر لإنشاء التكيف مع المنهج الجديد.. وهذا ما يلاقيه أي إنسان إذا حدث له مثل ما حدث لسيد من انتقال سريع.

- في فترة الأربعينيات، ونتيجة لبعض الانتكاسات العاطفية، والعوائق غير العادلة التي أخرت فترة تعليمه، ونتيجة ملاحظاته الدقيقة على بعض العلماء، وعدم التزامهم بالحق في الأمور العامة المتعلقة بالسياسة والاجتماع.. ثم نتيجة لخوضه معترك الأدب والسياسة وملاحظة العوج.. عوج الناس في تلك الأوساط وعدم استقامتهم أو التزامهم بالشعارات التي يطرحونها،

وحساسيته الشديدة تجاه كل ذلك.. دخلت عليه علامات من الشك والارتياب في المحيط الذي يعيشه، وحتى ببعض الحقائق الدينية، غير أنه لم يصل من ذلك إلى حدود الإلحاد.. بل ظل في دائرة القلق الحساس والمعاناة من الأسئلة التي لم يجد لها جواباً عند من كان يعمل في أوساطهم [(١)].

- ولا أدلّ على معاناته النفسية والفكرية وحتى الجسدية، التي لا بد أن تتأثر بالأولى والثانية من وصف وضعه: فقد كان يؤثر خط العقاد ويدعمه، مع أن العقاد في تلك الأيام كان من ضمن اتجاه مصري ليبرالي (أنجلوساكسوني) يشاركه فيه المازني وشكري وغيرهم. وسيد من اتجاه سمي بـ: الدرعموني – وهو اتجاه ليبرالي بخلفية إسلامية منفتحة، وكان اهتمامه- رحمه الله- في تلك الفترة أدبيًّا نقديًّا خالصًا.. وهو الذي اكتشف نجيب محفوظ وأشار إلى إمكانياته الروائية، وقدمه إلى القراء بتلك الصفة من خلال كتاباته الصحفية، ثم هو في الوقت نفسه الذي هجم على كتاب طه حسين بكل جرأة وبلا مواربة، مستخدماً كل ما يملك من شجاعة في مواجهة عميد الأدب العربي وهو مدرس الابتدائي البسيط. أما كتاب طه حسين الذي هاجمه فهو «مستقبل الثقافة في مصر».. حيث نقده سيد بشكل علمي هادئ ودقيق ومستفيض جمع بين الثقافة التربوية التي يمتلكها بحكم اختصاصه، والعقلية العلمية التي استفادها من احتكاكه بالتوجه العقادي وغيره، ووطنية زرعتها في عقله وفكره نشأته الوطنية في حضن والده، ومعاناته التي كانت تحزنه من وجود المستعمرين جاثمين على قلبه وقلب شعبه وتراب وطنه (مصر). وقد

---

(١) من مرجع سابق – مقال في صحيفة اليوم السابع بعنوان (إعادة الاعتبار للشهيد سيد قطب) بتصرف.

دفعت تلك الدراسة الناقدة بسيد رحمه الله إلى الصفوف الأولى بين النقاد الجادين[١].

- ويروي د. الطاهر مكي مشهداً ينبئ – من خلال كلمات سيد ما كان يدور في قرارة نفسه، وما كان يؤرقه من توجه إلى العدل الذي يجب أن تكفله الدولة اللاهية للمواطنين، ولم تفعله .

يقول د.طاهر مكي: «بدأنا إضراباً طلابياً، لكي يستمر تعيين المدرسين في وزارة المعارف وقفاً على خريجي دار العلوم».. وكان الطلاب يطالبون بفتح باب الوزارة (وزارة المعارف وكان وزيرها آنذاك محمد حسين هيكل) للعمل. ويومها ذهب وفد منا– كنت أحدهم– إلى سيد قطب، وكان يعمل عضوًا فنيًّا في مكتب الوزير، نطلب منه بوصفه «درعميًّا» أن يدعم قضيتنا، وسمعته ناقداً أديبًا وكاتبًا مرموقًا، موضع الإجلال والتقدير، وتصورنا أنه سوف يرحب بهذا تعصباً للمعهد الذي تخرج فيه.

استمع إلينا بهدوء تام، وناقشنا بحياد وموضوعية، ثم أنهى كلامه بموقف قال فيه: هذا أمر يتصل بالصراع حول لقمة العيش، وهي حق لكل مواطن، يجب على الدولة أن تكفله.. من حقكم أن تتظاهروا من أجله وأن تطالبوا به. كلمة جمعت كل ما كان يدور في قلب سيد من معاناة (حق المواطن بالعيش الكريم، حرية المواطن، واجب الدولة..)[٢].

- إن هذه النفس الباحثة عن الحق، وهذا القلب القلق، الذي لا تهدأ دقاته، لأنه لم يجد بعد بغيته في منهج ميداني مناسب للتغيير الذي شغل بال سيد طوال حياته.. سببا له الأمراض الجسدية، والمعاناة الاجتماعية، فرأيته

(١،٢) من مرجع سابق، مقال د. الطاهر مكي: ذكريات عن سيد قطب، جريدة اليوم السابع. بتصرف.

يتنقل بين الذين يطرحون أنفسهم في ميدان العمل الفكري والسياسي والأدبي دون جدوى.. وقد ظلت تلك الحالة تلاحقه إلى أن اطمأن إلى حركة الإخوان المسلمين ذات البرنامج العالي، والمنهج الرباني، والتنظيم الراقي الهادف إلى التغيير بترتيب ممتاز لمراحله ووسائله وتطور ما حوله. فانخرط فيها بحماسة لا مثيل لها.. عاملاً فاعلاً ومفكراً مبدعاً ومضحياً باذلاً قصارى جهده، وعظيم ما يملك من حياة ووقت ووظيفة ومال، متيقناً كل اليقين (أن هذا هو الطريق). ومن هنا جاءت له الأقدار بالمحنة الكبرى؛ تمحيصاً وتدقيقاً وقدوة، فقدم فيها أعزّ ما وهبه الله.. حياته.

ب – بعد المحنة الكبرى:

١- **في السجون**: ودخل سيد قطب السجن (١٩٥٤) محكوماً بالمؤبد والأشغال، ومثله في بلدان العالم التي تقدر رجالها.. يكون في «السُّدة». وقد لاقى سيد وإخوانه في سجون حاكم مصر الديكتاتور الفاسد آنذاك الأهوال، وتفنن السجانون بتقديم أنواع وأشكال وجبات التعذيب، مما عرفه الظالمون وما لم يعرفوه من قبل.. واخترعوه خصيصاً لدعاة الإسلام الشرفاء الأطهار، وتحمل الإخوان تلك الأهوال برجولة نادرة، وبصبر لا يبارى، مستعينين بالله وبالأمل في فرجه ونصره، دون أن تزل قدم، أو تهوي فكرة، أو تبدى ولو كلمة من تراجع، وقد كانت كلمة واحدة من سيد قطب الشامخ يظهر فيها أي معنى من كذب مع النفس.. تكفي لإخراجه من قبل الحاكم وتوزيره(١).. ولكن هذا الملمح المشروع، على سبيل التقية، لم يُفرح به سيد ولا أحد من إخوانه، ذلك الحاكم الجاثم على صدور المصريين وظل سيد على هذا الحال.. إلى عام

(١) وائل السمري، صحيفة اليوم السابع، عدد (٧٦) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠ مقال براءة سيد قطب، بتصرف.

١٩٦٤م (عشر سنوات من التعذيب والإهانة والصبر والشموخ.. وعندها كما قلنا سابقاً.. توسط في قضيته الرئيس العراقي آنذاك والملك محمد الخامس) لإخراجه بمناسبة افتتاح مشروع السد العالي، ودعوة الرؤساء لحضور الحفل. وفعلاً أفرج عنه، ولكنه لم تلن له قناة، بعد الإفراج عنه؛ التقيته صدفة، يتجول في شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقاً)، رأيته يسير واحداً، شامخ الرأس، مرفوع الهامة، وبدا لي أنه أطول وأقوى مما رأيته قبل عشرين عاماً، فتقدمت منه، وسلمت عليه، وأبديت له رغبتي في زيارته فردّ: هذا ليس في صالحك.. وافترقنا، على أمل في لقاء تأتي به الأيام[١].

إن كلمة سيد قطب للدكتور المكي: (هذا ليس في صالحك) تنم عن حدس قطبي، يجوس خلال مرامي نظام حكم عبدالناصر وأجهزته المجرمة، وينبئ بأنها تحوم حول تدبير جرم لهذا العملاق الفكري الإسلامي، لتتخلص منه وإلى الأبد. ولكن أين منهم هذا، والرجل ترك ميراثاً علمياً وفكرياً وأدبياً وبذلاً لا يشق غباره، ولا تناطحه العوالي.. مسكوباً في إناء الإسلام القرآني الخالد، فهو يلاحقهم في الحياة وفي قبورهم، ويقف لهم بين يدي الجبار، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا رئاسات، ولا وجاهات، ولا مقامات: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

يقول د. الطاهر المكي[٣]: «بعد شهرين ألقي القبض عليه من جديد، بتهمة العمل على قلب نظام الحكم، وقدم سريعاً لمحاكمة عسكرية، وحكم عليه

(١) (صحيفة اليوم السابع) مقال د. الطاهر المكي: ذكريات عن سيد، عدد (٧٦) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.
(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩.
(٣) مصدر سابق (صحيفة اليوم السابع) عدد (٧٦) مقال د. الطاهر المكي: ذكريات عن سيد ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.

بالإعدام، وبعد أيام قليلة لا تتجاوز أصابع اليد (كان الحكم في ٢٢ أغسطس ١٩٦٦م وتنفيذه في ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م)، نفذ فيه الحكم، في لحظة غير متوقعة يوم ٢٩ أغسطس من عام ١٩٦٦م.. وانقبض صدري بقوة، وأنا أقرأ الخبر في هذا اليوم، على نحو لا أدري له سابقة في حياتي، ولا أعرف له تفسيراً، وحين ذهبت إلى الكلية كانت هناك قلة من رجال الأمن العسكري في ملابس مدنية، تأخذ طريقها إلى مكتبة الكلية لمصادرة كل ما تعثر عليه من مؤلفات سيد قطب، وما كان لأحد أن يتكلم أو يرفع صوته؛ لقد كنا في أبأس سنوات عرفتها مصر.. ومن ثم كانت محاضرتي في ذلك اليوم لطلابي في الأدب الأندلسي بعنوان: (إحراق الكتب في الأندلس كان بداية سقوط الدولة وانهيارها)»[1].

وفعلاً فبعد زمن قصير انهار بناء دولة المخابرات (صلاح نصر)، وسقطت الرؤوس، وانهزم الجمع، وفار الدم الزكي، الذي أهدر عام ١٩٥٤م وعام ١٩٦٦م في وجه الطاغوت، حتى خنقه عام ١٩٧٠م نهائياً: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

لقد نقل سيد من تخشيبة المحافظة إلى السجون المختلفة: سجن القلعة، والسجن الحربي، وأبو زعبل، وليمان طره، إلى آخره، وذلك في أسوأ معاملة؛ لا إنسانية فيها، ظلت جامحة على صدره وصدر المعتقلين من إخوانه حتى ١٩٦٤م، وهي السنة التي قرر فيها التخلص نهائيًا منه كما أسلفنا.

---

(١) المصدر السابق بتصرف.
(٢) آل عمران: ١٤٠.

وقدم- كتبه وفكره- للمحاكمات العسكرية الصورية الهزلية، في أسوأ صورة شوهت مصر وقضائها وتاريخها.. حيث يحاكم الإنسان- بدون ضمانات قانونية- على أيدي جلادين من قضاة مجلس ما يسمى بالثورة، الذين وضعوا قرار إعدام الرجل (الذي يحاكم على كلماته والنيات) مسبقاً، مع أن ما كتبه سيد كان موضع الاحتفاء من قبل كبار المفكرين والكتاب والعلماء وحتى بعض رؤساء الدول.

لم يدع سيد وقته خلال العشر سنوات من ١٩٥٤-١٩٦٤، التي أمضاها في السجن، تضيع هدراً، فقد شغلها بأن أصدر فيها أعلى وأغلى ما كتب من فكر وإبداع حركي إسلامي، في موسوعته الكبرى «في ظلال القرآن» وكتابه الفذ «معالم في الطريق»[(١)].

٢ - فكره في الميزان: الرجال الكبار، هم الذين يتعرضون للملاحقة بأفكارهم، وما كتبوا، وما أنتجوا، وما تصرفوا قولاً وعملاً، فهذا الإمام أبوحنيفة، والإمام الشافعي، والإمام ابن تيمية.. وغيرهم كثير، تعرضت أفكارهم وفقههم وحتى أشخاصهم للنقد وحتى للتشهير، فهذه هي ضريبة التفوق والإبداع وإرهاصات التغيير، يدفعها أصحابها للشانئين، أو للجاحدين، أو للحاسدين، في حين أنهم وجدوا الكثير من المنصفين ومن المغالين في حبهم وإعجابهم، ورغم كثرة هؤلاء وعلو باعهم في العلم والفكر والفهم، كثرة فاقت من اصطف ضده، إلا أن صوت الآخرين كان أعلى وأكثف في الحضور، نظراً لدعم المتنفذين الحاكمين ووسائل إعلامهم وأذنابهم لهم والإنفاق عليهم بسخاء.

---

(١) من كتاب «سيد قطب بين الغالين فيه والجافين عليه» محمد إبراهيم شقرة ص ١٢.

ونحن في هذا الكتاب لن نستطيع أن نتابع هـذه المعركـة الفكريـة الفقهيـة بتفاصيلها، فهي موضوع واسع احتاج ويحتاج إلى موسوعات لاستيعابها، لـذا فإننا نكتفي بمتابعة أهم الموضوعات المثارة بإيجاز من خلال: استعراض بعض آراء المنصفين والغالين بحبه، ثم استعراض أهم اعتراضات الناقدين المنصفين أيضاً وليس المعادين، والدفاع الموجز عنه وعن آرائه:

أ - بعض آراء المنصفين والمغالين في حبه- رحمه الله:

- **من المنصفين**: «الإحساس الأدبي العالي كان يلازم سيد قطب في كـل مـا كتب، وكتابته للشعر هي التي أرهفت ذوقه، ودربت حسه، فجعلته مبـدعاً في كتاباته الإسلامية أيضاً»[(١)].

- الشهيد سيد قطب موسوعة ثقافية، كتبه وفكره أعمق من الجميع، سابق لكل أقرانه، ومن يصف كتاباته بأنها تدعو إلى العنف والانعزال لم يفهموه[(٢)].

- قطب قيمة فنية استطاعت أن تنجز مشروعاً مكتملاً في المقاربـة بـين مـا يتوهم البعض أنهما متعارضان «الدين والفن»[(٣)].

- **من المحبين**: «لا يوجد في القرن العشرين مـن يعـادل في فكـره ومكانتـه الثقافية الشهيد الراحل سيد قطب. وكتابـه في ظـلال القـرآن موسـوعة دينيـة صالحة لكل زمان ومكان وسيشفع له يوم القيامة»[(٤)].

- «إن سيداً من أولئك الأفذاذ الذين يسعد بهم العالم الإسـلامي، وهـو في الطراز الأول من صفوة الدعاة ورجال الفكر والأدب، الذين تحظى بهم الأمم

---

(١) محمد حماسة عبداللطيف، نقلاً من «اليوم السابع» عدد (٦٧) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.
(٢) صافيناز كاظم، نقلاً من «اليوم السابع» عدد (٦٧) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.
(٣) محمود الضبع، نقلاً من «اليوم السابع» عدد (٦٧) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.
(٤) د. آمنة نصير، نقلاً من «اليوم السابع» عدد (٦٧) ١٣/ ٤/ ٢٠١٠.

بعد فترات طويلة»[١].

- «كان سيد قطب تبراً في تراب، لا يعرف قدره إلا من ارتقى مرتقاه، فهو مدرسة وحده، ويكفيه شرفاً أن نبه الأمة إلى الكنز الذي لا يفنى.. القرآن الكريم»[٢].

ب – أهم البنود التي اعترض عليه بها من قبل المنصفين: وهنا يجب أن نبين ثلاث ملاحظات بين يدي هذه الفقرة:

- **الأولى**: إن العديد من الأفكار المنقودة جاءت في مرحلته الأولى قبل الدخول في صفوف الدعوة.. وهذه تبرأ سيد منها.. فمن ظل ينقده إسلامياً بسببها.. فهو كمن يعاند قول رسول الله ﷺ.. التوبة تجب ما قبلها.. والإسلام يجب ما قبله.

- **الثانية**: إن سيداً عندما كان يكتب في مرحلته الثانية، تطرق لأمور الحراك الإسلامي، وكيف يمكن لهذا الحراك أن يواجه الجاهلية الجديدة منظماً تنظيماً مكافئاً لمن يحاربونه.. وإذن فهو لم يكن يكتب كتاباً فقهيًّا أو يبني بنياناً عقيدياً يناسب نظرة دون نظرة من المختلفات، بل كان يضع في سياق حديثه ما يناسب الحراك، ولا يخرج عن الآراء والنصوص الصحيحة الموجودة في الأصول المعتمدة. وقد أشار سيداً إلى ذلك بقوله في غير موضع من كتبه من أراد معرفة الحكم الشرعي فليرجع إلى كتب الفقه، وقال أثناء السجن: «نحن دعاة لا قضاة» وعند هذه الملاحظة لا بد من الإشارة إلى أن بعض النقد المنصف توجه إلى أمور فيها خلاف بين العلماء، فلا يضار سيد بالأخذ برأي

(١) من شهادة للعالم الكبير أبو الحسن الندوي، مجلة البعث الإسلامي عدد١ مجلد١١ جمادى الأولى ١٣٨٥.

(٢) من كتاب د. توفيق الواعي «العبقري العملاق والمجدد المبدع سيد قطب» ص ١٥٢.

دون رأي ولو كان مخالفاً لمن يعتبر رأيه هو الأصلح .

- وأما الملاحظة **الثالثة**: فلنا أن نقول: إن سيداً بشر من البشر، يخطئ ويصيب، وقد أخطأ من قبله عمالقة الفقه، وعمالقة أهل الحديث، وحسب المرء أنه اجتهد، فإن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران.. فلماذا كل هذه الضجة التي أثيرت في وجه عملاق الفكر الإسلامي في القرن العشرين؟ لا أظنّ أنها إلا ضجة افتعلها الأعداء الذين أعدموه، ثم ناصرهم وعاضدهم في ذلك الضجيج ذوو الأهواء، الذين لا يتوقف لهم قلم. ولا يسكن لهم لسان، حتى يرضوا أسيادهم الغربيين؛ الذين لقنوهم فكرهم واستشراقهم وما يزعمون، مبتغين إخراج هذه الأمة من دينها، والابتعاد بها عن مواقع الغيث الرباني الذي صنع منها أمة قائدة متفوقة، وذلك عندما كانت على قدم الانصياع لهدي ربها. وما أظن إلا أنها مفتريات في معظمها حتاها في وجهه أولئك الذين ذكرنا، فهي على مثل ما ابتلي به ابن تيمية في زمانه، غير أن هذه الجديدة خدمتها وسائل إعلامية ودعائية وأموال مشبوهة.. لم تتح لتلك الأولى.. وقد دخل في غبارها ورذاذها بعض من الآل والأصحاب على سبيل الدفاع والتصحيح.. وإن كان القلم أحياناً يجتر بعضاً مما هو محشو بها قاله الأعداء على سبيل الاستطراد أو الحشو الذي يحلو للقلم أن يزيغ بَرْيُه إليه توهماً أنه تجميل أو تكحيل، أو أنه نابع من التعصب لمذهب معين. فهذه ثلاث ملاحظات أوردناها، ظناً منا أنها تفيد في عملية اختصار موضوع استعراض نقد الناقدين.. فلا نطيل فيه.

- والآن إلى تحديد أهم محاور النقد وبيان الحق فيها:

وبخصوص هذا البيان، لا بد أن نضع في حسباننا إتباع قول ربنا جل

وعــــلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[١].

أما أهم المحاور التي دار حولها نقد أفكار سيد قطب فهي:

١ – التكفير والحاكمية والجاهلية.

٢ – الانعزال والمفاصلة.

٣ – فكر سيد قطب وعلاقته بالبنا والسجون.

٤ – علاقته بالمنهج السلفي.

واختصاراً ننقل توضيحات بعض اللصيقين بسيد قطب قبل استشهاده، وكيف أنه نفى فهم البعض من أفكاره أنه يكفر الناس أفراداً، أو أن فكرة الحاكمية والجاهلية تعني ذلك:

– إذ يقول الأستاذ إبراهيم الطناني :إن سيداً أرسل معه (أثناء وجوده مع سيد في طرة للعلاج) رسائل إلى من فهم من الشباب أنه يقول بالتكفير للناس والأفراد والمجتمعات.. ومن جملة ما قاله سيد في الرسائل: «إنهم قد فهموني خطأ» ومرة ثانية قال موجهاً كلامه إلى هؤلاء الشباب (لقد وضعت حملي على حصان أعرج)[٢].

– وتقول الأستاذة زينب الغزالي– رحمها الله: استغرب سيد نفسه هذا الفهم عنه عندما واجهته به وقال: إنه سيوضح رأيه والفهم الصحيح في الجزء الثاني من معالم في الطريق إلا أنه أعدم قبل كتابته هذا الجزء[٣].

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) فكر سيد قطب، محمد أبو صعيليك، ص٨٨ نقلاً عن كتاب حين غابت الشمس ص ٤٥٤ بتصرف.

(٣) مقابلة معها في مجلة المجتمع عدد ٥٦٥ / ١٢ جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ ص ٢١.

- ويقول الأستاذ محمد قطب: كتابات سيد قطب تركزت حول موضوع معين، هو بيان المعنى الحقيقي لـ«لا إله إلا الله»، شعوراً منه بأن كثيراً من الناس لا يدركون هذا المعنى على حقيقته، وبيان المواصفات الحقيقية للإيمان كما وردت في الكتاب والسنة.. وقد حرص حرصاً شديداً على أن يبين أن كلامه هذا ليس مقصوداً به إصدار أحكام على الناس.. بل هو البيان الذي يتبين منه الإنسان مدى التزامه بالطريق الإيماني الذي وضحه.. ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول: نحن دعاة لا قضاة، إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي، الذي هو التحاكم إلى شريعة الله.. كما سمعته أكثر من مرة يقول: إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لا تقبل الشك، وهذا أمر ليس في أيدينا.. ونحن دعوة ولسنا دولة دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس لا إصدار الأحكام عليهم»[1].

- ويقول د. عمر الأشقر: «لم تحوِ كتب الشهيد سيد نصاً واحداً يصرح فيه بتكفير المجتمعات أو الأفراد.. واتفق الإخوان على أن سيداً لم يكن في لقاءاته وجلساته وأحاديثه معهم يقول بتكفير المجتمعات.. ولكن كثيراً من كتاباته قد يستنتج منها تكفير المجتمعات والأفراد (حين يغوص في شرح الحاكمية والجاهلية) وتلك الاستنتاجات أمر طبيعي لتفاوت الأفهام أحياناً، ولتعمق المؤلف في معنى معين على فكرة ما،.. وطالما أن سيداً لم ينص على هذا الرأي (التكفير)، فمن الظلم أن نحمل الشهيد رأياً لم يقله..»[2].

(١) فكر سيد قطب، مرجع سابق ص ٩٠-٩٢.
(٢) فكر سيد قطب، مرجع سابق، ص ٩١-٩٢.

- أما تكفير الحكام بسبب إعراضهم عن تطبيق الشريعة عمداً.. فهذا الرأي لم ينفرد فيه سيد قطب، بل إن من الصحابة ومن التابعين ومن بعدهم من كبار علماء المسلمين من قال بذلك، ومنهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه والسدي من التابعين قال به وأخذا بظاهر الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] ثم تابع في ذلك ابن كثير الدمشقي في تفسيره للآية، وشارح العقيدة الطحاوية الإمام ابن أبي العز الحنفي يقول: إن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة.. وقد وافق سيداً على ما قاله بشأن تكفير الحكام علماء معاصرون كثيرون منهم: الشيخ أحمد شاكر، والعلامة محمود شاكر، ووافقه على ذلك المستشار حسن الهضيبي في كتابه «دعاة لا قضاة» والدكتور الشهيد عبدالله عزام في كتابه العقيدة، والدكتور عمر الأشقر في كتابه «العقيدة في الله»[2].

وإذن فسيد قطب لم يكن سابقاً في هذا الرأي، بل هو وضحه توضيحاً عقيدياً وحركياً وعملياً في واقع المسلمين العصري، ما جعل الحكام المصرّين على مسيرة نبذ شرع الله، واتباع القوانين الوضعية ولو في بعض نواحي الحياة.. ينتقمون من سيد فيحكمونه بالإعدام، ونبتت في هذه الأيام نابتة تماري في هذه المسألة، وتحسن الظن بالحكام الذين يصرون على الحكم بغير ما أنزل الله، بل ويعاندون في ذلك، وهذه النابتة شددت النكير على سيد- وكأنه منشئ الفكرة- وليت هؤلاء الشباب أحسنوا الظن بالعلماء والدعاة الصادقين بدل إحسان الظن بأولئك الذين اتخذوا القرآن ظهريا.

(١) المائدة:٤٤.

(٢) فكر سيد قطب، مرجع سابق، ص ٩٠-٩٢.

وفي الحاكمية مراء كثير.. أبداه قريبون من سيد وبعيدون.. وكان جُلّ ما فيه من كلام من قبل الناقدين لا يخرج عن اختلاف في الفهم (القريبون)، أو نكاية وانتقاماً وعدم فهم لكتاب الله وللإسلام (البعيدون) .

وكما قلنا في البداية: إن مرادنا هنا الاختصار والإيجاز.. فمن قال إن سيداً والمودودي هما اللذان جلبا مصطلح الحاكمية.. رُدّ عليه بقول العلامة الشيخ يوسف القرضاوي.. بأن هذا المفهوم اتفق عليه الأصوليون وصرحوا به في مبحث الحكم في أصول الفقه(١) .

كما رَدّ على من قال: إن هذا المصطلح لم يرد في كتاب ولا سنة الأستاذ الدكتور فتحي الدريني.. حين عزا هذا المصطلح إلى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(٢) .. فقال الحكم مصدر، والحاكمية مصدر، وهما بمعنى: إن الحكم إلا لله(٣) .

وقد وافق سيداً في استخدام الحاكمية علماء التوحيد، ورتبوا على جحود الحاكمية لله كفر، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (كبرى اليقينات الكونية)، إذ صرح بالمصطلح جهاراً نهاراً قائلاً: «فالحاكمية إنما هي لله وحده».. فهو المشرع لعباده في شتى شؤونهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم، وهو المرجع في كل مشكلة من مشكلاتهم، وإقامة كل دستور وتنظيم لحياتهم، ومن جحد ذلك فهو كافر بالله ورسوله وإن ادعى بلسانه الإيمان بالله ورسوله وصلى وحج وصام، قامت على ذلك أدلة العقل

---

(١) مصدر سابق، فكر سيد قطب، ص ٩٣.
(٢) الأنعام: ٥٧.
(٣) مصدر سابق، فكر سيد قطب، ص ٩٤.

والنقل من الكتاب والسنة. وتم على ذلك إجماع المسلمين[١].. وهنا نقول: وهل زاد سيد -رحمه الله- على هذا القول بقول أو أنقص؟

فلماذا تُثَار على الشهيد الضجة ويُسْكت عن غيره (إن القضية سياسية وليست فقهية عقدية، وقد وقع في شركها حتى بعض الإسلاميين من علماء ودعاة دون أن يشعروا بسياسة تلك الضجة).

والأقوال في تأييد سيد بمصطلح (الحاكمية) ومعناها ومرماها كثيرة.. نكتفي بما أوردناه لنقول ختاماً: إن المشكلة ليست في سيد وفهمه، بل هي بمن قرأ ويقرأ سيداً، وبعدم تعمقه مع سيد في فهمه لـ «لا إله إلا الله».. أو وقوفه عند خلافات أخذ هو (سيد) فيها برأي معتبر ومعدود في تاريخ الفقه الإسلامي. وأخذ الناقد برأي آخر.. ومن تَعَصُّبِ هذا لرأيه عدّ سيداً مخطئاً، مع أنه قد يكون تبنى رأياً أصح من رأي الناقد..

وفي آخر القول، فإننا نكل الجميع إلى الله.. فهو الحكم وهو العدل.. وهو شهيد على الشهيد وغيره.. والله أعلم.. ونكتفي بهذا النقاش في موضوع سيد وفكره والناقدين؛ لأن كل ما لم نتطرق إليه إما أنه يعود في مآل الأمر إلى ما ذكرنا وبينا، وإما أن يكون من جراء الاختلاف بين الآخذ والمأخوذ منه والله أعلم. ويظلُّ سيدٌ سيداً، في الأخذ من سنن السلف في الاعتماد على الكتاب والسنة، وما حباه الله من إحاطة عامة شاملة وثقافة لا تقتصر عن فهم سلفي واستيعاب عصري، ويظل القصور فيمن قرأ، فلم يعِ ما وعى الكاتب الفذّ من إشراقات حركية دعوية علمية سلفية استطاعت أن تلهب قلوب الناس، فتضع سيداً في مصاف الكبار في الدعوة إلى الله، والتنظير العملي الحركي المبدع

(١) السيرة النبوية للدكتور البوطي.

لتلك الدعوة. ويمضي سيد في طريقه إلى الله، شهيداً على ظلم وظلام العقول التي أبت تقبل النور، ونامت في أحضان الغفلة، مقلدة تابعة ببغاوية لغرب لم يرد لنا يوماً من الأيام إلا الاندثار، مستجيبة لرغائب نفسية مريضة بعشق شاذ للسلطان والسلطة، فقتلت به ما سمي بـ(الثورة)! بعضها بعضاً.. ثم وجدنا مآلاتها السقيمة بعد إعدام الشهيد العظيم ورفاقه عام ١٩٦٦م.. إذ كانت هزيمة ١٩٦٧م الفاضحة، وكانت السموم تعمل في إنهاء حياة الجلادين واحداً بعد الآخر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(١) ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢).

رابعاً: بعض ما يستفاد من سيرة الشهيد سيد قطب:

إن ما قاله حين أتت إليه رسالة من الظالمين تقول: إنْ خط سيد كلمات (اعتذار وطلب للعفو) لعفونا عنه، وكان وقتها في حال استقبال للآخرة، ووداع لهذه الدنيا، التي غرقت بشتى أنواع الفساد والظلم والإعراض عن هدي الله، فما كان جوابه إلا تعبيراً عن حقيقة سيرته كلها.. التي اتسمت بالفهم العالي لمكان الداعية الحق، وبالثبات الهائل على الحق، الذي تغلغل في نسيج كيانه كله؛ عقلاً وعاطفة ومادة جسدية وروحاً وثابة لا ترضى بأقل من التمكين لدين الله الذي لا يقبل من العباد غيره. لقد قال كلمته التي ستظل تتردد في أسماع وعقول وقلوب الداعين، ما كان لهذه الأصابع التي تشهد لله بالوحدانية في كل صلاة.. أن تخط كلمات شهادة للظالمين. أو بهذا المعنى، وفي رواية أخرى: لقد توسط له حاكم عربي كبير لتُقدم له الكتب والمراجع وهو في السجن، ليكمل كتابته لظلال القرآن فلم يقدم له سوى القليل منها..

---

(١) الفجر: ١٤.

(٢) الأنفال: ٣٠.

والطريف في هذه القصة أن حاكم مصر في تلك الأيام (جمال عبدالناصر) قال للحاكم العربي الكبير: لم تتوسط لزيارة سيد وتأمين الكتب له؟ لو أنك تتوسط لنا عنده أن يكون عندنا وزيراً للمعارف والتربية والتعليم العالي، فنجمعها له غداً في وزارة واحدة، ويكون سيد قطب على رأس هذه الوزارة بعد غدٍ..!

فما كان جواب سيد إلا أن قال بقولة يوسف النبي عليه السلام، التي جاءت في سورة يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾(١)(٢).

وفي هاتين الإجابتين تتركز الدروس المستقاة من سيرة الشهيد سيد قطب، هذه الدروس التي يجب أن يعيها، ويحلق معها.. كل داعية.. لا أن يبحث فيها، كما يبحث صاحب الحفظ البارد للمتون والشروح.. عن هنات وأخطاء فقهية أو أصولية.. يَردُّ فيها على الرجل، ليضيع رونق المنهاج العقيدي والتنظيمي والحركي لفقه تغيير الواقع الأليم الذي تعيشه الأمة، وليطمس تلك المعالم الإبداعية، التي لم يخرج سيد فيها عن الأصول ولا حتى عن الفروع.. وإنما هي بعض خلافات في الفهم أولاً، ثم في الأخذ برأي دون رأي قد لا يعجب الناقدين المنصفين.. لقد فهم الناقدون الأعداء، الذين حكموا على سيد بالإعدام، وكذلك فهم الناقدون الأعداء الذين طبّلوا للحكم. وصنعوا الإرهاصات له.. نقول لقد فهم هؤلاء وهؤلاء مقصود سيد ومراميه الغالية ذات الأهداف المجيدة التي تهدف إليها.. وأنه يودُّ من كلامه ويريد

---

(١) يوسف: ٣٣.

(٢) «سيد قطب بين الغالين فيه والجافين عليه» محمد إبراهيم شقرة، ص٤. وقد قال المؤلف تأكيداً لهذه القصة: سمعت هذا من عدد وفير، وجمّ غفير ممن ينطبق عليهم حكم رواية المتواتر من الأخبار ودلائل الأحوال تثبت وقوعه.

السير على سير المصطفى ﷺ بإزالة جذرية لأصول الفساد وصانعيه منطلقاً من عقيدة صافية نقية خالية من كل ما دخل عليها من لوثات كلامية يونانية وغنوصية مجوسية إسرائيلية، ومن كل ما شاب الفهم من تأثر بحضارة الغرب العصرية – خصوصاً في الثقافة والفكر وأساليب الحياة اليومية الفاسدة المفسدة.. واضعاً أمام عينيه قول ربه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1]، ولذلك فعلوا ما فعلوه فيه.

وقد تركزت دروسه في سبيل ذلك في جملتين حركيتين: «التلقي للتنفيذ» و«لنقرأ القرآن ندياً كأنه يتنزل علينا الآن».. لا قراءة تاريخية عابرة، أو قراءة وظيفة يومية قلما تدعونا للتنفيذ والانطلاق. كان يريد لطليعة المسلمين أن يحيوا بالقرآن.. كما تركزت دروسه في جملة ثالثة عملية.. هي الثبات حتى تقديم النفس والمال.. غير مكتفين.. بالكلام.. وهنا يكمن سرّ قوله: «إن كلماتنا تبقى عرائس من شمع حتى إذا ما متنا من أجلها.. دبت فيها الحياة وآتت أكلها». وقد فعلها وانتشرت أفكاره في الأجيال، وأتته الإمامة الحركية والثقافية متبرجة له كأزهى ما يكون التبرج من عرائس الجنة.

(١) القصص: ٧٧ .

المبحث السادس
معاناة الشيخ الجليل عبدالفتاح أبوغدة

أولاً: الشيخ في سطور:

١ – هو عبدالفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة، العالم الجليل الفقيه المحدث الداعية الكبير.

٢ – ولد بحلب عاصمة شمال سورية (١٧رجب١٣٣٧هـ/ ٩ مايو ١٩١٧م).

٣ – تلقى علومه الابتدائية والثانوية في حلب (الثانوية الشرعية) المشهورة بالخسروية، وكان تخرجه فيها عام ١٩٤٢م، ثم ارتحل إلى مصر عام ١٩٤٤م، فالتحق بكلية الشريعة وتخرج فيها عام ١٩٤٨م، ثم التحق بقسم علم النفس وأصول التدريس في كلية اللغة العربية التابعة للجامع الأزهر، وحاز على شهادتها عام ١٩٥٠م .

٤ – ولم يكتف الشيخ بالشهادات الرسمية، بل اتصل بالمحدث المغربي (عبدالله الصديق الغماري)، الذي استوطن القاهرة، فتتلمذ على يديه في الحديث، فاستفاد ذخيرة علمية رواية ودراية في الحديث، كما تتلمذ على يدي الشيخين: شيخ الإسلام (مصطفى صبري) آخر مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية، وعلى يدي وكيله الشيخ (محمد زاهد الكوثري)، اللذين هاجرا من تركيا، بعد سقوط الدولة العثمانية على يد (أتاتورك) وظل ملازماً لهما، متتلمذاً عليهما مدة ست سنوات، مستفيداً علماً وفقهاً، وقدرة عظيمة في البحث والصبر عليه.. كما أخذ عنهما أدباً وتواضعاً وسعة أفق ولم ينس الشيخ وهو في

القاهرة الزاخرة بالعلماء آنذاك أن يزيد وينوع في علمه، فكان يتردد على دروس الكبار منهم، وينهل من علمهم، منوعاً تحصيله بالذخائر الفخمة.. ومن هؤلاء الذين كان الشيخ يتردد عليهم، الشيخ عبدالوهاب خلاف، والشيخ محمد أبو زهرة، ومحمد الخضر حسين، ومحمود شلتوت، وعبدالحليم محمود، وقد تولى هؤلاء جميعاً مشيخة الأزهر في فترة ما .

٥ – هذا الجدّ في التحصيل وتنويعه والحفظ الفذّ للعلوم المتنوعة، والنبوغ البارز في كل ذلك فضلاً عن الذكاء والأدب الجمّ والكياسة واللباقة وحسن السمت، والأسلوب العلمي المدقق في النقد.. أقول: إن هذا كله جعل نجمه يسطع في أوساط الأزهر وبين العلماء الأفذاذ، فَعَلا ذكره بينهم، واستحق مكانة عالية بجدارة العالم في مجالات الحديث والفقه والأدب .

٦ – وهكذا عاد الشيخ إلى حلب عالماً غزير العلم، متنوع الذخيرة منه، متمكناً من تحصيله وذخيرته. وفي حلب بدأ التدريس في ثانويات المدينة لمدة أحد عشر عاماً، ولما برزت إمكانياته العلمية الثرة.. انتدب للتدريس في جامعة دمشق (كلية الشريعة) فدرس الفقه وأصوله، والفقه المقارن، ثم كلف بإدارة موسوعة الفقه الإسلامي في الكلية، التي أنشأها الدكتور مصطفى السباعي من قبل، وقد أتم في هذه المهمة إخراج كتاب معجم فقه المحلى لابن حزم الأندلسي.

٧ – عمل في الجامعات السعودية أستاذاً خمسة وعشرين عاماً تقريباً[1] إذ درس أستاذاً في كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم أستاذاً في

(١) لم نرجع إلى كتاب أو مؤلف؛ نظراً لعدم وجودها، أو لعدم استطاعتنا الحصول عليها إن وجدت، لكننا تتبعنا شخصياً المعلومات عنه من المقربين منه الملازمين له، أو من مواقع الشبكة العنكبوتية.

المعهد العالي للقضاء، وشارك في وضع مناهجه بالرياض، وكذلك في مناهج كلية الشريعة في جامعة محمد بن سعود، ومناهج الدراسات العليا في كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية في الجامعة المذكورة .

ثانياً: الشيخ في طلب العلم وتأديته:

١ – كانت رحلته إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٥م للعمل، ومع ذلك كانت بالنسبة له فرصة للأخذ والعطاء، فهو في جو جديد، وداخل مؤسسات علمية جديدة.. فيها من العلماء (الأساتذة) من مختلف المشارب، والعديد من الأقطار، وإذن فهي مناسبة للحوار العلمي الهادف، والتزود بالنافع، وكذلك إعطاء ما عند الشيخ من الذخائر الفذة.

٢ – ولم يكتف الشيخ بذلك، بل إن شوقه للعلم، ونفسه التواقة إلى الاستزادة والتنويع دفعاه إلى الارتحال إلى الهند – كما كان يفعل علماؤنا الأفذاذ من السلف الصالح – طلباً لمقابلة الشيوخ الكبار والرواية عنهم، ولطلب الأسانيد العليا، وكان ذلك عام ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ. وهناك التقى بكبار المحدثين وكبار العلماء، من أمثال المفتي عتيق الرحمن كبير علماء (دلهي) وأبو الوفاء الأفغاني رئيس دائرة المعارف النعمانية (نسبة إلى أبي حنيفة النعمان)، وكان من نتيجة تلك الرحلة المباركة قيامه بالتعريف بالتراث العلمي لأئمة الحديث في الهند، ونقله إلينا، وفي مقدمة هؤلاء (محمد عبدالحي اللكنوي) و(محمد أنور الكشميري..) وبعد رحلته الهندية دعي إلى السعودية (١٩٦٥)، ليقوم كما ذكرنا آنفاً بدور أكاديمي علمي رائع، وعلى رأس ذلك النشاط، كان تدريسه للحديث النبوي وعلومه عشر سنوات لطلبة الدراسات العليا في كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود، كما عمل أستاذاً في جامعة الملك

سعود في الرياض لمدة عامين، تقاعد بعدها عن التدريس. ومن قبل التقاعد.. انتدب أستاذاً زائراً في جامعة (أم درمان) في السودان. وكذلك في جامعة صنعاء في اليمن، فضلاً عن معاهد الهند وجامعاتها، وقد درّس في الأردن وباكستان وتركيا والجزائر والعراق وقطر. وكان عضواً عن سورية في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، إذ ساهم في نشر الدعوة هناك.. وفي تطوير أساليب عملها. وفي حل قضايا المسلمين.. وظلّ في هذا العمل حتى وافته المنية رحمه الله.

٣ – **دروسه العلمية**: كان للشيخ في حلب نشاط علمي غزير، ففضلاً عن قيامه بالواجب العلمي والوظيفي في الثانويات، كان له درس في الحديث والتربية والتهذيب في جامع سيف الدولة بحلب، ودرس في الفقه يوم الاثنين في جامع زكي باشا المدرس بالمقارنة بين المذاهب علميًّا وبالأدلة. ودرس في السيرة في جامع الجميلية.. كما كان له لقاء دوري مع علماء حلب ومدرسي التربية الإسلامية للتشاور في أمر العلم والتدريس وما يهم الناس وما يستجد بشأن حياتهم وعلاقته بدينهم وشريعتهم.

٤ – **أما عن عمله ونشاطه الحياتي**: كان والده الشيخ محمد بن بشير أبوغدة رحمه الله معروفاً بالتقوى والصلاح والاجتهاد في الطاعات، وكان يعمل في تجارة المنسوجات، التي ورثها عن أبيه بشير، الذي عمل في تجارتها وصناعتها. وقد عمل الشيخ منذ سن مبكرة في تلك المهنة مع والده وجده، ثم عمل في التدريس في ثانويات حلب بعد تخرجه من مصر، وفي عام ١٩٦٢م انتخب عضواً في البرلمان السوري عن مدينة حلب، وأثناء وجوده في هذه المهنة، لم ينس الشيخ دعوته ومهمته الأصيلة في السعي لتحكيم الإسلام في حياة الناس

وفي مؤسسات الحكم. وفي تحسين أحوال نشر العلم الإسلامي الشرعي وتثبيت أوضاعه في المدارس والجامعات، وفي المساجد ودور العلم .

ثالثاً: الشيخ في جماعة الإخوان المسلمين:

التقى الشيخ أثناء وجوده في القاهرة الإمام الشهيد حسن البنا، وكان الإمام نجم الدعوة في مصر، حيث انتقل بها من مرحلة الوعظ والدروس والخطب والكتابة إلى مرحلة الحركة والتنظيم والتطبيق. حيث التف الناس حوله، وأعطوه قيادهم عن وعي وبصيرة. وكان ممن اجتمع حوله وبايعه الكثير من نوابغ طلاب الأزهر، الذين رأوا في دعوته الجديد المنظم الهادف، ما لم يروه في شيوخهم، على علو قدرهم وفضلهم. وكان من بين هؤلاء النوابغ الشيخ عبدالفتاح العالم المحدث، الذي تتلمذ على الإمام وتأثر به وبدعوته أيما تأثر، وحمل فكره، واقتدى بحراكه، وبايعه. وبعد أن عاد إلى حلب، عادت الفكرة الإخوانية معه راسخة، فغرس المزيد من زرعها اليانع في حقول حلب ومدارسها ومساجدها وبيوتاتها. واجتهد الشيخ في ترقية التنظيم الإخواني علميًّا وعمليًّا .

وفي أوائل السبعينيات من القرن العشرين انتخب الشيخ مراقباً عاماً للجماعة في ظروف حرجة.. وعمل سري، حيث كان انقلاب ٨ من مارس ١٩٦٣م العسكري منع العمل الحزبي والسياسي باستثناء حزب البعث .

رابعاً: مكتبة الشيخ:

لقد كانت متابعة العلم والتأليف والتحقيق، أهم مهمة في حياة الشيخ، وقد ترك خلفه أكثر من مئة عنوان، معظمها في خدمة الحديث النبوي الشريف وعلومه، وهي ما بين تحقيق وتأليف:

أ - أهم تحقيقاته:

١ – الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي الهندي .

٢ – الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة في علوم الحديث للكنوي .

٣ – إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للكنوي أيضاً .

٤ – رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي.

٥ – التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للإمام محمد أنور شاه الكشميري.

٦ – الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وتصرفات القاضي والإمام للقرافي.

٧ – فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية في الفقه الحنفي للإمام علي القاري.

٨ – المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام علي القاري.

٩ – المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري.

١٠ – فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة محمد زاهد الكوثري.

ب – أهم مؤلفاته:

١ – مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل.

٢ – صفحات من صبر العلماء .

٣ – كلمات في كشف أباطيل وافتراءات .

٤ – العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج .

٥ – الإسناد من الدين .

٦ – السنة وبيان مدلولها الشرعي .

٧ – تحقيق أسمى الصحيحين .

٨ – منهج السلف في السؤال عن العلم .

٩ – قيمة الزمن عند العلماء .

١٠ – لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث .

١١ – من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري .

١٢ – أمراء المؤمنين في الحديث .

وكثير من الكتب التي بلغت كما قلنا مئة عنوان وأكثر .

خامساً: معاناة الشيخ:

اقتداء بالسلف الصالح، وسيراً على طريق الحبيب محمد ﷺ، كرّس نابغة العلم في سورية، الشيخ العلامة عبدالفتاح أبو غدة، حياته للعلم وللدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين، على رأس دعوة الإخوان المسلمين في سورية. فكان للشيخ في ذلك جهد دائب لا يكلّ، وجهاد متواصل، وحراك متوازن وسطي، وتوازن رسالي، تحوطه شمائل عالية من اللباقة والكياسة والأناقة في كل شيء حتى في الرد على الخصوم، تحدو كل ذلك نفس كريمة، ومجلس مرتاح منفتح، وحنكة جبلية صقلتها الخبرات والتجارب، وحكمة رافقته منذ الصغر، وتجذرت بعد النضوج واتسعت آفاقها.

إلا أن كل من جرّب واشتغل في طريق الله، لم تخل أيامه من المعاناة والمتاعب والعوائق وحتى المغريات.. وليس الشيخ بدعاً في ذلك الطريق، بل هو ابن بجدتها، والراسخ في قاعدة المحن والمعاناة سواء كانت المعاناة:

١ – المعاناة الداخلية:

حيث إن أسباب المعاناة الشخصية الداخلية موجودة:

أ – فالضغط النفسي والعاطفي الحاصل من الحرص على متابعة العلم وتحصيله، والشعور بأن الوقت لا يستوعب كل ما في خاطر الشيخ من إنجاز ينجزه.. يورث هماً ومعاناة شعورية ونفسية، ترتد على الجسد تعباً وأحياناً مرضاً.. وهذا يعرفه كل من سار في الطريق الذي سار فيه الشيخ والعلماء والأئمة من قبله .

ب – إن النقد من المقربين ومن أهل العلم الدواخل، وبخاصة إذا كان النقد غير منصف، فهو يولد أيضاً مثل تلك المعاناة الشخصية، ويكلف من الوقت الذي يحتاجه في العمل الإيجابي، ما يولد أيضاً حسرات على الضائع من الساعات والأيام التي كان يجب أن تقضى إما في التأليف أو التدريس أو خدمة المسلمين، أو في متابعة العلم والتعليم. أو في متابعة تحسين الأداء وتطويره في جماعة الإخوان المسلمين. وقد حدث مع الشيخ مثل هذا الحال الكثير؛ من قبل القرناء ومن داخل الجماعة بصورة أخص، إلا أن المجال هنا لا يتسع للدخول في تفاصيل كثيرة عن تلك المعاناة، التي كان مبعثها إما الحسد، وإما الاختلاف في الرأي، وإما التطلعات الدنيوية إلى المناصب، خصوصاً أن الشيخ انتخب مراقباً عاماً للجماعة، مرة في سبعينيات القرن الماضي كما ذكرنا آنفاً، ومرة أخرى عام ١٩٨٦م، وحدث مثل ذلك معه في المرتين، وكانت الجماعة تستجرها الاختلافات والانشقاقات في مثل هذه الحالة إلى خصومات فيها الكثير من الخروج عن المقبول والمعقول في النقد والاعتراض والتعرض للأمور الشخصية، مما لا يرضاه الله ورسوله. وفي كل الأحوال عانى الشيخ في

تلك الفترات الكثير من العنت والمتاعب والمعاناة؛ من الدواخل الإخوانية، وحتى من الخارج المتربص بالجماعة .

إلا أن الشيخ بما جبل عليه من صبرٍ ومن تحملٍ وسعة صدر واتساع أفق، كان يتجاوز كل تلك الإحن والحزازات الداخلية، من أجل المصلحة العليا للدعوة الإسلامية، محاولاً الخروج بالجماعة في أسرع وقت من مآزق الخلافات والانشقاقات إلى حيز التآلف والتوحيد والأخوة الصادقة.. ويذكر الإخوان كم تحمل الشيخ من النقد أعوام الثمانينيات والتسعينيات من إخوانه، حيث كانت التهم غير المنصفة توجه إليه وإلى إخوانه المساعدين له؛ من مثل الخنوع للنظام السوري، أو التخلي عن الجهاد والمجاهدين، وغير ذلك.. !.

٢ – المعاناة الخارجية:

أ – إن رجلاً عالماً عاملاً مثل الشيخ عبدالفتاح، لا يمكن له أن يرى بأم عينيه الفساد ينتشر في بلده والبلاد الأخرى، فيقعد عن مقاومة ذلك والصبر على الأذى في سبيله، متذرعاً بالعلم ومتابعته.. لقد خصص الشيخ إلى جانب عنايته بالعلم والتعليم جزءاً كبيراً من وقته لمناجزة ما يراه من الفساد، الذي تساعد وتدعو إليه وسائل الإعلام الرسمية وأزلامها، وكذلك لمدافعة الظلم، الذي يقوم به الحاكمون المستبدون، الذين يقمعون شعبهم، ويستوردون له الأفكار الفاسدة والقوانين التعسفية المعوجة، وكان الشيخ في كل ذلك الشجاع، غير الهياب، وغير العابئ بما قد يناله من أذى من المتسلطين، فهو كثيراً ما كان يستشهد ببيت الشعر، الذي قاله الصحابي الجليل الشهيد خباب ابن الأرت:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

ب – وقد اتخذ الشيخ لتلك المدافعة منبر الجامع الأموي في حلب في خطبة الجمعة، وكذلك في الدروس، التي كان يحضرها خلق كثيرون، تفيض بهم جوامع حلب، وقد كان مسجد سيف الدولة شاهداً له على جهاده، وكذلك جامع زكي باشا المدرس، وجامع الصديق، وجامع الخسروية ولقاؤه مع علماء حلب والمدرسين الدوري.. ولما شعر المستبدون بخطورة حراك الشيخ ومدافعاته وتحديه.. اعتقلوه منتصف الستينيات من القرن الماضي ١٩٦٦م.. قبيل حرب يونيو، فأمضى تحت الأذى والتعذيب والإهانة بحدود السنة في سجن تدمر الصحراوي، ثم خرج من السجن مع من خرج بعد كارثة يونيو ١٩٦٧م .

جـ – وفي مجلس النواب السوري، الذي انتخب عضواً فيه عام ١٩٦٢م، كان اللسان المدوي دفاعاً عن الإسلام، ودعوة إلى تطبيقه في مجتمعاتنا، وكان في ذلك متعاوناً مع بقية إخوانه من أعضاء المجلس، الذين انتخبوا عن بعض المحافظات الأخرى. وقد ناله من الأذى في ذلك الوقت من فئات معروفة: حزبية قومية ويسارية متطرفة، وليبرالية علمانية متهافتة، موجهة إليه نقداً متهافتاً، وغيرة وحسداً وقصر باع.

د – وأخيراً ومنذ أوائل السبعينيات أخرج الشيخ من بلده قسراً، ولم يعد إليه، إلا لفترة قصيرة لا تتجاوز الشهرين عام ١٩٩٦م.. إذ غُدر به آنذاك، ولم يوف له بما وُعد به قبل دخوله من قبل السلطة!

هـ – ولقد وظف الشيخ المنفى في سبيل استزادة العمل للدعوة، والقيام على شؤونها وشؤون الإخوان السوريين، بعد أن تمّ تهجير الجميع، وفي ذلك كانت معاناة شديدة فرضتها تدابير أمور المهاجرين قسرياً من الإخوان،

وتنظيم وضعهم الاقتصادي والأمني والسياسي، وفي ذلك كله أنفق الوقت ليلاً ونهاراً مع باقي إخوانه، من أجل الاطمئنان على الوضع وسير ركب الدعوة، وهو لم ينس في خضم ذلك كله أن يخصص وقتاً للعلم والطاعات والرحلات العلمية.. فكم هي المعاناة التي لحقته وهو المسؤول أمام الله عن شعب نكب بمن كان يجب أن يرعاه ويسير بإرادته..!

و – ولا ننسى في مجال المعاناة أن نذكر: كيف أن ما يلاقيه الداعية في طريقه من عنت ومن صدمات داخلية وخارجية، لا بد أنها تؤثر في صحته الجسدية والحياتية.. من افتقاد الوقت للعناية اللازمة والمناسبة ببيته وعائلته.. ثم من غض النظر عن العناية المناسبة بصحته الجسمية ومتابعة تمريضه وعلاجه، وقد أصاب الشيخ من هذا البند المعاناة.. من الضغط والسكري، وأمراض أخرى تبقى غير معروفة للجميع.. فكم من مرة رأيناه ينزف دماً، وهو جالس بين مساعديه، يناقشون أوضاع المسلمين والدعوة، فلا يتحرك ويترك الجلسة إلا لدقائق لتنظيف الدم وإيقاف النزف، ثم يعود.. فجزاه الله خيراً عنا وعن المسلمين ودعوة الإسلام خير الجزاء، وجعل مكانه في عليين مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

سادساً: وفاته ـ رحمه الله رحمة واسعة:

في أخريات أيامه اشتد عليه المرض، من الضغط والنزف والسكري، ثم نزل به مرض، لا ندري اسمه، له علاقة بالأحشاء والضغط على الصدر.. وذلك أواخر رمضان ١٤١٧هـ الموافق فبراير ١٩٩٧م، وكان قد أوصى أن يدفن بالبقيع.. وقد وافته المنية، ولم تمهله في التاريخ المذكور: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ

صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾(١).

ونقل جثمانه حسب وصيته إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأتمّ التسليم، وكان مستقره في البقيع رحمه الله.. عن عمر يناهز الثمانين عاماً حفل بالعلم والخير والدعوة حتى آخر نفس من حياته، مخلفاً وراءه دعوة متحركة، وثروة عظيمة من العلم .

سابعاً: ما يستفاد من سيرة الشيخ:

أهم ما يستفاد من سيرة الأستاذ الشيخ العالم العامل هو الإصرار حتى آخر لحظة من لحظات حياته.. على أن العمل للإسلام ومدافعة أعدائه، إلا بما يكافئ جهد الأعداء المنظم الممول المرتب.. لذا فقد كان ذلك عنواناً لكل من أراد أن يهون من العمل المنظم للإسلام. وهو عنوان داحض لكل ما قيل ويقال في هذا الباب من نقض للعمل المنظم، مهما كانت رتبة أو مكانة القائل العلمية، فهذه سيرة رسولنا ﷺ وسيرة الداعين في التاريخ القديم والحديث، تثبت: أنه لا تدوم ولا تستمر مع الزمان دعوة ما لم تكن منظمة تحملها أجيال بعد أجيال، فلا ينقطع الوصل، ولا تهدأ الحركة بغياب صاحب الدعوة الفردية.. إنها درس وعبرة وأية عبرة.

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

المبحث السابع
معاناة الأستاذ محفوظ نحناح (الشيخ المجاهد)
(١٩٤٢م – ٢٠٠٣م)

أولاً: الشيخ في سطور:

لا يحسن بمسلم يهمه أمر الإسلام والمسلمين أن يجهل أخبار معالم الحراك الإسلامي، وسلوكيات وحياة تلك المعالم، التي تشكل علامات على الطريق الموصل إلى الهدف، الذي نذر الحركيون الإسلاميون في عصرنا أنفسهم لتحقيقه، ذلك الهدف المتمثل برضا الله أولاً، ثم برؤية شرعه يحكم البلاد والعباد.

وإن الشيخ محفوظ بن محمد نحناح هو أحد أولئك الأعلام، الذين أخذوا لهم مكاناً بارزاً في قطار الدعوة إلى الله.. ومن هنا كان لزاماً علينا أن نتكلم عن مسيرة هذا العلم (محفوظ نحناح)، لتكون تلك المسيرة إحدى تلك المنارات المضيئة على الطريق.

١ – ولد الشيخ في ٢٧/ ١/ ١٩٤٢م في مدينة (البليدة)، التي تبعد عن الجزائر العاصمة مسافة خمسين كيلو متراً. وهو من عائلة محافظة عربية، تعشق اللغة العربية والإسلام وخدمة الناس والخير[١]، وقد عرف الشيخ بنفسه فقال: «محفوظ نحناح واحد من أبناء الجزائر الذين ولدوا في بيئة إسلامية محافظة فقيرة، ومن طبقة عاملة محبة للعروبة والإسلام إلى درجة الهيام بفضل

(١) من كتاب الشيخ محفوظ نحناح (مواقف في الحركة والدعوة) إعداد فوزي أو صديق بن الهاشمي ص٩ بتصرف.

الله تعالى. إن الوالد (محمد نحناح) بعد أن وصلت سنّ الدراسة استشار ممن يعرف درة إدخالي إلى المدرسة الفرنسية، باعتبارها لغة (الخبز)، لكن الإباء والشهامة اللتان كان يتصف بها الوالد رحمه الله أبيا على الوالد إلا أن يدخلني إلى المدرسة العربية، التي أنشأتها الحركة الوطنية، وهي مدرسة (الإرشاد)، في مدينة البليدة. ودرست فيها، لغة القرآن الكريم، وعشت المأساة والمعاناة التي مرت بالمجتمع الجزائري خلال الأربعينيات والخمسينيات، إلى أن قامت الثورة المسلحة، وأغلقت هذه المدارس أبوابها»(١).

ثانياً: دراسته وعلمه وتوجهه:

درس نحناح على أساتذة فضلاء، وعلماء أجلاء في المدرسة الوطنية (مدرسة الإرشاد) بالبليدة وعلى رأس هؤلاء الأستاذ (محمد محفوظي) مديرها، ومربي الأجيال فيها على القيم العربية والإسلامية ومن بعده أدار المدرسة الأستاذ (حسين قوامي) رحمه الله. أكمل دراسته في المراحل الثلاث في الجزائر ويعمل الآن في تسعينيات القرن العشرين أستاذاً بجامعة الجزائر، يدرس مادتي التفسير والسيرة النبوية.. دراسته العليا كانت في جامعة القاهرة (باحثاً في مادة التفسير)(٢).

من خلال دراسة سيرة الرجل العلمية.. نستطيع القول: إن الشيخ محفوظ: كان متوجهاً توجهاً حركياً اجتماعياً وسياسياً، أكثر منه إلى التوجه العلمي، وإن يكن الرجل على شأن ممتاز في العلم وخصوصاً في الدراسات الحديثة ذات الاطلاع على الاقتصاد والسياسة، والحياة العامة والعلوم الإنسانية، وقد شكل مع ثلة من رفاقه وإخوانه: «رابطة الدعوة الإسلامية». كما أسس بالتعاون مع

---

(١) المصدر السابق ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ٩-١٠.

بعض العاملين في حقل الدعوة «جمعية الإرشاد والإصلاح» ذات طابع وطني اجتماعي خيري ودعوي، متزوج وله عشرة من الذرية، في التسعينيات[١].

ومن أساتذته يعدُّ الشيخ الدكتور عبدالله الركيبي والأستاذ أحمد جدو من الجزائريين، ومن المشارقة الدكتور شكري فيصل السوري، والدكتور مكي، هؤلاء هم أولياء نعمتي في التعليم الجامعي.. على حد تعبيره .

اشتغل في التعليم الابتدائي، ثم التحق بالجامعة في عهد الاستقلال، شارك في معارك الجامعة بين أنصار العربية وأنصار الفرنسية.. وكان محباً ومدافعاً عنيداً عن العربية، إلى أن جاء القرار الرسمي بالتعريب.

كما شارك قبل ذلك كله في الجهاد ضد الفرنسيين، وفي بداية حياته العملية انتمى إلى جبهة التحرير، إلا أنه غادرها مبكراً أيضاً لما وجد فيها من الفساد وبعض الأفكار التي لا يؤيدها. ظلّ فيها إلى عام ١٩٦٢م وكان واحداً منها. أما بعد ١٩٦٢م لم تعد تلك جبهة تحرير فهي- رغم جهادها ودحرها للمستعمر الفرنسي- راحت تسير في فلك لا يحبه وطني ولا يحبه شعبي الكريم فابتعدت عنها وآثرت أن أكون معارضاً[٢].

ثالثاً: قالوا فيه:

١ – «يعتبر فضيلة الشيخ محفوظ نحناح أحد أبرز الدعاة على الساحة الجزائرية، وقد ولد في عائلة محافظة على اللغة العربية والتمسك بالدين الحنيف.. لم يحل عمله الأكاديمي بينه وبين العمل الدعوي، الذي كلفه كثيراً، وناله بسببه من الأذى ما نال العاملين في الحقل الدعوي»[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ١٠.
(٢) المصدر السابق، ص١٤ – ١٨ بتصرف واختصار.
(٣) مجلة (الغرباء) عدد (٥) ١٩٨٩م، ص ٦، نقلاً من المصدر السابق ص ٣٠ .

٢ – «فضيلة الشيخ محفوظ نحناح شخصية جزائرية معروفة في الأوساط الإسلامية.. عاش التجربة الدعوية منذ نعومة أظفاره، وقد وفقه الله سبحانه في صناعة جيل إسلامي معتدل.. له مع إخوانه في الجزائر تجارب عدة، تجاوزوا فيها عقابيل البومدينية وما بعدها، إلى أن تمّ لهم الإعلان عن تأسيس جمعية الإرشاد والإصلاح في الجزائر..» (١).

٣ – «الشيخ محفوظ نحناح هو زعيم أكبر فصائل التيار الإسلامي في الجزائر، عمل في حقل الدعوة، ومارس التدريس بالجامعة منذ خمسة وعشرين عاماً، في عام ١٩٧٦م..اعتقل الشيخ نحناح مع عدد من رفاقه.. وذلك في عهد بومدين»(٢).

٤ – «نشأت في أحضان القرآن الكريم، وفي أحضان اللغة العربية على يد علماء أفاضل، وأساتذة مكرمين مبجلين، رحمة الله على من مات، وحفظ الله من عاش.. كان للمدرسة التي درست فيها وهي مدرسة الإرشاد، فضل كبير في القيام بنشاطات تجاه الثورة الجزائرية، وبمجيء الاستقلال انتقلنا مرحلة مرحلة في الدراسات الجامعية، وفي نهاية المطاف استقر أمرنا في جامعة الجزائر بمعهد العلوم الإسلامية، حيث أدرس فيها التفسير والسيرة. بعد أن حصل الزواج من المرأة، التي شاركتني همومي، وما تزال تشاركني هذه الهموم، ولنا مجموعة من الأولاد.. أسأل الله عز وجل أن يحفظهم للجزائر وللعروبة والإسلام»(٣).

(١) مجلة (المجتمع الكويتية) ١٩٩٠م، ص ٣٣، نقلاً من المصدر السابق.
(٢) جريدة الشرق الأوسط ١٩٩٠م، المصدر السابق ص ٢٨-٢٩.
(٣) جريدة الشعب الجزائرية الصادرة في ١٩ شعبان ١٤٠٩هـ/ ٢٧ من مارس ١٩٨٩م/ العدد ٧٩٠١ ص٢. نقلاً من المصدر السابق ص ٣١-٣٢.

رابعاً: بعض الضوء على فكره:

لكي نتعرف على الداعية محفوظ نحناح يجب أن نتطرق فنستعرض بعض أفكاره ورؤاه الاجتماعية منها والدعوية والسياسية.. وفيما يلي مقتطفات من أفكاره:

١ – نحناح والابتلاء: يقول الشيخ:

– «السجن لأصحاب الأفكار هو الحرية؛ لأن الإنسان إذا اعتقل أو سجن في سبيل مبدأ من المبادئ، لا يرى أن ذلك الأمر معاناة.. فهو يستعذب الآلام في سبيل تحقيق الآمال، فتكون تلك الفترة منحة لا محنة، كما يتصورها بعض الناس»[(١)].

– «إن الوضع السياسي الذي تمر به الجزائر بعد أحداث (أكتوبر) ١٩٨٨م (هي الأحداث التي تصدى فيها العسكر للشارع الجزائري بالرصاص الحي، وذهب ضحيتها المئات من الشعب الذين كانوا يطالبون سلميًّا بالحريات). هو وضع لا بد أن يتعامل معه صاحب الدعوة إلى الله عز وجل – كعادته – بأسلوب لا يصطدم مع النص الشرعي للإسلام.. وسواء تعاملنا بأسلوب (١٩٨٦م) أو بهذا الأسلوب الجديد، فإن الفائدة المرجوة هي لمصلحة هذه الأمة، وما يصلح لفائدة وخدمة هذه الأمة، يجب أن نعمل به، وليست هناك قضية معارضة أو لا معارضة.. والسيف في موضع اللين مضرٌّ، واللين في موضع السيف مضر أيضاً»[(٢)].

٢ – الشيخ نحناح والتعدد في الحقل الإسلامي:

– «إن ساحة العمل الإسلامي عريضة وفسيحة، لا يكاد جهاد المقلين أن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤.

يغطيها، ووجود الجمعيات والروابط أحد وسائل التغطية، ولا مانع (من التعدد) إذا حسنت النوايا، ليحصل الخير على يد كل الصادقين في العمل الإسلامي»[(١)].

- «إن الاختلاف في نظري ظاهرة صحية، تنمّ عن سعة الفكر وقدرته على التفاعل مع الحياة بوجهات نظر متعددة، وهو إلى هنا لا خوف عليه؛ لأنه يندرج تحت عنوان اختلاف تنوع لخدمة غرض واحد، أما أن يتحول إلى اختلاف تضاد وتطاحن، فمعناه أنه خرج من دائرة الفكر إلى دائرة الخلق والسلوك.. وهذا تناقض منبوذ»[(٢)].

٣ - الشيخ محفوظ والإصلاح:

- «بالنسبة لاحتواء الحركة الإسلامية تحت شعار الإصلاح يقول الشيخ»: الخوف على الإسلام وحركته بقدر ما فيه من إيجابية وإخلاص، فهو مثبط للهمم، مقعد عن العمل، وإذا كان الإسلام حركة وفاعلية ومرونة وصعوبة، وقوة واندفاعاً، وعقلاً وعاطفة، ومهادنة ومقاتلة، ومحالفة ومخاصمة، وولاء وبراءً، فإن هذه ازدواجيةٌ كفيلةٌ بأن تعطي لكل حالة لباسها، بما يحفظ عليها أصالتها، ويديم صراعها مع الباطل، الذي تتهاوى عروشه بالجدية والعمل والفهم»[(٣)].

- وبالنسبة للإصلاح الاقتصادي يقول الشيخ محفوظ: النظرة إلى القضية الاقتصادية جزء من نظرة الإسلام الشاملة، والمسلم يعنيه الاقتصاد؛ إذ هو

(١) المصدر السابق ص ٣٨.
(٢) المصدر السابق ص ٤٠، وراجع مجلة المجاهد الجزائرية، العدد والتاريخ مجهول.
(٣) المصدر السابق ص ٤٤، وراجع مجلة المجتمع الكويتية (مصدر سابق).

شريان الحياة. والقرآن الكريم تعرض لهذه المسألة في أولى السور: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]، و﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾[2] و﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[3]، و﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾[4]، والقطاعان العام والخاص كانا منذ يوم الإعلان عن الاستقلال، غير أن تجاوزات لا تطاق حدثت من كلا القطاعين، وأن محاولات جهات وفلسفات معينة تريد إلغاء القطاع الخاص، أو تقليص أمره أو التهوين من شأنه هو ضرب من مصادمة الفطرة، ومناقضة النصوص الشرعية.. لكن لا بد من الضوابط الشرعية التي تحكم القطاعين، فلا ظلم ولا حيف، ولا استغلال. والأساس هو تكريم الإنسان، وإعطاؤه حقوقه مستوفاة كاملة، وتوفير حاجاته وضروراته، وحماية آدميته من المسخ والتشويه والتحقير»[5].

٤ – نحناح والسياسة والتربية:

في إجابة للشيخ على سؤال مجلة المجتمع يتعلق بالاتجاه الإسلامي والتوفيق بين التربية والعمل العام، يقول الشيخ: «لا حزب بدون تضحية، ولا نصر بدون صبر، ولا صبر بدون فهم لمعاني الصبر، وإن رسول الله ﷺ، بقدر ما كان على دراية بمستجدات عصره، وصراعات خصومه، وخلفيات أعدائه، ما زجّ بأصحابه في معركة، يدرك من البداية فشلها، أو هزيمته فيها، وكانت عنايته بالتربية وألوانها أساس عمله ودعوته، وما كاد يفارق الدنيا، حتى

---

(١) العلق: ٦،٧.
(٢) الهمزة: ٢ .
(٣) المسد: ٢ .
(٤) الضحى: ٧.
(٥) المصدر السابق ص ٤٥-٤٦، وراجع جريدة الشرق الأوسط، مجلد ١٩٩٠ .

وجدنا قدرات هائلة من الصحابة؛ لهم من المؤهلات، ما يجعلهم يقودون الدنيا بأسرها.. والرسول هو المتأسَّى به في كل ما ينتفع به، وسياسته ﷺ جعلته يدرك فن التعامل مع المقربين من الصحابة، وفن التعامل مع الأعداء المحاربين، والأعداء المستأمنين، وفن التعامل مع من يظن بأنه عدو أو من يظن بأنه صديق»[١].

٥ – وفي رده على سؤال (للمجتمع) حول تعايش الإسلاميين مع الآخر السياسي يقول الشيخ: للخروج من الانحراف في هذه المرحلة الخطيرة، لا بد من فهم خريطة السياسة المحلية والدولية، وفهم نفسيات الأفراد العاملين في الحقل السياسي والإسلامي، والتعامل بلطف وتودد معهم، والتعاون دوماً على ما يتفق عليه، والإعذار فيما يختلف فيه وحفز الهمم على الإخلاص لله تعالى، والقدرة على الحركة ببصيرة. وإن التعايش الأخوي والسلمي مع المخلصين شرط أساسي، وإن الإعراض عن الجاهلين من الخصوم، والإحسان إلى مسيئهم شرط أساسي أيضاً، ولا ننسى أن المعركة مع الغرب معركة وجود أو لا وجود؛ ولأن المعركة لصنع الحضارة الإسلامية تتطلب فنوناً وألواناً من الصيغ المشتركة، كما هو الشأن في قضية المحاور العربية، والمحاور الإسلامية، والمحاور الدولية، إلا أن الروح الانهزامية هي المانع من العمل الأصيل. فإن الروح الاستعلائية بالإيمان والاعتزاز بالشخصية الإسلامية هي المحرك لصناعة الوجود الإسلامي المنشود»[٢].

٦ – سئل الشيخ عن السبل الواجب اتباعها للحاق بركب الحضارة

(١) المصدر السابق ص ٥١، وراجع المجتمع، مجلد ١٩٨٩ ص ٣٦.
(٢) المصدر السابق ص ٥٥-٥٦، وراجع المجتمع، مجلد ١٩٨٩ ص ٣٦ .

الغربية، فأجاب[١]:

أ - الغرب ليس هو معيار التحضر .

ب – النظرة إلى الغرب بهذا المنظار (منظار الحضارة) توحي بالاستلاب والانهزامية .

ج – المعيار الحقيقي للحضارة هو الإسلام، ومدى قربنا أو بعدنا منه .

د - الغرب ميدان بشري وحضاري.. إذا تمّ استيعابه إسلاميًّا خدمنا الإسلام وذلك كما تمّ قديماً استيعاب الحضارات في تيار الإسلام، فقدرة الإسلام على استيعاب الحضارات أشد بروزًا من نار على علم.

هـ- عملية استيعاب الغرب في الإسلام تحتاج إلى بذل الجهد من الجميع، وبالصورة المؤهلة القادرة على موافقة الفطرة البشرية.

و – أمراض الغرب وآلامه: جنون العظمة، الاستكبار، الأنانية، العتو في الأرض، الكآبة، الانتحار، الإدمان، الجنس، انعدام الأمن، صناعة الدمار.

ز – والمشكلة: ما هي الطريقة والأسلوب والخطاب، التي بها ننقذ الغرب من هذه الأمراض؟ كيف نجعله يؤمن بالغد، ويكفر بالطاغوت ؟ كيف يحافظ على آدميته وإنسانيته؟

خامساً: معاناة الداعية الشيخ محفوظ نحناح:

١ – المعاناة الداخلية:

أ - من شمائل الشيخ محفوظ- رحمه الله.. أنه كان عف اللسان، مزوحاً، يأخذ بالرفق. متسامحاً شجاعاً في رأيه ومواجهة القضايا، مقتدياً متبعاً غير

(١) المصدر السابق ص١٠١، وراجع صحيفة الجمهورية الصادر ٥/ ١٢/ ١٩٨٩ص١٠ بتصرف واختصار.

مبتدع، لكنه في الوقت نفسه محباً للاجتهاد في القضايا المعاصرة، وعدم الجمود على الاجتهاد القديم.. إلا فيما يزال مناسباً للحاضر.

وكان مهموماً بصورة ملحة بما هيمن عليه من فكرة ضرورة تكوين الشخصية الإسلامية وإعادة صياغاتها من جديد، وذلك ليتسنى إنهاض الأمة، ودفعها إلى المستقبل بخطى ثابتة[(١)].

١ – لذا كان أول همّ وأول معاناة داخلية ذاتية للشيخ.. يتمثلان في حرصه على أن يحقق المطلوب في صياغة الشخصية الإسلامية الحديثة. وقد جعل من ذلك قضية تؤرقه، وتدفعه إلى ابتداع الوسائل والآليات للوصول.. وهو ما شكل لديه كثيراً من المعاناة الشخصية.

٢ – وكان من بعض الهم الشخصي للشيخ حبه للغة العربية، كونها كانت وما تزال وجهاً من وجوه التحدي للفرنسيين، والآن ومن بعد الاستقلال.. للمتغربين المتفرنسين، وبخاصة لمتطرفي الأمازيغية.. لذا فقد شكل تعلمها، والتغلغل في معانيها وعلمها معاناة نفسية من ناحيتين: كون اللغة تحدياً، وكونها تشكل عاملاً رئيساً في تشكيل الأمة وامتدادها التاريخي والعالمي والحضاري[(٢)].

٣ – بدأ الشيخ نشاطه الدعوي الحركي عام ١٩٦٢م (أي وعمره ٢٠ عاماً)، وكانت البداية في مساجد العاصمة الجزائر، والبليدة مدينته، وفي سنة ١٩٦٤م، وضع الشيخ بالشراكة مع الشهيد (بوسليماني اللبنة الأولى في الجزائر لجماعته المنتمية إلى الفكر الإسلامي الأصيل، والتي زكاها خيرة علماء ودعاة

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص ١٩ بتصرف.

الأمة ورجالها الأفذاذ.. وساهم في وضعها بعض أساتذة الأزهر، وجامعة عين شمس، ورجال من العراق ومن فلسطين(١). أما هذه النشأة للجماعة الإسلامية، فقد شكلت في حياة الشيخ معلماً بارزاً.. أخذ منه الراحة والوقت، وأعطاه معاناة الحرص على النجاح لهذا التنظيم وتقدمه وانتشاره.. فكم من البذل والعطاء والسهر والهمّ، وضعها الشيخ جميعها على الطريق، لتحمل الجماعة الأطروحات التي ظل يناضل من أجلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وعلى رأسها الدعوة إلى استلهام العقيدة الصحيحة، والتزام الوسطية، وأن خطأ الحكومات في الظروف الحالية لا يعالج بحمل السلاح وجزّ الرقاب، وبث ثقافة التدمير والحقد(٢).

وبعد: فهذه صور من معاناته الداخلية.. يضاف إليها الكثير من النقد حتى من داخل جماعته.. الذي وُجه إلى بعض ممارساته، وبخاصة ترشحه للرئاسة.

ب – المعاناة الخارجية:

١ – دفع الشيخ والجماعة ثمن سياسة الاعتدال وانتقاد سياسة حمل السلاح.. وكان أهم أمر بارز في ذلك الثمن، اغتيال أكثر من (٥٠٠) شخص من أنصار الجماعة، وعلى رأسهم الشيخ محمد أبو سليماني(٣).

٢ – مما عاناه الشيخ وجوده في بداية شبابه في جو التحرير وحركة الاستقلال، فذلك هو الذي جعله يتأخر في تحصيله العلمي؛ إذ إنه انتظر حتى حلّ الاستقلال، وتحررت الجزائر، وارتحل الفرنسيون المستعمرون، فتقدم للبكالوريا، ثم التحق بالجامعة في العام الدراسي ١٩٦٦/ ١٩٦٧م وبعدها تخرج عام ١٩٧٠م من الجامعة، ثم التحق بالدراسات العليا في الأزهر قسم التفسير .

(١-٣) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة ١٦/ ١٠/ ٢٠١٠ .

وفي ذلك كله من المعاناة أمام الناس.. كون الداعية الأول.. الذي شكل جماعته بالتعاون مع سليماني.. وغيره، كان في ذلك الوقت غير حاصل على شهادة، وهي نظرة دندن بها ضده بعض ضيقي الأفق، فوصموه بأنه ليس من العلماء.. ولا يُعرف له كبير انشغال بالعلم[1].. في حين أن الشيخ الداعية محمد أحمد الراشد يقول عنه: «إن وتيرة من الفقه الشرعي، الممتزج بدروس تجريبية مقتبسة، كانت تحرك نحناح حتى استوى في النهاية.. شامخاً، ضمن الرموز الكبرى التي نعتز بها ونفخر، ونجعلها عناوين للدعوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. إنه صاحب دعوة، وصاحب إبداع..»[2].

٣ – وقد لامس الشيخ شيئاً من المعاناة بالتحاقه في الثورة الجزائرية، وما يسببه ذلك الالتحاق من أعمال وتدريب وعمليات ومظاهرات، وملاحقات من الفرنسيين.. ورغم أن الشيخ ساهم في الجهاد ووجد العناء.. إلا أنه يقول: مساهمتي كانت في مدينة البليدة، وكانت بالنسبة لي أطيب الفترات هي التي عشتها بين المجاهدين والفدائيين والمسبلين، إلى جانب القيام بالمظاهرات الجماهيرية، وكان فيها المعنى الحقيقي للتحدي الجزائري للمستعمرين الفرنسيين عندما تمّ الإعلان عن «الجزائر المسلمة». وأتذكر من المجاهدين الذين تعرفت عليهم في ذلك الوقت وكان يشرف على العملية معنا (الحاج لخضر) و(سي معمر جقاقن) و(علي رقاق) و(الحاج يحيي)[3]، فهؤلاء بعض من كنت أتعامل معهم وهناك غيرهم .

(١) ويكيبيديا – الموسوعة الحرة ١٦/ ١٠/ ٢٠١٠ .
(٢) المصدر السابق. وانظر موقع حماس ١٦/ ١٠/ ٢٠١٠ مقال الراشد عن نحناح (مناقب محفوظ).
(٣) كتاب الشيخ محفوظ، مصدر سابق، ص١٤ .

٤ – عندما عارض الشيخ محفوظ التطبيق الاشتراكي على البلاد بالقوة (في عهد هـواري بومـدين)، كـان الـشيخ مـن أشـد المعارضـين صـوتاً وتظـاهراً ومعارضة، كون هذا التطبيق غريبا على دين البلاد وفكرها، وقد نالـه الـسجن والتعذيب والتحقيق، ثم المحاكمة الجائرة، التي حكمه النظـام بهـا لمـدة (١٥) عاماً كما حكم معه بعض إخوانه بأحكام مختلفة وذلك كان عام ١٩٧٦م.. وقد قضى الشيخ منها خمس سنوات، وكانت التهمة محاولة قلب نظام الحكم، يقول الشيخ في ذلك: «وأصحاب الكلمة الحرة الصادقة متهمون دوماً، **أولاً** بالعمالة للأجنبي، و**ثانياً** التبييت لقلب نظام الحكم، في حين أنهم هم من قاموا بانقلاب كامل على الشعب والحاكمين من قبلهم..»(١).

٥ – ومن الهموم التي لاقـت الـشيخ في الطريـق.. ترشـيح نفـسه لرئاسـة الجمهورية: نوفمبر ١٩٩٦، حيث حصل على المرتبة الثانيـة وأكثـر مـن ثلاثـة ملايين من الأصـوات.. هـذا رغـم مـا يـشوب انتخابـات بـلاد العـرب مـن إشكالات وتدبيرات.. لتكون لصالح أهل السلطة. وقد تحمل الشيخ في ذلك الوقـت الكثـير مـن المعانـاة.. الآتيـة مـن الحمـلات المـضادة لـه في الدعايـة الانتخابية. ويمكن تلخيص تلك العمليات المضادة والمفتريـات والاتهامـات، والتشويه بما يلي(٢):

أ – عدم اهتمام وسائل الإعلام بحملته، ومحاباة غـير الـشيخ – خـصوصاً المرشح الرسمي – بأوقات البث أو المقابلات.. إلخ .

ب – اتهم بأنه شتم (هواري بومدين)، وهو لم يفعل.. بل كان إذا سئل عنه

(١) المصدر السابق، ص٢٢-٢٣.

(٢) من كتاب (خطوة نحو الرئاسة) لإبراهيم عباسي ص ٦٢-٦٥.

يقول: اذكروا محاسن موتاكم، لكنه هاجم النظام الاشتراكي وحسب.

ج – أثاروا في وجهه قضية استخدام الدين في السياسة والدعاية.. فقط لأنه زار مسجد (كتشاوة) وكان قد زاره في غير أوقات الصلاة، ولم يلق كلمة ولم يعط درساً.

د – تخويف النساء من نجاحه في الانتخابات، فقالوا: إن فوزه سيؤدي إلى سحق المرأة بفرض الحجاب ومنعها من العمل.. وقد أثرت هذه الدعاية في النساء فعلاً، إذ سجلت صناديقهن نسباً متدنية من الأصوات له.. رغم أنه بيّن، وعقّب، وأوضح حقوق المرأة في الإسلام، وطرح فكرة اعتبار المرأة في بيتها عاملة ولها أجر.

هـ- محاولة إثارة المؤسسة العسكرية ضده، بدعوى أنه في حال فوزه سوف يُجري لهم عملية تصفية .

و – تخويف الناس من عودة حالة ما بعد انتخابات ١٩٩١م.. حيث سادت الاعتقالات والقمع .

ز – تخويف الناس من عودة جبهة الإنقاذ .

ح – إشاعة أن الشيخ يتصنع الاعتدال، حتى إذا فاز «استعمل ربطة عنقه ليشنق بها الناس» .

ط – إشاعة أن الانتخابات (مفبركة) ومجهزة ليفوز بها الرسمي.. وكانت هذه أخطر دعاية، فالناس عندما شعروا أنه لن يحدث تغيير، خافوا من القادم، فأقبلوا على انتخاب مرشح السلطة: (اليمين زروال) .

ي – تخويف المجاهدين والأرامل من ذهاب ميراثهم في حال فوز الشيخ .

ك – استخدام النقابات المهنية في الدعاية ضد الشيخ.. خصوصاً أن بعض النقابات لها ممثلون في اللجنة الوطنية المستقلة لمراقبة الانتخابات، وهو ما يهدد مصداقية اللجنة في حد ذاتها، هذا فضلاً عن ميول سياسية تحملها بعض تلك النقابات .

سادساً: مناقبه ووفاته ـ رحمه الله:

يقول الشيخ محمد أحمد الراشد في مناقبه كلاماً بليغاً موجزاً[(١)]:

مضى واثقاً، بعد أن ضرب مثلاً للقيادة الناجحة، التي تستوعب جيداً موازين الفقه الدعوي في أيام المواقف المشتبهة. هذا هو موجز وصف شخصية أخي في الله، الفقيد الغالي، الهمام الثابت على الدرب، الشيخ الأستاذ محفوظ نحناح رحمه الله.

– رسخ.. يوم هبت العواصف.

– وفصح.. حين تلعثم المترددون.

– وجسر وأقدم.. لما هاب الواجفون.

– وصرخ بالحق.. حين تخافت به الهامسون

– وفاصل على بينة من الأمر، يوم جنح الغبش بأهله نحو الحلول الضبابية

إنه مؤسس دعوة، وسابق، وصاحب إبداع، وليقل فيه القائل ما يشاء من عمق التجرد.. مع التواضع، والسكينة.. إلا أن ميزة محفوظ الكبرى تكمن في التمسك الشديد الذي أبداه بوجوب الحفاظ على الشروط الدعوية المتكاملة، وعلى الطبيعة التدريجية للعمل الإسلامي.. مع روح بدوية أصيلة فطرية، يلتذ بها المتعامل معه حين يقترب منه، فينفتح، وكرم وشمم وفهم عربي أصيل

---

(١) حمس الجزائر. نت .. مقال للشيخ الراشد (مناقب محفوظ وكتلته).

رصين لمعاني الشرع المبين، مكنه منه تخصصه في اللغة العربية، فزاده جمالاً إلى مناقبه الحسنى، رحمه الله رحمة واسعة .

وتوفي الشيخ محفوظ نحناح يوم ١٩من يونيو ٢٠٠٣م إثر مرض عضال، لم يمهله إلا بضعة أشهر(١).

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه في فسيح جناته مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

(١) الجزيرة نت، المعرفة: ملفات خاصة ٢٠٠٢م، محفوظ نحناح، الانتخابات الجزائرية، الداء والدواء.

الفهرس

هـذا الكتـاب

يستعرض هذا الكتاب بعضاً من المعاناة في دعوة الأنبياء والرسل لا سيما أولي العزم منهم.

إن الدعوة إلى الله - تعالى - وتحمل الأذى، والصبر على المعاناة، لا سيما الداخلية منها، هي طريق الأنبياء وأتباعهم من الدعاة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ونحن إذا استعرضنا حياة الرسل جميعاً، كما قصها علينا القرآن الكريم، فسوف نرى أن الصبر على الفتن الداخلية والخارجية كان قوامها، وكان العنصر البارز فيها. صفحات من الابتلاء والصبر على الفتن معروضة للبشرية؛ لتكون سجلا من القدوة، تُري الأجيال كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام.

ولما رأيت شدة حاجة الدعاة اليوم لخلق الصبر، وقد احتدمت من حولهم الخطوب، واجتمعت عليهم الفتن من كل اتجاه، توجهت طالباً العون من الله لتسطير شيء يعين سالك الدعوة على جواز صحراء اللأواء ومواجهة المعاناة، والصبر على ما يلاقيه، مبيناً في سطور كتابي هذا:

الفصل الأول: ما عاناه أنبياء الله، مركزاً على أولي العزم منهم وصبرهم.

الفصل الثاني: ما عاناه الخلفاء الراشدون الأربعة.

الفصل الثالث: ما عاناه الأئمة الأربعة.

الفصل الرابع: ما عاناه العلماء العاملون أتباع الأئمة الأربعة.

الفصل الخامس: عرّجت على دعاة وعلماء عصرنا الحديث.

مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت: ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص.ب: ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com